بحوث في الفكر الإسلامي

إبراهيم أبو عواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ الذي تَنَزَّهَ عن المكانِ ، وتعالى أن يَحُدَّه زمان . كانَ اللهُ ولا أيْنَ ، وهُوَ الآنَ حَيْثُ كان ، وهُوَ الآنَ كما كان . وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على سَيِّدِ ساداتِ الأنبياءِ ، محمد بن عبد الله ، وعلى إخوته الأنبياء الكرام ، وآلِ كُلٍّ وَصَحْبِ كُلٍّ .

وارْضَ اللهمَّ عنَ الأربعةِ الخلفاءِ ، الْمُمَيَّزين بالرِّعاية والوِلاية والاصطفاء ، ساداتنا ومَوالينا وأئمتنا ، أبي بكر الصِّديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذي النُّورَيْن ، وعليٍّ المرتضى . وارْضَ اللهمَّ عَن عَمِّي نَبِيِّكَ خَير الناس ، حمزة والعباس ، وعن السِّبْطَيْن الشهيدَيْن ، القَمَرَيْن النَّيِّرَيْن ، سَيِّدَي شباب أهل الجنة في الجنة، ورَيْحَانَتَي نَبِيٍّ هذه الأُمَّة ، الإمام أبي محمدٍ الحسن ، والإمام أبي عبد الله الحسين ، وارْضَ اللهمَّ عن أُمِّهما فاطمة الزهراء ، وعَن جَدَّتهما خديجة الكبرى ، وعن عائشة أُم المؤمنين ، وعن الصحابة والتابعين ، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

يجيء هذا الكتاب لِيُلقيَ الضوء على نقاط مهمة ومواضيع حساسة في الفكر الإسلاميِّ . وللأسف الشديد ، فإن المواضيع التي يطرحها هذا الكتاب قد خَفِيَت على عدد كبير من المسلمين المنشغلين عن طلب العِلْم بتحصيل القُوت اليوميِّ ، وهذا ليس عُذراً شرعياً . فالواجب على كل مسلم أن يطلب العِلْم الشرعيَّ الذي يلزمه لأداء عباداته ومعاملاته اليومية على الوجه الذي يرضاه الشرع الحنيف . وينبغي على المسلم تصحيح أفكاره الخاطئة وإخضاعها لسُلطان الكتاب والسُّنة الصحيحة. ونحن لا نُطالبه أن يكون إماماً فقيهاً، ولكن على الأقل يعرف ماذا يفعل، ولا يُكَلِّفُ اللهُ نفْساً إلا وُسْعَها . والجدير بالذِّكْر أن تَحَرِّي الحلال في كل شيء واجب ، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب . ولا يمكن أن يتأتى معرفة الحلال من الحرام إلا بالعِلْم الشرعيِّ الذي يَبُثُّه العلماء الرَّبانيون في كل زمان ومكان. ولا يخلو زمان مِن قائم للهِ بِحُجَّة . وقد أمرَ الإسلامُ بالعِلْم ، ورفع شأن العلماء العاملين. قال الله تعالى مادحاً العُلماءَ الرَّبانيين: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقد انتشر الجهل بصورة كارثية في مجتمعاتنا ، فإلى الله تعالى الْمُشتكى . وهذا الأمر يعود لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية ، ليس هذا المجال لتفصيلها . والواجب علينا أن نعمل قَدْرَ المستطاع لإضاءة طريق العِلْم ، ودَعوة الناس إلى السَّير فيه. وبدلاً من أن نقضيَ أوقاتنا في

اختلاق الأعذار لتقاعسنا ، وتبريرِ أخطائنا ، علينا قضاء الوقت في تصحيح أخطائنا ، والكف عن تعليق ذنوبنا وتخاذلنا على شماعة الآخرين ، وعدم اتخاذ نظرية المؤامرة ـــ رغم صِدْقها الجزئي ـــ أمراً مقطوعاً به، ومُسَلَّمة من المسلَّمات .

والواجب علينا جميعاً العمل على توحيد كلمة المسلمين ، وهذا لا يمنع من نقد الأشياء التي نراها منحرِفة عن الجادة، ولكن ينبغي أن يكون نقدُنا نابعاً من إخلاصنا لله تعالى، وإخلاصنا لأمتنا، مستخدمين أدب الحوار الذي عَلَّمَنا إيَّاه القرآنُ الكريم : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النَّحل : ١٢٥] .

وهذا الأدبُ القُرآنِيُّ الرفيع شامل للحوار مع المسلمين والكافرين على السواء. وللأسف فقد انتشرت الكتب الكثيرة لمن يُسَمُّون أنفسهم بالعلماء فيها الكثير من الشتائم والحوار باستخدام لغة التكفير والتخوين والإخراج من المِلَّة بسبب وبدون سبب. وهذا ليس المنهج الحق الذي نتَّبعه وهو المنهج الوسطي ، حيث لا إفراط ولا تفريط ، وهو منهجية أهل السُّنة والجماعة .

إن هذا الكتاب يضمُّ بُحوثاً عِلْمية منهجية في القضايا التي أعتنقها ، معَ اعترافي بِجَهْلي وتقصيري ، مُنَبِّهاً إخواني إلى أن يرشدوني إلى الحق إن وجدوا في كلامي باطلاً ، وأن يُقَوِّموني إذا رَأَوا في كلامي ما يُخالف الكتابَ والسُّنةَ الصحيحة . ولكن هذا ما تمكنتُ من الوصول إليه رغم ضعفي وجَهلي وتقصيري ، ولا أحْمِلُ الناسَ على ما حَمَلْتُ نفْسي عليه . ومنهجي الذي لا مَحيد عنه ، هو الالتزام بمصادر التشريع الإسلامية الرئيسية الأربعة : الكتاب، السُّنة، الإجماع، القياس ، مستنداً إلى النَّقْل والعَقْل معاً ، وعدم قبول أحدهما دون الآخر . مع التنبيه على أن أقوال السلف والخلَف ليست مِن حُجَج الشَّرْع .

واللهَ أسالُ أن يرزقنا الإخلاص والقبول ، لا سِيَّما ونحن المسلمين حَمَلةُ رسالة الله إلى الإنس والجِن ، وأن يَتَوَفَّنا على الإسلام . إنه وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه ، والحمد للهِ رب العالَمين .

إبراهيم أبو عواد

أولاً : التَّوَسُّلُ والاستغاثةُ بالأنبياءِ والصالحين

لقد انتشر في هذا العصر فئات لا تملك إلا ترديد ما يقوله الآخرون دون إعمال عقولهم ، فتراهم يُكَفِّرون لأدنى سوء فهم أو سوء تَصَوُّر ، وكما قيل الحُكم على الشيء فَرْع عن تصوُّره . وتارة يرمون بالبدعة أناساً لا ذَنْبَ لهم سوى اجتهادات صائبة مبنية على الكتاب والسُّنة .

وهناك أشخاص ظهروا في هذا العصر يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين زاعمين أنهم سائرون وفق منهج السلف الصالح _ رضوان الله عليهم _ ، وَهُم أبعد ما يكون عن السلف الصالح . وبصراحة أنا لا أشكُّ في إخلاصهم وبحثهم عن الحقيقة، ولكنهم وقعوا في كوارث كثيرة ، ومما زاد الطين بِلَّة إلصاق تلك الكوارث بالسلف الصالح . ودعوى الانتماء إلى السلف الصالح دعوى عريضة يَتَبَنَّاها الكثيرون، ولكن ما نصيبها من الحقيقة ؟ ، هذا هو السؤال المحوري الذي يجب أن نسأله لأنفسنا . وكما قيل :

والدَّعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها   بيِّناتٍ أبناؤُها أدعيـاءُ

وفي واقع الأمر ، إنَّ هؤلاء الأشخاص هُم تَيْمِيُّون _ نِسْبَةً إلى ابن تيمية _ ، يَرَوْنَ السلفَ من منظار ابن تيمية ، فأفكارهم راجعة إلى ابن تيمية على وجه التمحيص والتدقيق ، ولا علاقة لهم بالسلف الصالح . لذا فمن الخطأ تسميتهم بالسلفيين ، والصواب تسميتهم بالتَّيْمِيِّين .

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلاً لِلَيْلى   وليلى لا تُقِرُّ لهم بِذَاكا

وإنني أدعوهم إلى توسيع صدورهم للرأي المخالِف ، وعدم التقوقع في شرنقة ابن تيمية وظِلِّه التابع ابن القَيِّم . فخطأ كارثي أن نُلغيَ تاريخاً إسلامياً حافلاً بالعلماء سَلَفاً وخَلَفاً بِجَرَّة قلم ، ولا نعرف إلا أقوال ابن تيمية وابن القيم، وكأنَّ السلف والخلف أطفال لا عقول لديهم ولا عِلْم عندهم . وترى هذه الفئة (التَّيميين) في كل وَادٍ يَهيمون ، يَرْمُون الناسَ بالشِّرك تارةً ، وبالبِدعة تارةً أخرى . وما وُجدوا في مكان إلا أثاروا الفِتنةَ فيه ، ظَنّاً منهم أنهم على الحق الْمُطْلَق ، وغَيْرَهم على الباطل الْمُطْلَق ، وهذا هو الإرهاب الفكري في أبشع صُوَره . وبعد كل هذا يزعمون أنهم مُتَّبعون للسلف الصالح . وهذا مُجانِب للحقيقة ، فسلفُنا الصالح عُلماء جهابذة يَتَّبعون الكتابَ والسُّنةَ الصحيحة، ويُعمِلون عقولَهم في استنباط الأدلة والأحكام، يتعاملون مع الناس باحترام وتوقير، ولا

ينظرون إليهم نظرة دُونِيَّة . وكلُّ واحدٍ منهم _ بلا استثناء _ لسان حاله يقول : رأيي صواب يَحتمل الخطأ ، ورأي غَيري خطأ يَحتمل الصواب . وهذا هو تواضع الأئمة الأعلام البعيدين كل البُعد عن التَّعصب والتَّنطع .

والذي دعاني لهذه التوطئة هو مُحارِبة الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين للتَّوسل والاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، زاعمين أنها من الشِّرك . وهم بذلك شَذُّوا عن جمهور المسلمين ، وخالفوا الكتابَ والسُّنةَ الصحيحة ، لا لشيء سِوى أنَّ الشيخ ابن تيمية_ رَحِمَهُ اللهُ تعالى _ أدْلَى بِدَلْوِه في الموضوع وحَرَّمه . وما حرَّمه ابنُ تيمية فهو حرام عندهم ، وما أَحَلَّه فهو حلال. وإنني أدعوهم إلى إعادةِ تمحيص أفكار ابن تيمية ، خصوصاً العقائد الباطلة التي يعتنقها (1) ، والرَّدِّ عَلَيه كما يَرُدُّون على علماء الأشاعرة _ إنْ كانوا حريصين على الحق ومعرفة الصواب كما يَقولون _ . والرِّجالُ يُعْرَفون بالحق ، والحقُّ لا يُعْرَف بالرجال .

إنَّ التَّوَسُّلَ لغةً ، معناه اتخاذ الوسيلة . يُقال (تَوَسَّل) بكذا: اتخذه وسيلةً (2). أمَّا أدلةُ التَّوَسُّل فهي ثابتة في القرآن والسُّنة الصحيحة .

الأدلةُ مِنَ القرآن على جواز التَّوَسُّل :

[١]قال اللهُ تعالى: ﴿ يَا أَيها الذينَ آمَنُوا اتقوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] (3).

يَأمرُ اللهُ عبادَه المؤمنين أن يَتَّقوه ، وذلك بالتزام طاعته ، واجتناب معصيته ، وأن يَتقرَّبوا إلَيه بطاعته . والوسيلةُ هي القُربة . كما قال عنترة :

إنَّ الرِّجالَ لَهُمْ إليكِ وَسِيلةٌ ... إنْ يَأْخذوكِ تَكَحَّلي وتَخَضَّبي

---

(١)لمعرفة العقائد الباطلة عند ابن تيمية، راجع كتاب" الكاشف الصغير عن عقائد ابن تيمية "، وكتاب "دفع شُبه مَن شبَّه وتمرَّد"،وكتاب"ابن تيمية ليس سلفياً "، وغيرها كثير من المؤلفات القديمة والمعاصرة.

(٢) انظر المعجم الوجيز ، ص ٦٦٩ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٤٨): ((في الوسيلة قَولان : أحدهما أنها القُربة . قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والفَرَّاء. وقال قتادة : تَقَرَّبوا إلَيه بما يُرضيه. قال أبو عُبَيدة : يُقال : تَوَسَّلْتُ إلَيه أي تَقَرَّبْتُ إلَيه ، وأنشد : إذا غَفِلَ الواشون عُدْنا لِوَصْلِنا ... وعاد التَّصافي بَيْننا والوسائلُ . والثاني : المحبة ، يَقول : تَحَبَّبوا إلى اللهِ ، هذا قول ابن زَيْد)) .

وعندما يقول شخصٌ: أتوسَّلُ إليكَ، فهو يعني أتقرَّب إليكَ.وهي تَصْدر من الأدنى إلى الأعلى، ومن الضعيف إلى القوي، ومن العاجز إلى صاحب القُدرة. إذن، فالوسيلةُ هي كُل ما يُتَقَرَّبُ بِه. وصارت تَعني ـ في الاصطلاح الشَّرعي ـ ما يُتَوَسَّل بِهِ إلى اللهِ مِن فِعْل الطاعات وترك المعاصي.

وقال الْمُناوي في فيض القدير(٤/١٠٨):((وإنما سُمِّيت وسيلة لأنها مَنْزلة يكون الواصل إليها قريباً من الله ، فتكون كالوُصْلة التي يُتوسَّل بالوصول إليها والحصول فيها إلى الزُّلفى مِنهُ تعالى)) .

والآيةُ القرآنية تدعو المؤمنين إلى التزام التقوى ، وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى ، أي التقرب إليه باجتناب المحرَّمات ، وفعلِ الطاعات ، والعمل بما يُرضيه ـ سُبحانه وتعالى ـ .

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ١٥١) : ((الوَسيلة هي القُربة ، عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسُّدي وابن زَيْد وعبد الله بن كثير،وهي فَعِيلة مِن تَوَسَّلْتُ إليه أي تَقَرَّبْتُ)) اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٣) عن معنى كلمة الوسيلة : ((قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس : أي القُربة ، وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله ابن كثير والسُّدي وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة : أي تقرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يُرضيه)).

وعن حُذَيفة أنَّهُ سَمِعَ قارئاً يَقرأ: ﴿ يَا أَيها الذينَ آمَنُوا اتقوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾. قال : ((القُربة)) . ثُمَّ قال : ((لقد عَلِمَ المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنَّ ابْنَ أُمِّ عبد اللهِ مِن أقْرَبِهم إلى اللهِ وَسيلةً))(4).

ويجوزُ التوسل بالشخص الصالح.ولا يَخفى أن أعظمَ الصالحين هو النبيُّ ﷺ.والتوسلُ بالنبيِّ ﷺ يكون بالتوسل بالإيمان به وتصديقه ومحبته وتعظيمه والصلاة والسلام عليه . وهذا الأمرُ لا يَعني بحال من الأحوال عبادته، أو اتخاذ وسائط بين العبد وربِّه . فالتوسلُ له معنى مُحدَّد يُوضَع في نِصابه الصحيح بلا تطرُّف .

قال ابن مفلح المقدسي في الفروع (٢/ ١٢٧) : ((ويجوز التوسل بصالح ، وقيل يُسْتَحَب . قال أحمد في مَنْسَكه الذي كتبه للمروذي إنَّه يَتوسَّل بالنبيِّ ﷺ في دعائه، وجزم به في المستوعب وغيره، وجعلها شيخنا كمسألة اليمين به. قال : والتوسل بالإيمان به ، وطاعته ، ومحبته

(٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤١) . وقال الذهبي : ((على شرط البخاري ومسلم)) .

، والصلاة والسلام عليه ﷺ ، وبدعائه ، وشفاعته ، ونَحْوه مِمَّا هو مِن فِعْله ، وأفعال العباد المأمور بها في حقه مشروع ، وهو من الوسيلة المأمور بها في قوله تعالى : ﴿ اتقوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾)) اهـ .

يَتَّضح لنا من النصوص السابقة أن معنى الوسيلة هي القُربة. أي إننا نتقرَّب إلى اللهِ بعبادتنا وطاعتنا . وقد يَسأل أحدهم : وما علاقة هذا بالتوسل ؟!. فنقول له : دَعْنا نسألْك : أيهما أعظمُ صلاتك وعبادتك أَم النبيُّ ﷺ ؟. فإن قال: صلاتي أعظم، فقد كفر إجماعاً وخرج من الإسلام. وإن قال النبيُّ ﷺ ، قُلنا له : صدقتَ، وبما أنك تتوسل بالقُربة (الطاعة والعمل الصالح) وهي مفضول ، فكيف تمنع التوسل بالنبيِّ ﷺ وهو الفاضل الذي أرشدكَ إلى الصالحات ؟! .

ولنتأمل قول ابن مفلح المقدسي وهو من أئمة الحنابلة الذين ينتسب إلَيهم مَن يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين. فهو يقول إنه يجوز التوسل بصالح. ونحن نقول: فكيف بسيد الأنبياء والصالحين ﷺ ؟! . كما أنه نقل أنه يُستحَب التوسل. وأرجو أن تتأمل كلام الإمام أحمد، فهو غاية في الأهمية والرَّوعة. إذ إنه يتوسل بالنبيِّ ﷺ في دعائه ، وهذا أمر مجزوم به كما يتَّضح من سياق الكلام . فعلى الذين يَرْمُون الْمُتَوَسِّلين بالنبيِّ ﷺ بالشِّرك أن يرموا الإمام أحمد وباقي الأئمة بالشِّرك قبل أن يُعَمِّموا هذيانهم على باقي المسلمين ! .

[٢] قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبهم الوَسِيلَةَ أَيُّهم أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] (5). هؤلاء المعبودون (الآلهة) مِن دُونِ اللهِ يتقرَّبون إلى اللهِ بالأعمال الصالحة لأنهم مُؤمنون بِه ، حريصون على طاعته ، ونَيْلِ رِضوانه . يَطلبون إلى رَبِّهم الوسيلة (القُربة) ، أي : يَتضرَّعون إلى اللهِ في طلب الدرجة العليا . والوسيلةُ كُل ما يُتقرَّب بِه إلى اللهِ تعالى . فإذا كانَ هذا هو حال الآلهة المعبودة مِن دُونِ اللهِ ، فكيفَ بالأتباعِ العَبيد ؟! . إذا كانَ آلهةُ هؤلاء المشركين يتقرَّبون إلى اللهِ ، فهذا يَعني أنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الإلهُ الحق، ولا إلهَ إلا اللهُ . وكُلُّ ما سِوى اللهِ عَبْدٌ للهِ تعالى . وهذا يُبْطِل عقيدةَ تعدُّدِ الآلهة .

---

(٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٩): ((في المشار إليهم بِـ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنهم الجن الذين أسْلَموا . والثاني: الملائكة ... والثالث أنهم المسيح وعُزَير والملائكة والشمس والقمر ، قاله ابن عباس. وفي معنى ﴿ يَدْعُونَ ﴾ قولان: أحدهما يَعبدون، أي يَدعونهم آلهةً، وهذا قول الأكثرين. والثاني أنَّه بمعنى يَتضرَّعون إلى اللهِ في طلب الوَسيلة)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٠٠): ((﴿ أَيُّهم أَقْرَبُ ﴾ معناه : يَنظرون أيُّهم أقرب إلى اللهِ، فَيَتوسَّلون بِه.وقال الزَّجاج: أيُّهم أقرب يَبتغي الوسيلةَ إلى الله تعالى، ويَتقرَّب إلَيه بالعمل الصالح)).

إذن ، فالقريبُ إلى اللهِ يَبتغي إلى اللهِ الوسيلةَ ، فكيفَ بِمَن هُوَ لَيس بقريبٍ ؟!. أمَّا سببُ نزول الآية، ففي صحيح مسلم(٤/ ٢٣٢١): عن عبد الله بن مسعود قال: ((نَزلت في نَفَرٍ مِنَ العرب، كانوا يَعبدون نَفَراً مِنَ الجِنِّ ، فأسلمَ الجِنِّيون ، والإنسُ الذين كانوا يَعبدونهم لا يَشعرون)) .

واللهُ تعالى يُخبِر أنَّ الْمَعبودِين يَبتغون القُربةَ إلى ربِّهم، فهُم مؤمنون حريصون على التقرب إلى الله باجتناب المعاصي ، وفعلِ الطاعات .

قال الطبري في تفسيره (٨/ ٩٥) : ((يبتغي المدعوون أرباباً إلى ربهم القُربة والزُّلفة ، لأنهم أهل إيمان به ، والمشركون بالله يعبدونهم مِن دُون اللهِ)) اهـ .

وقد وضحنا سابقاً أنَّ النبيَّ ﷺ أعظمُ من الأعمال الصالحة ، وبما أننا نتوسل إلى الله تعالى بعبادتنا وهي المفضول ، فكيف لا نتوسل بالنبيِّ ﷺ وهو الفاضل ؟! [6].

[٣] قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنهم إِذ ظَلموا أَنفُسَهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ [النِّساء : ٦٤] .

هذا إرشادٌ لأصحاب الذنوب والمعاصي إلى كيفية التَّوبة ، فبابُ التَّوبة والمغفرة مفتوح ، والفُرصة أمامَهم لا تَزال مُتاحة. وكيفيةُ التَّوبة تتجلى في مجيئهم إلى النبيِّ ﷺ، فيستغفرون اللهَ عِندَه، ويَطلبون مِنَ النبيِّ ﷺ أن يَستغفر لهم ، فإذا قاموا بهذا الأمر ، فإِنَّ اللهَ يَتوب عَلَيهم ، ويَغفر لهم . فهو سُبحانه الجوادُ الكريمُ لا يَطرد مَن يَأتيه . وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٠٩):((﴿ وَلَوْ أَنهم إِذ ظَلموا أَنفُسَهم ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت ﴿ جاؤوك ﴾ تائبين من ذلك، وهو خَبَر " أن " وإذْ متعلق به ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ ﴾ بالتَّوبة والإخلاص ، ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾

---

(٦) في لسان العرب(١١/ ٧٢٤): ((قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِهِم الوَسِيلَةَ أَيُّهم أَقْرَبُ ﴾ الجوهري: الوَسِيلةُ ما يُتَقَرَّبُ بِه إلى الغَيْر. والجمع الوُسُلُ والوسائلُ والتَّوْسيلُ والتَّوسُّلُ واحد. وفي حديث الأَذان: اللهمَّ آتِ محمداً الوَسِيلَة ، هي في الأَصل ما يُتَوَصَّل به إلى الشيء ويُتَقَرَّب به . والمراد به في الحديث القُرْبُ مِنَ الله تعالى . وقِيل : هي الشفاعةُ يوم القيامة . وقِيل: هي مَنْزلة مِن مَنازِل الجنة كما جاء في الحديث)) اهـ .

واعتَذَروا إِلَيك حتى انتصبتَ لهم شفيعاً . وإنما عَدَلَ الخطابُ تفخيماً لشأنه ، وتنبيهاً على أنَّ مِن حق الرسول أن يَقبل اعتذار التائب ، وإن عَظُمَ جُرْمُه ، ويَشفع له ، ومِن مَنصبه أن يَشفع في كبائر الذنوب ، ﴿ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ لَعَلِموه قابلاً لِتَوبتهم ، مُتفضِّلاً عَلَيهم بالرحمة)) اهـ .

وقد عَلَّقَ اللهُ قبولَ استغفارهم باستغفاره ﷺ . وذلك صريح في الدلالة على جواز التوسل به ، كما يُفهَم مِن قَوله تعالى : ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ .

والآية واضحة وقاطعة في طلب المجيء إلى النبيِّ ﷺ . و ﴿ جاؤوك ﴾ واقعة في حَيِّز الشَّرْط مِمَّا يدل على العموم . والآيةُ عامة لا يُخصِّصها شيء . والعِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الشوكاني في إرشاد الفحول (١/ ١٧٥): ((قال إمام الحرمين الجويني وابن القشيري إن أعلى صيغ العموم أسماء الشَّرْط والنَّكرة في النَّفْي)) اهـ .

وتخصيص الآية بحاجة إلى دليل ، ولا دليل .

قال الإمام الغزالي في المستصفى (١/ ٢٠١) : ((واللفظ عام في صيغته فلا يزول ظهوره بمجرد الوهم ، لكن يكفي في التخصيص أدنى دليل ، لكنه لَوْ لَم يَرِدْ إلا بهذا اللفظ، ولَم يَرِدْ دليل مُخصِّص ، لَوَجب التعميم في الطرفين على مذهب مَن يرى صِيَغَ العُموم حُجَّة)) اهـ .

وقد اعترض الشيخ ابن عثيمين على الاستدلال بالآية، فقال في كتابه فتاوي مهمة لعموم الأمة (١ / ١٠١و١٠٢): (((إذ) هذه ظرف لِمَا مضى ، وليست ظرفاً للمستقبل. لَم يَقُل الله : ولو أنهم إذا ظلموا ، بل قال: إذْ ظلموا. فالآية تتحدث عن أمر وقع في حياة الرسول ﷺ)) اهـ .

هذا الكلام فِيه نظر ، ويَحتوي على أخطاء لغوية واضحة ، ويدل على عدم إلمام بقواعد اللغة العربية ودلالات الألفاظ . وإليكَ تفنيده بالآتي : إن (إذْ) تُستعمَل في الماضي كما تُستعمَل في المستقبل أيضاً. والأدلة على استعمالها في المستقبل كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم ﴾[الأنعام : ٣٠] ، وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا ﴾ [سبأ: ٥١] .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((إنَّ في سُورة النساء لَخَمْسَ آياتٍ ، ما يَسُرُّني أنَّ لي بها الدنيا وما فيها)) . وذَكَرَ مِنها : ((﴿ وَلَوْ أنهم إذ ظَلموا أَنفُسَهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾)) [7].

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٣٤) برقم (٣١٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد فتحتْ هذه الآيةُ بابَ الاستغفار والتَّوبة على مِصْراعَيْه . فاللهُ أكبرُ مِن كُلِّ الذنوب ، يَقبل المستغفرين والتائبين ، ويَتوب عليهم . وهذا يدل على عَظَمَةِ اللهِ ، وسَعَةِ رحمته . والآيةُ تُشير إلى مكانة النبيِّ ﷺ الرفيعة ، وأنَّهُ شَفيعٌ للمؤمنين ، وأنَّهُ يُتَوَسَّل به إلى اللهِ الذي يَغفر للمُذنبين ، ويَتوب عَلَيهم تَفَضُّلاً مِنهُ ، وإكراماً للنبيِّ ﷺ .

[٤] إن المراد من التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين والطلب منهم هو استشفاعهم ، وقد أخبرَ اللهُ أنهم يَملكون الشَّفاعة ، فقالَ تعالى : ﴿ وَلا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٨٦] [8].

مِنَ المعلوم أن شهادة الحق هي كلمة الإخلاص " لا إلهَ إلا اللهُ " . فما المانع من طلب شيء مِمَّا مَلَكوه بإذنه تعالى ؟! . فيجوز أن تطلب منهم أن يعطوك مِمَّا أعطاهم اللهُ تعالى، أمَّا الممنوعُ هو طلب الشفاعة من الأصنام التي لا تَملك من أمرها شيئاً. وليكنْ معلوماً أننا لا نطلب مِن غَير اللهِ ما لا يَقْدِر عليه إلا الله.ومِنَ القواعد الأساسية في الإسلام أن الفاعل الحقيقي في الكَون هو الله وَحْدَه، وهو الْمُعطِي المانع. ولا يوجد شيء استقلالي خارج عَن مشيئته ، وهذا لا ينفي وجود أسباب ومُسبِّبات لها دور في تحريك الكَون ، وهذا الدَّوْرُ خاضع لإرادة اللهِ وَحْدَهُ .

ومعنى الآية : لا تَقْدِرُ الأصنامُ على الشفاعة للذين عَبَدُوها ، لأنها لا تَضُرُّ ولا تَنفع . أمَّا مَن آمَنَ باللهِ وأطاعه، وشَهِدَ بالحق عَن عِلْمٍ وبَصيرةٍ ويَقين ، فإنَّ شَفاعته نافعة ومقبولة عِندَ اللهِ بإذنه ، وخاصَّةٌ بالمؤمنين دُون غَيرهم . والذينَ شَهِدوا بالحق (التَّوحيد) هُم عِيسى وعُزَير والملائكة ، فهؤلاء تَنفع شفاعتُهم للمُؤمنين ، معَ أنَّهم عُبدوا مِن دُونِ اللهِ ، واتَّخذهم الجهَّالُ آلهةً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٠٦) : ((وأراد بِ ﴿ الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ عِيسى وَعُزَيراً والملائكة . والمعنى : ولا يَملك هؤلاء الشفاعة إلا لِمَن شَهِدَ بالحق وآمنَ على عِلْمٍ وبصيرة قاله سعيد بن جُبَير ، وغَيْرُه قال : وشهادة الحق : لا إلهَ إلا اللهُ)) اهـ .

---

(٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٣٣): ((سبب نزولها أنَّ النَّضْر بن الحارث ونَفَراً معه قالوا: إنْ كان ما يَقول محمد حقاً ، فنحن نَتَوَلَّى الملائكةَ ، فَهُم أحق بالشَّفاعة مِن محمد ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٥) : ((والاستثناء مُتَّصل إن أُريد بالموصول كُل مَا عُبد مِن دُون الله ، لاندراج الملائكة والمسيح فِيه ، ومُنفصِل إن خُصَّ بالأصنام)) .

الأدلة مِنَ السُّنة :

[١]عن عثمان بن حُنَيف أنَّ رَجلاً ضَريراً أتى النبيَّ ﷺ،فقال: ادْعُ اللهَ أن يُعافِيَني،فقال: ((إنْ شئتَ أخَّرْتَ ذلك،وهو خَير،وإنْ شِئتَ دَعَوْتُ))،قال:فَادْعُهُ،قال: فأمَرَه أن يَتوضَّأ فَيُحْسِنَ وُضوءه ويُصلِّيَ ركعتين،ويَدعوَ بهذا الدعاء،فيقول:((اللهمَّ إني أسألك وأتوجَّه إليكَ بنبيِّكَ محمد نبيِّ الرحمة، يا محمد إني تَوَجَّهْتُ بِكَ إلى رَبِّي في حاجتي هذه فتُقضَى لي، اللهمَّ شَفِّعْه فِيَّ، وشَفِّعْني فيه))[9].

هذا الحديثُ دليلٌ على جَواز التوسل ، وَلَوْ كان شِرْكاً كما يَزعم البعضُ لَمَا أمرَ النبيُّ ﷺ الرَّجلَ الضرير بِفِعْلِه . وهو حديثٌ ذو دلالة عامة في حياة النبيِّ ﷺ وبعد مَوْته .

ويَنبغي التَّروي والتثبت في إطلاق الأحكام ، خصوصاً الأحكام المتعلقة بالكفر أو الشِّرك ، لأن هذه الأحكام يترتب عليها مسائل غاية في الخطورة ، فالشِّرك نوعان : مُخرِج من المِلة، وغير مُخرِج من الملة . وإذا تورَّط المرءُ بالشِّرك الْمُخْرِج مِن الملة ، ينبغي نُصْحُه إن كان جاهلاً ، أو استتابته إن كان عالِماً بما يقول . ولا يجوز إطلاق لفظة الشرك على أمور خلافية، لأن مسألة بهذا الحجم تحتاج إلى دليل ثابت قَطعي الورود وقَطعي الدلالة في آنٍ معاً [10].

وقد يعتقد البعض أنْ لا حق للخلق على الخالق ، فكيف نقول " أسألك وأتوجَّه إليك بِنَبِيِّكَ محمد " . وهذه المسألة فيها تفصيل دقيق ، ((قوله لأنه لا حق للخلق على الخالق ، قد يقال إنه لا حق لهم وجوباً على الله تعالى ، لكنَّ اللهَ _ سُبحانه وتعالى _ جعل لهم حقاً مِن فَضله، أو يُراد بالحق الْحُرْمة والعَظَمة ، فيكون من باب الوسيلة.وقد قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] ... ذكر العلامة الْمُناوي في حديث : اللهمَّ إني أسألك وأتوجَّه إليك بِنَبِيِّكَ نبيِّ الرحمة، عن العز ابن عبد السلام أنه ينبغي كَونه مقصوراً على النبيِّ ، وأن لا يُقسَم على الله بِغَيره ،

---

(٩)رواه الحاكم في المستدرَك(١/ ٤٥٨) برقم (١١٨٠) وصحَّحه، والترمذي في سُننه(٥/ ٥٦٩) برقم (٣٥٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الألباني رَغْمَ مُعارَضته لِمِثْلِ هذه القضايا .

(١٠) في فتح الباري (١٢/ ٣٠٠) : ((وقال الغزالي في كتاب التَّفرقة بين الإيمان والزندقة : والذي يَنبغي الاحتراز عن التكفير ما وُجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة دماء الْمُصَلِّين الْمُقِرِّين بالتوحيد خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أَهْوَن مِنَ الخطأ في سَفْك دم لمسلم واحد)) اهـ .

وأن يكون من خصائصه. قال: وقال السُّبكي: يَحْسُن التوسل بالنبيِّ إلى رَبِّه ، ولم يُنْكِرْه أحد من السلف ولا الخلف ، إلا ابن تيمية ، فابتدعَ ما لَم يَقُلْه عالِمٌ قَبْلَه))[11].

قال الحِصني في دفع شُبَه مَن شبَّه وتمرَّد (١/٧٩): ((فهذا حديث صحيح صريح في التوسل والاستجابة ، وليس فيه أنه فعل ذلك في حضرة النبيِّ ، وليس فيه التقييد بزمن حياته ، ولا أنه خاص بذلك الرَّجل ، بل إطلاقه . يدل على أن هذا التوسل مستمر بعد وفاته شفقة عليهم لأنه بهم رؤوف رحيم، ولاحتياجهم إلى ذلك في حاجاتهم. ويدل على ذلك أن عثمان بن حُنَيف راوي الحديث هو وغَيره فهموا التعميمَ، ولهذا استعمله هو وغَيره بعد وفاته كما رواه الطبراني في مُعْجَمه الكبير في ترجمة عثمان بن حُنَيف ــ رضي الله عنه ــ)) اهـ .

والتوسل مستمر بعد وفاته ، بدليل أنَّ راوي الحديث الصحابي الجليل عثمان بن حُنَيف قام بتعميمه بعد وفاة النبيِّ ﷺ ، وكما هو مُقرَّر ، فإنَّ فَهْمَ الراوي (تفسيره) مُقَدَّم ، إلا إذا ظَهرت قرينة مُعارِضة ، ولا قرينة مُعارِضة في هذا الحديث .

وروى الطبراني في الْمُعْجَم الكبير (٩/ ٣٠) : عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيف عن عَمِّه عثمان بن حُنَيف أنَّ رَجُلاً كان يَختلف إلى عثمان بن عفان ــ رضي اللهُ عنه ــ في حاجةٍ له ، فكان عثمان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حُنَيف فشكى ذلك إِلَيه ، فقال له عثمان ابن حُنَيف : ائْتِ المِيضأة (يَعني مَوْضِع الوضوء) فتوضأ ، ثم ائْتِ المسجد فصلِّ فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي، فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك. وَرُحْ حتى أروحَ معك ، فانطلق الرَّجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان ــ رضي اللهُ عنه ــ ، فجاء البواب حتى أخذ بيده ، فأدخله على عثمان بن عفان ــ رضي اللهُ عنه ــ فأجلسه معه على الطِّنْفِسة (يعني البِساط)، فقال: حاجتك، فَذَكَرَ حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرتُ حاجتك حتى كان الساعة، وقال : ما كانت لك مِن حاجة فاذكرها [12].

---

(١١) حاشية ابن عابدين (٦/ ٣٩٧) .

(١٢) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٧٣) : ((قال الطبراني بعد ذكر طُرقه : والحديث صحيح)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٥٦٥) : ((روى الترمذي وابنُ ماجة طرفاً من آخره خالياً عن القصة ، وقد قال الطبراني عَقِبَه : والحديث صحيح بعد ذِكْر طُرقه التي رُوِيَ بها)) اهـ . قلتُ : وقد

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٥) : ((وقال الشَّوكاني في تحفة الذاكرين : وفي الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله إلى الله _ عز وجل _، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله _ سبحانه وتعالى_، وأنه الْمُعطي المانع، ما شاء كان، وما لَم يَشأ لَم يَكُنْ . اهـ . وقال فيها في شرح قول صاحب العُمدة : ويُتوسَّل إلى الله بأنبيائه والصالحين ... وَمِنَ التوسل بالأنبياء ما أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن حُنَيف_رضي اللهُ عنه _ أنَّ أعمى أتى النبيَّ فَذَكَرَ الحديث ، ثم قال: وأمَّا التَّوسُّل بالصالحين، فَمِنْهُ ما ثَبَتَ في الصحيح أنَّ الصحابة اسْتَسْقَوا بالعباس _رضي اللهُ عنه _ عم رسول الله)) اهـ .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٢٢١) : ((فَيُحْمَل قول القائل " أسألك بنبيك محمد" على أنه أراد إني أسألك بإيماني به وبمحبته وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع ، قِيل: مَن أراد هذا المعنى فهو مُصيب في ذلك بلا نزاع ، وإذا حُمل على هذا المعنى كلام مَن توسَّل بالنبيِّ بعد مماته من السلف كما نُقل عن بعض الصحابة والتابعين ، وعن الإمام أحمد وغَيره ، كان هذا حسناً ، وحينئذٍ فلا يكون في المسألة نزاع ، ولكن كثيراً من العوام يُطلقون هذا اللفظ ، ولا يُريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أَنكرَ عليهم مَن أَنكر . وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته،وهذا جائز بلا نزاع)) اهـ .

قلتُ : على ابن تيمية أن يكون أكثر دقةً ، فَقَوله : ((ولكنَّ كثيراً من العوام يُطلقون هذا اللفظ ، ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أَنكرَ عَلَيهم مَن أنكر)) ، فيه حُكم على النوايا ، وإطلاق الأحكام على القلوب. وهذا غير مقبول، لأن أحكام الشَّرع تُجرَى على الظاهر ، وحساب

فهم الصحابي الجليل عثمان بن حُنَيف _ رضي اللهُ عنه _ التوسلَ في حال حياة النبيِّ ﷺ وبعد وفاته. وتفسيره مُقدَّمٌ وَقَوِيُّ الْحُجَّة. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠/ ١٥٨) : ((ومذهب الشافعي ومحققي الأصوليين أن تفسير الراوي مُقدَّم إذا لَم يُخالِف الظاهر)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٥٩) : ((واستنبط ابن الْمُنَيِّر... أن تفسير الراوي أرجح مِن تَفسير غَيره)). وقال النووي في المجموع (١/ ٤٩١) : ((ولأنَّ تفسير الراوي إذا لَم يُخالِف الظاهرَ يجب قبوله على المذهب الصحيح لأهل الأصول)) اهـ . وقال الآمدي في الإحكام (٤/ ٢٧٧) في حال اقتران = =الخبر بتفسير الراوي : ((تفسير الراوي بِفِعْله أو قَوْلِه ، فإنه يكون مُرَجِّحاً على ما ليس كذلك ، لأن الراوي للخبر يكون أعرف وأعلم بما رواه)) اهـ .

السرائر عند الله تعالى . وما أدراك أنهم لا يريدون هذا المعنى ، على فرض التسليم بكلامك ؟! . ((أفلا شَقَقْتَ عَن قَلْبِه))[13].

كما أن ابن تيمية اخترع بِدعة التفريق بين التوسل بذات النبيِّ ﷺ والتوسل بالإيمان به . وهذه البِدعة لا معنى لها . فنحن لا نؤمن بمحمد بن عبد الله لأنه محمد بن عبد الله ، فهناك الكثير من الكفار يَحملون اسم محمد بن عبد الله، أو محمد عبد الله ، في كُلِّ زمان ومكان . وإنما نؤمن به لأنه رسول الله ﷺ . فالتوسل في واقع الأمر توسل بالأعمال الصالحة ، إذ لا يكون الصالح صالحاً إلا بأعماله ، فلا معنى لفصل الذات عن الأعمال . وحتى على فرض أنَّ المعنى لم يكن حاضراً في قلب الإنسان ساعة التوسل ، فهو كامنٌ في عقيدته : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فلا معنى لبدعة التفريق بين ذات النبيِّ ﷺ الطاهرة ، والإيمان به .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ ﴾[النساء: ١] .

هذا أمرٌ إلهي بتقوى الله الذي تَعاقَدون وتَعاهَدون به ، وتتساءلون فِيما بَيْنَكم حوائجَكم به ، تقولون : أسألكَ بالله ، وأَنشُدُكَ اللهَ . ﴿ والأرحام ﴾ أي : واتَّقوا الأرحامَ أن تقطعوها .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٩٦) : ((أي واتَّقوا الله بطاعتكم إيَّاه . قال إبراهيم ومجاهد والحسن : الذي تساءلون به ، أي كما يُقال أسألك باللهِ وبالرَّحِم. وقال الضَّحاك: واتَّقوا اللهَ الذي تَعاقَدون وتَعاهَدون بِه، واتَّقوا الأرحامَ أن تَقطعوها، ولكن بِرُّوها وَصِلُوها، قاله ابن عباس وعِكرمة ومجاهد والحسن والضَّحاك والربيع وغير واحد. وقرأ بعضهم: والأرحام بالخفض على العَطْف على الضمير في " بِه " ، أي تساءلون باللهِ وبالأرحام ، كما قال مجاهد وغَيره)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٥) : ((سألتك بالله والرَّحِم . هكذا فسَّره الحسن والنَّخَعي ومجاهد ، وهو الصحيح)) اهـ . وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشُدُكَ اللهَ والرَّحِمَ[14].

---

(١٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٩٦). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٠٧) : ((فِيه دليل للقاعدة المعروفة فى الفقه والأصول أنَّ الأحكام يُعمَل فيها بالظواهر ، واللهُ يتولى السرائر))اهـ. وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٧٣) : ((وكلهم أجمعوا على أن أحكام الدنيا على الظاهر ، والله يتولى السرائر)) اهـ .

(١٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٢٨) برقم (٣٤٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي.

وعبارة " أنشدك الله والرَّحم" توسُّل إلى النبيِّ ﷺ بحق الرَّحِم . وهي عبارةٌ شرعية لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يُنكِر على أبي سفيان.ومن المعلوم أن النبيَّ ﷺ لا يُقِرُّ الباطل،ولا يَسكت عليه. فسكوتُ النبيِّ ﷺ أو عدم إنكاره ، هو تشريع يُعتمَد على أنَّه جَواز .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٥): ((وقد اتفق الأصوليون على أنه ﷺ لا يُقِرُّ على خطأ في الأحكام)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٤٣) : ((لكن عدم إنكاره دال على تسويغ مثل ذلك على الوجه الذي أقَرَّه ، إذ لا يُقِرُّ على باطل)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٥) : ((قال القُشَيري : النهي إنما جاء في الحلف بغير الله ، وهذا توسل إلى الغَير بحق الرَّحم ، فلا نهي فيه ...وقد قِيل: هذا إقسام بالرَّحم أي اتَّقوا اللهَ وحَقِّ الرَّحِم، كما تقول افعل كذا وحَقِّ أبيك، وقد جاء في التَّنْزيل : والنجم ، والطور، والتين ، لَعَمْرُك. وهذا تكلُّف . قلتُ : لا تكلف فيه فإنه لا يبعد أن يكون والأرحام من هذا القبيل فيكون أقسمَ بها كما أقسم بمخلوقاته الدالة على وَحدانيته وقدرته تأكيداً لها حتى قَرَنها بِنَفْسه والله أعلم)) اهـ .

لَنا وقفة مع هذا الكلام. فالله أقسمَ في القرآن بالشمس، فقالَ تعالى: ﴿ والشَّمسِ وضحاها ﴾ [الشمس: ١] . فهل يجوز للمسلم أن يقول لشخص ما : أسألك بالشَّمسِ أن تساعدني ، أو ما شابه هذه العبارة ؟ . الجواب : لا يجوز ، لأنَّ هذا حَلْفٌ بِغَير الله معَ أن الله أقسمَ بالشمس في القرآن . فاللهُ يُقسِم بما شاء ، ولا يحق للمسلم أن يفعل ذلك ، لِقَول النبيِّ ﷺ : ((مَن حَلفَ بِغَير الله فقد كَفر))[15]. أمَّا أبو سفيان فقد سأل النبيَّ ﷺ باللهِ والرَّحِم، ولَم يُنكِر عليه النبيُّ ﷺ،

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٥) برقم (٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣١) : ((والتعبير بِقَوله : فقد كفر أو أشرك للمُبالَغة في الزَّجْر والتغليظ في ذلك ، وقد تمسَّك بِه مَن قال بِتَحريم ذلك ... قال العلماء : السِّر في النَّهْي عن الحلف بِغَير الله أنَّ الحلف بالشيء يَقتضي تعظيمه، والعَظَمةُ في الحقيقة إنما هي للهِ وَحْدَه . ــ أمَّا اليمينُ بِغَير الله تعالى ــ فقد ثبت المنع فيها. وهل المنع للتحريم ؟ . قَولان عند المالكية ،كذا قال ابن دقيق العيد ، والمشهور عندهم الكراهة . والخلاف أيضاً عند الحنابلة ، لكن المشهور عندهم التحريم ، وبه جزم الظاهرية . وقال ابن عبد البَر : لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع، ومراده بنفي الجواز الكراهة أعم من التحريم والتَّنْزيه ، فإنه قال في موضع آخر : أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهيٌّ عنها ، لا يجوز لأحد الحلف بها. والخلاف موجود عند الشافعية من أجل قول الشافعي: أخشى أن يكون الحلف بغير الله معصية فأشعرَ بالتردد،

فصار ذلك تشريعاً بالجواز. وهذه العبارة صالحة للاستخدام في كلام البشر . وهذا ينقل المعنى من الحلف إلى معنى آخر مقبول ، وهو أن عبارة " أسألك بالرَّحم " أو " بحق الرَّحم " تحوي باء السبب ، فيكون معنى العبارة، أسألك بسبب الرَّحم الذي بَيْنَنا ، أو بسبب حق الرَّحم الواجب عليك أن تفعل كذا وكذا . وهذا المعنى المقبول ، والله أعلم . ووفق هذا المعنى لو قال شخص : أنشُدُ اللهَ ومحمداً ، أو أسألك بالله ومحمد ، فيظهر لي أن هذا جائز، لأنَّ محمداً أعظم مِنَ الرَّحِم . وفي الحالتين لا يوجد حَلف، فيكون المعنى هو التوسل إلى الغَير بحق محمد ﷺ، وهو حق الإيمان بالله وطاعته ، وحقه على الناس، ووجوب تعظيمه مِن قِبَلهم، وأنَّه سبب إلى الهداية الإلهية ، قادنا إلى الخير ... إلخ هذه المعاني الطاهرة .

ووفق هذا المعنى الدقيق يكون قول النبيِّ ﷺ : ((اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيِّ الرحمة ...))، أي اللهم إني أسألك بإيماني بهذا النبي العظيم، وبسبب أنك هَدَيْتنا به إلى طريق الحق ... . معَ الانتباه إلى أنه لا تفريق مُطْلقاً بين ذات النبيِّ ﷺ والإيمان به، لأن محمداً ﷺ اكتسب مَنْزلته الرفيعة مِن كَوْنه رسول الله ﷺ ، وأحب مخلوقاته إليه _سُبحانه وتعالى _ ، وهذا المعنى هو الراسخ في النفوس حال التوسل أو الاستغاثة . والتفريقُ بين ذات النبيِّ ﷺ والإيمان به بدعةٌ اخترعها ابن تيمية من بنات أفكاره بلا دليل مُعتبَر . أضف إلى هذا أدلة من اعتبر التوسل بالنبيِّ ﷺ كاليمين به .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٢٦٤) : ((جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد ابن أبجر، فجسَّ بطنه ، فقال : بك داء لا يَبرأ ، قال : ما هو ، قال : الدُّبَيلة (وهو داء في الجوف) . قال: فتحوَّلَ الرَّجلُ فقال: الله الله ربي لا أشرك به شيئاً ، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، تسليماً يا محمد ، إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي . قال: فجس بطنه، فقال : قد بَرِئْتَ ، ما بِكَ عِلَّة . قلتُ _ أي ابن تيمية _ : فهذا الدعاء ونحوه قد رُوي أنه دعا به السلف ، ونقل عن أحمد بن حنبل فى مَنْسَك المروذي التوسل بالنبيِّ في الدعاء ، ونها عنه

وجمهور أصحابه على أنه للتَّنْزيه. وقال إمام الحرمين : المذهب القَطْع بالكراهة ، وجَزَمَ غَيْرُه بالتفصيل، فإن اعتقدَ في المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده في الله حُرِّم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافراً ، وعليه يَتَنَزَّل الحديث المذكور ، وأمَّا إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يَكْفر بذلك)) اهـ .

آخرون . فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته . فهو محل النِّزاع ، وما تنازَعوا فيه يُرَدُّ إلى الله والرسول، وليس مجرد كَوْن الدعاء حصل به المقصود ما يدل على أنه سائغ في الشريعة ، فإن كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ، ويحصل ما يحصل من غرضهم . وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك ويدعو التماثيل التي في الكنائس ، ويحصل ما يحصل من غرضه ، وبعض الناس يدعو باتفاق المسلمين ، ويحصل ما يحصل من غرضهم ، فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته وإن كان الغرض مباحاً)) اهـ .

قلتُ : هذا الكلام لنا معه وقفات :

أ) قوله " ونها عنه آخرون " . هَلا قال لنا ابن تيمية مَن هؤلاء الآخرون الذين نَهَوا عنه ، فالتوسل ثابتٌ لَم يَنْهَ عنه سوى ابن تيمية نفْسه الذي ابتدع بدعة سيئة بمنعه التوسل، وخالف إمام مذهبه ، وكل العلماء الْمُعتبَرين ، من أجل شكوك تدور في رأسه حول مفهومه للشِّرك .

ب) هلا قال لنا ابن تيمية مَن هُم العلماء في تاريخ الإسلام الذين فرَّقوا بين ذات النبيِّ ﷺ والإيمان به ومحبته وتقديره ، فكل المسلمين على مدار التاريخ يُعظِّمون محمداً ﷺ لأنه رسول الله ، وأعظم مخلوقاته. وينظرون إليه بلا تفريق بين ذاته وأعماله، أو بين ذاته والإيمان به . وبدعة التفريق اخترعها ابن تيمية ليتوصل إلى ما يريد إثباته من أفكار ، وهذه المسألة ليست محل نزاع كما زعم ابن تيمية ، لأن المسائل في محل النَّزاع تكون بين وجوه متعددة بين أهل العِلم، وهذه المسألة متفق عليه شذَّ عنها ابن تيمية وأتباعه فيما بعد ، فلا عِبرة بهذا الشذوذ .

ج) أمَّا ما قاله ابن تيمية إنَّ الكثيرين يدعون الكواكب والأوثان وتماثيل الكنائس ... إلخ ، فنقول إن القياس مع الفارق باطل . وهل تريد أن تساوي بين سيد الكائنات محمد ﷺ الذي ورد التوسل والاستغاثة به في أدلة شرعية صحيحة ساطعة معَ الأوثان والكواكب التي مَن يَدعوها يخرج مِن المِلَّة قَوْلاً واحداً ؟!.كما أن التوسل والاستغاثة بالمخلوقات ليست دعاءً لهم ، لأن الدعاء للهِ وَحْدَه .

د) إن ابن تيمية يجهل تماماً القاعدة التي تقول إنَّ التَّرْكَ ليس من دلائل التحريم ، ولا حتى من دلائل الكراهة . فَلَوْ ترك النبيُّ ﷺ فِعْلَ أمرٍ ما ، أو ترك صحابته فِعْلَ شيء ما ، فهذا ليس دليلاً على تحريم ذلك الأمر أو كراهته، لأن الأحكام الشرعية بما فيها الْحُرْمة والكراهية تثبت بالنصوص الشرعية ، وليس بالتَّرك .

[٢] في صحيح البخاري(٥/ ٢٢٢٨)، وصحيح مسلم(٤/ ٢٠٩٩) عن ابن عمر _ رضي اللهُ عنهما_ عن رسول الله ﷺ قال : ((بينما ثلاثة نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أخذهم المطر ، فمالوا إلى غار في الجبل ، فانحطَّت على فَمِ غارهم صخرة من الجبل ، فأطبقتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة ، فادعوا اللهَ بها لعله يُفرِّجها ...)) .

وهذا يشيرُ إلى استحباب التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ، والتوجه إليه _ سُبحانه _ بِذِكر الطاعات ، والدعاء بها. فهؤلاء النَّفَرُ قد توسَّلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة فاستجابَ لهم ، وقد ذَكَرهم النبيُّ ﷺ في موضع المدح والإشادة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٥٦) : ((استدل أصحابنا بهذا على أنه يستحب للإنسان أن يدعو في حال كَرْبه ، وفي دعاء الاستسقاء وغَيره ، بصالح عمله ويتوسل إلى الله تعالى به ، لأن هؤلاء فعلوه فاسْتُجيب لهم ، وذَكَره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم ، وجميل فضائلهم)) اهـ .

ولوْ كان التوسل بغير الله شِرْكاً لكان هؤلاء القوم مشركين لأنهم توسَّلوا بأعمالهم الصالحة ، أي توسَّلوا بغير الله تعالى، وهذا باطل نَقْلاً وعقلاً. ونحن في هذا المقام نسأل أيهما أعظم : أعمال الإنسان الصالحة أم النبيُّ ﷺ ؟! ، وبالقَطْع، فالإجابة هي النبي ﷺ، ومَن قال غير هذا كفر . وبما أن التوسل جائز بالأعمال الصالحة ، وهي المفضول، فمن باب أولى أن يكون التوسل بالنبيِّ ﷺ جائزاً وهو الفاضل .

وفي الغُنية عن الكلام وأهله (١/ ٩) : ((كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز ، أو كان شِرْكاً ، كما يزعمه المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام ، ومَن قال بِقَوله مِن أتباعه، لَم تحصل الإجابة من الله لهم، ولا سكت النبيُّ ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم)) اهـ .

[٣] في صحيح البخاري (١/ ٣٤٢) : عن أنس _ رضي الله عنه _ أنَّ عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه_ كان إذا قُحِطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : ((اللهم إنَّا كُنَّا نتوسَّل إليك بِنَبِيِّنا فتسقينا ، وإنَّا نتوسَّلُ إلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنا ، فَاسْقِنا)) . قال : فيُسْقَوْن .

قلتُ : وفيه جواز التوسل بالمفضول معَ وجود الفاضل .

لكن هذا الكلام لَم يُعْجِب ابن تيمية الْمُسترسِل في تدعيم بِدعته المانعة للتوسل .

فقال في مجموع الفتاوى(٣١٩/١): ((وقد قال عمر: اللهمَّ إنَّا كُنَّا نتوسَّل إليكَ بِنَبِيِّنا فَتسقينا وإنا نتوسل إليك بعمِّ نَبِيِّنا فاسْقِنا ، فجعلوا هذا بدلاً عن ذلك لَمَّا تعذَّرَ أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه)) اهـ . قلتُ : هذا الكلام يُرَدُّ عليه من ناحيتين :

الأُولى:إنَّ الصحابة_رضوان الله عليهم_ لَم يجعلوا التوسل بالعباس بدلاً عن التوسل بالنبيِّ ﷺ، فالنبي حَي يُرزَق يَسمع ويَرى ، وسوف نُثْبِت هذا الكلام لاحقاً .

والثانية : لَم يتعذر أن يتوسلوا به بعد موته . كُلُّ ما في الموضوع أن الأمر دليل على التَّوَسُّل بالمفضول مع وجود الفاضل. وفي علم أصول الفقه ، إنَّ فِعْلَ الشيء لا يعني مَنْعَ ما عَداه . والمعنى: إنَّ التَّوَسُّل بالعباس _ رضي اللهُ عنه _ لا يعني مَنْعَ التوسل بالنبيِّ ﷺ .

وفي كتاب دَفْع شُبَه مَن شبَّه وتمرَّد (١/ ٦٥) : ((فإن عمر _ رضي الله عنه _ إنما قصد أن يُقدِّم العباس ، ويُباشِر الدعاءَ بِنَفْسه ، وهذا لا يُتصوَّر حصوله مِن غَير الحي ، أي الحياة الدنيوية ، وأمَّا التوسل برسول الله فلا نُسلِّم أن عمر _ رضي اللهُ عنه_ تركه بعد مَوْته. وتقديم العباس لِيَدعوَ
للناس لا يَنفي جَوازَ التوسل به (يَعني بالنبيِّ ﷺ) معَ ذلك)) اهـ .

أقوال العلماء في تجويز التوسل :

[١] قال المرداوي في الإنصاف(٢/ ٤٥٦) : ((يجوز التوسل بالرجل الصالح على الصحيح من المذهب وقيل يُستحَب)) اهـ . قلتُ : فما بالك بِسَيِّد الصالحين ﷺ ؟!.

[٢] قال الطحاوي الحنفي في حاشيته على مراقي الفلاح (٥٤٧/٢): ((ذكر بعض العارفين أن الأدب في التوسل أن يتوسل بالصاحِبَيْن (أبو بكر وعمر) إلى الرسول الأكرم ﷺ ثم به إلى حضرة الحق جَلَّ جلاله ، وتعاظمت أسماؤه ، فإنها مُراعاة لواسطة عليها مدار قضاء الحاجات)) .

[٣] قال الشافعيُّ وهو يتوسل بآل البيت _ عليهم الصلاة والسلام_ ويَعقد عليهم رجاءه :

آلُ النبي ذريعتي   وَهُمو إليه وسيلتي
أرجو بهم أُعطى غداً   بيدي اليمين صحيفتي

والذريعة : مفرد ذرائع ، يُقال : هو ذريعتي إلى فُلان : أي هو وَسيلتي. ويُقال: تذرَّعَ بِذَريعة : أي توسَّلَ بوسيلةٍ (16). فهل هذا شِرْك من الإمام الشافعي أم هو عين التوحيد الخالص المبنيِّ على الكتاب والسنة الصحيحة ؟ .

[٤] قال النووي في المجموع (٨/ ٢٠٢و٢٠٣) : ((ثم يرجع إلى موقفه الأول قُبالة وَجْهِ رسول الله ﷺ ، ويتوسَّل به في حق نَفْسِه ، ويَستشفع بِه إلى رَبِّه ــ سُبحانه وتعالى ــ . ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العُتبي مستحسنين له . قال : كنتُ جالساً عند قبر رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعتُ اللهَ يقول: ﴿ وَلَوْ أَنهم إِذ ظَلموا أَنفُسَهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ [النِّساء : ٦٤]. وقد جِئْتُكَ مُستغفِراً مِن ذَنْبي مُستشفِعاً بِكَ إلى رَبِّي، ثم أنشأ يقول :

يا خَيْرَ مَن دُفنت بالقاعِ أعْظُمُهُ   فطابَ مِن طِيبهنَّ القاعُ والأكَمُ
نفْسي الفِداء لِقَبرٍ أنتَ ساكنُه   فِيهِ العَفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثُمَّ انصرفَ فحملتني عيناي فرأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم فقال : يا عُتبي، الْحَقْ الأعرابِيَّ فَبَشِّرْه بأن اللهَ تعالى قَد غَفَرَ له)) اهـ .

ومعلومٌ أنَّ الأحكام الشرعية لا تثبت بالرؤى لاحتمال اشتباه الكلام على الرائي ، لكنَّ العِبرة بأنهم يَرْوون هذا الكلام مُستحسنين له ، مُوافقين عليه .

أدلة الاستغاثة :

[١] إن الاستغاثة بالأسباب من حيث إنها أسباب عادية مع الإيمان أن الله وَحْدَه هو الْمُؤثِّر أمرٌ شرعي قد جاء في القرآن الكريم، فقالَ تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. فهذه الآية الواضحة تأمرُ بالاستعانة بالصبر والصلاة من حيث إنهما سببان عاديان لا تأثير لهما دون مشيئة الله تعالى. فالخالق أمرَ بالاستعانة بالأسباب، ولم يُسَمِّ ذلك شِرْكاً . ومعلومٌ أن النبيَّ ﷺ أعظم من الصبر والصلاة ، فيجوز الاستعانة والاستغاثة به .

[٢] قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الذي مِن شِيعَتِهِ ﴾[القَصَص: ١٥] .

---

(١٦) انظر ديوان الإمام الشافعي ، ص ٥٠ ، دار الأرقم .

والآيةُ تتحدث عن استغاثة الإسرائيلي بموسى ﷺ على القِبطي . أي : طلبَ نَصْرَه وغَوْثَه . وهذا دليلٌ على جواز استغاثة المخلوق بالمخلوق فِيما يَقْدِر عَلَيه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٨٦) : ((فَسَأَلَه أن يُغيثه بالإعانة)) اهـ. وقال التجاني في كتابه الفوز والنجاة في الهجرة إلى الله (ص ٢٠٦) : ((فنسبَ اللهُ تعالى الاستغاثة إلى غيره من المخلوقين. وهذا دليل واضح كالشمس على جوازها . فإن قيل إن المستغاث به في هذه الآية حي وله قدرة، وإنما كلامنا في الميت. أُجيب بأن نِسبة القدرة إليه _ أي إلى المخلوق _ إن كانت استقلالاً فهي كفر. وإن كانت بقدرته تعالى ، على أن يكون (المخلوق) هو السبب والوسيلة ليس إلا ، فلا فرق بين الحي والميت ، فإن الميت له كرامة . وإذا لَم تُنسَب الإغاثة إلى الله تعالى حقيقة ، وإلى غَيره مَجازاً ، كانت الاستغاثة ممنوعة)) اهـ .

[٣] ما رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣٦) : عن ابن عمر _ رضي اللهُ عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ الشَّمْسَ تَدنو يوم القيامة حتى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذن ، فَبَيْنَا هُم كذلك ، استغاثوا بآدمَ ثُمَّ بموسى ثُمَّ بمحمد)) .

إن الناسَ في هذا الموقف العصيب يلجأون إلى الأنبياء _عليهم الصلاة والسلام_، لأنهم صفوة الله مِن خَلْقه ، فيتوسَّلون بهم إلى الله ، ويَطلبون منهم النُّصرة والغَوث والمساعدة لكي يُفرِّج اللهُ كَرْبَهم ، ويَمنحهم الأمانَ .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٤١) : ((وفيه أن الناس يوم القيامة يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله تعالى في حوائجهم بأنبيائهم)) اهـ .

[٤] ما رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن نَفَّس عن مؤمن كُرْبةً مِن كُرُبِ الدنيا ، نَفَّس اللهُ عنه كُربة من كُرب يوم القيامة ، ومَن يَسَّر على مُعْسِرٍ يَسَّر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومَن سَتر مسلماً سَتره اللهُ في الدنيا والآخرة ، واللهُ في عَوْن العبد ما كان العبدُ في عَوْن أخيه)) .

[٥] عن عبد الله بن عمر _ رضي الله عنهما _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((وَمَن فَرَّج عن مسلم كُربةً ، فَرَّجَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرُباتِ يوم القيامة))[17].

(١٧) متفق عليه. البخاري (٢/ ٨٦٢) برقم (٢٣١٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦) برقم (٢٥٨٠).

قد يسأل أحدهم : ما علاقة الحديثين السابقين بالاستغاثة ؟ . فنقول إن النبيَّ ﷺ نَسب تنفيس الكربات وتفريجها والتيسير إلى غَير الله تعالى إسناداً للفِعْل إلى السبب . وهو ما يُسمَّى في علوم البلاغة بالمجاز العقلي ، من أجل رفع الحرج عن أُمَّته . وبالتالي تجوز نِسبة الإغاثة إلى غير الله من باب المجاز العقلي كما وَضَّحنا قياساً على ما سبق. فإذا قال أحدهم نفعني النبيُّ أو الوَلِيُّ أو أغاثني، أو قال : أنا مُفرِّج الكُرُبات وكاشف الهموم بإذن الله تعالى ، فلا يعنون إلا هذا الإسناد المجازي .

وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة واضحة على المجاز العقلي ، منها قوله تعالى على لسان السيد المسيح ﷺ : ﴿ وأُحْي الموتى بإذن الله ﴾ [آل عِمران : ٤٩]. فانظر كيف نَسب السيدُ المسيحُ ﷺ إحياء الموتى (وهي من أعظم الأمور) إلى نفْسه مُقيِّداً الأمر بإذن الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ وإذا حَضر القِسمةَ أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِنه ﴾ [النساء : ٨]. فانظر كيف نَسَبَ اللهُ الرزقَ إلى العباد. وسَواءٌ كانوا أحياءً أم أمواتاً، لأن فِعل الرِّزق أُسْنِد إلى مخلوق، معَ أن الرزاق

اسم من أسماء الله تعالى ، والرِّزْقُ بيده وَحْدَه . وقال الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥٦) : ((نَوعا المجاز ، وله سببان أحدهما: الشِّبْه ، ويُسمَّى المجاز اللغوي وهو الذي يتكلم فيه الأصولي . والثاني : الْمُلابَسة وهذا هو الذي يتكلم فيه أهل اللسان ويُسمَّى المجاز العقلي ، وهو أن تسند الكلمة ما هي له أصالة بِضَرْبٍ مِنَ التأويل كَسَبِّ زيد أباه ، إذا كان سبباً فيه)) اه .

[٦] مِنَ المقطوع به عند أئمة المسلمين الْمُعتبَرين أن النبيَّ ﷺ يُستغاث به . قال الحافظ ابن حجر في الدُّرر الكامنة (١/ ١٨١) : ((ومِنهم مَن يَنْسِبه ــ أي ابن تيمية ــ إلى الزندقة لِقَوله إنَّ النبيَّ ﷺ لا يُستغاث به . وأن في ذلك تنقيصاً ومَنعاً من تعظيم النبيِّ ﷺ)) اه .

فانظر إلى وصف الزندقة الذي أطلقه الأئمة الْمُعتبَرون على مانع الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ ، وقد عَدُّوا ذلك تنقيصاً ومَنعاً مِن تعظيم النبيِّ ﷺ.مِمَّا يُبَرْهِن على أن موضوع الاستغاثة كان محسوماً ومقطوعاً بِه عند العلماء الربانيين قبل أن يأتيَ ابن تيمية بِبِدْعته . وهذا يعكس أن ابن تيمية قد خالف علماءَ عصره الأثبات ، لا كما يعتقد بعض الجهال أن العلماء كانوا في ضلال مبين حتى جاء ابن تيمية لِيُنير لهم الطريق . ومعَ هذا ، فابنُ تيمية ــ رَحِمَهُ اللهُ ــ مِن علماء المسلمين، لكنَّه أخطأ في هذه القضية بشكل واضح ، وشَذَّ عَن جُمهور العلماء .

[٧] أصابَ الناسَ قَحْطٌ في زمن عمر، فجاء رَجلٌ إلى قبر النبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، اسْتَسْقِ لأُمَّتك فإنهم قد هَلكوا ، فأتى الرَّجُلَ في المنام ، فَقِيل له : ائْتِ عُمَرَ فَأَقْرِئْهُ السلامَ ، وأخْبِرْهُ أنكم مَسْقِيُّون (18).

---

(١٨)رواه ابن أبي شَيبة(٦/ ٣٥٦)برقم(٣٢٠٠٢)، وصحَّحه ابن كثير في البداية والنهاية(٧/ ٩٢)، ووافقه الحافظ في الفتح (٢/ ٤٩٥).

قال الألباني محاولاً الطعن في هذا الحديث (لأنَّه يُخالِف هواه) في كتابه التَّوَسُّل (١/ ١٢٠ و١٢١و١٢٢) : ((قلت : والجواب من وجوه : الأول : عدم التسليم بصحة هذه القصة لأن مالك الدار غير معروف العدالة والضبط، وهذان شرطان أساسيان في كل سند صحيح كما تقرَّر في علم المصطلَح)) اهـ . قلتُ : إن هذا الحديث صحَّحه ابن كثير ووافقه على التصحيح ابن حجر ، وإذا كنتَ لا تعرف مالك الدار (مالك بن عِياض) من حيث العدالة والضبط، فاترك العلماء الذين يعرفون ذلك يَحكمون على الحديث ، فَمَن يَعْلم حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلم .

وإذا لَم تَرَ القمرَ بازغاً فَسَلِّمْ لأناسٍ رَأَوْهُ بالأبصارِ

وتابع الألباني : ((وقد أورده ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل)، ولم يذكر راوياً عنه غير أبي صالح هذا ، ففيه إشعار بأنه مجهول ، ويؤيده أن ابن أبي حاتم نفسه ــ مع سعة حفظه واطلاعه ــ لم يحكِ فيه توثيقاً، فبقي على الجهالة)) اهـ .

قلتُ : قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ٢١٣) : ((مالك بن عِياض مولى عمر ابن الخطاب روى عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ــ رضي الله عنهما ــ روى عنه أبو صالح السمان)) اهـ . وبالتالي فإن كلام الألباني الذي رمى به مالك الدار بالجهالة غير دقيق، لأن ابن أبي حاتم لم يقل لَم يَرْوِ عنه إلا أبو صالح ، وإنما ذكر أحد الرواة الذين رَوَوْا عنه . وقال الْمِزِّيُّ في تهذيب الكمال (٢٢/ ٦٢٤) : ((قال عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه : مالك بن عِيَاض مَوْلى عُمَر بن الخطاب . روى عن أبي بكر وعُمر . روى عنه أبو صالح السَّمان . روى له أبو داود والنَّسَائي في اليوم والليلة وابن ماجة)) اهـ . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٦/ ٢٧٤) : ((مالك بن عِيَاض مَوْلى عُمَر ، هو الذي يُقَال له مالك الدار ، له إدراك ، وسمع من أبي بكر الصِّديق . وروى عن الشيخين ومُعاذ وأبي عُبَيدة . روى عنه أبو صالح السَّمان وابناه عَون وعبد اللَّه ابنا مالك)) اهـ .وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٦١٠):

((مالك بن عِيَاض المدني يُعرَف بمالك الدار . سمع أبا بكر وعُمَر ومُعَاذ بن جبل . روى عنه : ابناه عَون وعبد اللَّه وأبو صالح السَّمان وعبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع . وكان خازنًا لِعُمَر رضي اللَّهُ عنه)) اهـ .

وهكذا ترتفع الجهالة عن مالك الدار لا محالة ، ويتَّضح ضَعْف اطِّلاع الألباني وتقصيره ، ولا نريد أن نقول سُوء نِيَّته ، حيث عَمَدَ إلى كتاب الجرح والتعديل ، وتجاهل المراجعَ التي ذكرنها ، لأنَّ فيها أسماء مَن رَوَوْا عن مالك الدَّار ، وهذا ما لا يوافق هواه . وقد رمى الألباني مالك الدَّار بالجهالة تقليدًا للهيثمي [انظر مجمع الزوائد (٣/ ٣٠٩)] . وهذا كُلُّه ينسف ما قاله الألباني .

وتابع الألباني : ((ولا ينافي هذا قول الحافظ (... بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان ..) لأننا نقول: إنه ليس نصَّاً في تصحيح جميع السند بل إلى أبي صالح فقط، ولولا ذلك لما ابتدأ هو الإسناد من عند أبي صالح ، ولقال رأساً : (عن مالك الدار ... وإسناده صحيح) ولكنه تعمَّد ذلك ليلفت النظر إلى أن هاهنا شيئاً ينبغي النظر فيه ، والعلماء إنما يفعلون ذلك لأسباب منها أنهم قد لا يحضرهم ترجمة بعض الرواة، فلا يستجيزون لأنفسهم حذف السند كله لما فيه من إيهام صحته لا سيما عند الاستدلال به ، بل يُوردون منه ما فيه موضع للنظر فيه وهذا هو الذي صنعه الحافظ رحمه الله هنا ، وكأنه يشير إلى تفرد أبي صالح السمان عن مالك الدار كما سبق نقله عن ابن أبي حاتم ، وهو يُحيل بذلك إلى وجوب التثبت من حال مالك هذا ، أو يشير إلى جهالته)) اهـ .

قلتُ : قال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٩٥) : ((وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري وكان خازن عمر)) اهـ . وهذا الكلام واضحٌ في تصحيح السند كاملاً لعدة أسباب : أ) إن الحافظ لَم يذكر أي انقطاع في السند، ولَم يقل إنه منقطع . ب) الحافظ لَم يقل : بإسناد صحيح إلى أبي صالح وسكت ، ولو فعل هذا لطعن في مالك الدار بكل وضوح ، وإنما قال : بإسناد صحيح من رواية أبي صالح، وأكمل السند بقوله عن مالك الدار ، وأعطى معلومة بأنه كان خازن عمر ، لذلك فكلام الحافظ يسير بسلاسة لا تشير إلى انقطاع بالسند أو عدم تثبت من مالك الدار . ج) لقد أثبتنا أن مالك الدار ليس مجهولاً كما زعم الألباني ، وذلك عن طريق ذكر من رَوَوْا عنه بأسمائهم، وهذا يدحض كلامَ كل من رماه بالجهالة . د) والحجة الدامغة في تأييد ما ذهبنا إليه أن الحافظ في الفتح (١١/ ٩٦) قال بالحرف الواحد : ((ولمسلم من رواية أبي صالح عن أبي هريرة ...)) اهـ . وما قصده الحافظ ابن حجر هو حديث في صحيح مسلم ، فانظر إلى عبارته " من رواية أبي صالح عن أبي هريرة " ولَم يقل " عن أبي هريرة رأساً " ، وهذا ينسف كلامَ الألباني من جذوره . وانظر إلى أسلوب الحافظ في الفتح(١/ ٣٧٣) على سبيل المثال : ((ثبت في الصحيح من رواية أبي عثمان النهدي عن عبد الرحمن

بن أبي بكر الصديق_رضي الله عنهما_)) اهـ. قلتُ: ولم يقل : ثبت في الصحيح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رأساً . وهذا يعكس لنا أسلوب الحافظ في كلامه حول صحة السند . هـ) وماذا تقول عن ابن كثير الذي أورد الحديثَ في البداية والنهاية (٧/ ٩٢) وقال عَقِبه : ((وهذا إسناد صحيح)) ؟! .

وتابع الألباني : ((بل الأثر ضعيف مِن أصله لجهالة مالك الدار كما بَيَّناه)) .

قلتُ : لم تقدر أن تقيم الحجة على جهالة مالك الدَّار ، بل على العكس فقد أقمنا عليك بالحجة بعدم جهالة مالك الدَّار بذكر أسماء الرواة عنه .

وتابع الألباني : ((الثاني : أنها مُخالِفة لِمَا ثبت في الشرع من استحباب إقامة صلاة الاستسقاء لاستنْزال الغيث من السماء ، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة ، وأخذ به جماهير الأئمة)) اهـ .

قلتُ : ليست مخالفة للشَّرع، لأنَّ فِعْلَ الشيء لا يَنفي ما عداه كما هو مُقرَّر، كما أن التَّرك ليس من دلائل التحريم أو الكراهة . فإذا ثبت استحباب صلاة الاستسقاء ، فهذ لا يعني أن التوسل أو الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ من أجل استنْزال الغيث ، أو طلب الدعاء من الصالحين بنية الاستسقاء يُعتبَر مخالفةً شرعية. والدليل أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس _ رضي الله عنهما_ كما مرَّ معنا في صحيح البخاري. فلماذا لَم يَشْرَع عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ في صلاة الاستسقاء مباشرة دون الحاجة إلى التوسل بالعباس _ رضي الله عنه_ ؟! .

وتابع الألباني: ((بل هي مخالفة لما أفادته الآية من الدعاء والاستغفار وهي قوله تعالى في سورة نوح: ﴿ فقلتُ اسْتَغْفِروا ربَّكم إنه كان غفاراً يرسل السماءَ عليكم مدراراً ﴾ [الآيتان ١٠و١١] .

وهذا ما فعله عمر بن الخطاب حين استسقى ، وتوسل بدعاء العباس ، كما سبق بيانه ، وهكذا كانت عادة السلف الصالح كلما أصابهم القحط أن يُصلوا ويَدعوا ، ولم ينقل عن أحد منهم مطلقاً أنه التجأ إلى قبر النبيِّ ﷺ وطلب منه الدعاء للسُّقيا، ولو كان ذلك مشروعاً لفعلوه ، ولو مرة واحدة ، فإذا لم يفعلوه دَلَّ ذلك على عدم مشروعية ما جاء في القصة)) اهـ .

قلتُ : هذا الكلام احتوى على مغالطات مقصودة أو غير مقصودة :

أ) ليست مخالفة لما أفادته الآية من الاستغفار ، لأن التوسل أو الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ يشتمل على معنى الاستغفار والتوبة النصوح، والتوسل إلى اللهِ بالنبيِّ ﷺ لأن يَقبل اللهُ التوبةَ والاستغفارَ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنهم إذ ظَلموا أَنفُسَهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ [النِّساء: ٦٤]. فقد عَلَّق اللهُ قُبولَ استغفارهم باستغفاره ﷺ . وذلك صريح في الدلالة على جواز التوسل به كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ . وصريح كذلك بأن التوسل يشتمل

على معنى الاستغفار . والآية واضحة وقاطعة في طلب المجيء إلى النبيِّ ﷺ ، إذ إن (جاؤوك) واقعة في حَيِّز الشرط مما يدل على العموم ، وهي غير مُقيَّدة بحال حياة النبيِّ ﷺ ، بل النص عام ، والعِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والتخصيص بحال الحياة يحتاج إلى دليل ، ولا دليل . كما أن الأنبياء أحياء في قبورهم وعند ربهم . وقد بحثنا دلالة هذه الآية الشريفة في موضع سابق ، ووضَّحْنا أن (إذ) تفيد المستقبل أيضاً ، فلتُراجَع في ذلك الموطن . وراجع كذلك قصة العُتبي التي أوردناها في موضع سابق لمزيد الفائدة .

ب) قولك " وهذا ما فعله عمر بن الخطاب حين استسقى وتوسل بدعاء العباس " حُجَّةٌ عليك لا لك ، وتنسف بنيانك الفكري ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فقلتُ اسْتَغْفِروا ربَّكم إنه كان غفاراً يرسل السماءَ عليكم مدراراً ﴾ ، ولم يقل : فقلتُ استسقوا وتوسَّلوا بدعاء الصالحين من أجل استنْزال الغيث، فها أنتَ اعتبرتَ الاستسقاء والتوسل بدعاء العباس ضَرْباً من الاستغفار، وهذا ما نقوله ، لذلك فقد دعمتَ دليلَنا من حيث لا تدري ، وهدمتَ بنيانك بنفْسك .

ج) أمَّا قولك "ولم ينقل عن أحد منهم مُطْلَقاً أنه التجأ إلى قبر النبيِّ ﷺ وطلب منه الدعاء للسُّقيا، ولو كان ذلك مشروعاً لفعلوه ، وَلَوْ مرة واحدة ، فإذا لم يفعلوه دَلَّ ذلك على عدم مشروعية ما جاء في القصة " . فهو يعكس انهيار المنهج العِلمي الذي تعتنقه لاعتماد الأدلة الشَّرعية . فالأحكام الشرعية لا تؤخذ من أفعال السلف الصالح ، لأنَّ قَوْلَ السلفِ أو فِعْلَه ليس حُجَّةً مِن حُجَج الشَّرع . وحُجِّيةُ قَولِ الصحابي أو فِعْلِه فيها كلام كثير ، سنوضحه في كتابنا هذا فيما بعد ، فليُراجَع في موطنه . كما أنَّ ترك النبيِّ ﷺ أو صحابته ــ رضوان الله عليهم ــ لشيء ما، لا يستلزم التحريمَ أو الكراهة ، لأن الأحكام الشرعية ينبغي أن تُؤخَذ من نصوص شرعية واضحة وحاسمة لا تحتمل التأويل. فالتَّرك هو محل الاحتمال،وما طَرَأ عليه الاحتمال سقط به الاستدلال. وكل ما له مُستنَد من الشَّرع فليس بِبِدعة، ولو لَم يعمل به السلف،لأنَّ تَرْكَهم للعمل بِه قد يكون لِعُذْر قام لهم في الوقت، أو لِمَا هو أفضل منه ، أو لعله لَم يبلغ جميعهم عِلْم به. كما أن الصحابة ابتدعوا أشياء رَأَوْها حسنةً لَم تصدر عن النبيِّ ﷺ ، وهو الإنسان الوحيد الذي يملك حق التشريع، مِثْل : جمع القرآن ، وتأخير عمر بن الخطاب لمقام إبراهيم ﷺ، وزيادة الأذان الأول يوم الجُمُعة،وزيادة ابن عمر لعبارة" وَحْدَه لا شريك له" في التشهد . وسيأتي بيان هذا بالأدلة الشرعية في " مسألة البدعة " في هذا الكتاب لاحقاً ، فانظرها في موطنها .

وتابع الألباني : ((هَب أن القصة صحيحة ، فلا حُجَّة فيها ، لأن مدارها على رَجل لم يُسَمَّ فهو مجهول أيضاً، وتسميته بلالاً في رواية سيف لا يساوي شيئاً ، لأن سيفاً هذا ــ وهو ابن عمر التميمي ــ

متفق على ضعفه عند المحدثين، بل قال ابن حبان فيه : " يروي الموضوعات عن الأثبات ، وقالوا : إنه كان يضع الحديث " . فمن كان هذا شأنه لا تُقبَل روايته ولا كرامة لا سِيَّما عند الْمُخالَفة)) اهـ.

قلتُ : هَبْ أن ما تقوله صحيح ، فالعِبرة ليست هنا ، والحجة لا تتوقف على تسمية الرَّجل من عدمه ، بل تتوقف على وجود الصحابة_ رضي الله عنهم _ في مسجد النبيِّ ﷺ ، وهم يشاهدون هذا الفِعْل، ولم يقم أحد بالإنكار عليه مُطْلقاً. وَلَوْ كان هذا الأمر شِرْكاً أو تطاولاً على النبيِّ ﷺ هل سيصمتون على وجود مشرك داخل المسجد ، يُترَك يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء في حضرة النبيِّ ﷺ دون أن يتفوه أي صحابي بكلمة ؟! . ومن قال بهذا ، فقد طعن في الصحابة بشكل واضح ، ورماهم بالذل والمهانة والخيانة. فالذي يقتحم المعارك مُقبِلاً على الموت غير خائف ، هل سيخاف من الإنكار على رَجُل أمام قبر النبيِّ ﷺ ؟! . كما أن سند الحديث عند ابن أبي شيبة هو : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار وكان خازن عمر. فإذا أردتَ الطعن في الحديث فأمامك المتن والسند، ولا تذهب إلى أمور التفافية لا علاقة لها ببحثنا. ونقول لك : أثبِت العرش ثم انقش، ولا تكتب على الماء .

وتابع الألباني:((الفرق بين التوسل بذات النبيِّ ﷺ وبين طلب الدعاء منه.الوجه الرابع أن هذا الأثر ليس فيه التوسل بالنبيِّ ﷺبل فيه طلب الدعاء منه بأن يَسقيَ الله تعالى أُمَّته،وهذه مسألة أخرى)).

قلتُ : إن التفريق بين ذات النبيِّ ﷺ والإيمان به ، أو الدعاء منه ، تفريقٌ بِدْعي لا دليل عليه البَتَّة . فكلمة التوحيد : لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله ، أُضيف اسم " محمد " وهو اسم عَلَم يدل على ذات النبي ﷺ إلى اسم الله تعالى . أي أُضيفت ذات النبيِّ ﷺ إلى الذات الإلهية . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنهم إذ ظَلموا أَنفُسَهم جاؤوك فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾ [النِّساء : ٦٤]. والمخاطَب هو ذات النبيِّ ﷺ، والأمر بالمجيء إنما هو لذات النبيِّ ﷺ. والآيات القرآنية متضافرة حول ذات النبيِّ ﷺ . وبالتالي فَبِدعة التفريق بين ذات النبيِّ ﷺ وأفعاله لا وزن لها لأنها لا دليل عليها، وإنما اخترعها ابن تيمية ، وتابعه الذين ينسخون أقوالَه دون إعمال عقولهم ، وهي ضد الشرع تماماً ، وقد تُوصِل إلى الكفر ، لِمَا تحمله من تجاوز بحق ذات النبيِّ ﷺ التي كَرَّمها الله تعالى، وجعلها أفضل ذوات المخلوقين .

وفي صحيح البخاري (١/ ٣٤٢) : عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه قال : سمعتُ ابن عمر يتمثل بِشِعْر أبي طالب :

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ

وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٩٦): ((وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة)) اهـ . وقال التجاني في كتابه الفوز والنجاة (ص ٢٠٩) : ((فهذه الرؤيا وإن كانت حقاً لا تثبت بها الأحكام لإمكان اشتباه الكلام على الرائي)) اهـ .

قلت : وإنما الاستدلال بِفِعْل أحد الصحابة الذي جاء إلى قبر النبيِّ ﷺ ، وطلبَ منه أن يَستسقيَ لأُمَّته ، ولا يخفى أن هذه استغاثة . والمسجد ممتلئ بأكابر الصحابة ، فلم يُنكر عليه أحد. وهذا إجماع سُكوتي وفيه دلالة قاطعة على اعتقاد الصحابة أنَّ النبيَّ ﷺ حَيٌّ في قبره، وأنه يُستغاث به . إذ لَوْ كان مَيْتاً لكان مخاطبته مَضيعة للوقت . وقد يقول أحدهم إنَّ الإجماع السكوتي دلالته ظنية لا يقينية، فنقول له إن كلامك هذا صحيح ، لكنه لا ينطبق على هذه الحالة ، لأن المسجد مليء بالصحابة، ولم يعترض منهم أي أحد، فلو كان الأمر مُنكَراً لاعترضَ واحدٌ منهم على الأقل، وإذا قلنا بأن الأمر منكر والصحابة كلهم ساكتون عليه ، فهذا طعن لا يليق بالصحابة الكرام _ رضي اللهُ عنهم _. وهذا دليلٌ باهر على أن لا فرق بين الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ حَيَّاً وَمَيْتاً ، لأن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ على وجه التحقيق أحياء في قبورهم، وأحياء عند ربهم .

وقال عمر بن حمزة حدثنا سالم عن أبيه:ربما ذَكَرْتُ قَوْلَ الشاعر، وأنا أنظرُ إلى وجه النبيِّ ﷺ يستسقي فما يَنْزِل حتى يَجيش كُلُّ مِيزاب . اهـ . وقد حسَّن الألباني الحديثَ في سُنن ابن ماجة(١/ ٤٠٥) ، ولكنْ يَبدو أنه لا يَعرف معنى الحديث.فالغمام يُسْتَسْقَى بوجه النبيِّﷺالذي هو جُزْءٌ مِن ذاته الشريفة ، وهذا دليل ساطع على أن الاستسقاء بذات النبيِّ ﷺ مشروع ، ويَنسف بِدعة التفريق بين ذات النبيِّ ﷺ ودعائه أوالإيمان به . كما أن مجيء الرَّجل إلى قبر النبي ﷺ بعد وفاته ، ومخاطبته للنبي ﷺ واقفاً أمام قبره الشريف بلا نكير من الصحابة الموجودين دليل باهر على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ في حال وفاته، لأن الأنبياء كلهم أحياء يَسمعون ويَرَوْنَ ويُغيثون ، ويقضون الحوائج بإذن الله تعالى ، ويُطلَب منهم الدعاء أحياءً وأمواتاً ، ودعاء الأنبياء مُستجاب . [ثِمالُ اليتامى : مُطْعِمُهم والقائمُ بأمورهم . عِصْمةٌ للأرامل : حافظُهنَّ ومانعُهنَّ مِن الضَّرر] .

[٨] عن ابن عباس قال : ((إنَّ للهِ مَلائكةً في الأرضِ سِوى الْحَفَظةِ ، يَكتبون ما سقط من ورق الشجر ، فإذا أصابت أحَدَكُم عُرْجةٌ في سَفَرٍ ، فَلْيُنادِ: أعينوا عِبادَ اللهِ، رَحِمَكُم اللهُ))[19].

قلتُ : ولا يخفى أن هذا الكلام استغاثة بغير الله تعالى ، وبمخلوقات لا نراهم ، مع اعتقاد أن الفاعل الحقيقي والْمُؤثِّر هو الله وَحْدَه. وهذا الحديث له حُكْم المرفوع ، لأنه أمرٌ غيبيٌّ لا يمكن لابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن يَعلمه دون أن يكون قد سَمِعَه مِنَ النبيِّ ﷺ .

[٩] وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٢٧) أنَّ ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال في قِصَّة هاجر وزمزم : ((فلمَّا أشرفتْ على الْمَرْوةِ سَمِعَتْ صَوتاً ... فقالت : قد أسمعتَ ، إن كان عندك غَواث)) .

قلتُ : وقد طلبت الغَوْثَ من مخلوق لا تراه ، وإنما تسمع صوتاً يدل عليه ، فاستغاثت به، أي إنها استغاثت بغير الله تعالى. وهذا دليل آخر على جواز الاستغاثة بالمخلوقين مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفاعل .

إثبات حياة الأنبياء والأولياء :

[١]قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤]. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون ﴾ [آل عِمران : ١٦٩].

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٧٣) : ((والشهداء أحياء كما قال الله تعالى وليس معناه أنهم سَيَحْيَوْنَ ، إذْ لَوْ كان كذلك لَم يكن بين الشهداء وبين غَيرهم فرق ، إذ كل أحد سيحيا ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ ﴾)) اهـ .

فالشهداءُ أحياء يُرزَقون . ومن البديهي أن الأحياء لهم قدرة وتأثير خاضع لمشيئة الله تعالى . فإذا ثَبَتَ الشيءُ ثَبَتَتْ لوازمُه . وبما أن الحياة ثابتة ، إذن، لوازمها ثابتة أيضاً . ومَن كان هذا حاله

---

(١٩) رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح (٦/ ٩١) برقم (٢٩٧٢١) . وقد عَقَدَ الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٧) باباً أسماه" ما يقول إذا انفلتت دابته أو أراد غَوثاً أو أضل شيئاً". وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٧) : ((فَكُلُّ عُرجةٍ نزلة)).

فكيف يتعذر عليه تقديم العَون والإغاثة والمساعدة بأمر الله تعالى ؟!. ومن المعلوم من الدِّين بالضرورة أن الأنبياء أعظم من الشهداء،فمن باب أولى أن يكونوا أحياء. وكذلك أولياء الله تعالى.

فمن تَوَسَّل بالأنبياء والأولياء واستغاث بهم ، لم يتوسل أو يستغث بموتى على وجه التحقيق، بل بأحياء لهم قدرة وتأثير غير استقلالي ، وإنما خاضع لمشيئة الله وقدرته . فالواجب اعتقاده أن المراد من الاستغاثة والتوسل بالأنبياء والصالحين هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود، وأن الله هو الفاعل كَرامةً لهم ، لا أنهم الفاعلون استقلالاً .

لذلك كانت كل خصائص النُّبُوَّة محفوظة للنبيِّ ﷺ حياً ومَيْتاً بما فيها مِن مُعْجِزات وغَيْرِها . وكذلك كرامات الأولياء باقية في حياتهم ومماتهم . وكل مَن جاز التبرك به حياً جاز التبرك به ميتاً . مع الانتباه إلى أن إطلاق لفظة الميت على النبي أو الولي من باب المجاز، وإلا فهم على وجه التحقيق غير موتى ، وإنما نحن الموتى ! .

قال ابن حزم في المحلى (١/ ٢٥) : ((وأمَّا الشهداء فإنَّ اللهَ_عَزَّ وَجَلَّ_ يقول ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ ﴾... ولا خلاف بين المسلمين في أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قَدْراً ودرجة وأتم فضيلة عند الله عز وجل وأعلى كرامة مِن كُلِّ مَن دونهم . ومَن خالفَ في هذا فليس مسلماً)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٤) : ((الأنبياء أحياء عند الله، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا . وقد ثبت ذلك للشُّهداء ، ولا شك أن الأنبياء أرفع رتبة من الشهداء ، وورد التصريح بأن الشهداء مِمَّن استثنى الله)) اهـ .

[٢] كما يجب علينا أن نعتقد أن أجساد الأنبياء محفوظة لا تَبْلى، فهذه الأجساد الطاهرة النقية التي عاشت في طاعة الله تعالى ، وماتت كذلك ، إنما هي أجساد عامرة بنور الإيمان ، وحرامٌ على الأرض أن تأكلها، فعن أوس بن أوس الثَّقفيِّ_ رضي اللهُ عنه_ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ((فَإِنَّ صَلاتَكم مَعروضةٌ عليَّ))، قالوا : وكيف صَلاتُنا تُعرَض عَلَيْكَ وقَد أرِمْتَ ؟ ، قال : ((إِنَّ اللهَ عز وجل قد حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) [20].

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٤١٣) برقم (١٠٢٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقد يظهر إشكال عند البعض بسبب الحديث الذي رواه أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ﷺ قال: ((ما مِن أحد يُسَلِّمُ عليَّ إلا رَدَّ اللهُ عليَّ رُوحي حتى أَرُدَّ عليه السلام))[21].

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٨): ((ووجه الإشكال فيه أن ظاهره أن عَوْدَ الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه وهو الموت. وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة أحدها أن المراد بقوله :((رَدَّ اللهُ عليَّ روحي)) أن رد روحه كانت سابقة عَقِب دفنه ، لا أنها تُعاد ثُمَّ تُنْزَع ثُمَّ تُعاد)) اهـ.

قلتُ : ومُحال أن تنقطع الصلاة على النبيِّ ﷺ طوال اليوم ، إذ إنه لا يخلو هذا الكوكب من وجود مسلم يُصلِّي عليه في النهار أو الليل . إذن ، فالنبيُّ ﷺ ذو حياة مُتَّصلة لا تنقطع .

[٣] قال رسول الله ﷺ : ((حياتي خيرٌ لكم تُحْدِثون ويُحْدَث لكم ، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرَض عليَّ أعمالُكم ، فما رأيتُ مِن خَيرٍ حَمِدْتُ اللهَ عليه ، وما رأيتُ مِن شَر استغفرتُ لكم))[22].

قلتُ : واعتماداً على هذا الحديث فإن التوسل بالنبيِّ ﷺ أو الاستغاثة به ﷺ بعد وفاته سوف يُعْرَض عليه كما تُعرَض عليه كل الأعمال ، وسوف يَعلم به لا مَحالة ، وحاشاه ﷺ أن يُخيِّب من وضع ثقته فيه بعد الله تعالى .

وقال السُّبكي في الطبقات (١/ ٣٢٧): ((والناس من خمسمائة وثلاث وستين سنة يَخْطُبون في مسجد رسول الله ﷺ ... وهو ﷺ حاضر يُبصِر ويَسمع)) اهـ .

وفي السيرة الحلبية (٢/ ٤٣٢) أن السُّبكي قال : ((حياة الأنبياء والشهداء كحياتهم في الدنيا ، ويشهد له صلاة موسى عليه السلام في قبره ، فإن الصلاة تستدعي جسداً حياً ، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ، ولا يَلزم مِن كَونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب . وأمَّا الإدراكات كالعِلْم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ولسائر الموتى)) .

---

(٢١)رواه أبو داود في سُننه(١/ ٦٢٢)برقم (٢٠٤١)، وصححه النووي في المجموع (٨/ ٢٠٠).

(٢٢) قال الحافظ الهيثمي في المجمع (٨/ ٥٩٤) : ((رواه البَزَّار ورجاله رجال الصحيح)) اهـ ، وقال عنه الحافظ العراقي في طرح التثريب (٣/ ٢٩٧) : ((إسناده جيِّد)) ، وصحَّحه السُّيوطي في الخصائص (٢/ ٢٨١) .

[٤] في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((الأنبياءُ أحياءٌ في قُبورِهم يُصَلُّون))[23].

قال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٨٧) : ((وقد جمع البَيهقيُّ كتاباً لطيفاً في حياة الأنبياء في قبورهم ، أورد فيه حديث أنس : الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون. أخرجه من طريق يحيى بن أبي كثير وهو من رجال الصحيح عن الْمُستلِم بن سعيد ، وقد وثَّقه أحمد وابن حبان عن الحجَّاج الأسود وهو ابن أبي زياد البصري ، وقد وثَّقه أحمد وابن مَعين ، عن ثابت عنه وأخرجه أيضا أبو يعلى في مسنده من هذا الوجه)) اهـ .

[٥] في صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٥) أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((مَرَرْتُ على مُوسى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِندَ الكَثيب الأحمر ، وهو قائم يُصلِّي في قَبره)) .

وهذا يُثبِت أن النبيَّ موسى ﷺ حَيٌّ في قبره . ووَصْفُه بأنه قائمٌ يُصلِّي يدل على وجود الرُّوح والجسد معاً ، إذ إن وصفه بالصلاة وأنه قائم ، يتطلب وجود جسد حَي . وَلَوْ كانت القضيةُ مُتعلِّقةً بالرُّوح لَم يُحْتَجْ إلى تخصيصه بالقبر .

وقال الْمُناوي في فَيض القدير(٥/ ٥١٩ و٥٢٠): ((أي يدعو الله ، ويُثني عليه ، ويذكره، فالمراد الصلاة اللغوية ، وقيل المراد الشرعية ، وعليه القرطبي ، فقال : الحديث بظاهره يدل على أنه رآه رؤية حقيقية في اليقظة، وأنه حَي في قبره يُصلِّي الصلاة التي يُصلِّيها في الحياة، وذلك ممكن ولا مانع من ذلك ، لأنه إلى الآن في الدنيا ، وهي دار تعبُّد . فإن قيل : كيف يُصَلُّون بعد الموت وليس تلك حالة تكليف ؟، قلنا : ذلك ليس بحُكم التكليف ، بل بحُكم الإكرام والتشريف، لأنهم حُبِّب إليهم في الدنيا الصلاة فَلزموها ، ثُمَّ تُوُفُّوا وهُم على ذلك ، فتشرَّفوا بإبقاء ما كانوا يَحْيَوْنَ عليه ، فتكون عبادتُهم إلهامية كعبادة الملائكة ، لا تكليفية، ويدل عليه خبر :

---

(٢٣) رواه أبو يعلى (٦/ ١٤٧) برقم (٣٤٢٥). قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٨٦) : ((ورجال أبي يعلى ثقات)) اهـ . وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٣/ ٣٠٤) : ((وقد ذهب جماعة من المحققين إلى أن رسول الله ﷺ حي بعد وفاته، وأنه يُسَرُّ بطاعات أمته ، وأن الأنبياء لا يَبْلَوْنَ ، معَ أن مُطلَق الإدراك كالعِلم والسَّماع ثابت لسائر الموتى ... وقد ثبت في الحديث أن الأنبياء أحياءٌ في قُبورهم ، رواه المنذري وصحَّحه البيهقي)) اهـ . وقال الحارث التميمي في اعتقاد الإمام المبجَّل ابن حنبل (١/ ٣٠٣) : ((وكان يقول إن الأنبياء أحياء في قبورهم يُصَلُّون)) اهـ .

يموت الرَّجلُ على ما عاش عليه ، ويُحْشَر على ما ماتَ عليه [24] . ولا تدافع بين هذا وبين رؤيته إيَّاه تلك الليلة في السماء لأن للأنبياء مراتع ومسارح يتصرَّفون فيما شاؤوا ثم يرجعون ، أو لأن أرواح الأنبياء بعد مُفارَقة البدن في الرَّفيق الأعلى ، ولها إشراف على البدن وتعلق به يتمكنون من التصرف والتقرب، بحيث يَرُدُّ السلامَ على الْمُسَلِّم . وبهذا التَّعلق رآه يُصلِّي في قبره ، ورآه في السماء ، فلا يلزم كَوْن موسى عُرِجَ به مِن قَبره ، ثُمَّ رُدَّ إليه، بل ذلك مقام رُوحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم مَعاد الأرواح لأبدانها ، فرآه يُصلِّي في قبره ، ورآه في السماء ، أي كما أن نَبِيَّنا بالرفيق الأعلى ، وبدنه في ضريحه يَرُدُّ السلامَ على مَن سَلَّمَ عليه . ومَن كَثُفَ إدراكُه، وغَلُظَ طَبْعُه عن إدراك هذا فلينظر إلى السماء في عُلُوِّها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان ، وإلى النار كيف تؤثر في الجسم البعيد معَ أن الارتباط الذي بين الروح والبدن أقوى وأتم وألطف ، وإذا تأملت هذه الكلمات ، علمتَ أن لا حاجة إلى ما أُبْدِيَ في هذا المقام من التكلفات والتأويلات البعيدة التي منها أن هذا كان رؤية منام ، أو تمثيل ، أو إخبار عن وَحْي لا رؤية عَيْن)) اهـ .

[٦]في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال عن المسيح ﷺ في آخر الزمان : ((لَئِنْ قامَ على قَبري فقالَ : يا مُحمَّد ، لأُجِيبَنَّه))[25].

قلتُ : وَلَوْ كان النبيُّ ﷺ مَيْتاً أو عَدَماً ، لكانت مخاطبته مضيعة الوقت ، فانظر إلى الخطاب ، وانظر إلى قدرة النبي ﷺ على الإجابة ، فهذا دليلٌ باهر على الحياة والسَّمع والكلام بعد الموت . ولا شك أن النُّبُوَّة والرسالة ثابتتان للنبيِّ ﷺ في حياته وبعد مَوْته . كما أن النبيَّ ﷺ يمكن رؤيته في المنام واليقظة على حَدٍّ سَواء .

وقال الألوسي في روح المعاني (٢٢/ ٣٥) : ((وبقاء النُّبُوَّة والرسالة بعد الموت في حَقِّه وحق غيره من الأنبياء والمرسَلين عليهم السلام حقيقة مما ذهب إليه غير واحد ، فإن الْمُتَّصف بهما وكذا بالإيمان ، هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن . نعم ذهب الأشعري كما قال

(٢٤) رواه مسلم (٤/ ٢٢٠٦) في صحيحه بلفظ : ((يُبعَث كُلُّ عَبْدٍ على مَا مَاتَ عَلَيْهِ)) .

(٢٥) رواه أبو يعلى (١١/ ٤٦٢).وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٨٧) : ((هو في الصحيح باختصار، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح)) اهـ . قلتُ : والعجيب أن الألباني صحَّحه في السلسلة الصحيحة (٦/ ٢٣٦) ، لكنه لا يَعرف القضايا المرتبطة بهذا الحديث .

النَّسفي إلى أنهما بعد الموت باقيان حُكماً... وجَوَّز أن يكون ذلك بالاجتماع معه_ عليه الصلاة والسلام_ روحانية ولا بِدْع في ذلك، فقد وقعت رؤيته ﷺ بعد وفاته لِغَير واحد من الكاملين من هذه الأُمَّة، والأخذ منه يقظة)) اهـ .

[٧] في صحيح مسلم (١/ ١٥٢) برقم (١٦٦) : عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ مَرَّ بوادي الأزرق ، فقال : ((أيُّ وَادٍ هذا ؟)) ، فقالوا : هذا وادي الأزرق ، قال : ((كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً مِنَ الثَّنية، وله جُؤار إلى الله بالتَّلبية)) ، ثم أتى على ثَنِيَّةِ هَرْشي فقال: ((أيُّ ثَنِيَّةٍ هذه ؟)) ، قالوا : ثنية هَرْشي ، قال: ((كأني أنظر إلى يُونُس بن مَتَّى عليه السلام على ناقة حمراء جَعْدة ، عليه جُبَّة مِن صُوف ، خِطام ناقته خُلْبَة ، وهو يُلَبِّي)) [26].

وهذا ليس خَيَالاً ، أو تصوراتٍ غير واقعية . فالأنبياءُ أحياء ، وليس غريباً أن يُصَلُّوا ويحجُّوا ويقوموا بالطاعات على أكمل وجه ، فهُم لا يَزالون في الدنيا (دار التكليف) . وهذه الرُّتبةُ السامية من أداء العبادات بعد الموت خاصة بهم بسبب عُلُو مَنْزلتهم عند الله تعالى .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٧) شارحاً الحديث : ((وقد قيل عن ذلك أجوبة أحدها : أن الأنبياء أفضل من الشهداء ، والشهداء أحياء عند ربهم فكذلك الأنبياء ، فلا يَبْعُد أن يُصَلُّوا وَيَحُجُّوا ويتقرَّبوا إلى الله بما استطاعوا ما دامت الدنيا، وهي دار تكليف باقية . ثانيها : أنَّه ﷺ أُرِيَ حالَهم التي كانوا في حياتهم عليها،فَمُثِّلوا له كيف كانوا، وكيف كان حَجهم وتلبيتهم... وثالثها : أن يكون أَخبر عمَّا أُوحِيَ إِلَيه ﷺ من أمرهم وما كان مِنهم، فلهذا أدخل حرف التشبيه في الرواية، وحيث أطلقها فهي محمولة على ذلك ، والله أعلم)) اهـ .

[٨] مِنَ الْمُسَلَّم به أنَّ النبيَّ ﷺ قد صَلَّى إماماً بالأنبياء_عليهم الصلاة والسلام_في الإسراء ، وهذا متواتر . مِمَّا يدل دلالة قاطعة على أنهم أحياء يُرزَقون ، ولهم أفعال وأقوال .

وقد ورد في الحديث الصحيح عن ابن عباس مرفوعاً : ((مَا مِن أحدٍ يَمُرُّ بقبر أخيه المسلم في الدنيا ، إلا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَه ، حتى يَرُدَّ عليه السلام))[27].

---

(٢٦) جُؤار : رَفْع الصَّوت . ثَنِيَّةُ هَرْشي : جبل على طريق الشام والمدينة . الجَعْدة : مُكتنِزة اللحم . الخِطام : الحبل الذي يُقاد به البعير . الخُلْبة : الليف .

(٢٧)قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٩): ((رواه ابن عبد البَر مُصَحِّحاً له)) اهـ. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٨٧) : ((وأفاد الحافظ العراقي أن ابن عبد البَر خرَّجه في التمهيد والاستذكار

قلتُ: إذا كان هذا حال المسلم العادي ، فما بالك بالأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ؟! .

وقال الألوسي في روح المعاني (١٥/ ١٦٣) : ((ليس نَصَّاً في أن الرُّوح على القبر، إذ يُفهَم منه أن الذي في القبر حقيقته النفسانية المتصلة بالروح اتصالاً لا يَعْلَم كُنْهَه إلا اللهُ تعالى . وللروح مع ذلك أحوال وأطوار لا يَعلمها إلا الله تعالى، فقد تكون مستغرقة بمشاهدة جمال الله تعالى وجلاله سبحانه ، ونحو ذلك . وقد تصحو عن ذلك الاستغراق ، وهو المراد بِرَدِّ الروح في خبر " ما مِن أحد يُسلِّم عليَّ إلا رَدَّ اللهُ تعالى رُوحي فأردُّ عليه السلام "، والذي ينبغي أن يُعَوَّل عليه مع ما ذُكر أن الأرواح وإن اختلف مستقرها بمعنى محلها الذي أُعطيته بفضل الله تعالى جزاء عملها لكن لها جَوَلاناً في مُلْك الله تعالى حيث شاء جل جلاله ، ولا يكون إلا بعد الإذن وهي متفاوتة في ذلك حسب تفاوتها في القُرب والزُّلفى مِنَ الله تعالى)) اهـ .

تفنيد شُبهات المعارِضين للتوسل والاستغاثة :

يجب أن نعلم أن البعض لا يُعْمِل عقله بالمرة ، لذلك تراه يتعصب لأقوال الرجال . وفي رأيي المتواضع أن الشبهات التي أثارها ابن تيمية ونَسَّقها قد رددنا عليها رداً علمياً دقيقاً . وسوف نستمر في الرد على باقي الشبهات، مع اعتقادنا أننا نسفنا كل الشبهات بما قدمناه من أدلة دامغة، إلا أن القلوب ضعيفة والشُّبَه خَطَّافة_ كما يقولون _ . وللأسف فإنهم عَمَدوا إلى آيات نزلت في عبدة الأصنام، فَطَبَّقوها على المسلمين الْمُوحِّدين ، وهم بذلك يكونون قد استلهموا أحد مبادئ الخوارج الذين استباحوا دماء المسلمين ، وذلك بإنزال الآيات الخاصة بالكافرين على المسلمين .

بإسناد صحيح من حديث ابن عباس ، ومِمَّن صَحَّحه عبد الحق بلفظ : ما مِن أحدٍ يَمُرُّ بقبر أخيه = =المؤمن كان يعرفه في الدنيا فَيُسلِّم عليه إلا عَرَفه وَرَدَّ عليه السلام)) اهـ .وفي كَنْز العُمَّال (١٥/ ١٠٢٠): ((عن أبي هريرة وسنده جيِّد)) اهـ . وفي عُمدة القاري (٨/ ٦٩) : ((عند ابن عبد البَر بسند صحيح)) اهـ. قلتُ: مع الانتباه إلى اختلاف ألفاظ هذا الحديث التي يُصحِّحها العلماء. وقد ضعَّفه الألباني بلفظ : ((مَا مِن عَبْدٍ يَمُرُّ بقبر ...)) في الجامع الصغير (١/ ١١٩٩) ، والسلسلة الضعيفة برقم(٩/ ٤٩٥) ، في حِين أنَّ إمامَه ابن تيمية صَحَّحه في مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٣) بلفظ : ((وما مِن رَجل يَمُرُّ بقبر الرَّجل ...)) اهـ .

[١] احتجوا بالآية الشريفة : ﴿ وَمَنْ أَضَل مِمن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِم غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]. فقالوا إن التوسل أو الاستغاثة دعاءٌ لِغَير الله تعالى ، وبالتالي ففاعلها كافر خالد في النار ! ، وهم بهذا نقلوا المسألة من مسائل الفروع إلى مسائل العقيدة ، فَكَفَّروا المسلمين الْمُوحِّدين .

فنقول رداً على استدلالهم بالآية السابقة إن التوسل والاستغاثة لَيْسا دعاء لغير الله ، فالدعاء إنما يكون للهِ وَحْدَه . وكما هو معلوم فإن القياس مع الفارق باطل. أَمَّا تأويل الآية ، فقد قال الطبري في تفسيره (٢٦ / ٤): ((يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب له إلى يوم القيامة ، يقول : لا تجيب دعاءه أبداً لأنها حَجر أو خشب أو نحو ذلك)) اهـ .

ونحن عندما نتوسل ونستغيث بالأنبياء والصالحين ، لا نستغيث بآلهة مع اللهِ ، وإنما بعبادٍ مُكَرَّمين قريبين من الله ، سَمَحَ لنا الشرعُ بالتوسل والاستغاثة بهم ، مع اعتقادنا أن الفاعل الْمُؤثِّر هو الله وَحْدَه . وهكذا يتهاوى استدلالُهم .

[٢] احتجوا كذلك بقوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم وَلَو سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُم وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُم ﴾ [فاطر : ١٤] .

قال الطبري (٢٢/ ١٢٥): ((إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، يقول : ولو سمعوا دعاءكم إيَّاهم وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جُعل لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم ، لأنها ليست ناطقة ، وليس كل سامع قولاً مُتيسِّراً له الجواب عنه)) اهـ .

إن الآية نزلت في المشركين الذين اتخذوا آلهة مع الله تعالى ، وهذا منفيٌّ عن المسلمين الموحِّدين الذين يتوسلون ويستغيثون بالأنبياء والصالحين على أنهم عباد لله كرام لا آلهة مع الله تعالى ، فما ينطبق على المشركين لا ينطبق على المسلمين . فمن العبث محاولة إسقاط مفاهيم الآيات المتعلقة بالمشركين وأوضاعهم العَقَدية على المسلمين . وللأسف فهذه منهجية المنحرفين الذين يُسَمُّون أنفسهم عُلماء ، وهم أبعد ما يكون عن منهجية العلماء الرَّبانيين العاملين الذين يُقدِّسون الكتاب والسُّنة الصحيحة ، لا أقوال السلف أو الخلف .

[٣] احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ [يُونُس : ١٨] .

قال القرطبي (٨/ ٣٠٨) : ((فلا يشفع أحدٌ نبيٌّ ولا غَيْرُه إلا بإذنه سُبحانه ، وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فأعْلَمهم الله أن أحداً لا يَشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تَعْقِل)) اهـ .

ويَتَّضح أن هذه الآية نزلت في الكفار الذين اتخذوا الأصنام لكي تَشفع لهم عند الله تعالى، فهُم ذهبوا إلى أصنام آلهة لكي تشفع لهم عند الله، وهذا شِرْك واضح، فهم لا يؤمنون بِوَحدانية اللهِ ، وأفكارهم بُنِيَت على الشِّرك . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . أمَّا الأنبياء والصالحون فَيَشفعون عند الله تعالى بإذنه [28].

وإليك الآيات القرآنية الشريفة التي احتجَّ بها القائلون بمنع التوسل والاستغاثة بلا حُجَّة مُعتبَرة مع شرح مختصر لكل آية : ﴿ ما نعبدهم إلا لِيُقرِّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ [الزُّمر :٣] . لقد صَرَّحت الآيةُ بأن هناك عبادة لأشخاص ، وهذا غير موجود في التوسل والاستغاثة ، وبالتالي يسقط الاستدلال بها في هذا السياق . ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجن : ١٨] . هذا دعاء شِرْكي مع الله تعالى ، وإشراك الخلق مع الخالق، والمتوسل والمستغيث يعلم أن لا شريك للهِ ، وإنما هو إله واحد، فيسقط الاستدلال. ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ [الرعد: ١٤]. هذا دعاء لمن لا يستجيب ، والمتوسل أو المستغيث لا يدعو إلا الله ، ولا يشرك به أحداً ، فالنافع والضار هو الله وَحْدَه . ﴿ يومَ لا تملك نَفْسٌ لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[الانفطار: ١٩]. لا وجه للاستدلال بهذه الآية على منع التوسل أو الاستغاثة ، لأنها تُقرِّر أن الله وَحْدَه هو الْمُتصرِّف في هذا الكون، وهذا ما يُؤمِن به الْمُتوسِّل والْمُستغيث ، ولا يُجادل فيه . ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾[آل عِمران : ١٢٨] . هذه الآية تُوضِّح أن الأمرَ كُلَّه للهِ وَحْدَه ، وأن الله يَفعل ما يُريد، وأن النبيَّ ﷺ يُنفِّذ مشيئة الله خاضعاً له بإرادته ورَغْمَ أنفه . ولا يكون الإنسان مسلماً بدون هذه العقيدة ، ولكننا نقول إن الله قادر على إجراء النفع والضرر على أيدي عباده من باب الأسباب والْمُسبِّبات. ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ﴾ [الأعراف: ١٨٨] . هذه الآية توضح أن النافع والضار هو الله وَحْدَه ، وهذا ما يقوله الْمُتوسِّل والْمُستغيث ، لكنَّ العبادَ قادرون على النفع والضَّرر بإذن الله تعالى .

(٢٨) انظر أنواع الشفاعات ، كتاب سفينة النجاة في عقيدة الأئمة الهُداة ، ص ٣٧٦_ ٣٨٩ .

مُلاحظات مستفادة من بحثنا :

[١] كُل مَن جَاز التبرك به حَيَّاً ، جاز التبرك به مَيْتاً .

[٢] رؤية الأنبياء والأولياء في المنام واليقظة غير مُتعذِّرة ، بل هي جائزة نقلاً وعقلاً ، ولكنها تحدث لفئة قليلة من الصالحين. وهي أمور ممكنة لا يَلزم مِن جواز وقوعها مُحال، وكُلُّ ما كان هذا شَأْنَه فهو جائز الوقوع .

[٣] مَن أنكرَ حياة الأنبياء أو الصديقين أو الشهداء فهو مرتد يُستتاب لتكذيبه القرآن الكريم. فإن تابَ تابَ، وإلا قُتل حَدَّاً. قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤]. وفي آية أخرى : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون ﴾ [آل عِمران: ١٦٩]. فأثبتَ اللهُ لهم الحياةَ بشكل عام في قبورهم وعند ربهم .وفي آية أخرى أثبت أنَّ النبيين والصِّديقين أفضل من الشهداء ، فدل على أنهم أكمل حالاً، وأحسن مقاماً ، فإذا كان المفضول حياً ، فالفاضل لا بد أن يكون حياً. قال تعالى : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ﴾[النساء : ٦٩] .

[٤] مَن أنكرَ التوسل والاستغاثة ، فهو على خطر عظيم لِرَدِّه الأدلة الواضحة .

[٥] لا واسطة بين المخلوق والخالق،وهذا لا يَنفي جواز التوسل والاستغاثة بالأنبياء والأولياء.

[٦] المقصود من التوسل والاستغاثة هو التبرك والاستشفاع والتقرُّب إلى اللهِ تعالى .

[٧] لَوْ كان التوسل والاستغاثة _ بعد اعتقاد أن الْمُؤثِّر هو الله وَحْدَه _ شِرْكاً كما يزعم البعض ، لكانت معاونة بعضنا بعضاً في قضاء المصالح شِرْكاً . وهذا باطل بالضرورة .

[٨] لماذا تجعل الطالب من الأنبياء والأولياء مُشْرِكاً ولا تجعله مشركاً عندما يطلب من الوزير أو الأمير ؟ ، فإن الله لا شريك له في أمور الدنيا ، ولا في أمور الآخرة .

[٩] في كتاب الفوز والنجاة في الهجرة إلى الله(ص ٢٠٢و٢٠٣): ((قال الرَّملي : الاستغاثة بالأنبياء والمرسَلين والأولياء والعلماء والصالحين جائزة.وللرُّسُل والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم. أمَّا الأنبياء فلأنهم أحياء في قبورهم يُصَلُّون ويَحُجُّون كما وردت به الأخبار، وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم. والشهداء أيضاً أحياء شُوهِدوا نهاراً جِهاراً يُقاتلون الكفارَ. وأمَّا الأولياء فهي كرامة لهم. فإن أهل الحق على أنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يُجريها الله تعالى بسببهم.

والدليل على جوازها أنها أمور ممكنة لا يَلزم مِن جواز وقوعها مُحال، وكل ما كان هذا شأنه فهو جائز الوقوع ...وقد جرت خوارق على أيدي الصحابة والتابعين ومن بعدهم لا يمكن إنكارها لتواتر مجموعها . وبالجملة ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لِوَلِيٍّ ، لا فارق بينهما إلا التحدي . اهـ . أمَّا الشِّرك فهو أن تطلب مِن غَير الله على أنه إله معَ الله يُعطي ويمنع بغير إذنه ... ولا شك أنَّ مَن استغاث بالوَلِيِّ أو النبيِّ لَم يَستغِثْ به على أنه شريك لله ، أو يفعل بغير إذن الله ، حتى لو فرضنا أن ذلك لم يكن حاضراً في نَفْسه فهو كامن فيها بمقتضى قوله : لا إله إلا الله ... بل عرفنا أن هناك مقرَّبين وغير مقرَّبين ، وهناك من تُجاب دعوته وتُرجى شفاعته ، ومن ليس كذلك. ولهذا كان ﷺ الشفيع الأعظم في الآخرة ، وبَعْدَه الأنبياء والأولياء والعلماء كما جاء في السُّنة ... ثم نقول بعد ذلك إن المتوسل إلى الله معترف بمقتضى توسله أن المعطي والمانع إنما هو الله ، ولكنه يقول : إن الولي أو النبي أقرب إلى الله مني ، وله عند الله جاه وحُرمة ، وذلك حق لا نزاع فيه ... وفي إمكان رُوح الوَلِيِّ أن تَدعوَ له ، وتطلب من الله قضاء حاجته . والأرواح عند المسلمين باقية بعد الموت ، ولها أفعال وأقوال في البرزخ ، وطالما جاءت في المنام فأرشدت المسترشدين ، وأغاثت الملهوفين . ولا نزال نقول : ما الفرق بين الطلب من الأنبياء وغيرهم من أهل الدنيا ؟ ، وهل هناك فرق بين أمور الدنيا وأمورِ الآخرة ، وبين الأحياء والأموات عند المسلمين الذين يعتقدون بقاء الأرواح وعدم فنائها ، بمقتضى ما دَلَّت عليه الأحاديث المتواترة في عذاب القبر ونعيمه ، وفي حياة الأنبياء)) اهـ .

قلتُ : هذا الكلام خاص بالأنبياء والصديقين والشهداء الذين ثبتت لهم الحياة بعد الموت بنص القرآن الكريم. وهم أحياء في قبورهم ، وأحياء عند ربهم . وبما أن المسلم العادي الميت في قبره يَرُدُّ السلام على مَن سَلَّمَ عليه ، فما بالك بالأنبياء والصديقين والشهداء الذين هم أحياء في قبورهم وعند ربهم ؟! ، ومِمَّا لا شك فيه أن حالهم عند ربهم أعظم وأكمل من حالهم في قبورهم . كما أن الحياة بعد الموت أثبتناها ، وهذا نَص عام شامل لِمَن في القبر ، ومَن عِندَ ربِّه تعالى ، والمسألة تظل على عمومها حتى يَرِدَ دليل التخصيص ، ولا دليل .

[١٠] إن الاستغاثة بالله تعالى والتوجه إليه مباشرة هي الأفضل والأعظم ، وهذا لا يُضاد التوسل والاستغاثة بالمخلوقين في نطاق قُدرتهم .

وهكذا يَتَّضح أنَّ بَحْثَنا خاضعٌ للكتاب والسُّنة الصحيحة . والرجال يُعرَفون بالحق، والحقُّ لا يُعرَف بالرجال . وقد قَدَّمْنا البراهين الجلِيَّة والدلائل القاطعة. أمَّا المتعصبون الذين يَرْمُون الناس بالشِّرك والبدعة فهم أبعد ما يكون عن منهج الله وسُنة رسوله ﷺ.

وإنني أدعو إخواننا الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين إلى تمييز مقولات السلف الصالح عن مقولات ابن تيمية وابن القيم ، وهذا هو اللبس المريع الذي وقع فيه الكثيرون . وأدعوهم كذلك إلى مُقارَعة الْحُجَّة بالحجة بعيداً عن رَمْي العلماء المخالِفين لهم بالجهل والبِدعة والشِّرك دون وَجه حق .

وعن حُذَيفة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ ما أتخوَّفُ عَلَيكم رَجل قرأ القرآنَ ، حتى إذا رُئِيَت بَهْجَتُه عليه ، وكان رِدْئاً للإسلام [يعني عَوناً] ، غَيَّره إلى ما شاء الله ، فانسلخَ مِنهُ ، ونبذه وراء ظَهْره ، وسعى على جاره بالسَّيف ، ورماه بالشِّرْك))، قال: قلتُ : يا نبيَّ الله ، أيُّهُما أوْلَى بالشِّرْكِ : الْمَرْمِيُّ أم الرَّامي ؟ ، قال : ((بَل الرامي)) (29).

وهذا يُشير إلى خطورة التطرف والتعصب . فهذا الرَّجلُ قَرأ القُرآنَ ، وذاقَ حلاوتَه ، وَظَهَرَ جَمالُ القُرآنِ عَلَيه. وكان رَجلاً مُخْلِصاً صادقاً نصيراً للإسلام وعَوناً للمسلمين ، ثُمَّ انتكسَ قلبُه، وتغيَّرت أحوالُه ، وانسلخَ مِنَ الإسلام بعدما كان عَوْناً له ، واعتمدَ آراءه الشخصية ، واتَّبعَ هَواهُ، وخالفَ النصوصَ الشرعية ، واستحلَّ دَمَ إخوانه المسلمين بعد رَمْيِهم بالشِّرْك بسبب الشُّبهات المسيطرة على قلبه ، وَهُوَ أولَى مِنهم بالشِّرْك .

*

(٢٩)رواه ابن حبان في صحيحه(١/ ٢٨١)،وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٣٥١):((إسناد جَيِّد)).

ثانياً : نقد بِدعة السلفية

بدايةً ، ينبغي أن نُحدِّد المصطلحات بدقة بالغة الخصوصية . فمصطلح " السلفية " باعتبارها مرحلة زمنية مباركة لأعظم رجالات الإسلام على الإطلاق ، وهُم السلف الصالح أهل القرون الثلاثة الأولى المشهود لهم بالْخَيْرِيَّة، مصطلح زمني يحدِّد مرحلة طيبة ناصعة البياض ولا يحدِّد مذهباً إسلامياً ذا قواعد أصولية وفروع منبثقة عن تلك القواعد. والخيرية ثابتة، وليست موضوع نقاش . عن عِمران بن حُصَيْن _ رضي اللهُ عنهما _ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((خَيْرُكم قَرْني ثُمَّ الذين يَلُونَهُم ، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم)) (1).

وينبغي أن نُقَيِّد لفظة " السلف" بلفظة " الصالح " ، لأن كثيراً من الطوائف والفئات المنحرِفة ظهرت أيضاً في القرون الثلاثة الأولى ، وبالطبع فإن الحديث يَستثنيهم ضمنياً .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٣٨) ناقلاً عن ابن عبد البَر : ((إنَّ قَوْلَه ﷺ: ((خَيْرُكم قَرْني)) على الخصوص ، معناه خَير الناسِ قَرني ، أي : السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار ، ومَن سَلَكَ مَسْلَكَهم ، فهؤلاء أفضل الأُمَّة ، وهُم المرادون بالحديث ، وأمَّا مَن خَلط في زمنه ﷺ وإنْ رَآه وصَحِبَه ، أو لَم يكن له سابقة ، ولا أثر في الدِّين ، فقد يكون في القرون التي تأتي بعد القرن الأول مَن يَفْضُلهم على ما دَلَّتْ عليه الآثار)) اهـ .

هذا كلام نفيس للغاية رغم أن الغالبية الساحقة من العلماء على خِلافه ، فهالة القداسة التي تحيط بالصحابة وأنهم لا يُنْقَدُون هالة وهمية ، فالصحابي تشرَّف بِصُحبة النبيِّ ﷺ وهذه مزية جليلة ومِنحة ربانية عظيمة ، ولكن يجب أن تكون أفعاله موافقة للشرع ، فالصحابي الذي أسرف على نفسه بالمعاصي والآثام علينا أن ننقده نقداً علمياً مُنْصِفاً ونُبيِّن حاله للناس . فنحن لا نعطي حصانة دبلوماسية للصحابي تجعله فوق مستوى النقد . فالنبيُّ ﷺ هو الذي يتمتع بالحصانة فقط ، وكل الذين هم دونه مُعَرَّضون للنقد والجرح والتعديل حَسَبَ الحالة . لذا فتقديس الصحابة كلهم فرداً فرداً رغم الآثام الكارثية للبعض مرفوض جملة وتفصيلاً ، وهذا سيأتي بحثه معنا في هذا الكتاب فيما بعد . والرأي الذي نقف عليه أن هناك أشخاصاً من القرون المتأخرة يفوقون بعض الصحابة الذين خلطوا الأمور وارتكبوا المحرَّمات ، مَنْزلةً ورُتبةً عند الله تعالى .

---

(١) متفق عليه. البخاري (٢/ ٩٣٨) برقم (٢٥٠٨) ، ومسلم (٤/ ١٩٦٤) برقم (٢٥٣٥).

وهذا لا يَطعن في الصحابة_ رضوان الله عليهم _ حملة هذا الدِّين، لأن الله قيَّض لحمل الرسالة صحابة أثباتاً عدولاً ينشرون تعاليم الإسلام الدين السماوي الأوحد . وبعض الصحابة لم يكن لهم دور في نشر الإسلام ، ولا سابقة ، ولا أَثَر في الدِّين . والبعض لَم يكونوا عُدولاً ، وهذا الأمر لا ينتقص من قَدْر الصحابة الأثبات الذين حملوا الدِّين على أكتافهم ، كمرجعيةٍ كُلية ومدرسة فكرية مُميَّزة . ونحن لسنا من الشيعة الروافض الذين أسقطوا الصحابة أو السوادَ الأعظم مِنهم ، ولسنا مِمَّن يُردِّدون خرافة أن كل الصحابة عُدول فَرْداً فرداً بلا استثناء . وسيأتي تفصيل هذا الكلام واضحاً في موضع آخر من هذا الكتاب.

ولنأتِ إلى مصطلح آخر وهو " السَّلفيةُ التَّيْمِيَّةُ النَّجديةُ "، نِسبةً إلى ابن تيمية ومُقلِّده الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ويجب أن نُمَيِّز بين هذا المصطلَح ومصطلح السلفية المراد بها مرحلة السلف الصالح الزمنية. فَبِدعةُ السلفية التَّيْمِيَّة النجدية هي إسهامات مبنية على اجتهادات في غير محلها، وأخطاء منهجية واضحة ، وحمل النصوص على ظواهرها دون معرفة قواعد اللغة العربية . وهي إعادة بَلْورة لأفكار صِغار العقول مِنَ الحنابلة الذين دخلوا في التجسيم الصريح ، وأعرضوا عن منهجية الإمام أحمد بن حنبل _ رضي اللهُ عنه _ ، ولَم يلتزموا بالقواعد الأساسية للمذهب الحنبلي التي وضعها علماء المذهب الأثبات من أصحاب العقيدة الراسخة مثل الإمام أحمد وابن الجوزي (الْمُتَوَفَّى سنة ٥٩٧ هـ) الذي رَدَّ على مُجسِّمة الحنابلة الذين شَوَّهوا المذهب .

وقد رَدَّ الإمام ابن الجوزي على مُجسِّمة الحنابلة مِثْل القاضي أبي يعلى الذي كان إذا ذُكِر الله سبحانه ، قال : ((ألزموني ما شِئْتُم فإني ألتزمه إلا اللحية والعَورة)) كما نقل ابن العربي في العواصم (٢/ ٢٨٣) . وهذا الكلام إنْ صَحَّ ، فهو كُفْرٌ بَواح واستهزاء واضح باللهِ تعالى ، وهذا راجع إلى حمل النصوص على ظواهرها الحسية المادية . وقد قال العلامة أبو محمد التميمي في الكامل لابن الأثير (١٠/ ٥٢) : ((لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يغسله ماء البِحار))اهـ ، ومِن مُجسِّمة الحنابلة ابن الزاغوني (المتوفى سنة ٥٢٧هـ) ، وأيضاً أبو عبد الله ابن حامد (المتوفى سنة ٤٠٣هـ) [2].

(٢) انظرْ هذه الأقوال في كتاب "دَفْع شُبه التشبيه بأكف التَّنْزيه" للإمام ابن الجوزي . الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ _ ١٩٩١ م ، دار الإمام النووي في عَمَّان .

والسَّلفيةُ التَّيمية النجدية في ثوبها المعاصر وضعها محمد بن عبد الوهاب [3]. حيث استمد عقائده من عقائد ابن تيمية (٦٦١هـ_٧٢٨هـ) وأفكار ابن القَيِّم (٦٩١هـ_٧٥١ هـ)[4] ، ولَم يَستمد عقائدَه من السلف الصالح . وهذه السلفية التَّيمية النجدية هي فلسفة الفِقْه البدوي الأعرابي البدائي. فمن بدا جفا ، لأن الأعراب الذين يعيشون في البادية بعيداً عن التجمعات المدنية المتحضرة يمتازون بِغِلْظة الطبع لِقِلة مخالطة الناس، فيصعب التعامل معهم، ويغلب فيهم الجهل والجفاء والقَسوة . وبسبب قسوة قلوبهم وجهلهم جعلوا الدِّينَ وكأنه أوامر عسكرية

---

(٣) وُلد في العُيَينة سنة ١١١٥ هـ ، ورحل في طلب العِلْم إلى الحجاز والشام والبصرة ، وكانت دعوته بِدْعية بعيدة عن منهج الفهم الصحيح للكتاب والسُّنة الصحيحة ، أعاد استلهام انحرافات ابن تيمية. وقد رمى الناس بالشِّرك والبدعة دون وجه حق . غطَّت بدعته على المذهب الحنبلي في بلاد الحرمين الشريفين. ورَدَّ عليه علماء كثيرون بسبب انحرافه ، والوقوفِ عند ظواهر النصوص . أسَّسَ بِدعة " النَّجدية " ولا أقول الوَهَّابية، لأنَّ الوَهَّابية مُشتقة مِن اسم الله الوَهَّاب. وهذا المذهب البِدْعي لا يجوز أن يُسمَّى باسم ذي اشتقاق مِن اسم الله تعالى . كما أسس منهج التكفير دون وجه حق ، واستحلال المحارم ، وقتل المخالِفين . ولهذه البِدعة الجديدة خمسة أصول رئيسة : ١) اتخاذ ابن تيمية إماماً مَعصوماً مُقَدَّساً وأقواله حُجَّة قَطعية وتسميته بشيخ الإسلام. ٢) تَشبيه الله بالخلق ٣) التثليث في العقيدة إذ يُقسِّمون التوحيد إلى توحيد ألوهية وتوحيد رُبوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو تقسيم باطل لا دليل عليه ، وهو غَير معروف عند السلف الصالح مُطْلقاً ٤) عدم تَوقير النبيِّ ﷺ إذْ إنهم لا يَقولون : سَيِّدُنا محمد ٥) تَكفير الناس دون وجه حق. فَمَن تَوَسَّلَ بالنبيِّ ﷺ فهو عندهم كافر حلال الدم ، وَمَن استغاثَ بالنبيِّ ﷺ فهو كذلك . وهناك مسائل كثيرة لا يَتَّسع المجال لِذِكْرِها كاملةً . مَاتَ سنة ١٢٠٦هـ . وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٥٩٨) : عن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ قال : ذَكَرَ النبيُّ ﷺ : ((اللهمَّ بَارِكْ لنا في شَأمنا، اللهمَّ بَارِكْ لنا في يَمَنِنا)) ، قالوا : يا رسول الله ، وفي نَجْدِنا. قال: ((اللهم بارك لنا في شأمنا ، اللهم بارك لنا في يمننا))، قالوا: يارسول الله ، وفي نجدنا . فأظنُّه قال في الثالثة : ((هناك الزلازل والفِتن وبها يَطْلُع قَرْنُ الشيطان)) .

(٤) لمعرفة العقائد المنحرفة عند ابن القَيِّم راجع كتابَيْ : السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل ، وتبديد الظلام المخيِّم على نونية ابن القَيِّم .

ميكانيكية مُفرَغة من الروحانية ، وعذوبةِ الرُّوح ، ثُمَّ نَسبوا انحرافاتِهم إلى السلف الصالح لِنَيل الشرعية .

وإنني أجزم أن نية محمد بن عبد الوهاب كانت صالحة وأفكاره فيها خير كثير، وفيها انحرافات كثيرة أيضاً ، لكنَّ النية الصالحة لا تُصْلِح العملَ الفاسد. وإن الكارثة الحقيقية هي الغرق في أفكار ابن تيمية دون تَمحيصها . فكانت النتيجة مأساوية ، لا سِيَّما وأن المصالح السياسية تدخَّلت لأدلجة السلفية النجدية من أجل ترسيخ الحُكم السياسي عن طريق قتل المخالِفين والمعارِضين لهذه البِدعة .

وبشكل عام ، نقول إنَّ ابن تيمية _ رَحِمَه اللهُ _ مِن علماء المسلمين، وأفكارُه طَيِّبة ، لكنه ارتكبَ أخطاء كارثية في العقيدة وغَيرها ، يَنبغي التحذير منها . أمَّا تقديسُ ابنِ تيمية ، واتِّخاذه إماماً مَعصوماً كما يَفعل " السَّلفيون " فهذا مُخالِف للإسلام جُملةً وتَفصيلاً . وبالطبع ، فإنَّ " السلفيين " يَقولون إنَّ ابنَ تيمية بَشَرٌ يُخطِئ ويُصيب ، لكنهم يَتعاملون معه كإمامٍ مَعصومٍ . فالكلامُ شَيء ، والواقعُ شيءٌ آخر تماماً .

ولا يوجد في الإسلام شيء اسمه " السلفية " كمذهب إسلامي. فالصحابة اختلفوا في مسائل كثيرة والقرآن الكريم يَنْزل عليهم . كما لا يوجد في الإسلام شيء اسمه عقيدة السلف أو مذهب السلف . هناك العقيدة الإسلامية المستقاة من النصوص قَطْعية الوُرود (الكتاب والسُّنة المتواترة) وقَطعية الدلالة . فهذه المصطلحات البِدعية المنحرِفة (عقيدة السلف، مذهب السلف ... إلخ) مرفوضة لأنه لا دليلَ شرعياً عليه . وإذا كان الأمر هكذا فسيأتي من ينادي بعقيدة الأشاعرة ومذهب الأشاعرة، وآخر بعقيدة الماتريدية ومذهب الماتريدية، ويختفي مصطلح "العقيدة الإسلامية" من الوجود . قال الله تعالى : ﴿ إن الذين فَرَّقوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيء إنما أَمْرُهُم إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون ﴾ [الأنعام: ١٥٩] . مَعَ العِلْم أن النبيَّ إبراهيم ﷺ سَمَّانا المسلمين وَلَم يُسَمِّنا السلفيين ولا الأشاعرة ، قال اللهُ تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُم الْمُسْلِمِين ﴾ [الحج : ٧٨] .

ويحاول البعضُ إحلال ما يُسمَّى بعقيدة السلف مكان العقيدة الإسلامية ، وهذا إرهاب فكري يتعارض معَ الإسلام ويتجاهل وجودَه . وأخشى مِن يَوم يستخدم فيه هؤلاء القوم عبارة" الديانة السلفية" لتحل مكان الديانة الإسلامية . وتراهم يُنافِحون بكل ما أُوتوا من قوة لتسويق مصطلحاتهم البدعية، وهذا يدل على انتصارهم لأفكارهم وفهمهم ، لا انتصارهم للإسلام . فهم

لَم يَقبلوا بما قَبِلَت بِه الأُمَّة الإسلامية (أهل السُّنة والجماعة) ، فتراهم يَشُذُّون عنها أكثر فأكثر . وقد أجار اللهُ الأُمَّةَ أن تجتمع على ضلالة ، إذ إن الأمة معصومة عِصمة عامة ، فإن وجدتَ اختلافاً فعليك بالسَّواد الأعظم أي : بالحق وأهله ، لأنَّ الذي على الحق أغلبية وَلَوْ كان وَحْدَه .

وعلى المرء أن يتمسكَ بكلمة الجماعة ، ولا يَشُق عصا الطاعة ، فَمَن شَذَّ شَذَّ في النار ، ومَن خالفَ الجماعةَ ماتَ مِيتةً جاهلية . فالأُمَّةُ الإسلامية لا يمكن أن تجتمع على ضلالة، فهي معصومةٌ عِصمة عامة ، وهذا بفضل الله الذي شَرَّف أُمَّةَ رسوله ﷺ تكريماً له . وبالطبع فموافقة الجماعة لا تنفي إعمالَ العقل ، وإبداءَ الرأي ، والنقدَ البنَّاء .

وعن أبي مسعود الأنصاريِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((عَلَيكم بتقوى اللهِ ، وَلُزومِ جماعة محمد ﷺ ، فإنَّ الله تعالى لن يَجمع جماعةَ محمد على ضلالة)) [5].

وهكذا تظهر أهمية لزوم الجماعة، وعدم الخروج عنها . وهذا لا يعني بحال من الأحوال تعطيل عقول الأفراد وتحوُّلهم إلى أرقام لا وزن لها ضمن قطيع يسير بلا تفكير. بل يعني أهمية انخراط الفرد في الجماعة والالتحام بها خوفاً من سقوطه في الخطأ والخطيئة وانحرافه . فالجماعةُ هي الحاضنة التي تصون أبناءها وتحميهم من الفُرقة والضياع . ومهما كان الفردُ قوياً وواثقاً مِن نفْسه فلا يَقدر بمفرده أن يُحقِّق أحلامه ، فلا بد من جماعة ينتمي إليها ، وتدافع عنه .

وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((فَعَلَيْكَ بالجماعة ، فإنما يأكل الذئبُ القاصيةَ))[6] .

فالجماعةُ هي القوة المركزية التي تُوفِّر الملاذَ الآمن لأبنائها . وإذا ابتعد المرءُ عنها فلا بد أن يسقط ضحيةَ نفْسه والأطرافِ الْمُتربِّصة به . فالذئبُ لا يتجرَّأ إلا على القاصية التي ابتعدت عن القطيع ، وصارت هائمةً بمفردها بدون حماية ولا إسناد .

وَلْنَرُدَّ على مصطلح " عقيدة السلف " رَدَّاً عِلْمياً فنقول إن هذا المصطلَح يَفترض أن الصحابة والتابعين وباقي السلف الصالح _ رضوان الله عليهم _ مُتَّحدون في كل مسائل العقيدة ، دون اختلافات فيما بينهم، وأنهم يملكون مذهباً مُوَحَّداً في الأصول والفروع جاهزاً لمن يريد الأخذ به ، وهذا غير صحيح البَتَّة ، فقد تباينت اجتهاداتهم في فهم أمور عَقَدية هامة مثل مسألة رؤية الله تعالى ومسألة تأويل الصفات ، وإليك بيان ذلك تفصيلاً :

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٥٥٢) برقم (٨٥٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٤) برقم (٣٧٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مسألة رؤية الله ليلة المعراج :

اختلفَ الصحابةُ _ رضي الله عنهم _ في قضية رؤية الله تعالى ليلة المعراج . فَذَهب البعضُ إلى أنه ﷺ رآه بأُمِّ عَيْنيه ، وذَهبت آخرون إلى أنه رآه بقلبه لا عينيه .

وقد أثبتَ ابن عباس _ رضي الله عنهما _ هذه الرؤيةَ ، في حين أن السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ نَفَتْها بشدة . ورَوى مُسْلم في صحيحه (١/ ١٥٨) عن عطاء عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((رَآهُ بِقَلْبِه)) .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٦) : ((قال الإمام أبو الحسن الواحدي : قال المفسرون : هذا إخبار عن رؤية النبيِّ ﷺ رَبَّه _ عَزَّ وجَل _ ليلة المعراج . قال ابن عباس وأبو ذر وإبراهيم التَّيمي : رآه بقلبه. قال : وعلى هذا رأى بقلبه رَبَّه رؤية صحيحة، وهو أن الله تعالى جعل بَصَرَه في فؤاده أو خلقَ لفؤاده بَصَراً حتى رأى رَبَّه رؤية صحيحة كما يُرى بالعَيْن. قال : وقد ذهبَ جماعة من المفسِّرين إلى أنه رآه بِعَيْنه وهو قول أنس وعكرمة والحسن والربيع)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٨) : ((وقد اختلف السلف في رؤية النبيِّ ﷺ ربَّه ، فذهبت عائشة وابن مسعود إلى إنكارها ، واختلف عن أبي ذر، وذهب جماعة إلى إثباتها وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حَلَفَ أن محمداً رأى رَبَّه . وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها ، وكان يَشتد عليه إذا ذُكر له إنكار عائشة ، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس)) اهـ .

وردَّت السيدة عائشة _ عليها السلام_ كلام القائلين بالرؤية رداً حاسماً ، فعن مسروق قال : قلتُ لعائشة _ رضي الله عنها _ : يا أُمَّتاه ، هل رأى محمد ﷺ رَبَّه، فقالت : ((لقد قَفَّ شَعْري مِمَّا قُلْتَ . أينَ أنتَ مِن ثلاث مَن حَدَّثكهُنَّ فقد كَذب ، مَن حَدَّثكَ أن محمداً ﷺ رأى رَبَّه فقد كَذب، ثم قرأتْ : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الخبيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ...))[7].

إن رؤيةَ الله تعالى في الدنيا مُتعذِّرة. وبالتالي، فالمقصودُ برؤية الله تعالى هي الرؤية القلبية . ووفقَ هذه القاعدة ، فإن إثبات الرؤية هو إثبات لرؤية القلب ، أمَّا نفي الرؤية فهو نفي لرؤية البصر . وهكذا يزولُ التعارضُ الظاهري . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٨) : ((فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يُحمَل نفيها على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب)) .

(٧) رواه البخاري (٤/ ١٨٤٠) برقم (٤٥٧٤) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٦٠) برقم (١٧٧).

لقد اختلفَ السلفُ الصالح في مسألة عَقَدية هامة ، فهؤلاء الذين يَتشدَّقون بعبارة " عقيدة السلف" هَلا أخبرونا ما هي العقيدة الصحيحة في هذه المسألة رغم أن القَوْلَيْن صادران عن السلف الصالح ؟ .

مسألة تأويل الصفات :

تباينت آراءُ السلف الصالح في هذه المسألة ، فطائفة تُفَوِّض ، وطائفة تُؤَوِّل ، والبعض يُؤَوِّل في موقف ويُفَوِّض في موقف آخر . وهذا يدل على سَعة هذا الدِّين وعَظَمته ، ويدل كذلك على عِلم السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ الذين اختلفت فهومهم واجتهاداتهم حسب الحصيلة العلمية الذاتية لكل واحد منهم. وكل الاجتهادات المستقيمة المبنية على الكتاب والسُّنة الصحيحة اجتهادات مقبولة ، وأصحابها مأجورون ـ إن شاء الله تعالى ـ رغم الاختلافات في الفهم تبعاً لاختلاف المنهج وتباين العقول وتفاوت المستويات العلمية . وهذا لا يطعن في السلف الصالح ، وهم لَم يطعنوا في بعضهم البعض ، ولم يُبَدِّعوا أو يُفَسِّقوا أو يُكَفِّروا بعضهم البعض مثلما يفعل الكثيرون من الذين يسمون أنفسهم بالسَّلفيين الذين يَرْمُون الناس بالبدعة والشِّرك والفسق لأقل مسألة اجتهادية .

فابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي يُعتبَر من علماء الصحابة نُقِلت عنه تأويلات كثيرة بمسألة الصفات ، فعلى سبيل المثال المختصَر لا الحصر :

١) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سُئل عن قَوْله عَزَّ وجل: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢]. قال : ((إذا خَفِيَ عليكم شيء مِنَ القرآن فابتغوه في الشِّعر ، فإنه ديوانُ العرب ، أمَا سمعتُم قول الشاعر : اصْبِرْ عَناق ، إنَّهُ شَرٌّ بَاق ، قَد سَنَّ قَوْمُكَ ضَرْبَ الأعناق، وقامت الحربُ بِنا عَن سَاق)) . قال ابن عباس : ((هذا يَوْمُ كَرْبٍ وشِدَّة)) [8].

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٧) : ((قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل يبدو عن أمر شديد)) اهـ . ونقل الطبري تأويل الساق بالشِّدة عن مجاهد وقتادة اللذين هما من علماء السلف ، انظر تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧) .

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٢) برقم (٣٨٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يدل على أن التأويل كان عند السلف الصالح . فالذي يرمي الذين يتأوَّلون بالجهل والضلال فهو يتهجم ضمنياً على جماعة من علماء الصحابة والتابعين. والتأويل ثابت عنهم ومنتشر في كتب الحديث والتفسير ومبسوط باستفاضة مُدَعَّماً بالأسانيد الثابتة، ونحن هنا لن نستعرض كل ما ورد ، لكن يَهُمُّنا إيصال الفكرة بأن التأويل كان عند السلف الصالح ، ولم يأت به الخلف من بنات أفكارهم ، لذا مَنْ أَوَّلَ ضمن الضوابط الشرعية واللغوية ، هو على خير كثير ومأجور على عمله المتوافق مع الكتاب والسُّنة الصحيحة ، وهو أبعد ما يكون عن الضلال والزَّيْغ .

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢٨) : ((وقال الخطابي : تَهَيَّب كثير من الشيوخ الخوض في معنى الساق، ومعنى قول ابن عباس: إن الله يكشف عن قدرته التي تظهر بها الشدة، وأسند البيهقي الأثر المذكور عن ابن عباس بسندين كل منهما حسن)) اهـ .

٢) وأيضاً الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي الذي يقول الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين إنهم ينتسبون إليه يُؤَوِّل أيضاً ، وله تأويلات كثيرة جداً خصوصاً في فِتنة خلق القرآن وتصدِّيه للمعتزلة الذين احتجوا ببعض الآيات القرآنية ، فما كان منه إلا أن تأوَّلها .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٧) : ((روى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو ابن السَّماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأوَّلَ قول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] أنه: جاء ثوابُه ، ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه)) اهـ .

وأيضاً التفويض كان منهجاً مُعتمَداً عند السلف الصالح كالتأويل ، وإليك كلام أهل العِلم في هذا المجال :

قال التِّرمذي في سُننه (٤/ ٦٩١) : ((والمذهب في هذا عند أهل العِلْم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عُيَيْنَة ووكيع وغيرهم أنهم رَوَوْا هذه الأشياء ثم قالوا : تُروَى هذه الأحاديث ونُؤمن بها ، ولا يُقال كيف . وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تُروَى هذه الأشياء كما جاءت ، ويُؤمَن بها ، ولا تُفَسَّر ، ولا تُتَوَهَّم ، ولا يُقال كَيْف ، وهذا أمر أهل العِلم الذي اختاروه وذهبوا إليه)) اهـ .

والحقُّ هو الإيمان بآياتِ الصِّفات على مُراد الله مع اعتقاد تَنْزِيه الله عن كُلِّ ما لا يَليق به . نؤمن بها كما ذَكَرَ اللهُ لا كما يَخطر للبشر . وعلى المسْلم أن يؤمن بها بلا تشبيه ، ويُصدِّق بلا تمثيل ، ويُمسِك عن الخوض فيما لا عِلْم له به . وميزةُ التفويض أنه لا يَحتمل الخطأ ، أي إن الْمُفوِّض مُحِقٌّ دائماً على يقين تام. أمَّا الْمُعتمِدُ على التأويل،فإنَّ تأويلَه عُرْضةٌ للخطأ وعدم اليقين.

ومن غرائب ابن تيمية أنه قال في دَرْءِ التعارض (١/ ١١٥): ((فتبيَّن أنَّ قَوْلَ أهل التفويض الذين يَزعمون أنهم مُتَّبعون للسُّنة والسلف مِن شر أقوال أهل البِدَع والإلحاد)) اهـ .

وهذا الكلامُ المتهوِّر يُمثِّل طَعْناً في أئمة المسلمين في كل العصور . فالتفويض منهج مُعتمَد عند السلف والخلف . وكلامُ ابن تيمية مُنطلِق مِنَ الهوى والتعصب بلا دليل شَرعي .

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٣) : ((والصواب : الإمساك عن أمثال هذه المباحث والتفويض إلى الله ، والاكتفاء بالإيمان بكل ما أوجب اللهُ في كتابه أو على لسان نَبِيِّه إثباتَه له أو تَنْزيهَه عنه على طريق الإجمال ، وبالله التوفيق. ولو لَم يمكن في ترجيح التفويض على التأويل إلا أن صاحب التأويل ليس جازماً بتأويله ، بخلاف صاحب التفويض)) اهـ .

ونقل الحافظ في الفتح(١٣/ ٣٨٣) عن ابن دقيق العيد قوله: ((في العقيدة نقول في الصفات الْمُشْكِلَة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله ، ومَن تأوَّلها نَظَرْنا، فإن كان تأويلُه قريباً على مقتضى لسان العرب لَم نُنكِر عليه، وإن كان بعيداً توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنْزيه)) .

إذن ، يَتَّضح لنا ثبوت التأويل والتفويض عن السلف الصالح ، وهذه مسألة عَقَدية لم يتفقوا عليها بل ذهب كل منهم إلى الرأي الذي يطمئن إليه ، ولا تثريب على الفريقين . وهكذا تسقط عبارة " عقيدة السلف" ويتبين عدم صحتها وفق هذه الأدلة التي وضَّحت اختلاف السلف في أمور عَقَدية ، وعدم اتفاقهم عليها. لذا نخرج من هذا التحزب لما يسمى بعقيدة السلف لنلتزم بالعقيدة الإسلامية التي تُوَحِّد ولا تُفَرِّق، فهي الوعاء الجامع لنا . والأصول الثابتة متفق عليها بين جميع المسلمين سَلفاً وخَلَفاً . فلا مُسمَّيات لا وزن لها من قبيل " عقيدة السلف " و " عقيدة الخلف " التي تعمل على تفريق الصف الإسلامي وتقسيم الأمة تقسيمات ما أنزل اللهُ بها من سلطان من شأنها إثارة النعرات الحزبية .

ومنهجنا هو الاعتراف بالسلف الصالح أسياداً لهذه الأمة بعد نبيِّها ﷺ وأعلم الأمة ، والاعتراف بالخلف الصالح من أهل الحق المشهود لهم بالتقوى والصلاح والعِلْم والتمسك بالكتاب والسنة الصحيحة شُرَّاحاً لآراء السلف الْمُجْمَلة ، المعتمِدة على التسليم الْمُطْلَق الْمُبصِر دون الخوض في التفاصيل ، أمَّا أن نشطب علماءنا سَلَفاً كانوا أم خَلَفاً فهذا لا يقوم به إلا أحمق. فجناحا الأمة السلف الصالح والخلف الصالح ، ولا تَقْدر الأمةُ على التحليق بجناح واحد أو بدون أجنحة . والمسألة ليست كما يتصورها البعض بأنها معركة بين السلف والخلف ، وكأننا في

حلبة مصارعة ، فيذهب كل طرف ليعتديَ على الطرف الآخر ، فهذا العبث يجب أن ينتهيَ عاجلاً ، لأنه ليس له أدنى صلة بالسلف الصالح ، ولا بالخلَف الصالح .

وبعد أن سقط مصطلح " عقيدة السلف " لعدم توافر شروط الصحة فيه ، دعونا نذهب إلى مصطلح بِدعي آخر وهو مصطلح " مذهب السلف "، والمقصود به في هذا السياق هو الفقه وليس العقيدة، فبالتأكيد لا يوجد مذهب فقهي واحد للسلف الصالح، واختلافاتهم أكثر من أن نُحصيَها. فالصحابة كانوا يختلفون في المسائل الفقهية والقرآن يَنْزِل عليهم . وأيضاً ظهور المذاهب الفقهية الأربعة والاختلافات المنهجية والتفريعية بينها التي صارت معروفة عند شريحة واسعة . فلو كان هناك مذهب فقهي واحد للسلف لَمَا تعب الأئمة الأربعة في البحث والدراسة والتمحيص والتفكير ووضع القواعد والفروع ، ولما ظهرت هذه الاختلافات الواضحة ، ولما ظهرت المذاهب الأربعة ، ولما ظهر أي مجتهد نهائياً ، لأن افتراض وجود مذهب للسلف يعني أن السلف اتفقوا على كلمة واحدة وضعوها في مذهب واحد لا يتعدد ، وهذا غير موجود من الناحية الواقعية . ومن يطالع كتب الفقه سوف يقف على آراء متعددة للصحابة في مسائل فقهية لا حصر لها ، ومن المعلوم أن الصحابة _ رضوان الله عليهم _ سادة السلف الصالح. وهذا الاختلاف المحمود لَم يجعلهم متعصبين لآرائهم المبنية على اجتهاداتهم المختلفة ، ولم يرمِ بعضهم بعضاً بالجهل والبدعة كما يفعل البعض في زماننا . وهكذا يتبين لنا أنه لا يوجد مذهب خاص للسلف الصالح لا في العقيدة ولا في الفقه أو الفروع . واختراع مُسَمَّيات خاصة بالسلف الصالح لا دليل عليها وإعطاؤها هالة القداسة والعِصمة ليس من الإسلام في شيء .

وقال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٤١٣) : ((وروى ابن وَهْب عن القاسم أيضاً قال : لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز : ما أُحِبُّ أن أصحاب محمد رسول الله ﷺ لا يختلفون ، لأنه لو كان قَولاً واحداً لكان الناس في ضِيق ، وإنهم أئمة يُقتَدى بهم)) اهـ .

فالصحابةُ قد فَتحوا بابَ الاجتهاد ، وفي هذا توسيعٌ على الناس ، ورفعٌ للحرج . ولو أنهم التزموا قولاً واحداً لشقَّ ذلك على المسلمين ، وَلَكَان المجتهِدون في ضِيق شديد . ولا يَخفى أن الاجتهادات والآراء تختلف حَسَبَ اختلاف العقول والبيئة الاجتماعية .

ومصادرُ التشريع الأربعة (الكتاب ، السُّنة ، الإجماع ، القياس) ، ليس فيها أقوال السلف . وهذا الأمر يقودنا إلى مسألة حُجِّية مذهب الصحابي الذي هو رأس السلف الصالح ، وفي ذلك تفصيل كبير جداً ، لكننا سنختصر المسألة اختصاراً غير مُخِل .

فإذا كان مذهب الصحابي بين أخذ ورد عند العلماء ، فما بالك بمن يتخذ قول أحد السلف حُجَّةً لازمةً ويحيطه بالعِصمة والقداسة لا لشيء سوى أنه من السلف الصالح ؟!. وما بالك بالذي يتَّخذ ابن تيمية إماماً معصوماً وكلامه مُقدَّساً ، وهو رَجل من الخلَف له إنجازاته العظيمة وله أخطاء كارثية في العقيدة ؟! . والذي يفعل هذا بعيد كل البعد عن منهج علماء العقائد والأصوليين الذين قَعَّدوا المسائل ، ووضعوا له ضوابط وتفريعات ، وأصَّلوها وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة .

وينبغي أن نبتعد عن التعصب لأقوال الرجال ، فالحق أحقُّ أن يُتَّبع . والرَّأيُ يُؤخَذ بالْحُجَّة القوية ، ولَيس بالأغلبية . وإذا كنتَ على الحق فأنتَ الجماعة حتى لو كُنتَ وَحْدَك . وفي تهذيب الكمال للمِزِّي (٢٢/ ٢٦٤) أنَّ ابن مسعود_ رَضِيَ اللهُ عنه _ قال : ((الجماعةُ مَا وَافقَ الحقَّ ، وإنْ كُنتَ وَحْدَك)) .

حُجِّيةُ مَذهب الصحابِيِّ :

إن مذهبَ الصحابي لا يكون حُجَّةً على غيره من الصحابة المجتهِدين ، وذلك لأن قولَ المجتهِد لا يَنقض قولَ مجتهِد آخر . فالعِصمةُ ليست لأقوال الرجال ، إنما العِصمةُ للكتاب والسُّنة الصحيحة .

قال الآمدي في الإحكام (٤/ ١٥٥) : ((اتفق الكل على أن مذهب الصحابي في مسائل الاجتهاد لا يكون حُجَّة على غيره من الصحابة المجتهدين إماماً كان أو حاكماً أو مفتياً ، واختلفوا في كَوْنه حُجَّةً على التابعين ومن بعدهم من المجتهِدين ، فذهبت الأشاعرة والمعتزلة والشافعي في أحد قوليه وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه والكرخي إلى أنه ليس بِحُجَّة . وذهب مالك بن أنس والرازي والبرذعي من أصحاب أبي حنيفة والشافعي في قول له وأحمد ابن حنبل في رواية له إلى أنه حُجَّة مُقدَّمة على القياس . وذهب قومٌ إلى أنه إن خالف القياس فهو حُجَّة وإلا فلا . وذهب قوم إلى أن الحجَّة في قول أبي بكر وعمر دون غيرهما ، والمختار أنه ليس بحُجَّة مُطْلقاً)) اهـ .

ولا يجوز اتخاذ مذهب الصحابي حُجَّة بشكل مطْلق ، فإن الصحابي بشر يجوز عليه الخطأ والنسيان ، وبالتالي فكلامُه وفِعْله غير معصومَيْن . كما أن الصحابة مجتمع يجوز عليه الاختلاف ، وقد اختلفوا فِعلاً ، فكيف تتصادم أقوالُ المعصومِين ؟!. والأُمَّةُ مُجمِعة على جواز مخالفة الصحابة. إذن ، فلا عِصمة لشخص يُصيب ويُخطِئ ، ولا حُجَّة لكلامه أو فِعله .

وقال الغزالي في المستصفى (١/ ١٦٨) : [من الأصول الموهومة قول الصحابي، وقد ذهب قوم إلى أن مذهب الصحابي حُجَّة مطْلقاً ، وقوم إلى أنه حُجَّة إن خالف القياس، وقوم إلى أن الحجَّة في قول أبي بكر وعمر خاصة لقوله ﷺ : ((اقتدوا باللذَيْن مِن بَعدي)) (9) ، وقَوم إلى أن الحجَّة في قول الخلفاء الراشدين إذا اتَّفقوا ، والكل باطل عندنا ، فإن من يجوز عليه الغلط والسهو ولم تثبت عِصمته عنه فلا حُجَّة في قَوْله، فكيف يُحْتَج بقولهم مع جواز الخطأ ؟،وكيف تُدَعَّى عِصمتهم حُجَّة متواترة ؟، وكيف يُتصوَّر عِصمة قوم يجوز عليهم الاختلاف ؟ ، وكيف يختلف المعصومان كيف ؟ ، وقد اتفقت الصحابة على جواز مخالفة الصحابة ، فلم يُنكِر أبو بكر وعمر على من خالفهما بالاجتهاد ، بل أوجبوا في مسائل الاجتهاد على كل مجتهد أن يتبع اجتهاد نَفْسه] اهـ.

إن قولَ الصحابي ليس بِحُجَّة إذا انفرد ، إلا أنه يجب الانتباه إلى حالة انتشار قول الصحابي بلا مُخالَفة ، وفي هذه الحالة يكون قَوْله حُجَّة. فانتشارُ قول الصحابي بلا مُخالِف دليل اتفاق الصحابة على الحُكم ، وما كان ليتم ذلك لولا استنادهم إلى دليل قاطع . مع الانتباه إلى أن الصحابة إذا اختلفوا فللمجتهِد أن يأخذ ما شاء من أقوالهم ويترك ما شاء ، ولا يجوز الخروج عن أقوالهم جميعاً لأن هذا خروج على الإجماع . فإذا انتشر في أوساط الصحابة قَوْلان كان القَوْلان إجماعاً لا نخرج إلى ثالث ، وإذا انتشر بينهم ثلاثة أقوال كان الثلاثة إجماعاً ولا نخرج إلى رابع ، وهكذا . وفي هذا السياق تبرز قاعدةٌ هامة ، وهي : إن قول الصحابي لا يَنسخ قولَ النبيِّ ﷺ .

الجذرُ " سَلَفَ " ومُشتقاته في الكتاب والسُّنة :

لا يُمكن فهم الأدلة الشرعية إلا بفهم اللغة العربية . وفي هذا السياق ، لا بُدَّ مِن فَهم المعنى اللغوي لكلمة"السَّلَف".(سَلَفَ)_ سُلُوفاً، وسَلَفاً : تَقَدَّم وسَبَق ومضى وانقضى، فهو سالف(10).

وَلْنَقُم الآن باستعراض الجذر " سَلَفَ " ومشتقاته في الكتاب والسُّنة لنُكوِّن فهماً دقيقاً عن الأساس الفكري لبِدعة السلفية النجدية البعيدة عن الكتاب والسُّنة .

---

(٩)رواه الحاكم(٣/ ٨٠) في المستدرَك برقم (٤٤٥٥) وصحَّحه ، والترمذي في سُننه (٥/ ٦٧٢) برقم (٣٨٠٥) وحسَّنه . وصحَّحه الشوكاني في إرشاد الفحول (١/ ١٢٤) .

(١٠) انظر المعجم الوجيز ،مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٣١٨ .

١) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن ربِّه فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ﴾[البقرة: ٢٧٥] .

معنى ﴿ مَا سَلَفَ ﴾ ما مضى. والآيةُ تتحدث عن أكل الرِّبا. فأكلُ الربا قبل تحريمه معفوٌّ عنه ، فهو في حُكم الماضي .

قال الطبري في تفسيره (٣/ ١٠١) عن معنى ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ : ((ما أكل وأخذ فمضى قبل مجيء الموعظة والتحريم مِن ربِّه في ذلك)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٦) : ((قال سعيد بن جُبَير والسُّدي : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم)) اهـ .

٢)قالَ اللهُ تعالى:﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النِّساء: ٢٢].

معنى ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ما قد مضى . فاللهُ تعالى عفا عمَّا مضى في جاهليتهم ، حيث كانوا يَنْكِحُون ما نَكَحَ آباؤهم.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٦٥٩): ((وعفا لهم عمَّا سلف منهم في جاهليتهم وشِركهم مِن فِعل ذلك)) اهـ .

٣) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النِّساء : ٢٣] .

معنى ﴿ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ما قد مضى . والآيةُ تتحدث عن حُرمة الجمع بين الأختين ، ومَن فَعلَ ذلك فيما مضى (الجاهلية) ، فقد تجاوزَ اللهُ عنه ، وعفا عنه .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢/ ٩٠) : ((أي وحُرِّم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النِّكاح ، إلا ما كان منكم في الجاهلية ، فقد عفا اللهُ عنه)) اهـ .

٤) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

المعنى : عفا اللهُ عما مضى وانقضى ، فلا يُؤاخذكم به . والإسلامُ يَهْدِمُ ما قَبْلَه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٤) : ((﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أي في زمان الجاهلية لِمَن أحسنَ في الإسلام ، واتَّبعَ شَرْعَ اللهِ ، وَلَم يرتكب المعصية)) اهـ .

٥) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل للذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم ما قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

المعنى : إن الكافرين إذا انتهَوا عن كفرهم وضلالهم وأسلَموا ، فإن الله يغفر لهم ما مضى أيام كفرهم ، ويتجاوز عنهم ، فالإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه ، أي : يَمحوه .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٤٠) : ((﴿ إِن يَنتَهُوا ﴾ عن الشِّرْك وقتالِ المؤمنين ﴿ يُغْفَرْ لَهُم ما قَدْ سَلَفَ ﴾ تَقَدَّمَ مِنَ الزِّنا والشِّرْكِ، لأن الحربِيَّ إذا أسلمَ عَادَ كَمِثْلِ يَوم وَلَدته أُمُّه)).

٦) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ ﴾ [يُونُس : ٣٠] .

فكلُّ نَفْسٍ تَعلم ما سلفَ مِن عملها ، أي ما قَدَّمَتْه مِن خير أو شر .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٠١) : ((تَختبر كُلُّ نفْسٍ ما أسلفت أي جزاء ما عملت وقَدَّمتْ)) اهـ . وقال ابن كثير (٢/ ٥٤٦) : ((في موقف الحساب يوم القيامة تَختبر كُلُّ نفْسٍ ، وتعلم ما سَلَفَ مِن عَملها مِن خَير وشر)) اهـ .

٧) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ أَسْلَفْتُمْ ﴾ ، أي : قَدَّمْتُم في الأيام الماضية (أيام الدنيا) .

قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٦) : ((﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ ، أي قدَّمتم في أيام الدنيا)) اهـ .

٨) قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً للآخِرِين ﴾ [الزُّخْرُف : ٥٦] .

إن اللهَ تعالى قد جعلهم عِبرةً لِمَن جاءَ بَعْدَهم ، ومَثَلاً للاعتبار والاتِّعاظ لئلا يُصيب المتأخرين ما أصاب المتقدِّمين (السَّلف) من العذاب .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٥) : ((قال أبو مِجْلَز : سَلَفاً لِمِثْلِ مَن عَمل بعملهم ، وقال هو ومجاهد: ومَثَلاً أي عِبرة لِمَن بَعْدَهم)) اهـ .

هذه الآياتُ الشريفةُ هي التي وَردت في القرآن الكريم ، وتتضمن كلمة " سلف " وما يتفرع عنها ، وهي واضحة لمن له أدنى معرفة باللغة العربية ، ومعناها واضحٌ في تحديد الفترة الزمنية السابقة الماضية لا تحديد مذهب إسلامي أو منهجية عَقَدية أصولية فقهية . فمعناها لا يخرج عن الإطار اللغوي المعروف . وعبثاً حاول البعض إخراج المعنى إلى المجال الديني ، فهذا مضاد لسياق الآيات الكريمة ، وقواعد اللغة العربية . والذين ينادون بما يُسَمُّونه السلفية ليس لهم أي حُجَّة أو بَيِّنة من القرآن الكريم لتثبيت مصطلحهم البدعي وانتزاع الشرعية الدينية له ، فالقرآنُ أوردَ لفظةَ " سلف " وما يتفرع عنها ليُظهِر المعنى الزمني لهذه اللفظة وما يتفرع عنها ، فالمعنى القرآني حصرَ هذه اللفظة في المجال اللغوي فقط لا الدِّيني أو التَّعبدي . فمن ينادون بهذه البدعة لا دليل لهم من القرآن الكريم ، واللهُ أجلُّ وأعلمُ .

وأولئك الذين كوَّنوا مذهباً بدعياً وأسْمَوْهُ السلفية مرجعهم في ذلك إلى أهوائهم ، فالسلف الصالح لم يكن لهم مذهب محدَّد لهم ، فالصحابة _ رضوان الله عليهم _ اختلفت اجتهاداتهم ومذاهبهم ، والتابعون كذلك ، ومن تبعهم بإحسان كذلك ، والإسلام يتَّسع لاجتهادات مختلفة ويعترف بها ما دامت ضمن المنهج الإسلامي المبنيّ على الكتاب والسُّنة ضمن قواعد العربية .

أمَّا المعاني الواردة في السنة النبوية الشريفة حول لفظة السلف فمختصة بالمعنى اللغوي فحسْب، وهو معنى التقدم والسَّبْق دون وجود أية إشارة لمعنى ديني أو مذهب إسلامي . والذين لم يجدوا في القرآن الكريم ما يؤيد بدعتهم المذهبية انطقلوا إلى السُّنة النبوية فلم يجدوا سوى المعنى اللغوي المعروف في لغة العرب ، لكنهم احتجوا بهذا الحديث النبوي الذي يُعتبَر عمدتهم في هذا السياق بعد أن فهموه فهماً خاطئاً ، فقد قال النبيُّ ﷺ للسيدة فاطمة الزهراء _ عليها السلام_ : ((فإني نِعْمَ السَّلفُ أنا لكِ))(11).

ومن العجيب أن يُحمَل هذا الحديث الشريف على شرعنة بدعة السلفية استناداً إلى فهم مغلوط لمعنى كلمة " السلف "، ولنعد إلى تفسير الحديث فقد قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٧) : ((والسَّلف الْمُتقدِّم ، ومعناه أنا مُتقدِّم قُدَّامك فَتَرِدين عليَّ)) .

وقد تبيَّن لك عدم وجود مرجعية من القرآن أو السُّنة لما يُسمَّى بالسلفية ، فليست هي بأكثر من مذهب بدعي حزبي غير منقَّح فلا أصول قاعدية معتمَدة له ولا فروع . يستند إلى كثير من الأفكار المنحرِفة لابن تيمية قديماً ومحمد بن عبد الوهاب حديثاً ، ومن هنا كانت التسمية الحقيقية لهذه الفئة " السلفية التَّيمية النجدية "، فابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب هُم سَلَف مَن يَقول بهذه البِدعة. والأمر لا علاقة له بالسلف الصالح _ رضوان الله عليهم _ .

وفي هذا الصَّدد سنحاول فهم أهم العقائد والأفكار التي يعتنقها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وذلك من خلال نقد كتابه الْمُسمَّى بالتوحيد ، عِلْماً بأننا سننقد عقائد ابن تيمية في هذا الكتاب لاحقاً ، وبعض العقائد التي روَّجها مُجسِّمة الحنابلة الذين أساؤوا إلى الإمام أحمد وشَوَّهوا مذهبه ، وصار _ للأسف _ لا يُقال حنبلي إلا قيل عنه مُجَسِّم ، بعد أن أداروا ظهورهم لعقائد الإمام أحمد المستقيمة المبنية وفق الأصول الشرعية .

(١١) متفق عليه. البخاري(٥/ ٢٣١٧) برقم (٥٩٢٨) ، ومسلم (٤/ ١٩٠٤) برقم (٢٤٥٠) .

وأكثرُ مَن يتحمل المسؤولية هو ابن تيمية لِمَا له مِنَ الشُّهرة وسَعة العِلْم ، حيث نشر عقائد التجسيم وكثير من العقائد المنحرِفة ونسبها إلى السلف الصالح وهُم مِنها بَراء .

وقد نقل الزمخشري في الكشَّاف (٢/ ٥٧٣) طبع مصر عام ١٣٠٧ ما يؤيد تَلَوُّث الحنابلة بالتجسيم وانتشار ذلك بين العلماء ، فقال :

إذا سَألوا عَن مَذهبي لَم أَبُحْ بِهِ أكتمه ، كِتمانه لي أَسْلَمُ

وإن حنبلياً قلتُ قالوا بأنني ثَقيلٌ حُلُوليٌّ بغيضٌ مُجَسِّمُ

نقد كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوَهَّاب [12] :

هذا الكتاب يُعتبَر مِن أهم الكتب عند الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين " الوَهَّابيين " ، وهو من تأليف شَيْخِهم محمد بن عبد الوَهَّاب ، وقد قام الكثيرون بشرحه ، وهذا الكتاب فيه الحق وفيه الباطل ، والباطل ليس نابعاً من النصوص الشرعية ، والعياذ بالله تعالى ، بل هو نابع من سوء الفهم والاستنتاج ، والاجتهاد المغلوط المفتقِد إلى المنهجية العِلمية الإسلامية ، وهذا غير مُستغرَب على الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان ناقلاً لا أكثر لأفكار ابن تيمية وابن القَيِّم ، فهو ناسخ فقط ، لا إمامٌ ولا عَالِم ، ولم يُؤَصِّل عِلْماً ذاتياً مبنياً على منهجية عِلْمية مُحْكَمة مِثلما فعل الأئمة الأعلام المجتهدون طوال العصور . ولستُ معنياً بنقد شَخْص محمد بن عبد الوهاب بِقَدْر ما أنا معنيٌّ بنقد الأفكار المنحرِفة. كما أنني سأُرَكِّز على بعض المسائل بشكل خاص . وهذه المسائل التي تعرضتُ لها تكشف عن الجذور الفكرية للسلفية التَّيمية النجدية بشكل عام وحاسم ، وتكشف عن المستوى الفكري لمحمد بن عبد الوهاب خاصةً ، علماً بأن الكتاب فيه كثير من الأخطاء ربما أنقدها كاملةً في المستقبل معَ تخريج تفصيلي للأحاديث وتمييزها .

---

(١٢) الكتاب الذي ننقده هو (مع عقيدة السلف . كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب) . يُقدِّمه للعالَم الإسلامي مصطفى العالم . ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م . والكتاب مُجاز من دار الإفتاء السعودية بتاريخ ٢٨/١/ ١٣٨٦هـ .

وإليكَ بعض الانتقادات العلمية الإجمالية الْمُوجَّهة للفكر السلفي التَّيمي النَّجدي الذي رسَّخه محمد بن عبد الوهاب :

١_ : مسألة التبرك بالشجر أو الْحَجر ونحوهما ، فالسلفيةُ التيمية النجدية تعتبر كُلَّ مَن تبرَّك بهذه الأشياء مُشْرِكاً خالداً في نار جهنم ، وهذا الكلام غير صحيح ، وفيه تفصيل واسع :

[أ] جواز التبرُّك بما مَسَّ جسد النبيِّ ﷺ مِن وُضوء وعَرَق أو شَعْر : وهذا معروف عند الصحابة_ رضوان الله عليهم _ ولا خلاف فيه البَتَّة . فعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ عند النبيِّ ﷺ وهو نازل بالجِعْرانة بين مكة والمدينة ، ومعه بلال فأتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فقال : ألا تُنْجِزُ لي ما وعدتني ، فقال له : ((أَبْشِرْ))، فقال: قد أكثرتَ عَلَيَّ مِن أبْشِرْ ، فأقبلَ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : ((رَدَّ البُشرى فاقبلا أنتما)) ، قالا : قَبِلْنا ، ثم دعا بِقَدَحٍ فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ، ومَجَّ فيه ، ثم قال : ((اشربا منه وأَفْرِغا على وجوهكما ونُحوركما وأبشِرا))، فأخذا القَدَحَ ، فَفَعلا ، فنادت أُمُّ سَلَمة مِن وَراءِ السِّتْر أَن أَفْضِلا لأمكما ، فأفْضَلا لها مِنهُ طائفةً (13).

تتَّضحُ غِلظةُ الأعراب (سكان البادية) ، وسوء أخلاقهم ، وقسوة طباعهم . فَهُم متأثرون بالبيئة الصحراوية القاسية. فهذا الأعرابي قد رَدَّ البُشرى النبوية ولم يَقبل بها . وهذا يدل على جهله، وسُوء خُلُقه، وابتعاده عن قواعد الأدب واللياقة. وهذا غير مُستغرَب ، فمَن بدا فقد جفا .

والذي يَلْزم الباديةَ لا بد أن يُصاب بالفظاظة وغِلظةِ الطبع . أمَّا أبو موسى وبلال _ رضي الله عنهما _ فقد قَبِلا البُشرى لعِلْمهما بأهمية هذه الفرصة التي قد لا تتكرر ، وقاما بالتبرك بآثار الرسول ﷺ . وهذه القضيةُ انتبهت إليها أُم سَلَمة _ رضي الله عنها _ ، فَطَلَبت منهما إبقاء كمية من الماء للتبرك به ، فهو يَحمل آثار الرسول ﷺ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٥/٨٢) وقد أفردَ باباً خاصاً عن التبرك بالنبيِّ ﷺ وآثاره الشريفة : ((باب قُربه ﷺ من الناس وتبرُّكهم به وتواضعه لهم . قوله : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يُؤتَى بإناء إلا غَمَسَ يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فَيَغْمِسُ يده فيها . وفي الرواية الأخرى رأيتُ رسول الله ﷺ والحلاق يَحْلِقُه، وأطافَ به أصحابُه ، فما يريدون أن تقع شَعرة إلا في يد رَجل)) اهـ .

---

(١٣) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥٧٣)برقم (٤٠٧٣)، ومسلم (٤/ ١٩٤٣)برقم (٢٤٩٧).

إنَّ النبيَّ ﷺ قريبٌ من الناس ، فهو السَّيدُ المتواضع ، لا يتكبر عليهم ، ولا يُعرِض عنهم . وهذا القُرب جعل الناس حريصين على التبرك بآثاره ، والتمسك بها .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٦) : إنَّ عُروة جعل يَرْمُقُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ ، قال : ((فواللهِ ما تنخَّمَ رسولُ الله ﷺ نُخَامةً ، إلا وَقعت في كَف رَجل منهم ، فَدَلَكَ بها وَجْهَه وجِلْدَه ، وإذا أمرَهم ابتدَروا أمْرَه ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدِّون إليه النظرَ تعظيماً له)) .

وهذا يدل على حِرْصِ الصحابة على التَّبرك بآثار الرسول ﷺ، وأدَبِهم في حَضرته ، فأصواتُهم لا تَعلو على صَوته ﷺ، كما أنهم لا يُديمون النظرَ إليه هَيبةً له ، وتعظيماً له . وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٤١) : ((وفيه طهارة النُّخامة، والشَّعْر المنفصل، والتَّبَرُّك بِفَضَلات الصالحين الطاهرة)) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٧٥) عن ابن سيرين قال : قلتُ لِعُبَيدة : عِندَنا مِن شَعْرِ النبيِّ ﷺ، أصبناه مِن قِبَلِ أنس ، أوْ مِن قِبَل أهل أنس ، فقال : لأن تكون عندي شَعرة منه أحب إلَيَّ من الدنيا وما فيها.

إذن ، التبرك بما مَسَّ جَسَدَ النبيِّ ﷺ مِن وضوء أو عَرَق أو نحو ذلك جائز بلا خلاف ، فقد تكاثرت الأدلة الصحيحة وتلاحقت على ثبوت ذلك ، ولا أعلم في ذلك خِلافاً مُطْلقاً . والقصد من التبرك هو نيل البركة والطهارة والشرف بعد ملامسة الأشياء التي مسَّت جسد أشرف مخلوقات اللهِ على الإطلاق النبيِّ محمد ﷺ معَ الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا تنفعُ ولا تَضُرُّ استقلالاً ، وإنما تَنفع وتَضُرُّ بإذنِ اللهِ تعالى .

[ب] جواز التبرك بالْحَجَر الأسود، وتقبيله، واستلام الرُّكن اليَمانِيِّ : فعن عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه_ أنه جاءَ إلى الْحَجَرِ الأسود فَقَبَّله، فقال : إني أعلمُ أنَّكَ حَجَرٌ لا تَضُرُّ ولا تَنفعُ ، وَلَوْلا أني رأيتُ النبيَّ ﷺ يُقَبِّلك ما قَبَّلْتُك [14].

إن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ أرادَ إعطاءَ درس لمن يراه ويَسمعه بأن الْحَجَر لا يضر ولا يَنفع ، لأن الناس كانوا قريبين من فترة عبادة الأصنام . ولوْ لَم يَفعل ذلك لظنَّ الجهالُ أن الحجر يَضر ويَنفع مثلما كانوا يعتقدون في الأصنام . فأغلقَ عمر هذا البابَ ، وقام بِسَدِّ الذريعة .

---

(١٤) رواه البخاري (٢/ ٥٧٩) برقم (١٥٢٠) ، ومسلم (٢/ ٩٢٥) برقم (١٢٧٠) .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٦٢و٤٦٣) : ((قال الطبري : إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام ، فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية ، فأراد عمر أن يُعلِّم الناس أن استلامه اتباع لفِعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان))اهـ.

قلتُ : والْحَجَرُ الأسودُ يَنفع ويَضُرُّ بإذن الله تعالى. فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ لهذا الحجَرِ لِساناً وشفتين يَشهد لِمَن استلمه يوم القيامة بحق))[15].

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٧٥) : ((في البيت أربعة أركان : الأول له فضيلتان كَوْن الحجر الأسود فيه ، وكَوْنه على قواعد إبراهيم ، وللثاني الثانية فقط وليس للآخَرَيْن شيء منهما ، فلذلك يُقبَّل الأول ويُستلَم الثاني فقط ، ولا يُقبَّل الآخَران ولا يُستلَمان، هذا على رأي الجمهور . واستحب بعضهم تقبيل الرُّكن اليماني أيضاً. فائدة أخرى: استنبطَ بعضُهم من مشروعية تقبيل الأركان جواز تقبيل كل من يستحق التعظيم من آدميٍّ وغيره ، فأمَّا تقبيل يد الآدميِّ فيأتي في كتاب الأدب ، وأمَّا غيره فنقل عن الإمام أحمد أنه سُئل عن تقبيل مِنبر النبيِّ ﷺ وتقبيل قبره ، فلم يَرَ به بأساً، واستبعدَ بعضُ أتباعه صِحَّةَ ذلك ، ونُقل عن ابن أبي الصَّيف اليماني أحد علماء مكة من الشافعية جواز تقبيل المصحف وأجزاء الحديث وقبور الصالحين)) اهـ .

قلتُ : والمقصود من كلام عمر _ رضي الله عنه _ أن الحجر ليس له نفع أو ضر بشكل استقلالي خارج عن إرادة الله تعالى . والتبرك بالحجر الأسود يأتي من باب نَيل الشرف والرِّفعة والبركة، وليس من باب أن الحجر يضر وينفع استقلالاً كما كان يعتقد أهل الجاهلية في أحجارهم.

ونَخْلُص إلى قاعدة جليلة عامة وليست مُخصَّصة بالنبيِّ ﷺ ، وهي أن تقبيل الأشياء الْمُبارَكة والتَّمَسُّح بها والتبرك بها مع اعتقاد أن اللهَ هو الفاعل والْمُؤثِّر أمرٌ طَيِّب لا إشكال فيه البَتَّة ، فليست مسألة شِرْكية ولا تَقود إلى الشِّرك. فليس لقائل أن يقول بمنعها سَدَّاً للذريعة ، فهذا الأمر غير مقبول نهائياً ، فنحن لا نستطيع أن نمنع زراعة العنب خوفاً من تحويله إلى خمر . إنها حُجَّة العاجز ، ولا حُجَّة أصلاً.وبما أننا نُقَبِّل الحجر الأسود اقتداءً بفعل النبيِّ ﷺ ، وليس هذا شِركاً ، فكيف يكون التبرك بحجر آخر أو التمسح بأشياء طَيِّبة شِرْكاً مع اعتقاد أن الفاعل والْمُؤثِّر هو الله

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦٢٧) برقم (١٦٨٠) وصحَّحه ، وابن خُزَيمة في صحيحه (٤/ ٢٢١) برقم (٢٧٣٦) ، وابن حِبَّان في صحيحه (٩/ ٢٥) برقم (٣٧١١) .

وَحْدَه؟.وقد أخطأ"السلفيون"في هذه المسألة خطأ واضحاً وجانبهم الصواب،بل ودخلوا في الضلال بعد أن رَمَوْا مَن يفعل ذلك بالشِّرك والخروج من الإسلام ، وما هو إلا أمر مباح لا شيء فيه .

[ج] مِنَ المعلوم تَبَرُّك ابن عمر ـرضي الله عنهماـ بالأماكن التي تواجد فيها النبيُّ ﷺ ، وشدة اتباعه لآثاره الشريفة ﷺ . قال الحافظ في الفتح (١/ ٥٦٩): ((إن ابن عمر كان يتبرك بتلك الأماكن ، وتشدده في الاتِّباع مشهور ، ولا يعارض ذلك ما ثبت عن أبيه أنه رأى الناس في سَفَر يتبادرون إلى مكان فسأل عن ذلك فقالوا قد صلى فيه النبيُّ ﷺ فقال: مَن عَرَضَتْ له الصلاةُ فَلْيُصَلِّ وإلا فَلْيَمْضِ ، فإنما هلك أهلُ الكتاب لأنهم تَتَبَّعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبِيَعاً ، لأن ذلك من عمر محمول على أنه كره زيارتهم لمثل ذلك بغير صلاة أو خشي أن يُشْكِل ذلك على من لا يعرف حقيقة الأمر فَيَظُنَّه واجباً ، وكلا الأمرين مأمون من ابن عمر ، وقد تقدم حديث عِتْبان وسؤاله النبيَّ ﷺ أن يُصَلِّيَ في بَيْته ليتخذه مُصَلَّى ، وإجابة النبيِّ ﷺ إلى ذلك ، فهو حُجَّة في التبرك بآثار الصالحين)) اهـ .

قلتُ: كما أن اجتهاد ابن عمر لا ينقضه اجتهاد والده،فقول المجتهِد لا يَنقض قولَ مجتهِد آخر.

وحديث عِتْبان حُجَّةٌ في التبرك بآثار الصالحين . ففي الحديث أنَّ عِتْبان بن مالك ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ مِمَّن شَهِدَ بَدراً من الأنصار أنه أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، قد أنكرتُ بَصَري وأنا أُصلِّي لِقَومي ، فإذا كانت الأمطارُ سالَ الوادي الذي بَيني وبَيْنَهم ، لَم أستطع أن آتِيَ مسجدَهم فأُصَلِّيَ بهم ، وَوَدِدْتُ يا رسول الله أنك تأتيني فَتُصلِّي في بيتي فأتخذه مُصَلَّى، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((سأفعل إن شاء الله))، قال عِتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار ، فاستأذن رسولُ الله ﷺ فأذنتُ له ، فلم يجلس حتى دخل البيت ، ثُمَّ قال : ((أينَ تُحِبُّ أن أُصَلِّيَ مِن بَيْتِك))، قال : فأشرتُ له إلى ناحية من البيت ، فقامَ رسولُ الله ﷺ فكبَّر ، فَقُمْنا فَصَفَفْنا ، فصلى ركعتين ثُمَّ سَلَّمَ)) (16).

ولا ينبغي التعلق بالشُّبهات دون معرفة العِلَّة الحقيقية التي تقف وراء الأحداث والأقوال ، والحكمة المرجوة من وراء الفعل . وهنا تبرز خطورةُ التعلق بالظاهر دون فهم كافة التفاصيل

(١٦) متفق عليه . البخاري (١/ ١٦٤) برقم (٤١٥) ، ومسلم (١/ ٤٥٤) برقم (٣٣) .

والأحداث ومُلابَسات الأمور . وللأسف فإن " السلفيين " تعلَّقوا بالظاهر دون الغَوص في الحُكم والأحداث المرافقة للأمور ، وهذا أوْقَعَهم في تناقضات شديدة ، وأخطاء كارثية .

وبَقِيَت شُبهتان استحوذت على تفكير "السلفيين "، فلم يعودوا قادرين على النظر إلى ما وراء الأمور ، وسوف نُفَنِّد هاتين الشبهتين بشكل عِلمي مدروس وفق منهجية البحث العِلمي النابع من الكتاب والسُّنة الصحيحة :

[أ] عن أبي واقد الليثيِّ قال _ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ _ : لَمَّا افتتحَ رسولُ الله مكة خَرج بنا معه قِبَل هَوازِن حتى مَرَرْنا على سِدرة الكفار ، سِدرة يَعْكُفُون حَوْلَها ويدعونها ذات أنواط ، قلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، قال رسول الله ﷺ : ((الله أكبر، إنها السَّنَن ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَل لنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]))، ثم قال رسول الله ﷺ: ((إنكم لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكم))[17].

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٥/٢٦٩) : ((اجعل لنا ذات أنواط ، وهي اسم شجرة بِعَيْنها ، كانت للمشركين يَنُوطون بها سلاحَهم ، أي يُعلِّقونه بها ، ويَعْكُفون حَوْلَها، فسألوه أن يجعل لهم مِثْلَها ، فنهاهم عن ذلك . وأنواط جمع نُوط ، وهي مصدر سُمِّيَ به الْمَنُوط)) اهـ .

قلتُ : تعلَّق "السلفيون " بهذا الحديث ، فمنعوا التبرك بالحجر والشجر ونحوهما. وهذا الاستدلال فيه نظر ، فالحديث السابق يتحدث عن الكفار الذين اتخذوا الأشجار والأحجار جزءاً مقسوماً من آلهتهم ، ونوعاً من العبادة لغير الله تعالى . ومن الواضح أن الحديث الشريف يتحدث عن الكفار ، فلا يجوز تطبيقه على المسلمين الموحِّدين الذين إن تبرَّكوا بالشجر أو الحجر الذي فيه خاصية دينية عامة أو خاصة ، فَهُم لا يعبدون هذه الأشياء من دون الله تعالى كما هو واضح ، بل إنهم يقصدون نيل البركة والشرف . فمن تمسَّح بقبر النبي ﷺ أو بقبر أحد الصحابة _ رضوان الله عليهم _ أو بقبر رَجل صالح ، أو قبَّله ، أو مسَّه مُتَبَرِّكاً فلا شيء عليه البتة ، ومن قال بالكراهة حمل الأمر على قلة الأدب، إذ إن عِلَّة الكراهة نفي الأدب ، أمَّا مَن كان مُؤَدَّباً وذا يقين بالله النافع الضار وَحْدَه ، فلا يُكْرَه ذلك .

---

(١٧) رواه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٩٤) برقم (٦٧٠٢) ، والترمذي (٤/ ٤٧٥) برقم (٢١٨٠) وصحَّحه. والحديث له طرق عديدة تُقوِّيه لخصها ابن كثير في البداية والنهاية(٤/ ٣٢٥).

[ب] هناك شُبهة تعلَّق بها " السلفيون " متعلقة بشجرة بَيعة الرِّضوان . وفي هذه القصة كلام طويل ، نُوجزه على النحو التالي :

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٨): ((وجدتُ عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة فَيُصَلُّون عندها ، فتوعَّدهم ، ثم أمرَ بقطعها فقُطعت)) اهـ .

قلتُ : هذا سند صحيح حتى نافع ، لكنه منقطع بين نافع وعمر ، فنافع لم يلقَ عمر ، ولم يَرْوِ عنه . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٦٩) : ((وقال أحمد بن حنبل : نافع عن عمر منقطع)) اهـ . وفي عمدة القاري (١٧/ ٥٤) : ((وقال الكرماني : أمَّا نافع عن عمر فهو مرسل، لأن نافعاً لَم يُدرك عمر)) اهـ . وقال الترمذي في سُننه (١/ ٣٩٢) : ((... نافع عن عمر منقطع)) اهـ .

٢_ قال الشيخ محمد بن عبد الوَهَّاب إن الاستعاذة بغير اللهِ مِنَ الشِّرك . وهذا الكلام فيه تفصيل ولا يؤخذ على إطلاقه . فالاستعاذة لغةً : هي الالتجاء والاحتماء وطلب الحفظ من الشرور والأشرار. فالمسلم يستعيذ بالله تعالى ، هذا لا خلاف فيه . ولكن يجوز له أن يستعيذ بغير الله في الأمور التي في متناول المخلوق . فَمَثلاً لو أن شخصاً هارباً من اللصوص ودخل مركزاً للشرطة ، وقال للضابط: أعوذ بك من هؤلاء اللصوص، أي أحتمي وألتجئ إليك من أجل حمايتي من هؤلاء، ففي هذه الحالة لا شيء عليه مُطْلَقاً ، وقِسْ عليها باقي الحالات. ولو قال شخص : أعوذ بالنبيِّ ﷺ أن يَرُدَّني خائباً ، فلا شيء عليه البتة ، لأن معنى هذا الكلام : أحتمي وألتجئ إلى النبيِّ ﷺ أن يرفضني ، وهذا الكلام صحيحٌ شَرعاً ولغةً .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٨) أن النبيَّ ﷺ قال : ((يَعوذُ عائذٌ بالبَيت)) .

ولو كانت الاستعاذة بغير الله شِرْكاً لأنكرَ النبيُّ ﷺ على هذا العائذ ، لكن سكوت النبيِّ ﷺ تشريع وموافقة على الفعل ، لأن النبيَّ ﷺ لا يُقِرُّ على الباطل .

٣_ زعم الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن الاستغاثة بغير اللهِ شِرْك ، وقد وضَّحنا بُطلان هذا القول باستفاضة تفصيلية بالأدلة الشرعية في موضوع " التوسل والاستغاثة بالأنبياء والصالحين " الذي سبق عَرْضُه في هذا الكتاب .

٤_ رفض تَسويد النبيِّ ﷺ (أي منع إطلاق لفظة سَيِّدنا على النبيِّ ﷺ) . وهذه نقطة كارثية تُعتبَر من أساسات بدعة السلفية التيمية النجدية ، وهي تنطوي على عدم توقير النبي ﷺ . ولا شَكَّ

أن الذي يَحجب السِّيادةَ عن النبيِّ ﷺ ، ويقول إنه ليس سَيِّداً ، أو ليس سَيِّدَنا ، فهذا مرتد عن الإسلام يُستتاب ، فإن تابَ تابَ ، وإلا قُتِل حَدَّاً . ففي هذا إهانةٌ للنبيِّ ﷺ وانتقاصٌ مِنه .

واللهُ يقول عن النبيِّ يَحيى ﷺ: ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيَّاً منَ الصَّالِحِينَ ﴾[آل عِمران : ٣٩]. فاللهُ أثبتَ السيادة للنبيِّ يحيى ﷺ . وبإجماع المسلمين من كل الطوائف أن النبيَّ محمداً ﷺ هو أفضل الأنبياء ، فيكون أوْلَى بالسِّيادة ، كما أن السِّيادة ثابتة للنبيِّ ﷺ في النصوص الشرعية المتضافرة .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَالذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ومعنى ﴿ عَزَّرُوهُ ﴾ : وقَّروه وعظَّموه وحَمَوْهُ من الناس . انظر تفسير الطبري (٦/ ٨٢) .

وقال رسولُ الله ﷺ : ((أنا سَيِّدُ الناس يوم القيامة))[18].

والنبيُّ ﷺ هو سَيِّدُ الناس في الدنيا والآخرة . وإنما خُصَّ يوم القيامة بسبب شِدَّته وصعوبته ، والسَّيدُ الحقيقي يَظهر في الشدائد . وكَوْنُ النبيِّ ﷺ سَيِّداً للناس يوم القيامة يدل على مجده العالي ، ومكانته السامية ، وقَدْره العظيم عند الله تعالى . والنبيُّ ﷺ لا يقول هذا الكلام بدافع الغرور، أو الاستعلاء بالباطل ، أو اختراع ألقاب وهمية ، وإنما يقوله لبيان نِعمة الله عليه ، وإظهاراً لتعاليم الشريعة ، وإبرازاً لأهميته التي أمره اللهُ تعالى بتوضيحها للناس .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٦٦) : ((إنما قال هذا ﷺ تحدُّثاً بنعمة الله تعالى ، وقد أمره الله تعالى بهذا ، ونصيحة لنا بتعريفنا حَقَّه ﷺ . قال القاضي عِياض : قيل السَّيِّد الذي يَفوق قومه والذي يُفْزَع إليه في الشدائد ، والنبيُّ ﷺ سَيِّدُهم في الدنيا والآخرة ، وإنما خُصَّ يوم القيامة لارتفاع السؤدد فيها وتسليم جميعهم له)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٤١) أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال مخاطباً أبا بكر الصديق _ رضي الله عنه _ : ((فأنتَ سَيِّدُنا وخَيْرُنا وأحَبُّنا إلى رسول الله ﷺ)).

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٧١) أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ كان يقول : ((أبو بكر سَيِّدُنا، وأعتقَ سَيِّدَنا (يعني بلالاً))) .

---

(١٨) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٧٤٥) برقم (٤٤٣٥) ، ومسلم (١/ ١٨٤) برقم (١٩٤).

وقال سَهْل بن حُنَيف _ رضي الله عنه _ للنبيِّ ﷺ : ((يا سَيِّدي ، والرُّقى صالحة ؟))[19].

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٦٢) أنَّ النبيَّ ﷺ قال عن الحسن _ رضي الله عنه _ : ((إنَّ ابني هذا سَيِّد)) .

وقال رسولُ الله ﷺ للأنصار:((قُوموا إلى سَيِّدِكم))[20].يعني:سعد بن معاذ_رضي الله عنه_.

وَلْنَرُدَّ الآن على الشُّبهات التي تعلَّق بها أتباع بِدعة السلفية التيمية النَّجدية :

[أ] روى البخاري في صحيحه(٣/ ١٢٧١) عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى ابْنَ مريم ، فإنما أنا عَبْدٌ ، فَقُولوا : عَبْدُ اللهِ ورسولُه)) .

استدلوا بهذا الحديث على تجريد النبيِّ ﷺ من السيادة ، لأنه إطراء مذموم من وجهة نظرهم القاصرة، وهذا استدلال لا نصيب له من الصحة ، لأن الإطراء المقصود في الحديث الشريف مُقَيَّد بإطراء النصارى للمسيح ﷺ . ومعروف أن إطراء النصارى هو تأليه المسيح ﷺ واتخاذه إلهاً وابناً لله تعالى . أمَّا المسلمون فيمدحون النبيَّ محمداً ﷺ وباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما فيهم، وليس فيهم إلا الحق والخير والشرف والسيادة بِوَصْفهم عباداً لله تعالى وأنبياء طاهرين . والقياسُ مع الفارق باطل ، فلا ينبغي بناء استدلال خاطئ على سُوء فهم للحديث الشريف .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٠): ((قَوْلُه : لا تُطْرُوني، بضم أوَّله، والإطراء المدح بالباطل، تقول : أطْرَيْتُ فُلاناً مدحتُه فأفرطتُ في مَدْحِه. قوله:كما أطرت النصارى ابن مريم أي في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك)) اهـ .

واستناداً إلى هذا المعنى قال البوصيري في البُردة :

دَعْ ما ادَّعته النصارى في نَبِيِّهِم ... واحْكُمْ بما شِئتَ مَدحاً فيه واحتكِمِ
وانسُب إلى ذاته ما شِئتَ مِن شَرَفٍ ... وانسُبْ إلى قَدْره ما شِئتَ مِن عِظَمِ

---

(١٩) رواه الحاكم (٤/ ٤٥٨) في المستدرَك برقم (٨٢٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٠) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥١١)برقم (٣٨٩٥)، ومسلم (٣/ ١٣٨٨) برقم (١٧٦٨).

[ب] عن مُطَرِّف قال : قال أبي : انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : أنتَ سَيِّدُنا، فقال : ((السَّيِّدُ اللهُ تبارك وتعالى))، قُلنا : وأفضلُنا فَضلاً وأعظمُنا طَوْلاً، فقال : ((قُولوا بِقَولكم أو بَعْضِ قَوْلِكم ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشيطان))[21].

وهذا الحديثُ الشريف يعكس مدى تواضع النبيِّ ﷺ ، ولا ينفي عنه السيادة أو الأفضلية على الإطلاق سواءٌ قُلتَها في وجهه أو في غيابه لِمَا تقدَّم من الأدلة الشرعية السابقة ، فلا دليل البتة لمن نفى السيادة عن النبيِّ ﷺ ، بل خاب وخسر مَن تجرَّأ على ذلك . والنبيُّ ﷺ كَرِهَ أن يُحمَد في وَجْهه ، وهو السَّيِّدُ المتواضعُ . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٧٣٩) : (([ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشيطان] أي: لا يَسْتَغْلِبَنَّكم فيتَّخِذكم جَرِيًّا : أي رَسُولاً ووَكِيلاً . وذلك أنهم كانوا مَدَحُوه فكَرِه لهم المبالغَة في المدْح فنَهاهُم عنه . يُريد : تَكَلَّمُوا بما يَحْضُرُكم مِن القَول ، ولا تَتَكلفُوه ، كأنكم وُكَلاءُ الشيطان ورُسُلُه تَنْطِقُون عن لسانه)) اهـ .

٥_ نشر عقائد التجسيم استناداً إلى أحاديث الآحاد ، معَ العِلْم أن خبر الواحد أو حديث الآحاد مقبول غير مردود ، يفيد العمل في جميع الأبواب الفقهية وفي فروع الاعتقاد إلا إذا عارض نَصَّاً قطعي الورود (آية قرآنية أو حديث متواتر) وقطعي الدلالة . وفي هذه الحالة يُضْرَب به عُرْض الحائط. ودلالة حديث الآحاد ظَنِّية وليست قطعية ، وبذلك يُفارق القرآن والحديث المتواتر والإجماع . وإليكَ شُبهاتهم التي بَنَوْها على آحاديث الآحاد ، وتفنيدها :

[أ] قال عبد الله: إنَّ يهودياً جاء إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنَّ اللهَ يُمسك السماواتِ على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الْمَلِكُ ، فضحكَ رسولُ الله ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُه ، ثُمَّ قَرأ : ((﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾)) [الزُّمَر: ٦٧][22].

---

(٢١) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٦٦٩) برقم (٤٨٠٦) واللفظ له ، والنَّسائي في سُننه الكبرى (٦/ ٧٠) برقم (١٠٠٧٦) وعمل اليوم والليلة (١/ ٢٤٩) برقم (٢٤٧) . وقال المقدسي في الفروع (٣/ ٤١٤) : ((رواه أحمد ، ورواه النَّسائي في اليوم والليلة مِن طُرُق ، ورُوِيَ أيضاً في اليوم والليلة بإسناد جَيِّد)) اهـ .

(٢٢) رواه البخاري(٦/ ٢٧١٢)برقم(٧٠١٣) واللفظ له،ومسلم (٤/ ٢١٤٧) برقم(٢٧٨٦). وفي بعض الألفاظ التي وردت في البخاري (٤/ ١٨١٢) برقم(٤٥٣٣) : ((فضحك النبيُّ ﷺ حتى

قال أبو سليمان الخطَّابي : ((وذِكْرُ الأصابع لم يوجد في الكتاب ولا في السُّنة ... ، فليس معنى اليد في الصفات معنى اليد حتى يُتوهَّم بثبوتها الأصابع ، بل هو تَوقيف شَرعيٌّ أطلقنا الاسم فيه على ما جاء به الكتاب مِن غَير تكييف ولا تَشبيه))[23].

[ب] روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٤٨) عن عبد الله بن عمر_ رضي الله عنهما_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يَطوي اللهُ _ عَزَّ وَجَل _ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملِك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ، ثم يطوي الأرضين بِشِماله ، ثم يقول : أنا الملِك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟)).

وهذا الحديث رواه البخاري (٤/ ١٨١٢) دون ذِكْر لفظة " بشماله " ، فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ ويَطوي السماواتِ بيمينه ، ثم يقول : أنا الملِك ، أين ملوك الأرض ؟)) .

بدت نواجذه تصديقاً لِقَول الحَبْر)). ولفظة " تصديقاً " هي من تصرف الرواة ، وهي مردودة بشكل قاطع لأنها تعارض العقيدة الإسلامية التي تُنَزِّه الخالقَ تعالى عن مشابهة مخلوقاته. واليهود غارقون في التشبيه والتجسيم . وضحكُ النبي ﷺ كان بسبب صغر عقل اليهودي وحُمقه وغرقه في الاستهزاء سواءٌ كان مقصوداً أو غير مقصود ، وعدم معرفته بربِّه تعالى ، لذلك تلا النبيُّ ﷺ الآية الشريفة : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ . قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٩٨) نقلاً عن القرطبي : ((قوله إن الله يمسك إلى آخر الحديث ، هذا كله قول اليهودي وهم يعتقدون التجسيم ، وأن الله شخص ذو جوارح كما يعتقده غُلاة الْمُشبِّهة من هذه الأمة ، وضحكُ النبي ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودي ، ولهذا قرأ عند ذلك : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، أي ما عرفوه حق معرفته ولا عظَّموه حق تعظيمه، فهذه الرواية هي الصحيحة المحقَّقة ، وأمَّا من زاد "وتصديقاً له" فليست بشيء فإنها من قول الراوي، وهي باطلة لأن النبيَّ ﷺ لا يُصَدِّق الْمُحال ، وهذه الأوصاف في حق الله محال ، إذ لو كان ذا يد وأصابع وجوارح كان كواحد مِنَّا ، فكان يجب له من الافتقار والحدوث والنقص والعجز ما يجب لنا، ولو كان كذلك لاستحال أن يكون إلهاً ، إذ لو جازت الإلهية لمن هذه صفته لصَحَّت للدجال، وهو مُحال ، فالْمُفضي إليه كذب ، فقول اليهودي كذب ومُحال، ولذلك أنزل الله في الرد عليه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، وإنما تعجَّبَ النبيُّ ﷺ من جهله، فظن الراوي أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك)) .

(٢٣) انظر دَفْع شُبه التشبيه بأكف التَّنْزيه ، للإمام ابن الجوزي ، ص ٢٠٦ .

ويؤيد هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه(٣/ ١٤٥٨)عن زُهَير قال: قال رسول الله ﷺ _ عن الله تعالى _ : ((وكِلْتا يَدَيْه يمين)) .

وهذا يُضْعِفُ ذِكْرَ الشِّمال ، ويَظهر لنا أن لفظة " الشمال " من تصرف الرواة لا أكثر .

قال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ٢١٠) : ((فأما لفظ " الشمال" فهي في رواية مسلم ، وهي مِمَّا انفرد به عن عمر بن حمزة عن سالم عن ابن عمر ، وقد روى الحديث نافع وغيره عن ابن عمر فلم يذكروا لفظة الشمال، ورواه أبو هريرة وغيره عن النبيِّ ﷺ فلم يذكر أحد منهم الشمال ، وقد رُوِيَ ذِكر الشمال في حديث آخر في غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بالمرة ، ورواه بعض المتروكين)) اهـ .

قلتُ : والعقيدة السليمة في هذا الموضوع التسليم بالآية القرآنية : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] ، واعتماد الأحاديث الخاضعة لهذه الآية القرآنية الشريفة .

[ج] عن العباس بن عبد المطلب _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((تدرون كم بين السماء والأرض ؟)) ، فقلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : ((بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، وبين كل سماء إلى السماء التي تليها مسيرة خمس مائة سنة ، وكُثُف كل سماء مسيرة خمس مائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين رُكَبهم وأظلافهم كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء))[24].

قلتُ : وهذا الحديث الواهي سنداً ومتناً من أساسات التجسيم عند أتباع بدعة السلفية التيمية النجدية ، وفيه كوارث سيأتي تفصيل تفنيدها . وبالطبع فهو حديث مكذوب . وعلى فرض أن سند هذا الحديث صحيح فإنه مرفوض لأن مَتْنَه شاذ.وهناك أحاديث صحيحة سَنداً شاذة مَتناً ، وهذا النوع من الأحاديث لا يستطيع أن يكتشفه إلا فقهاء الْمُحدِّثين ، وهُم العلماء الذين جَمَعوا بين عِلْمِ الفِقْه وعِلْمِ الحديث .

---

(٢٤) رواه الحاكم (٢/ ٤١٠) في المستدرَك برقم (٣٤٢٨) وصحَّحه !، ووافقه الذهبي ! .

قلتُ : وتعجبتُ من تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له . ففي سنده يحي بن العلاء ، فقد اعترف الحاكم نفْسه بأن يحي واهٍ (المستدرك ٢/ ٣١٦) ، واعترف الذهبي كذلك بأن يحي واهٍ ، ومع هذا فقد صحَّحاه ! .

وللحديث الصحيح خمسة شروط : ١) اتصال السند ٢) عدالة الراوي ٣) ضبطه ٤) عدم الشذوذ ٥) عدم العِلَّة القادحة .

مع الانتباه إلى أن الشرطَيْن الأخيرَيْن لا يدركهما إلا العلماء الذين جمعوا بين الفقه والحديث مستندين إلى عقيدة راسخة من الكتاب والسُّنة المتواترة ، أمَّا غَيْرُهم فلن يتمكنوا من اكتشاف الشذوذ والعِلة القادحة .

ذَكَرَ الخطيب البغدادي في الكفاية في عِلْم الرواية (١/ ١٤١) أن الإمام الشافعي قال : ((ليس الشاذُّ من الحديث أن يَرويَ الثقةُ حديثاً لَم يَرْوِه غَيْرُه ، إنما الشاذ من الحديث أن يَرويَ الثقات حديثاً فيشذ عنهم واحد فيخالفهم)) اهـ .

قلتُ : فما بالك إذا خالف الحديثُ القرآنَ أو حديثاً متواتراً ؟! . ففي هذه الحالة لا بد أن يُضْرَب به عُرْض الحائط ، لأن القرآن والسنة المتواترة لهما صِفة قَطْعي الوُرود .

وقال الحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ١١٩) : ((فإن المعلول ما يوقف على عِلَّته أنه دخل حديث في حديث ، أو وَهِمَ فيه رَاوٍ ، أو أرسله واحد فوصله واهم)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٧) مُوَضِّحاً قبول الحديث الصحيح سنداً إلا إذا تبيَّن لنا العلة القادحة : ((إلى أن تتبين العِلة القادحة بأن تكون مُفَسَّرة ، ولا تقبل التأويل)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٤٣) : ((اعلم أن للأحاديث دقائق وآفات لا يعرفهما إلا العلماء الفقهاء ، تارة في نَظْمها ، وتارة في كشف معناها)) اهـ .

ولنرجع إلى خرافة الأوعال لتفنيد هذا الحديث الواهي سنداً ومتناً ، فنقول :

[أ] يحيى بن العلاء ، وهو أحد الرواة في السند الذي عند الحاكم وأحمد وأبي يعلى .

قال الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٦) : ((يحيى واهٍ)).

قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ١٧٩) : قال يحيى بن معين: ليس بشيء .

قال عمرو بن علي : متروك الحديث جداً .

قال البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٢٩٧): ((كان وكيع يتكلم فيه)) .

وقال ابن عَدِي في الكامل (٧/ ١٩٨): قال النَّسائي : متروك الحديث .

قال المِزِّي في تهذيب الكمال (٣١/ ٤٨٧): ((وقال أبو حاتم : سمعتُ أبا سَلَمة ضعَّف يحيى ابن العلاء)) .

وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٥٩٥): ((رُمِيَ بالوَضْع)) .

وقال الذهبي في الكاشف (٢/ ٣٧٢): ((تركوه)).

[ب] أمَّا السند الذي عند أبي داود والترمذي وابن ماجة ، ففيه " عبد الله بن عُمَيرة عن الأحنف بن قيس " .

قال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٥٩) عن عبد الله بن عُمَيرة : ((ولا نعلم له سماعاً من الأحنف)) .

وقال ابن عَدِي في الكامل (٤/ ٢٣٢) : ((لا يُعلَم له سماع من الأحنف)) اهـ .

_ ومَتْنُ الحديث شاذ،وفيه كوارث لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العِلم،وإليكَ الأدلة:

[أ] القرآنُ يُفيد أن حَمَلة العرش يوم القيامة ثمانية لا اليوم . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

[ب] القرآنُ نعى على الكفار تسمية الملائكة إناثاً . فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : ٤٠] ، والحديث يفيد أنهم أوعال ، والإناث أشرف من الأوعال .

[ج] الوعل هو التَّيْس الجبلي. قال المرداوي في الإنصاف(٣/ ٥٣٦) : ((وهو التَّيس الجبلي، قاله الجوهري وغيره)) اهـ.والوصف به يدل على الذم، فقد سمَّى النبيُّ ﷺ الْمُحَلِّل تَيساً مستعاراً،فقد قال عُقبة بن عامر الجهنيُّ_رضي الله عنه_: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أخبركم بالتَّيس المستعار))، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((هُوَ الْمُحَلِّلُ ، فلعنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ له))(25).

ووصفَ النبيُّ ﷺ الذين يتخلفون في نساء المجاهدين بالفاحشة بأنهم يَنِبُّون نَبيبَ التَّيس .

فقد روى مسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٩) أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((كُلما نَفَرْنا غازين في سبيل اللهِ ، تَخلَّفَ أحدُكم يَنِبُّ نَبيبَ التَّيس)).

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢١٧)برقم (٢٨٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وابن ماجة في سُننه (١/ ٦٢٣) برقم (١٩٣٦) . وقال الذهبي في الكبائر (ص ١٥٧):((رواه ابن ماجة بإسناد صحيح)) . وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٤٩٠): (("عن أبي هريرة قال : لَعَنَ رسولُ اللهِ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ له ". رواه أحمد والبَزَّار ، وفيه عُثمان بن محمد الأخنسي ، وثَّقه ابن مَعين وابن حِبَّان . وقال ابن المديني : له عن أبي هريرة أحاديث مناكير)) اهـ .

وبالتالي فإن الوصف بالوَعِل (التَّيس الجبلي) يدل على الذم الأكيد ، وهذا محال في حق السادة الملائكة _ عليهم السلام _ الذين هُم عباد مُكَرَّمون أصحاب مكانة رفيعة .

[د] القرآنُ يصف الملائكة بأنهم ذوو أجنحة ، فقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : ١] . أمَّا الحديث فجعلهم أوعالاً _ والعِياذُ بالله تعالى _ .

وهكذا نكون قد وضَّحنا أهم الكوارث التي وضعها محمد بن عبد الوهاب في كتابه الذي سَمَّاه بالتَّوحيد ، والذي صار فيما بعد دُستوراً لأتباع بِدعة السلفية التَّيمية النَّجدية . وَلْنُلَخِّص المسائل الخمس المرفوضة التي دَحَضْناها ونَسَفْناها وَفْقَ المنهج العِلْمي الشَّرعي ، ولَيس وفق الشتائم والاتِّهامات الجاهزة ، وهي :

١) التبرك بالشجر والحجر مِنَ الشِّرك .

٢) الاستعاذة بغير الله من الشِّرك .

٣) الاستغاثة بغير الله مِنَ الشِّرك .

٤) رفضُ تَسويد النبيِّ ﷺ ، وعدمُ تعظيمه .

٥) نشر عقائد التجسيم ، وإسنادُها إلى السلف الصالح .

ومن الأخطاء المنهجية التي اتخذها أتباع محمد بن عبد الوهاب أساساً لعقيدتهم توسُّعهم الغريب في مفهوم البِدْعة ، فهم يرفضون تقسيم البِدْعة نهائياً ، في حِينَ يُقسِّمون التَّوحيدَ الذي هُوَ أساس الإسلام . وهُم يعتبرون كُلَّ بِدعة ضلالة بدون نقاش . وهذا الكلام سيأتي تفنيده تفصيلاً وبالأدلة القاطعة .

وبِدْعةُ السَّلفية التَّيمية النَّجدية ظهرت في الصحراء العربية نتيجة الإفراط في تقديس الأشخاص والأضرحة بشكل يخالف الدِّين ، فنشأتها كانت طَيِّبة ذات أهداف شرعية نبيلة لكنها سُرعان ما انحرفت ، بعد أن تَمَّت أدلَجَتُها سياسياً لتحقيق مكاسب سياسية ، وتثبيت نظام الْحُكم السياسي الذي أحاطَ نفْسَه بإطار ديني لِنَيل الشرعية . وهذا ما كان لِيَتِم لَولا القتل العشوائي الجنوني الذي ارتكبه أتباع بِدعة السَّلفية التَّيمية النَّجدية لأهداف سياسية غُلِّفَت بالدِّينِ ، حيث قُتل المسلمون في الجزيرة العربية بعد وَصْفِهم بالشِّرْكِ .

وقد تطرف هؤلاء المبتدعون بشكل غريب ، حتى إن بعض العامة منهم يعتبرون المدخِّن بمنْزلة المشرك ، وهم بذلك يُشْبهون الخوارج . وكانوا في أوَّل أمرهم يُحرِّمون القهوة على أنفسهم

وما يماثلها لكنهم تساهلوا في هذا الأمر بعد ذلك . وأيضاً حَرَّمَ علماؤهم التصوير الفوتوغرافي ، ويظهر ذلك في فتاواهم المتطرفة ، وقد توسَّعوا في مفهوم البِدعة بشكل جنوني، حتى إنهم منعوا تجديد ستائر الرَّوضة النبوية الشريفة مُعتبِرين ذلك بِدعة مرفوضة . كما أنهم شديدو التعصب لأفكارهم، فهم يعتبرون أنفسهم على الحق الْمُطْلَق ، والآخرين على الباطل الْمُطْلَق (26).

مسألةُ البِدْعة :

إنَّ البِدْعةَ جاءت من الفعل " بَدَعَ " _ بَدَعَهُ : أنشأه على غير مثال . والبِدعة : ما اسْتُحْدِث في الدِّين (27). وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا في قُلوبِ الذينَ اتَّبعُوهُ رَأفةً ورَحمةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .

البَعْضُ يستدل بهذه الآية على تحريم البِدْعة مُطْلقاً ، وهذا الاستدلال فيه نظر ، لأن الأمرَ ذو منحى عكسي تماماً ، فهذه الآية مَدحت أولئك الذين سَنُّوا هذه البِدعةَ .

إن اللهَ تعالى جعل في قلوب الحوارِيِّين الذين اتَّبعوا النبيَّ عيسى ﷺ رِقَّةً وخَشيةً ورحمةً بالناس . وهذا مديحٌ لهم وإعلاء لشأنهم ، فقد كانوا أصحابَ عيسى ﷺ وأتباعَه الْمُخلِصين ، وساروا في طريقه بلا انحراف ، وكانوا رُحماء فيما بَيْنَهم ، لا مكان في قلوبهم للحسد والحِقْد والبغضاء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢٢٣) : ((﴿ رَأفةً ورَحمةً ﴾ أي مَوَدَّةً ، فكان يُوادُّ بعضُهم بعضاً . وقِيل : هذا إشارة إلى أنهم أُمروا في الإنجيل بالصُّلح وتركِ إيذاء الناس ، وألانَ اللهُ قلوبَهم لذلك، بِخِلاف اليهود الذين قَسَت قلوبهم وحَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضعه)) اهـ .

وقد ابتدعَ النصارى الرَّهبانيةَ(اعتزال النساء والانقطاع عن الدُّنيا والتَّعبد في الأماكن النائية)، وهذه الرَّهبانيةُ لم يَفْرِضْها اللهُ عليهم ولم يأمرهم بها ، وإنما التزموها مِن تِلقاء أنفسهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٤) : ((وابْتَدَعُوا رَهبانيةً ابْتَدَعُوها ، أو رَهبانيةً مُبْتَدَعَة ، على أنها من المجعولات ، وهي الْمُبالَغة في العبادة ، والرِّياضة ، والانقطاع عن الناس ، منسوبة إلى الرَّهبان ، وهو الْمُبالِغ في الخوف ، مِن " رَهَبَ " ، كالْخَشيان مِن " خَشِيَ " ، وقُرِئت بالضَّم ، كأنها مَنسوبة إلى الرُّهبان ، وهو جَمْع راهب ، كراكِب ورُكْبان)) اهـ .

---

(٢٦) راجع " تاريخ المذاهب الإسلامية " للشيخ محمد أبو زهرة ، ص ٢٠٨_ ٢١١ .

(٢٧) انظر المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٤٠ .

وروى النَّسائي في سُننه (٨/ ٢٣١) : عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بن مريم _عليه الصلاة والسلام_ بَدَّلوا التوراةَ والإنجيلَ،وكان فيهم مؤمنون يَقرؤون التوراةَ. قِيل لملوكهم: ما نجد شتماً أشدَّ مِن شَتْمٍ يَشتمونا هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ . وهؤلاء الآيات معَ مَا يَعيبونا بِه في أعمالنا في قراءتهم ، فادْعُهُم فليقرؤوا كما نقرأ ، وَلْيُؤْمِنوا كما آمَنَّا ، فدعاهم ، فجمعهم ، وعرض عليهم القتلَ ، أو يتركوا قِراءةَ التوراة والإنجيل، إلا ما بَدَّلوا مِنها ، فقالوا : ما تُريدون إلى ذلك ، دَعُونا ، فقالت طائفة منهم : ابْنُوا لنا أُسطوانةً ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً نرفع بِه طعامَنا وشرابَنا ، فلا نَرِدُ عليكم . وقالت طائفة منهم : دَعُونا نَسِيح في الأرض ونَهيم، ونَشرب كما يَشرب الوحشُ، فإن قَدِرْتُم عَلَيْنا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة مِنهم : ابْنُوا لَنا دُوراً في الفَيافي ، ونحتفرُ الآبارَ ، ونحترثُ البُقولَ، فلا نَرِدُ عليكم ولا نمرُّ بكم،وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم . قال : ففعلوا ذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (28).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ . لقد ابْتَدَعُوا الرَّهبانيةَ ابتغاءَ رِضوان الله ، وطَلَباً لِرِضاه . وهناك تفسير آخَر ، وهو : ما كَتَبْنا عليهم الرَّهبانيةَ ، إنما كَتَبْنا عليهم ابتغاءَ رضوان الله.

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٢١٣) : ((وقَوْله تعالى: ﴿ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ استثناء منقطع ، أي : ما فرضناها نحن عليهم رأساً ، ولكنهم رأساً ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، فَذَمَّهم حينئذ بِقَوْلِه تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ مِن حيث إن النَّذْرَ عَهْدٌ مع الله ، لا يَحِلُّ نكثُه ، لا سِيَّما إذا قُصد بِه رِضاه تعالى . وعلى الوجه الثاني مُتَوَجِّه إلى قَيْده لا إلى نفْسه. ولاستثناء مُتَّصل من أعم العِلَل ، أي : ما كتبناها عليهم بأن وفَّقناهم لابتداعها لشيء من الأشياء، إلا ليبتغوا بها رضوانَ الله،ويستحقوا بها الثواب. ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويُراعوها حَقَّ رعايتها)).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ . إنهم لم يَقوموا بما التزموا به حَقَّ القِيام .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٤) : ((وهذا ذَمٌّ لهم مِن وَجْهَيْن (أحدهما) _ الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، و (الثاني)_ في عدم قيامهم بما التزموا مِمَّا زَعموا أنه قُربة يُقرِّبهم إلى الله عز وجل)) اهـ . وهذه فئةٌ مخصوصة انحرفتْ عن الطريق ، واتَّخذت الرَّهبانيةَ وسيلةً

---

(٢٨) قال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٨/ ٦٥) : أخرَجه النَّسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس .

للرِّئاسة والشُّهرة وزيادة النفوذ وأكل أموال الناس بالباطل ، لأن الذينَ لم يَرْعَوْها حقَّ رِعايتها هُم بَعْض القوم وليس الكُل .

إِنهم ابْتَدَعُوا الرهبانية ، وهُم لم يُؤْمَروا بذلك. لكنهم سَنُّوا هذه الطريقة تقرُّباً إلى الله تعالى ، وابتغاءَ رِضوانه، فما قاموا بأداء حَقِّها، فبدَّلوا وغيَّروا ، وظلموا أنفسهم بانحرافهم عن الصراط المستقيم ، فآتَى اللهُ المؤمنين الذينَ ابْتَدَعُوها ، وَرَعَوْها ، وقاموا بِحَقِّها على أكْمَل وَجْهٍ أجْرَهم ، كاملاً غَير منقوص. وكثيرٌ مِن النصارى مُنْحَرِفون عن طريق الحق، وغارقون في الذنوب والمعاصي.

وقد اختلف أهل التأويل في هُوية الذين لم يَرْعَوا الرَّهبانيةَ حَقَّ رِعايتها . فقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ، في المشار إليهم قَوْلان : أحدهما _ أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية، قاله الجمهور . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها أنهم ما رَعَوْها لتبديل دَيْدنهم وتغييرهم له ، قاله عطية العَوفي. والثاني : لتقصيرهم فيما ألزموا أنفسهم، والثالث: لِكُفْرهم برسول الله ﷺ لَمَّا بُعث، ذكر القَوْلَيْن الزَّجاج.والثاني: أنهم الذين اتَّبعوا مُبتدعِي الرَّهبانية في رَهبانيتهم ما رَعَوْها بسلوك طريق أوَّلِيهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٩) : ((وأوْلَى الأقوال في ذلك بالصِّحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يَرْعَوا الرهبانيةَ حق رعايتها بعض الطوائف التي ابتدعتها ، وذلك أن الله _ جل ثناؤه _ أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم ، .. فدلَّ بذلك على أن منهم مَن قَد رعاها حق رعايتها ، فلو لم يكن منهم مَن كان كذلك ، لم يكن مستحق الأجر الذي قال _ جل ثناؤه _ :﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٧) : ((قَوْله تعالى : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ فِيهم ثلاثة أقوال: أحدها الذين آمنوا بمحمد ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ ﴾ وهُم الذين لم يؤمنوا به . والثاني أن الذين آمَنوا المؤمنون بعيسى ، والفاسقون المشركون . والثالث أن الذين آمَنوا مُبتدعو الرَّهبانية ، والفاسقون مُتَّبعوهم على غير القانون الصحيح)) اهـ .

وعن أبي أُمامةَ البَاهِليِّ _ رضي الله عنه _ قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ الله فَرَضَ عليكم صَوْمَ رَمضان ، ولم يَفْرِضْ عليكم قِيامَه ، وإنما قِيامُه شيء أحدثتموه ، فَدُوموا عليه ، فإن ناساً مِن بني إسرائيل ابْتَدَعُوا بِدْعةً ، فعابهم اللهُ بِتَرْكِها ، وقال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ _ إلى آخر الآية _))[29]. وبما أنهم قد التزموا بالرهبانية وألزموا أنفسهم بها ، فعليهم أن يقوموا بأداء حقها ، وتطبيقها على أرض الواقع دون إخلال بها. وإذا كانوا عاجزين عن رعايتها حق الرعاية فلماذا ألزموا أنفسهم بها ؟. فاللهُ تعالى لم يَفْرِضْها عليهم. وهذا يَقودنا إلى خطورة أن يُشدِّد الإنسانُ على نفْسه ، ويُحمِّل نفْسه فوق طاقتها. فقد قال النبيُّ ﷺ : ((لا تُشدِّدوا على أنفسكم فيُشدِّدَ اللهُ عليكم ، فإن قوماً شَدَّدوا على أنفسهم فَشُدِّدَ عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾))[30].

لقد هَلَكَ كثير من الناس بسبب تشديدهم على أنفسهم ، وتحميلها فوق ما تَحتمل . فعلى المسلمين ألا يُوقِعوا أنفسَهم في الْحَرَج،ويَحْشُروها في الزاوية الضَّيقة، ويُلْزِموها بالمشاق والمصاعب مِثْل : صِيام الدَّهْر ، واعتزال النساء ، وقِيام الليل كُلِّه ، لئلا يتمَّ فَرْضُ هذه الأمور عليهم ، وعندئذٍ يَقعون في الشِّدة والتعب والهلاك . فالشريعةُ سَهْلةٌ لا مكان فيها للتعقيد والتطرف . والحديثُ يَحْمِل نهياً عن التَّشدد في الدِّين بالزِّيادة عن المشروع ، والْمُبالَغةِ في أداء العبادات .

وعن أنسِ بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : ((لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهبانيةٌ ، ورَهبانيةُ هذه الأُمَّةِ الجِهادُ في سبيل الله)) [31].

والمعنى : لكل أُمَّةٍ تبتُّلٌ وانقطاعٌ للعِبادة . ورهبانيةُ هذه الأُمَّة لَيست كرهبانية النصارى ، حيث الانقطاع عن الناس ، والتجمع في الأديرة ، والعُزوف عن الزواج ، والتَّطرف في العِبادة . إن رَهبانية هذه الأُمَّة هي التزام الجهاد في سبيل الله ، وقتال أعداء الله ، من أجل رفع راية الحق .

---

(٢٩) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦٢) . وفي سنده زكريا بن أبي مريم . قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٣٩) : ((ضعَّفه النَّسائي وغَيْرُه)) اهـ . وقال ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ٤٨٢) : ((وقال الساجي : تكلموا فيه . وقال أبو داود : لم يَرْوِ عنه إلا هُشَيم ، وقال الدارقطني : يُعْتَبَر به ، وقد ذَكَره ابن حِبَّان في الثِّقات)) اهـ .

(٣٠) رواه أبو يعلى(٦/ ٣٦٥) برقم (٣٦٩٤) بسند حسن. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٩٠): ((ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وهو ثقة)) .

(٣١) رواه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢١٠) برقم (٤٢٠٤). وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٠٥) : ((وفيه زيد العمّي وثَّقه أحمد وغَيْرُه ، وضعَّفه أبو زُرعة وغَيْرُه ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) .

والجديرُ بالذِّكر أن تشديد النصارى كانَ تشديداً في العبادة والقُرُبات ، أمَّا تشديدُ اليهود فكانَ نابعاً مِن التَّعنت والعِناد . وكلاهما مذموم ، وخَير الأمور الوسط ، ولا بد من الاعتدال في العبادة بلا إفراط ولا تفريط .

ولا بُدَّ مِن القَول إن الآية : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ، هي دليلٌ باهرٌ على وجود بِدْعة حسنة في الدِّين . واللهُ تعالى لَم يَعِبْ على أولئك الذين ابْتَدَعوا الرَّهبانيةَ مِن أجل ابتداعها ، بل لأنهم لَم يتمسَّكوا بهذه البِدْعة الحسنة ولم يَرْعَوْها حَقَّ رِعايتها . ولو كانت هذه البِدْعة مذمومة لَمَا آتى اللهُ تعالى الذين آمَنوا مِنهم أجْرَهم ، كما يتَّضح من الآية الشريفة . وهذه الآية دليل قاطع على جواز الابتداع بشَرْط عدم مُخالَفة هذه البِدْعة لأصول الدِّين وفُروعه ، كما أن هذه الآية دليل واضح على وجود بِدْعة حسنة يُؤْجَر صاحبها إذا قام بها حَقَّ القِيام .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٧٠٧) عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال : خرجتُ مع عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ليلةً في رمضانَ إلى المسجد فإذا الناسُ أوزاعٌ متفرقون يُصلِّي الرَّجل لنَفْسه ، ويُصلِّي الرَّجلُ فيُصلِّي بصلاته الرَّهْط ، فقال عمر : ((إني أرى لو جمعتُ هؤلاء على قارئ واحد لكان أمْثَل)) ، ثم عزم فجمعهم على أُبَيِّ بن كَعْب ، ثم خرجتُ معه ليلة أخرى والناس يُصلُّون بصلاة قارئهم ، قال عمر: ((نِعْمَ البِدْعةُ هذه)).

إن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قد استحدثَ هذا الأمرَ في الدِّين ، ولم يقم الصحابةُ بالإنكار عليه . كما أنه سمَّى هذا الأمر بِدْعةً ، أي إن النبيَّ ﷺ لَم يَسُنَّها. وهذه البِدْعةُ تَمَّ إنشاؤها على غير مثال سابق . وعِبارةُ " نِعْمَ البِدْعةُ " تدل بوضوح على فَضْلها ، وأنَّ مِن البِدَع ما هو مَقبول وحَسَن، إذا كان ينضوي تحت أصل شرعي .

قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري (١/ ٨٥) عن البِدْعة : ((هو فِعْل ما لم يُسبَق إليه ، فما وافق السُّنةَ فحَسَن ، وما خالفَ فضلالة ، وهو المراد حيث وَقَعَ ذَمُّ البِدْعة ، وما لم يوافق ولم يُخالِف ، فعلى أصل الإباحة)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٥٣) : ((والبِدْعة أصلها ما أُحْدِث دون مثال سابق ، وتُطلَق في الشَّرْع في مقابل السُّنة فتكون مذمومة ، والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مُسْتَحْسَن في الشَّرْع فهي حسنة ، وإن كانت مما تندرج تحت مُسْتَقْبَح في الشَّرْع فهي مُسْتَقْبَحَة، وإلا فهي مِن قِسْم المباح وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة)) .

وهذا التقسيمُ ضروري جداً في موضوع البِدعة، لأنه يؤسس منهجاً شَرعياً وسطياً قادراً على إزالة كافة الإشكاليات التي قد تنشأ في أذهان البعض حول هذه القضية . ولم يقف العلماءُ عند تقسيم البِدعة إلى حسن وقبيح، بل ذهبوا إلى تقسيمها وفق الأحكام الخمسة، فصارت البِدْعةُ واجبةً أو مَندوبةً أو مُحرَّمةً أو مكروهة أو مُباحة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٥٤) : ((قال العلماء : البدعة خمسة أقسام : واجبة ومندوبة ومحرَّمة ومكروهة ومباحة)) اهـ .

وقد قام الصحابةُ باستحداث بِدَع حسنة لَم تَصْدُرْ عن النبيِّ ﷺ مُطْلقاً ، نذكر منها [32] :

[١] جمع القرآن : فقد روى البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٢٠) : عن زيد بن ثابت الأنصاري _ رضي الله عنه _ ، وكان ممن يَكتب الوحي ، قال : أَرسلَ إِلَيَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يَستحرَّ القتل بالقُرَّاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : قلتُ لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ، فقال عمر : هو واللهِ خَير ، فلم يَزَلْ عمر يُراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري .

فجمعُ القرآن بِدعة لم تَصدر عن النبيِّ ﷺ ، لذلك قال أبو بكر الصديق _ رضي الله عنه _ : ((كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟)) ، وردَّ عليه عمر _ رضي الله عنه _ : ((هو واللهِ خَير)) ، في إشارة إلى وجود بدع حسنة وتمتاز بالخير والصلاح والفضل ، تنضوي تحت تعاليم الشرع. وعلينا أن نستنبط الأحكام من النصوص لا أن نقف عند ظاهر النص دون إعمال العقول.

[٢] مَقام إبراهيم ﷺ : فقد روى البيهقي عن السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر _ رضي الله عنه _ ملتصقاً بالبيت ، ثم أخَّره عمر ابن الخطاب _ رضي الله عنه _ [33].

قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٩) : ((وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عُيَيْنَة قال : [كان المقام في سُقْع البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوَّله عمر ، فجاء سَيل فذهب به

(٣٢) هذه النقاط الثلاث الأولى مذكورة بدون تفاصيل في مطوية صادرة عن دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دُبَي ، وقد قمتُ بتأصيلها وتفصيلها وتخريج أحاديثها وتدقيقها وشرحها .

(٣٣) ذَكَرَه ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٢) ، وقال : ((هذا إسناد صحيح)) اهـ .

فردَّه عمر إليه ، قال سفيان : لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا])) اهـ. ولم يُنكِر الصحابةُ فِعْلَ عمر ولا مَن جاء بعدهم فصار إجماعاً ، وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين أو على المصلِّين ، فوضعه في مكان يرتفع به الحرَج، وتهيَّأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذه مُصلى، وأول من عمل عليه المقصورة الموجودة الآن)) اهـ .

[٣] زيادة الأذان الأول يوم الْجُمُعة : فقد روى البخاري في صحيحه (١/ ٣٠٩) عن السائب بن يزيد قال:كان النِّداءُ يَوْمَ الْجُمُعة أَوَّلُه إذا جلس الإمام على المِنبر ، على عهد النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر _ رضي الله عنهما _ فلمَّا كان عثمان _ رضي الله عنه _، وكَثُرَ الناسُ زاد النداء الثالث على الزَّوراء .

يُقال له ثالث باعتبار إضافته إلى الأذان الأول والإقامة ، ويقال له أوَّل باعتبار سبقه في الزمان على أذان الجمعة ، ويقال له ثانٍ بإسقاط اعتبار الإقامة .

[٤] زيادة ابن عمر لعبارة"وَحْدَهُ لا شريك له" في التشهد: قال ابن عمر_ رضي الله عنهما_: ((زِدْتُ فيها _ أي في الشَّهادة في الصلاة _ وَحْدَه لا شريك له))(34).

وهذا دليلٌ على وجود بِدعة حسنة ، إذ إن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ زاد عِبارة في الصلاة ، لم يَقُلْها النبيُّ ﷺ مُطْلقاً. وقد رأى هذا الصحابي الجليل خيراً في ابتداع هذه العبارة ، فقام بزيادتها من عنده لاشتمالها على معانٍ طَيِّبة .

[٥] ابتداع ذِكر غير مأثور في الصلاة : فقد روى البخاري في صحيحه (١/ ٢٧٥) : عن رِفاعة بن رافع الزُّرقي قال : كُنَّا يوماً نُصَلِّي وراءَ النبيِّ ﷺ ، فلمَّا رَفَعَ رأسَه من الركعة قال: ((سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه))، قال رَجل وراءه: رَبَّنا ولكَ الحمدُ حَمداً طَيِّباً مُبارَكاً فيه، فلمَّا انصرفَ قال : ((مَن المتكلم ؟))، قال: أنا، قال : ((رأيتُ بِضعةً وثلاثين مَلَكاً يبتدرونها أيُّهم يكتبها أوَّل)).

وهذا دليلٌ باهر على جواز إحداث ذِكْر في العبادات بشرط عدم مخالفته للشريعة . وقد يَقول أحدُهم: ولكنَّ النبيَّ ﷺ أقرَّه فصار شَرْعاً . فنقول : القضيةُ هي أن هذا الصحابي اجتهدَ ، وقال ما قال مِن عِنده قبل إقرار النبيِّ ﷺ .

---

(٣٤)رواه أبو داود في سُننه(١/ ٣١٩)برقم (٩٧١)، والدارقطني في سُننه (١/ ٣٥١) برقم (٦)، وقال : ((هذا إسناد صحيح)) اهـ ، والبيهقي في سُننه (٢/ ١٣٩) برقم (٢٦٤٦) ، والطحاويّ في شرح معاني الآثار (١/ ٢٦٣) ، وصحَّحه الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣١٢) .

قال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٨٧) بشكل عام : ((واستدل به على جواز إحداث ذِكْر في مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور)) اهـ .

وروى مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٨) أن رسولَ الله ﷺ قال : ((مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فَعُمل بها بَعْدَه كُتب له مِثْلُ أجْرِ مَن عمل بها ولا يَنْقُص مِن أجورهم شيء ، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عمل بها، ولا يَنقص مِن أوزارهم شيء)).

وهذا لا يتعارض معَ كَوْن الدِّين كاملاً . فالإسلامُ يحتوي على ثوابت ومتغيرات ، وهو نظامٌ شامل يَقْبل كلَّ جديد ما دام متوافقاً مع النصوص الشرعية .

وكلُّ مَن أتى بسُنَّة حسنة (طريقة مرضية متوافقة مع الشريعة) فهو على خير عظيم ، له أجرها وأجرُ من عمل بها من بعده . وهذا يشير إلى جواز الابتداع في مجال الخير . أمَّا مَن أتى بطريقة سيئة مخالفة للشرع ، فقد ابتدعَ بِدعة مذمومة يتحمل إثْمَها ، وإثْمَ من عمل بها من بعده .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٦٦): ((... مَن ابتدعَ شيئاً من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة)) اهـ .

وقد تعلَّق " السلفيون " بما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٩٢) عن جابر بن عبد الله_ رضي الله عنهما_ عن النبيِّ ﷺ قال : ((... وَشَرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ بِدْعةٍ ضلالة)). فقاموا بتحريم كل أنواع البِدَع ، ورفضوا تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة أخذاً بظاهر الحديث دون إعمال عقولهم. واستدلالهم فيه نظر ، فالمقصود بالحديث هو البدع المذمومة المتعارضة مع الشريعة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٠٤): ((المراد به الْمُحْدَثات الباطلة والبدع المذمومة ... إن البدع خمسة أقسام واجبة ومندوبة ومحرَّمة ومكروهة ومباحة)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٥٣) : ((قال الشافعي : البدعة بدعتان محمودة ومذمومة ، فما وافق السُّنة فهو محمود وما خالفها فهو مذموم ، أخرجه أبو نُعَيم بمعناه من طريق إبراهيم ابن الجنيد عن الشافعي . وجاء عن الشافعي أيضاً ما أخرجه البيهقي في مناقبه قال : المحدَثات ضَرْبان ، ما أُحدث يخالف كتاباً أو سُنَّة أو أثراً أو إجماعاً فهذه بدعة الضلال، وما أُحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهذه محمودة، اهـ.وقسَّم بعض العلماء البدعة إلى الأحكام الخمسة وهو واضح)) .

وأضاف الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٥٤) : ((فإنه يدل على أنَّ الْمُحْدَثَ يُسمَّى بِدعة ، وقوله : كل بدعة ضلالة، قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها ، أمَّا منطوقها بالحق يقال : حُكم

كذا بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة فلا تكون من الشرع لأن الشرع كله هدى ...، والمراد بقوله : كل بدعة ضلالة ، ما أُحدِث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام)) اهـ .

حتى إن ابن تيمية إمام " السلفيين " يؤمن بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ، حيث يقول في مجموع الفتاوى (١/ ١٦٢) : ((كل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة ، وهي ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة، فأمَّا ما ليس بِمُستحَب ولا واجب، فلا يقول أحد من المسلمين إنها من الحسنات التي يُتقرَّب بها إلى الله)) اهـ . وهناك حديث يتمسك " السلفيون " لِيَدعموا رأيهم الشاذ الرافض لتقسيم البدعة . فعن السيدة عائشة ــ عليها السَّلام ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((مَن أَحدثَ في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رَد))[35].

وهذا الحديث مُقيَّد بعبارة " ما ليس فيه " . فلو قام بشخص بإحداث شيء من الدِّين وليس خارجاً عن الدِّين ، فهذا مأجور لا محالة على فِعلته تلك . فالحديث يَرُدُّ الأشياءَ الْمُحْدَثَةَ التي ليست من الدِّين ، كما يُوضِّح السياق اللغوي لكلام النبيِّ ﷺ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٦) : ((قال أهل العربية : الرَّدُّ هنا بمعنى المردود ، ومعناه فهو باطل غَير مُعْتَد بِه . وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو مِن جَوامع كَلِمِه ﷺ ، فإنَّه صريح في رَد كُل البِدَع والْمُختَرَعات)) اهـ .

وهكذا ينهار بنيان " السلفيين " بالأدلة القاطعة . وإذا استمر هؤلاء في الْمُعانَدة ورفض الأدلة الشَّرعية الواضحة ، فعليهم أن يُجيبونا عن هذه البِدَع التي وضعوها هُم بأنفسهم ، [راجع مطوية "هل نحتفل ؟" الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دُبَي] :

[أ] جمع الناس على إمام واحد لأداء صلاة التهجد بعد صلاة التراويح في الحرمين الشريفين وغيرهما من المساجد .

[ب] قراءة دعاء خَتْم القرآن في صلاة التراويح ، وكذلك في صلاة التهجد .

[ج] تخصيص ليلة (٢٧) لختم القرآن في الحرمَيْن .

[د] قَول الْمُنادي بعد صلاة التراويح : ((صلاة القيام أثابكم الله)) .

ومع هذا فنحن نرى أن هذه بِدَع حسنة يُؤجرون عليها ــ إن شاء اللهُ تعالى ــ .

---

(٣٥) متفق عليه . البخاري (٢/ ٩٥٩) برقم (٢٥٥٠) ، ومسلم (٣/ ١٣٤٣) برقم (١٧١٨).

وبعد هذا التأصيل الشرعي نصل إلى مسألة سُنِّية الاحتفال بالمولد النبوي الشَّريف، والرد على من زعم أنه بِدعة ضلالة .

الاحتفالُ بالمولدِ النَّبويِّ الشَّريف :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

روى مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٠) عن أُبَيِّ بن كعب _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((بينما موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيام الله ، وأيامُ اللهِ نَعماؤه وبلاؤه)) .

قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٩٠): ((أي قُل لهم قَولاً يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بِنِعَمِ الله عليهم، وقاله أُبَيُّ بن كعب، ورواه مرفوعاً : أي بما أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّجاة مِن فِرْعَوْن ومِنَ التِّيه إلى سائر النِّعَم)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٣١) : ((أي بأياديه ونِعَمِه عليهم)) اهـ .

قلتُ : والمولد النبوي الشريف من أيام اللهِ العظيمة ونِعمه الجليلة ، فعلينا أن نُذَكِّر الناسَ به كما أمرنا اللهُ تعالى عن طريق عمل الأشياء الطيبة ، وإشاعة البهجة والفرح المنضبط بالكتاب والسُّنة. والنبيُّ ﷺ هو رحمة الله الْمُهداة للعالَمين ، فقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

والنبيُّ ﷺ رَحمةٌ مُهداة للعالَمين ، الإنس والجن مؤمنهم وكافرهم ، وكل مخلوقات الله العاقلة وغير العاقلة ، ويشمل ذلك الحيوانات والطبيعة بكل ما فيها . فالنبيُّ ﷺ رحمة الله تعالى إلى كل المخلوقات. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٠٢) تفسيراً لمعنى الرحمة : ((أمَّا المؤمن فشفقة عليه لإيمانه ، وأما الكافر فلرجاء إسلامه ، وهو بُعث رحمةً للعالَمين)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يُونُس : ٥٨] .

لقد اتَّضحَ أنَّ النبيَّ ﷺ رحمةُ اللهِ للعالَمين ، واللهُ أمرنا بأن نفرح بفضل الله ورحمته . إذن ، يجب أن نفرح بالنبيِّ ﷺ الذي هو رحمة الله الْمُهداة للعالَمين ومَوْلِدِه الشريف . والاحتفال بالمولد النبويِّ هو فرحٌ بفضل اللهِ ورحمته ، لذا فهو تطبيق فعلي لأوامر الله تعالى .

وإليكَ أقوال العلماء بشأن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وتفنيد شُبهات المعارِض ، حصلتُ عليها من مطوية "هل نحتفل ؟" الصادرة عن دائرة الأوقاف بِدُبَي معَ بعض الزيادات مِنِّي:

[١] قال الإمام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ١٣٦) : ((ابن زين الدين علي ابن تبكتكين أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد له آثار حسنة ... وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الاول يحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان مع ذلك شهماً شجاعاً فاتكاً بطلاً عاقلاً عالِماً عادلاً رحمه الله وأكرم مثواه ، وقد صنَّف الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له مجلداً في المولد النبوي سماه التنوير في مولد البشير النذير ، فأجازه على ذلك بألف دينار)) اهـ .

فانظر إلى مديح ابن كثير لهذا الرَّجل ، فلو كان مبتدعاً بالاحتفال بالمولد النبويِّ لَمَا صَبَّ ابن كثير كل هذا المدح عليه .

[٢] عقد الإمام الحافظ السُّيوطي في كتابه الحاوي للفتاوي باباً أسماه (حسن المقصد في عمل المولد) ص ١٨٩ ، قال في أوله : وقع السؤالُ عن عمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول، ما حُكمه من حيث الشرع ؟ وهل هو محمود أم مذموم ؟ وهل يُثاب فاعله أم لا ؟ .

والجواب عندي أن أصل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسَّر من القرآن ، ورواية الأخبار الواردة في بداية أمر النبيِّ ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ، ثم يُمَدُّ لهم سِماط يأكلونه ، وينصرفون من غير زيادة على ذلك ، هو من البدع الحسنة التي يُثاب عليها صاحبها لِمَا فيها من تعظيم قَدْر النبيِّ ﷺ وإظهار الفرح بمولده الشَّريف .

[٣] ونقل الإمام الحافظ السيوطي عن الإمام الحافظ ابن حجر عن عمل المولد فأجاب بما نصه: أصل عمل المولد بدعة لم تُنْقَل عن السَّلف الصالح من القرون الثلاثة ، ولكنها مع ذلك اشتملت على محاسن وضدها ، فمن تحرَّى في عملها المحاسن وتجنب ضدها كانت بدعة حسنة ، وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت ، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبيَّ ﷺ قَدِمَ المدينةَ فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم، فقالوا : هو يوم أَغرق اللهُ فيه فرعون ، ونجَّى موسى، فنحن نصومه شكراً للهِ [36]. فيُستفاد منه فِعل الشُّكر لله على ما منَّ به في يوم معيَّن من إسداء نعمة ، أو دفع نقمة .. إلى أن قال : وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبيِّ ﷺ ، نبيِّ الرحمة في ذلك اليوم ، فهذا ما يتعلق بأصل عمله ، وأمَّا ما يُعمَل فيه: فينبغي أن يُقتصر فيه على

(٣٦) رواه البخاري (٣/ ١٢٤٤) برقم (٣٢١٦) ، ومسلم (٢/ ٧٩٦) برقم (١١٣٠) .

ما يُفهم الشكر للهِ تعالى من نحو ما تقدَّم من التلاوة والإطعام والصدقة وإنشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحرِّكة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة . اهـ .

[٤] الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر عبد الله القيسي الدمشقي : حيث ألَّف كتباً في المولد الشريف، وأسماها : (جامع الآثار في مولد النبيِّ المختار)، و (اللفظ الرائق في مولد خير الخلائق)، وكذلك (مورد الصادي في مولد الهادي) .

[٥] الإمام الحافظ العراقي : وقد سمَّى كتابه في المولد النبوي (المورد الهني في المولد السني) .

[٦] الإمام مُلا علي قاري : فقد ألَّف كتاباً في المولد النبوي العطر أسماه : (المورد الروي في المولد النبوي) .

[٧] الإمام ابن دحية : وسمَّى كتابه (التنوير في مولد البشير النذير) .

[٨] الإمام ابن الجزري : وسمَّى كتابه (عرف التعريف بالمولد الشريف) .

[٩] الإمام أبو شامة (شيخ الحافظ النووي) قال في كتابه (الباعث على إنكار البدع والحوادث/ ص ٢٣) : ((ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يُفعَل كل عام في اليوم الموافق لمولدهﷺ من الصدقات، والمعروف، وإظهار الزينة والسرور ، فإن ذلك مشعر لمحبته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكراً لله تعالى على ما مَنَّ به مِن إيجاد رسوله الذي أرسله رحمة للعالَمين)) .

[١٠] الإمام الحافظ القسطلاني (شارح صحيح البخاري) : حيث قال في كتابه (المواهب
اللدنية _ ١/ ١٤٨ طبعة المكتب الإسلامي) ما نصه : ((فرحم اللهُ امرءاً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ، ليكون أشد عِلَّة على من في قلبه مرض وإعياء داء)) اهـ .

[١١]وكذلك ممن ألَّف وتكلَّم في المولد: الإمام الحافظ السخاوي، والإمام الحافظ وجيه الدين الزبيدي ، وغيرهم .

[١٢] حتى إن ابن تيمية قال في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم _طبعة دار الحديث / ص ٢٦٦) : ((وكذلك ما يُحدِثه بعض الناس إمَّا مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام، وإمَّا محبة للنبيِّ ﷺ وتعظيماً له ، والله قد يُثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد..وقال: فإن هذا لَم يفعله السلف، مع قيام الْمُقتضَى له، وعدم المانع منه)) اهـ.

فهذا ابنُ تيمية إمامُ " السلفيين "، الذي تُقَدِّسون كلامَه ، وتعتبرون مؤلفاته دستوراً معصوماً ، يُجيز الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فماذا بَقِيَ لكم ؟ . وهل هُوَ مُبْتَدِع ؟ .

أمَّا الشُّبهات التي تعلَّق بها " السلفيون " ، فهي كالتالي :

[١] قال المعارِض: لو كان الاحتفال بالمولد من الدِّين لبيَّنه الرسول ﷺ للأمة أو فعله في حياته أو فعله أصحابه _ رضي الله عنهم _ ، ولا يقول قائل إن الرسول ﷺ لَم يفعله تواضعاً منه ، فإن هذا طعن فيه عليه الصلاة والسلام . انتهى كلام المعارِض .

الجواب : إن كل ما لَم يفعله الرسول ﷺ أو الصحابة من بعده ، لا يُعتبَر تركهم له تحريماً ، والدليل على ذلك قول المصطفى ﷺ : ((مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة ...)) [سبق تخريجه] وفيه أكبر دليل على الترغيب في إحداث كل ما له أصل من الشرع ، وإن لم يفعله المصطفى ﷺ وصحابته _ رضوان الله عليهم _ . وكل ما له مستند من الشَّرع فليس ببدعة ، ولو لم يعمل به السلف ، لأن تركهم للعمل به قد يكون لِعُذر قام لهم في الوقت ، أو لِمَا هو أفضل منه ، أو لعله لم يبلغ جميعهم عِلم به. فمن زعم تحريم شيء بدعوى أن النبيَّ ﷺ لم يفعله فقد ادعى ما ليس له دليل، وكانت دعواه مردودة . وهو بذلك يكشف جهله بعلم الأصول ، فَمِن الْمُقرَّر أن التَّرك ليس مِن دلائل التحريم ، ولا حتى من دلائل الكراهة . فالتحريمُ والكراهةُ يَحتاجان دليلاً شَرعياً .

[٢] زعم المعارِض أن أكثر من يُحيي هذه الموالد هُم مِنَ الفُجَّار والفُسَّاق . وهذا كلام ساقط يدل على معدن صاحبه وخُبث طَوِيَّته ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ؟ .

[٣] زعم المعارِض وجود شِركيات في بعض الألفاظ ، فاعترض على قول البوصيري :

يا أَكرمَ الخلق ما لي مَن ألوذ به   سِواكَ عند حُدوث الحادِثِ العَمِمِ

وكلام المعارِض يفضح جهله بالشريعة واللغة العربية . ونحن نسأل ما هو الحادث العمم ؟ ، إنه الحادث الذي يَعُمُّ الكونَ بأسره من إنس وجن وجميع الخلائق ، وهو يوم القيامة . فيكون المعنى هو التوسل والاستغاثة بالنبيِّ ﷺ لإنقاذ المسلمين من هذا الْخَطْب الْجَلَل بإذن الله تعالى، وقد تَمَّ تَوضيحُ مسألة التوسل والاستغاثة سابقاً .

وقد قال النبيُّ ﷺ: ((إذا كان يوم القيامة ماجَ الناسُ بَعْضُهم في بعض ، فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم فيقول : لستُ لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى فيقول: لستُ لها ولكن

عليكم بعيسى فإنه رُوحُ اللهِ وكلمتُه ، فيأتون عيسى فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فيأتونني فأقول : أنا لها))(37).

[٤] يقول المعارِض إنه يحصل اختلاط الرِّجال بالنساء ، واستعمال الأغاني والمعازف وشرب المسكرات . وهذا كذبٌ محض ، وسَتُكْتَب شهادتهم ويُسألون . وقد حضرنا الموالد فلم نر اختلاطاً ولم نسمع معازف، أمَّا شرب المسكرات فنعم ، رأينا سُكْراً بمحبة النبيِّ ﷺ ولكن ليس كَسُكْر أهل الدنيا ، وجدنا سُكْرَ المحبة للنبيِّ ﷺ وآله الأطهار ، وصحابته الأبرار .

[٥] يقول المعارِض إن يوم ولادته ﷺ هو نفْس يوم وفاته ، فالفرح ليس أوْلَى بالحزن ، ولو كان الدِّين بالرأي لكان اتخاذ هذا اليوم مأتماً ويوم حزن . اهـ .

والذي سيجيبكم هو الإمام السيوطي كما في (الحاوي للفتاوي / ص ١٩٣ طبعة دار الكتب العلمية) حيث قال ما نصه : ((إن ولادته ﷺ أعظم النِّعم ، ووفاته أعظم المصائب لنا ، والشريعة حثَّت على إظهار شكر النِّعم ، والصبر والسكون عند المصائب ، وقد أمر الشرعُ بالعقيقة عند الولادة وهي إظهار شكر وفرح بالمولود ، ولم يأمر عند الموت بذبح عقيقة ولا بِغَيره ، بل نهى عن النِّياحة وإظهار الجزع، فدلَّت قواعد الشريعة على أنه يَحْسُن في هذا الشهر إظهار الفرح بولادتهﷺ دون إظهار الحزن فيه بوفاته .

وقد قال ابن رجب في كتابه (اللطائف) في ذم الرافضة ... حيث اتخذوا يوم عاشوراء مأتماً لأجل مقتل الحسين ، ولم يأمر اللهُ ولا رسوله ﷺ باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً ، فكيف مِمَّن هو دُونَهم . اهـ .

[٦] وزعموا أيضاً أن الدولة " الفاطمية " الرافضية هي من أحدثت الاحتفال بالمولد النبويِّ الشريف، وعلى فرض التسليم بصحة هذا الأمر ، فماذا تقولون بكل هؤلاء الأئمة الأعلام الذين أباحوا الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؟. هل هم أزلام الدولة الفاطمية ؟. حتى إمامكم "المعصوم" ابن تيمية جوَّز الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فهل كان عميلاً للدولة الفاطمية الرافضية ؟.

---

(٣٧) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٧) برقم (٧٠٧٢) ، ومسلم (١/ ١٨٢) برقم (١٩٣) .

إن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها التقطها ، وخذ الحِكمة والخير والفضيلة ، لا يَضُرُّك من أي وعاء خَرجتْ، فلو قال ملحدٌ كلمة حق، فعلينا أن نتمسك بكلمة الحق تلك، ولو قال إمام مسجد كلمة باطل، فعلينا رفض تلك الكلمة . هذا هو المنهجُ العِلْمِيُّ الإسلاميُّ .

والنبيُّ ﷺ عندما صام عاشوراء أخذ صيامه عن اليهود ، فنحن أوْلَى بموسى ﷺ منهم ، ولو افترضنا أن الدولة الفاطمية سنَّت الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فعلينا أن نتمسك بالمولد النبوي الشريف لأننا أوْلَى بالنبيِّ ﷺ منهم .

روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٢) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((احْرِصْ على ما ينفعك)) .

وهذا اللفظ عام يشمل الحرص على المنفعة سواءٌ صدرت من مسلم أو كافر ، وكما هو مقرَّر في الأصول فإن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والتخصيص بحاجة إلى دليل ، ولا دليل في هذه المسألة . إذن ، يظل التعميمُ شاملاً وعَامَّاً دون قَيْد .

ولنأت إلى خاتمة موضوعنا في هذه المسألة ، ونبحث موضوع حصر فهم القرآن والسُّنة بالسلف الصالح_ رضي الله عنهم _ . ونحن نؤمن أن أعلم هذه الأمة هم سلفنا الصالح، لكنهم اختلفوا في مسائل كثيرة كما وضَّحنا من قبل ، فلو كان لهم مذهب واحد موحَّد لَمَا ظهر الأشاعرة والماتريدية الذين حملوا المشعل لقيادة الأمة دينياً وفكرياً في مواجهة الطوائف الضالة .

لذا فإن الخلف هم أفضل مَن شرح مُراد السلف ، وجناحا الأمة هم السلف والخلف ، وهذه الأمة لا تنطلق إلا بالاعتماد على هذين الجناحين .

كما أن ثوابت الإسلام معروفة لا جِدال فيها ، ومسائل الفروع فيها اجتهاد واسع ، أمَّا منهجية الفهم والاستنباط فقد اختلف فيها الصحابة _ رضي الله عنهم_ اختلافاً واضحاً والقرآنُ يَنْزِل عليهم، وهذا لَم يجعلهم يطعنون في بعضهم البعض ، مثلما يفعل بعض العوام الذين يُسَمُّون أنفسَهم عُلماء . وكُلُّ مَن امتلكَ أهليةَ الاجتهاد في أيِّ زمان وأيِّ مكان ، فعليه أن يَجتهد ، ويَبتعد عن التقليد .

خُرافةُ حَصْر فَهْم الإسلام بالسَّلف الصالح :

إنَّ القُرآنَ بوصفه كتاباً مُعجزاً لا تنقضي عجائبه، وهذا يستلزم أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ، مما يقود إلى فهم متجدد واجتهادات مبتكرة ، فكل ذي أهلية للاستنباط عليه أن

يستنبط. والقرآن الكريم لم يمنح السلف الصالح حق الاجتهاد والاستنباط ويمنع الخلف من ذلك ، بل إن الاستنباط مفتوح على مصراعيه لكل من امتلك أهلية الاستنباط . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ٧] . والرَّاسخون في العلم لم يحصرهم القرآن الكريم بالسلف الصالح ، وإنما هو لفظ عموم غير مقيَّد يفيد كل الراسخين في العلم سواءٌ كانوا في القرن الأول الهجري أو القرن العاشر الهجري مع الاعتقاد بأفضلية السلف الصالح بعد النبيِّ ﷺ ، ولكن العِصمة فقط لقول النبيِّ ﷺ ، أمَّا ما عداه فيؤخذ منه ويُرَد عليه . فَكَوْنُ العالِم من السلف الصالح سواءٌ كان صحابياً أم تابعياً فهذا لا يعطيه حصانة ضد النقد أو عِصمة ضد الخطأ . وهذه الآية اختلف فيها العلماء هل هي موصولة أم مقطوعة ؟ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) : ((واختلف العلماء في الراسخين في العِلم، هل يعلمون تأويل المتشابه وتكون الواو في ﴿ والراسخون ﴾ عاطفة ، أم لا ويكون الوقف على ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ، ثم يبدأ قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ ؟ وكل واحد من القولين محتمل واختاره طوائف والأصح الأول، وإن الراسخين يعلمونه لأنه يَبْعُد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته. وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يُفيد ، والله أعلم)) اهـ .

قال الإمام الغزالي في المستصفى (٨٥/١): ((الواو للعطف أم الأَوْلى الوقف على ﴿ الله ﴾ ، قلنا كل واحد محتمل. فإن كان المراد به وقت القيامة فالوقف أَوْلى، وإلا فالعطف. إذ الظاهر أن الله تعالى لا يخاطب العرب بما لا سبيل إلى معرفته لأحد من الخلق)) اهـ .

وقد تظهر مسألة للخلف لم تظهر للسلف ، وقد تظهر مسألة للسلف لم تظهر للخلف . والْحَكَم هو القرآن والسُّنة الصحيحة ضمن منهجية رَدِّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم ، وتقييد العام بالتخصيص، والتوفيق بين النقل والعقل ضمن منهجية وسطية معتدلة ، فالنَّقل لا يُفهَم إلا بالعقل ، والعقل لا يكون إلا خاضعاً للنَّقل . والنقل والعقل يوجدان معاً ويغيبان معاً ، ولا يُقبَل أحدهما دون الآخر . فلو تم حصر فهم القرآن الكريم بالسلف الصالح فهذا يعني أن عجائب القرآن قد انقضت ، وظهرت على أيدي السلف الذين فسَّروها ، وصار موقفنا نحن المعاصرين التفرج على منجزات السلف الصالح فقط دون إعمال عقولنا ، وهذا يُضاد قَوْلَ النبيِّ ﷺ الذي بيَّن أن القرآن لا تنقضي عجائبه ، مما يعني تعدد الاستنتاجات والفهوم ، وتجدد الاجتهادات والمعارف الخاضعة لِسُلطان الكتاب والسُّنة ، أي إن الأمر غير محصور بفهم السلف الصالح .

وعن عبد الله بن مسعود ـرضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ هذا القرآنَ مَأدبةُ الله ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبلُ الله والنور المبين والشفاء النافع ، عِصمة لمن تمسَّك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فَيُسْتَعْتَبُ، ولا يُعَوَّجُ فيُقَوَّم، ولا تنقضي عجائبُه))[38].

شَبَّه القرآنَ بصنيع صنعه اللهُ للناس ، لهم فيه خير وبركة ومنفعة . وعلى المرء أن يُقبِل على كتاب الله ، فهو الحبل الممدود بين الأرض والسماء، والنُّور الواضح ، والشفاء لكل الأمراض الروحية والمادية . مَن تمسَّك به عُصم من الخطأ والضلال ، ومَن تَبعه قاده إلى النجاة في الدَّارَيْن . والقرآنُ كتابٌ كامل معصوم لا يَزيغ ، ولا يَنحرف . وستظل عجائبُه حتى يوم القيامة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٣٨) : ((فالإيمان بأن كلام الله تعالى وتنْزيله لا يُشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها ، والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه لتأويل المحرِّفين وتعرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه، والعمل بِمُحْكَمِه والتسليم لِمُتشابِهِه،والبحث عن عُمومه وخُصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه والدعاء إليه)) اهـ . وعدم انقضاء عجائب القرآن يعني أن هناك تفاسير جديدة ، وفتوحات ربانية سوف تظهر في كل زمن حول فهم آيات القرآن الكريم ، وما يُصَدِّق هذا الكلام تعدد تفاسير القرآن في كل العصور ، واختلاف مستويات التحليل والفهم للمفسِّرين . وبالقَطْع فهذا لا يعني تحريف الآيات عن سياقها الدِّيني واللغوي من أجل اختراع فهمٍ غير مسبوق.

وروى البخاري في صحيحه(١/ ٥٣) عن أبي جُحَيفة قال: قلتُ لعليٍّ: هل عِندَكُم كتاب ؟، قال : ((لا ، إلا كتابُ اللهِ أو فَهْمٌ أُعطيه رَجُلٌ مُسلم)) .

فلم يَقُلْ عليٌّ ـ عليه السلام ـ: أو فهم أُعطيه رجل من السلف الصالح، بل قال رَجُل مسلم ، أي قد يكون من السلف أو من الخلف أو من زماننا المعاصر . لذا فالفهم غير محصور في السلف الصالح . والذين يقومون بحصر فهم الإسلام بالسلف الصالح مع اختلافاتهم اللانهائية ، وتباين منهجيات اجتهاداتهم هم يؤسِّسون في أذهانهم الواهمة سُلطة كهنوتية تحتكر حق فهم

(٣٨) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٧٤١) برقم (٢٠٤٠) وصحَّحه . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٣١): ((رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه ، وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح)) اهـ .

وتأويل النص الديني، وهذا باطل بالضرورة. كما أن أقوال السلف ليست مِن حُجَج الشرع (الكتاب ، السُّنة ، الإجماع ، القياس) ، فكيف نبني ديننا على فهوم رجال مختلفين أصحاب مدارس فكرية شتى ونلغي أعظم مَن فسَّر مُراد السلف وهم الخلَف (الأشاعرة والماتريدية) ؟! .

إن هذا الدِّين لا يقوم إلا بالسلف والخلف معاً ، ولا يُقبَل أحدهما دون الآخر ، فالذي يُسقِط السلفَ كُلَّهم هذا مرتد كافر لأنه أسقط طبقة كاملة حاملة للدِّين ، والذي يُسقِط الأشاعرة كُلَّهم فهذا مرتد كافر لأنه أسقط طبقة حاملة للدِّين ، وإذا كان السلف ضالين أو الأشاعرة ضالين فمن الذي حمل إلينا هذا الدِّين ؟. وهذه العقيدة الفاسدة تستلزم أن يكون إسلامنا مشكوكاً فيه لأنه حُمِل على أكتاف رجال خونة ضالين ، والعياذ بالله تعالى . وهذا لا يقول به إلا زنديق ألقى الإسلام وراء ظَهره نابذاً إيَّاه .

وعن قيس بن عُبادة _رضي اللهُ عنه_ قال: دخلتُ أنا والأشتر على عليِّ بن أبي طالب_ رضي اللهُ عنه _ يوم الجمل ، فقلتُ : هل عَهِدَ إليك رسول الله ﷺ عهداً دون العامة ؟ ، فقال : لا ، إلا هذا ، وأخرجَ مِن قِرَابِ سَيفه فإذا فيها المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهُم يد على مَن سِواهم ، لايُقْتَل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده [39].

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٩٤) برقم (١٣٧٠) : [عن إبراهيم التَّيميِّ عن أبيه قال : خَطَبَنا عليُّ بن أبي طالب ، فقالَ : مَن زَعَمَ أنَّ عِندَنا شَيئاً نقرأه إلا كتابَ اللهِ وهذه الصحيفة ، _ قال : وصحيفة مُعلَّقة في قِراب سَيْفه _ ، فقد كذبَ ، فيها أسنانُ الإبلِ وأشياءُ من الجراحات ، وفيها قال النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم : ((المدينةُ حَرَمٌ ما بَيْنَ عَيْر إلى ثَوْر ، فَمَن أحدثَ فيها حَدَثاً أو آوَى مُحْدِثاً ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقْبل اللهُ مِنه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً ، وذِمَّةُ المسلمين واحدة ، يَسعى بها أدناهم ، وَمَن ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقْبل اللهُ مِنه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً] .

والنبيُّ ﷺ لَم يَخُصَّ آلَ بَيته بِعِلْمٍ دون المسلمين ، ومن باب أَوْلى أنه لم يخص السلف الصالح بشيء دون المسلمين . إذن ، الباب مفتوح للاجتهاد على مصراعيه سلفاً وخَلَفاً، وغير مقيَّد بالسلف فقط كما يزعم بعض العوام الذين يظنون أنفسهم علماء .

---

(٣٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٥٣) برقم (٢٦٢٣) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

وقد تظهر للخلف مسألة لم تظهر للسلف الصالح ، فإنَّ امرأةً من المسلمين ردَّت على عمر ابن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، وخطَّأته وهو على المِنبر ، والصحابةُ حاضرون . فعن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب مِنبرَ رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ، ما إكثاركم في صُدُقِ النساء . وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها ، فلأعرفنَّ ما زاد رَجل في صَداق امرأة على أربعمائة درهم،قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة مِن قُرَيش ، فقالت : يا أمير المؤمنين نَهَيْتَ الناسَ أن يزيدوا في مَهْرِ النساء على أربعمائة درهم، قال : نعم ، فقالت : أَمَا سمعتَ ما أنزل الله في القرآن ، قال : وأي ذلك ؟. فقالت : أمَا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً ﴾[النِّساء : ٢٠] ، قال : فقال : اللهمَّ غَفْراً ، كُلُّ الناسِ أفقهُ مِن عُمر ، ثم رجع فركب المنبر ، فقال : أيها الناس إني كنتُ نَهَيْتُكم أن تزيدوا النساء في صَدُقاتِهِنَّ على أربعمائة درهم ، فمن شاءَ أن يُعطيَ مِن ماله ما أحَبَّ . قال أبو يعلى: وأظنه قال : فمن طابت نفْسُه فليفعلْ (40).

لقد ردَّت امرأةٌ من المسلمين على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ وهو الإمام العالِم العابد . وأيضاً يُستفاد من هذه القصة أنَّ ترك النبيِّ ﷺ وأصحابه _ رضي الله عنهم _ لأمر ما ليس مِن دلائل التحريم. فالتحريمُ بحاجة إلى نَص شرعي قاطع. والذين يعتبرون ترك النبيِّ ﷺ وأصحابه لأمرٍ ما تحريماً له ، فهذه القصة تَرُدُّ عليهم وتُلجمهم إلجاماً .

واستناداً إلى هذه القصة ، فقد تنكشف لشخص عادي مسألة لَم تنكشف لصحابِيٍّ أو تابعيٍّ ، وقد تنكشف مسألة لِرَجل مِن الخلَف لَم تنكشف لِرَجُل من السلف الصالح ، أمَّا أن نأخذ أقوال السلف الصالح مصدراً من مصادر التشريع ، وحُجَّة لا تقبل المناقشة ، فهذا مرفوض شَرعاً وعَقلاً.

و " السلفيون " لا يؤمنون بشرعية المذاهب الأربعة، إذ إنهم يقولون بوجوب الذهاب فوراً إلى الكتاب والسُّنة قافزين على المذاهب الأربعة ، ويَقولون : خُذوا مِن حيث أخذ الأئمة . وهذا أمر كارثي يقود الأمة إلى اللادينية . فالأغلبية الساحقة مِنَ الأُمَّة هم عوام من ناحية العلوم الشرعية ، ولا يملكون أهلية الاستنباط والاجتهاد مباشرة من النصوص الشرعية . وعندما يتم إلغاء المذاهب الأربعة بِحُجَّة الذهاب إلى القُرآن والسُّنة مُباشرةً ، بِدَعوى : خُذوا مِن حَيث أَخذوا . فإن الأمة سوف يضيع دِينها ، فهي غير قادرة على صياغة نصوص فقهية لحياتها .

---

(٤٠) رواه ابن كثير في تفسيره (١/ ٦١٧) وقال : ((إسناده جَيِّد قوي)) اهـ .

قال الإِسْنَوِيُّ في التمهيد (ص ٥٢٧) : ((إذا علمتَ ذلك فمن فروع المسألة : عدم جواز تقليد الصحابة _ رضي الله عنهم أجمعين _ كذا ذكره ابن برهان في الأوسط ، قال : لأن مذاهبهم غير مُدوَّنة ولا مضبوطة حتى يُمكن الْمُقلِّد الاكتفاء بها فيؤديه ذلك إلى الانتقال.وذكرَ إمام الحرمين في البرهان نحوه فقال : أجمع المحقِّقون على أن العوام ليس لهم أن يتعلقوا بمذهب أعيان الصحابة _ رضي الله عنهم _ بل عليهم أن يَتَّبعوا مذاهب الأئمة الذين سَبَروا فنظروا ، وبَوَّبوا الأبوابَ ، وذكروا أوضاع المسائل ، وجمعوها وهَذَّبوها وثبَّتوها . وذكرَ ابن الصلاح أيضاً ما حاصله أنه يتعين الآن تقليد الأئمة الأربعة دون غَيرهم قال: لأنها قد انتشرتْ وعُلم تقييد مُطْلَقها، وتخصيص عَامِّها، وبشروط فروعها ، بِخِلاف مذهب غَيرهم رضي اللهُ عنهم أجمعين)) .

وقد تطاول بعض الجهال على الأشاعرة بِحُجَّة أنهم خاضوا في مسائل وتعرَّضوا لأشياء لم يقلها السلف الصالح _ رضي الله عنهم_، فنقول إن السادة الأشاعرة قد قاموا بتفصيل الأشياء الْمُجْمَلة التي قالها السلف الصالح ، وهم أفضل مَن شرح مُراد السلف خصوصاً مع انتشار الطوائف الضالة كالمعتزلة والشيعة الروافض الذين أثاروا أشياء عديدة مستقاة من الفلسفات الدخيلة وأقحموها في دِينهم ، لذا كان لا بد أن يُرَد عليهم بنفْس سلاحهم ، من أجل فضح باطلهم أمام الناس ، والتحذير منهم خَوفاً من انجرار العوام وراءهم معتمدين على شُبَه خطافة . وكما هو معلوم فإن المعتزلة يُقدِّمون العقلَ على النَّص ، وبالتالي لا بُدَّ مِن مُحاورتهم عقلياً لإقامة الْحُجَّة عليهم ، وهذا أحد أسباب نشأة عِلْم الكلام [41].

وبما أن الإسلام نَقْلٌ وعقلٌ ، فعلينا إثبات حُجَجنا الشرعية نقلياً وعقلياً لكي نُقدِّم البرهان الساطع المتكامل على صِحَّة هذا الدِّين ، إذ إن الدليل الشرعي الصحيح لا يُضاد العقلَ السليم ، والعقلُ السليم مُحالٌ أن يتصادم مع نَص شرعي صحيح . فالنَّقْلُ حَق ، والعَقْلُ حَق ، والحقُّ لا يُعارِض الحقَّ . والكفار والملاحدة والماديون الجدليون عندما تقول لهم قال الله تعالى في القرآن الكريم ، يُجيبونك بأنهم لا يؤمنون بكلام اللهِ . وعندما تقول لهم قال النبيُّ ﷺ ، يقولون لك إنهم لا يؤمنون بالنُّبُوَّة، ومِثْل هؤلاء لا بُدَّ مِن مُحاورتهم بِعِلْمِ الكلام والمنطق والبراهين العقلية ، من

(٤١) هو العِلْمُ الذي يَستخدم الْحُجَجَ العقلية والبراهين المنطقية لإثبات العقائد الإسلامية ، وهو كالدواء لا يُستخدَم إلا في حالات خاصة جداً ، منها استخدامه مع أولئك الذين يرفعون العقل فوق درجة النَّص الشَّرعي ، أو مَعَ أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالعقل غير معترفين بالكتاب والسُّنة .

أجل كشف باطلهم، والانتصار للحق الذي جاء به الإسلام. وعلى " السلفيين " أن يَشكروا الأشاعرةَ، لأنهم حَفِظوا الميراثَ العِلْميَّ للسلف الصالح . وقاموا بِصَدِّ المذاهب الهدَّامة التي قامت على أكتاف عُلماء مُتمكِّنين شديدي الخطورة . ولَولا الأشاعرة لَدَخَلَ المسلمون في العقائد الباطلة، وانقطعوا عَن الصحابة والتابعين تماماً. ولَولا الأشاعرة لكانَ هؤلاء " السلفيون " الآنَ إمَّا شِيعة أو مُعتزلة أو خوارج . ولَولا الإمام أبو الحسن الأشعري لكانَ ابن تَيْمِيَة مِن علماء المعتزلة .

يقول الإمام الحسن البصري في رسالة أرسلها إلى عبد الملك بن مروان أو الحجَّاج (روايتان وردتا في ذلك) يتحدث فيها عن القضاء والقَدَر : ((...ولم يكن أحد من السلف يَذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد . وإنما أحْدَثْنا الكلامَ فيه لَمَّا أحدثَ الناسُ من النُّكرة له . فلما أحدثَ الْمُحْدِثون في دِينهم ما أَحْدَثوا ، أَحدثَ اللهُ للمتمسكين بكتابه ما يُبطلون به الْمُحْدَثات ، ويُحذِّرون به مِن الْمُهْلِكات))(42).

يقول الكوثري في مقدمة تحقيقه لكتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري لابن عساكر ٩_١٥) :[كان عِدَّةٌ من أحبار اليهود ورُهبان النصارى ومَوابذة المجوس ، أظهروا الإسلام في عهد الراشدين ، ثم أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الأساطير بين مَن تروج عليهم ، ممن لم يتهذب بالعِلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم. فتلقفوها منهم ورَدُّوها لآخرين بسلامة باطن ، معتقدين ما في أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه ، ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم .. فأخذ التشبيه يتسرب إلى مُعتَقَد الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة . وقد سمع مَعْبَدُ بن خالد الْجُهنيُّ مَن يَتعلَّل في المعصية بالقَدَر ، فقام بالرد عليه ، يَنفي كَوْنَ القَدَر سالباً للاختيار في أفعال العباد ، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف . فضاقت عبارته وقال : ((لا قَدَرَ والأمر أُنُف)) فسُمِّيَ جماعةُ معبد قَدَرية ..وأوَّل مَن عرف القول بخلق القرآن الْجَعْد بن دِرهم الدمشقي ، وكان جَهْمُ بن صَفوان أخذ ذلك القول عن الجعد وضمَّه إلى بِدَعِه التي قام بإذاعتها. ومن جملتها نفي الخلود. ولَمَّا قام الحارث بن سُرَيج بخُراسان ضد الأموية داعياً إلى الكتاب والسُّنة اعتضد بجهم . وكان مُقاتل بن سليمان ينشر هناك نِحلة في التجسيم ، فأخذ جَهْم يَرُدُّ عليه وينفي ما يُثْبِته مقاتل ، فأفرط في النَّفْي حتى قال : ((إن الله لا يوصف بما يوصف به العباد ، ولم يفرِّق بين الاشتراك في الاسم والاشتراك في المعنى)) .. فأمرَ المهديُّ علماء الجدل

(٤٢) المنية والأمل لابن المرتضى ، ص ١٢_ ١٣ .

من المتكلِّمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين والزنادقة ، فأقاموا البراهين ، وأزالوا الشُّبَه ، وأوضحوا الحق ، وخدموا الدِّين . وكان القائمون بأعباء تلك المدافعات طائفة من المعتزلة ، وقد عَلِق بنفوسهم ما لا يُستهان به من أمراض عقلية عَدَتْ إليهم من مُناظريهم أورثتهم تلك البدع التي عُرفوا بها . اهـ مع الاختصار] .

فلا بد من بناء عِلم الكلام وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة لكي تحصل الفائدة المرجوة من إلجام أصحاب البدع والانحرافات ، فالمشكلة ليست في عِلم الكلام إذا كان مبنياً وفق أسس شرعية ، وإنما المشكلة في أولئك الذين يستخدمونه .

وينبغي ألا ننسى أن علم الكلام كالدواء يوضع بمقادير محدَّدة في أوقات محدَّدة ، ولا ينبغي أن يَطَّلع عليه العامة لأن ذلك قد يُخَلْخِل إيمانهم، وإنما يظل بين أوساط العلماء الذين يعرفونه حق المعرفة ، ويستخدمونه لنصرة هذا الدِّين .

وفي فتنة خلق القرآن الشهيرة أحدث الإمام أحمد بن حنبل كلاماً لم يَرِدْ عن النبيِّ ﷺ ولا عن الصحابة _ رضوان الله عليهم _ ، إذ قال إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهذه العبارة لم يَقُلْها النبيُّ ﷺ ولا أصحابُه _ رضوان الله عليهم _ ، وهذا مشهور ومبسوط في الكتب. وإنما أحدثَ الإمام أحمد ذلك الكلام الجديد لِمَا فيه من مَصلحة _ مِن وُجهة نظره _، وبسبب انتشار الفئات الضالة التي أحدثتْ أموراً دفعت الإمام أحمد إلى إحداث أمور لِيَرُدَّ عليهم ، فهل يجوز لنا أن نصف الإمام أحمد بالبِدعة لأنه جاء بشيء لم يَأْتِ به النبيُّ ﷺ ولا أصحابُه الكرام ؟! . الجواب : لا .

ومَن ضَلَّلَ الأشاعرةَ لأنهم خاضوا في أشياء لَم يَقُلْها النبيُّ ﷺ أو السلف الصالح ، فعليه أن يُضلِّل الإمامَ أحمد قَبْلَهم ، لأنه خاض في أمور مُسْتَحْدَثَة . وهذا باطل بالضرورة .

والجدير بالذِّكر أن أهلَ السُّنة كلهم يَعتقدون أن القرآن كلام الله غير مخلوق . وذلك لأنَّ كَلامَ اللهِ صِفَةٌ للهِ تعالى ، وصِفَاتُ اللهِ لا تُوصَف بالحدوث، فهي قَديمةٌ قِدَمَ الذات الإلهية ، لَيْست مخلوقةً ولا حادثة . وقد تعرَّض الإمامُ أحمد للأذى بسبب تقواه الذي منعه من التفريق بين اللفظ والمعنى ، وإحداث بَلْبلة في عقائد الناس . والحقُّ أن ألفاظَ القرآن وحروفه مخلوقة حادثة، أمَّا معاني القرآن فهي مِن عِلْمِ اللهِ ، وعِلمُ اللهِ صِفَةٌ له سُبحانه ، وصِفَاتُ اللهِ قَديمة غير مخلوقة .

ثالثاً : آياتُ القتلِ والقتالِ في القرآن

يجيءُ هذا البحثُ لِيُلقيَ الضوء على موضوع غاية في الأهمية ، وهو القتل ومشتقاته من وجهة نظرٍ قُرآنية . وكما هو معلوم فإن أعداء الحق في شتى العصور اتخذوا هذا الموضوع ذريعةً للطعن في القرآن الكريم ، وتصويره على أنه كتاب إرهابي يأمر أتباعَه بقتل الناس بالطُّول والعَرض دون احترام لحقوق الإنسان أو مشاعر البشر . وهذه التهمة المفتقدة إلى أدنى نصيب من المنهج العلمي صارت موضة قديمة من كثرة ما تَمَّ ترديدها مِن قِبَل المستشرقين ، وصِبيانهم مِن أبناء جِلْدتنا. وبالتأكيد فهي لَم تعد تنطلي إلا على بعض العوام الذين لا يملكون ثقافةً تُؤهِّلهم لفهم الضوابط العامة للأحداث .

ونحن لا ننكر وجود آيات قرآنية كثيرة تدعو إلى القتل ، لكن السؤال هو : ما نوعية القتل الذي تدعو إليه الآيات ؟ ، وما هو المسار التاريخي لها ؟ ، وما هي الضوابط العامة التي تحدد هذه العملية ؟. فالقتل نوعان: قتلٌ محمود، وهو الذي يستهدف المستحقين للقتل . وهذا الأمرُ خاضعٌ لأحكام الشريعة ، وقتلٌ مذموم ، وهو الذي يستهدف مَعصومي الدم .

والفرق بين القرآن مِن جِهة ، والتوراة والإنجيل من جهة أخرى ، هو أن آيات القرآن لها أسباب نزول محدَّدة، ووقائع تاريخية معيَّنة. ويجب أن تُفهَم الآيات من خلالها، أمَّا التوراة والإنجيل فهما كتابان بشريان بلا سندٍ تاريخي ، ولا أسباب نُزول .كما أن الوقائع التاريخية فيهما مُشوَّشة ، والعقائد الدِّينية فيهما متناقضة .

لذلك ، فالآيات التي تدعو إلى القتل في التَّوراة والإنجيل متضاربة وغير مُنضبِطة ، مِمَّا يَجعل شريعة القتل في هذين الكتابَيْن هدفاً إقصائياً للآخر ، قائماً على الاستكبار والاستعلاء في الأرض بغير الحق ، اعتماداً على غطرسة القوة المادية . وهذا القتلُ الفوضويُّ في مصادر التَّشريع الدِّينية عِند اليهود والنصارى ، يُعتبَر إبادةً جماعية تتجلى في صور العنف وترويع الأبرياء والنساء والأطفال ، وتطهيراً عِرقياً مؤلماً (43). وإلَيكَ بعض النصوص مِنَ التَّوراة والإنجيل _ على سبيل المثال لا الحصر _ وهي تُؤيِّد ما ذَهَبْنا إلَيه : _

(٤٣) للتوسع في دراسة مفهوم العنف العبثي، والقتلِ الفوضوي،والإرهاب المذموم في التوراة والإنجيل، راجع كتابَيْنا " صورة اليهود في القرآن والسُّنة والأناجيل " ، و" التناقض في التوراة والأناجيل " .

((لا تقطعْ لهم عهداً ولا تُشفقْ عليهم))[تثنية ٧: ٢].وهذا تَهديدٌ حقيقي للأُخُوَّة الإنسانية.

((حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصُّلح . فإن أجابتك إلى الصلح وفتحتْ لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبَد لك))[تثنية ٢٠: ١٠و١١].((وأمَّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نَسَمةً ما))[تثنية ٢٠: ١٦].

وهذا يُكرِّس الإبادةَ الجماعية في الحروب بشكل وحشي ، واستعبادَ الآخرين ، واعتبارهم في مستوى الحيوانات ولا تستحق الحياة ، وذَنْبهم أنهم من الأغيار _ غير اليهود _ .

والعجيب أن النَّصارى يؤمنون بهذه النصوص الداعية إلى الإرهاب، ويعتبرونها مُقدَّسةً ضمن ما يُسَمَّى العهد القديم (التوراة). والإنجيلُ لَيْسَ أحسنَ حالاً من التوراة . فالإرهاب وقتل الآخرين متجذر في نصوص كثيرة منها النص الأكثر شراسةً وعنفاً المنسوب _ كذباً وزوراً _ إلى السيد المسيح ﷺ : ((لا تظنوا أني جئتُ لأُرسيَ سلاماً على الأرض. ما جئتُ لأُرسيَ سلاماً بل سيفاً. فإني جئتُ لأجعل الإنسان على خلافٍ مع أبيه والبنت مع أمها والكنَّة مع حماتها. وهكذا يصير أعداءَ الإنسان أهلُ بيته)) [متَّى ١٠: ٣٤و٣٥] .

والتدمير مستمر وللأسف فإنه يُنسَب_ كذباً_ إلى السيد المسيح ﷺ : ((جئتُ لأُلقيَ على الأرض ناراً فكم أُريد أن تكون قد اشتعلت ؟))[لوقا ١٢: ٤٩] .

والانقسام وخراب المجتمع أيضاً له نصيب في الإنجيل الذي يُزْعَم أنَّه يَدعو إلى السلام واحترام الآخر: ((أتظنون أني جئتُ لأُرسيَ السلام على الأرض ؟ أقول لكم: لا، بل بالأحرى الانقسام)) [لوقا ١٢: ٥١] .

وتدمير القيم النفسية والعائلية واحتقار الأبوين أيضاً ، له نصيب في هذا النص المنسوب كَذِباً إلى السَّيد المسيح ﷺ: ((إنْ جاء إلَيَّ أحد ولم يُبغض أباه وأُمَّه وزوجتَه وأولادَه وإخوتَه وأخواتِه بل نفسَه أيضاً فلا يمكنه أن يكون تلميذاً لي)) [لوقا ١٤: ٢٦] .

أمَّا القتلُ في القرآن فَمُنضبِط تماماً بالنصوص الشرعية الثابتة، ولا مجال للخطأ في النص أبداً ، ولكن الخطأ قد يظهر في التطبيق البشري لهذه الآيات القرآنية ، وهذه ليست مشكلة القرآن الكريم ، وإنما مشكلة الأفراد الذين أساؤوا فهم بعض الآيات، وأوَّلوها لخدمة مصالحهم، وانتزاعِ الشرعية الوهمية لأفعالهم الطائشة.

والإسلامُ حُجَّةٌ على الناس، والناس لَيسوا حُجَّةً على الإسلام . فلو رأيتَ إمام مسجد سُلوكه مُنحرِف ، فهذه مشكلته الشخصية ، وليست مشكلة الإسلام . إذ إن النَّص معصوم، والذين

يُطبِّقونه غير معصومين ، ولا يمكن لِغَير المعصوم أن يتفوق على المعصوم . لذلك إن رأيتَ مَن يقومون بتفجيرات عبثية هنا أو هناك ، ويقومون بقتل مَعصومي الدم ، فاعلم أنهم مُخالِفون للقرآن الكريم ، حتى لو رأيتهم بِلِحى طويلة ، ويَتْلُون بعض الآيات التي توهَّموا أنها تدعو إلى ما يَدْعُون إليه . فليسَ كُلُّ مَن هَبَّ ودَبَّ صار قادراً على تفسير القرآن الكريم ، وليس كل من يرتدي ثوباً أو يُطْلِق لحيته أو يُصلِّي في الصف الأول صار مجتهداً قادراً على الاستنباط من كتاب الله تعالى . فالتفسير بحاجة إلى عالِم متمكن في كثير من العلوم ، ومن أهمها اللغة العربية ، حتى يقدر على وضع الآيات القرآنية في موضعها اللائق . وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النِّساء : ٨٣] .

إنَّ الاستنباط ليس أمراً عابراً متاحاً للجميع، بل يختص به المؤهَّلون علمياً، فيقومون به وفق قواعد منهجية معتمدة ، وضوابط فكرية واضحة المعالم . أمَّا أن يظن كل واحد أنه صار مُجتهِداً لأنَّه يحفظ بعض النصوص، فهذا غير مقبول البَتَّة . فالإنسان الطاهر الذي يخشى اللهَ لا يتجرَّأ على الخوض في تفسير كلام الله دون عِلْم راسخ ، فالمسألة لا تحتمل أن يُدْلِيَ كل واحد برأيه مجرَّداً من التأصيل الشرعي المعتمَد ، فالدِّين لا يؤخذ بالرأي والخيالات والأهواء ، وإنما يؤخذ من النصوص الثابتة وفق فهم العلماء الأثبات المشهود لهم بالعِلْم والوَرَع . فهذا الدِّين منقول بشكل متواتر من طبقة إلى طبقة ، لا يمكن أن يطرأ عليها الكذب. ومن هنا تظل المسألة مسألة تأويل الآيات القرآنية وتفسيرها ، إذْ إنَّ النَّصَّ القُرآنِيَّ مَعصوم ، أمَّا تفسيرُ النص فَغَير معصوم .

وقد قامت جهاتٌ مُغرِضة بمحاولات حثيثة لتشكيك المسلمين بكتابهم المحفوظ عبر ترويج خرافة أن القرآن يدعو إلى القتل والإرهاب بعد أن فَصَلوا الآياتِ عن سياقها التاريخي ، وضوابطِها الشرعية ، وهذه الأفكار المنحرفة غير مؤسَّسة على منهجية علمية معتمَدة، فالغالبية الساحقة من المستشرقين ضِعاف في اللغة العربية، ولا يملكون أهلية الاستنباط والاجتهاد والتحليل. فهم لا يقرأون القرآنَ بلغته العربية، بل يقرأون ترجماته باللغات الأخرى ، ويبنون على أوهامهم الذهنية المسبقة الصورةَ التي يريدون إسقاطها على العقيدة الإسلامية وواقع الإسلام . كما أنهم يَعتمدون آراءَ الطوائف الضالة ، ويُضخِّمون الأقوالَ الشاذة ، لمهاجمة الإسلام ومحاولة هدمه من الداخل .

وقد استغلوا بعض التصرفات المتطرفة التي تورط بها مسلمون ليصبغوا الإسلامَ بالإرهاب ، ومن ثم انتقلوا إلى الطعن في القرآن لِعِلْمِهم أنَّه الكتاب الوحيد المحفوظ ، الذي لا يأتيه الباطل مِن بَين يَدَيه ولا مِن خَلْفِه ، وهذه المِيزة لا تتوفر لأي كتاب آخر في العالَم .

والذين يَسْعَوْنَ لترويج أن القرآن يدعو إلى القتل العبثي والإرهاب ينقسمون إلى قِسْمَيْن : علماء ظهرت لهم حقيقة القرآن الناصعة لكنهم أعرَضوا، واتخذوا آياتِ الله وراءهم ظِهْرياً، حسداً وكُرهاً لظهور الحق ، وحِفْظاً لمكانتهم ونفوذهم ورياستهم . وجهالٌ ليس لديهم عِلْمٌ بالموضوع ، لكنهم يُرَدِّدون ما يسمعونه من الآخرين دون التثبت بأنفسهم ، وهُم أصْلاً غير قادرين على التثبت بأنفسهم لأنهم يفتقدون إلى أدوات الباحث المتمكن المنصِف . وفي كلا الحالتين علينا أن نعرض الإسلامَ عَرْضاً يُفنِّد كل شُبهات الخصوم ، ويُزيل ما عَلِقَ في أذهان البعض من وساوس وخيالات ، فالقلوب ضعيفة ، والشُّبَه خطَّافة .

ومسألة الطعن في القرآن قديمة جديدة ، وكل واحد ينسخ أفكارَ مَن سبقه ظناً منه أن يُحقِّق فتوحات عظيمة في مجال العِلْم والإبداع والتحليل ! . لكن العالِم العامل بعِلْمه لا يرى بواسطة أعين الناس ، بل عليه أن يرى بواسطة عينيه ليكون الحُكْمُ مُنصِفاً وعادلاً ، فالحُكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره ، كما أن الناس أعداء ما يَجهلون .

وبعضُ الغربيين الذين يقرأون التوراة والإنجيل (العهد القديم والعهد الجديد) ، ويعتنقون كل ما فيهما طوال هذه المدة الزمنية الطويلة قد تشرَّبوا العقائدَ الباطلة مثل عقائد التثليث والصليب والإبادة الجماعية وزنا الأنبياء وزنا المحارم ... إلخ . فهؤلاء يستيقظون على هذه العقائد وينامون عليها طوال هذه المدة الزمنية الطويلة ، وحَوْلَهم الكثيرون مِمَّن يُغَذُّونها . وهؤلاء عندما يقول لهم القرآن إن الله واحد أحد ، والمسيحَ عبدُ الله ورسولُه ، وليس إلهاً وَلَم يُصْلَبْ ، فسوف يستغربون هذا الكلام ، ويعرضون عنه ظناً منهم أنه أوهام ، وكما قال الشاعر :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَـمِ

ولتجاوز هذه الإشكالية ينبغي تأصيل منهجية عمل واضحة المعالم لشرح عقائد الإسلام بالأسلوب الطيب الواضح ، وتفنيد شبهاتِ الخصوم ، ضمن منهجية علمية شرعية تعتمد على النَّقل والعقل . وهذه مهمة ليست سهلة البتة لأنها تهدف إلى انتشال غريق ظَلَّ يغرق طوال حياته ، ويعشق غرقَه ، ويعتقد أن غرقه هو النجاة التي لا محيص عنها . وبالتالي فلا بد من منهجية شاملة ومتكاملة ودقيقة لتوضيح عقائد الإسلام في ظل هذه الهجمة الشعواء المنظَّمة عليه ، لأنه الوحيد القادر على إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وهذه النقطة الجوهرية

تُشكِّل خطراً على الطواغيت الذين ألَّهوا أنفسهم ، وحقَّقوا مكاسب سياسية واقتصادية واجتماعية على حساب استغلال الإنسان وحقنه بالخرافات . وعِلْيةُ القوم هؤلاء سيخافون من فقدان مناصبهم وامتيازاتهم الدُّنيوية ، لذلك سَيُحارِبون نُورَ الشمس بكل طاقتهم ، ولكنَّ اللهَ غالبٌ على أمره ، شَاءَ مَن شاءَ ، وأبى مَن أبى .

وصدقَ اللهُ إِذْ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

واحترامُ النَّفْس الإنسانية مقدَّس في الشريعة الإسلامية ، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض ، فقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . وعليه فقد تكفَّل الإسلام بالدفاع عن الإنسان ، وحمى هذا الكيان من كل ما قد يمس به من سُوء ، لذا فمن مقاصد الشريعة الرئيسية حفظ النَّفْس ، لأن الإنسان إذا انتهى فلن يقوم أحدٌ بتحقيق مفهوم الخلافة الإلهية في الأرض .

وهذا يعكس أهمية الإنسان بوصفه الكائن المكرَّم عند الله تعالى ، وبالتالي فأي مساس به يُعتبَر عملاً مرفوضاً ومذموماً في الشريعة . قال الله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعَاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعَاً ﴾ [المائدة : ٣٢] . وهذه الآية تُوضِّح مكانة النَّفْسِ البشرية واحترامِها بشكل عام دون تخصيصها بمسلم أو بكافر ، والعِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . كما أن النَّفْس الإنسانية داخلة في ذِمة الله وحِفْظه ، إذ إنه سبحانه حرَّم قَتْلَها دون وجه حق ، وهذا التحريم يهدف إلى منح هذه اللطيفة الرحمانية وهي النَّفْس حرية الانطلاق والإبداع وعمارة الأرض دون ضغوطات خارجية، أو تهديدات من أي طرف تعيق النموَّ الوجداني والواقعي لهذا الكيان الإنساني النبيل ، فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ﴾[الأنعام: ١٥١] .

إذن،فإن الحياة الشمولية للفرد إنما تسير في ظل حمايةٍ إلهية واضحة في النصوص المقدَّسة ، وهذا يؤدي إلى أن يسير الإنسانُ في طريقه بكل أمان عالِماً بأنه محميٌّ ، فالخوف إذا سيطر على الفرد أدى إلى سقوطه في فخ الشَّلَل المعنوي،فلا يعود قادراً على الإبداع والتفكير وعمارة الأرض. ومن الأهمية بمكان أن يحصل الإنسان على شرعية وجوده معتمداً على احترام الآخرين له ولحياته وكل ما يتعلق به . لذلك جاءَ الإرشادُ الإلهيُّ للإنسان بأن يَكُفَّ عن ممارسة حماقاته ، خصوصاً عمليات القتل العبثي التي كانت تُمارَس مِن قِبَل أهل الجاهلية ، والمتمثلة في وأد البنات والثأر .

وقد وضع اللهُ الأمورَ في نِصابها الصحيح لكي يتم تعديل مسار الإنسان الذي استمرأ القتلَ العبثي المنهجي، فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٠]. وقد نعى اللهُ على أولئك الذين يمارسون هذا القتل السفيه العبثي. فهل يُعْقَل أن يأمرَ القرآنُ ـ الذي هو كلامُ اللهِ ـ بالقتل العبثي المذموم في أكثر مِن آيةٍ ؟! .

ويَقودنا الحديث إلى مسألة رحمة الله بعباده . وكلُّ ما سِوى الله هو عبدٌ لله ، فاللهُ أرحم بالطفل مِن أُمِّه، وأرحم بالإنسان مِن نَفْسه . والإنسانُ قد استمرأ القتلَ الفوضوي حتى بحق نفْسه، وكأن هذا المخلوق يسير ضد مصلحته الشخصية ، وضد مسار شرعية وجوده . فقال الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [النِّساء : ٢٩] . فالذي اتخذ القتلَ وسيلةً للابتزاز والترويع هو الإنسان بسبب سلوكه الطائش ، وعدوانيةِ أنظمة تواجده في هذا العالَم المسخَّر له ، لكن الأنانيةَ المعرفية تظل حجر عثرة في طريقه ، لا سيما أن طمعه وعشقه للسيطرة على كل شيء أدَّى به إلى الاستمتاع بالقتل ، لكي يزيل كل الذين يهدِّدون شرعيةَ وجوده مِن طريقه ـ حَسَبَ تفكيره القاصر ـ .

والإنسانُ هو الذي يتحمل مسؤوليةَ أفعاله، وتبعاتِ القتل العبثي الذي يقوم به هنا وهناك ، وهذه المشكلة ليست مشكلةَ القرآن، لأنه حدَّد الضوابطَ الشرعية للتعامل مع الذات الإنسانية ، وحمى الوجودَ الإنساني ، وأمر بعدم الإساءة إلى هذا الكيان ، ورتَّب على كل إساءة خطيئةً كبرى من أجل الرَّدْع والترهيب، أمَّا مَن أعرض عن هذا المنهج فهو الحامل لوِزْر هذه الخطيئة أمام الله ، وأمام الناس. وعلى الناس أن تفصل بين السلوك البشري غير المعصوم المنعكس عن شخصية صاحبه ، وبين النص القرآني المعصوم الذي لا يتحمل مسؤوليةَ سوء تطبيقه مِن قِبَل الأفراد غير المؤهَّلين لتطبيقه .

والإشكاليةُ الحقيقية التي يُكرِّسها البعضُ بصورة مُغرِضة، هي تعمُّد اتخاذ السلوك السيئ لبعض الأفراد حُجَّةً على القرآن . ومِن شأن هذا الخلط غير المنطقي إسقاط تصرفات غير المعصوم على المعصوم ، فتختلط الفهومُ القاصرة في الأذهان ، مما يؤدي إلى فوضى في منهجية التعامل مع الدِّين الإسلامي، ووصفه بأوصاف بعض الذين يعتنقونه ، ولا يُحسِنون فَهْمَه أو عَرْضَه .

وللأسف ، فهؤلاء الأشخاصُ المنحرِفون يُشَوِّهون صورةَ الإسلامِ ، بسبب سُوء فهمهم ، وفوضى تأويلاتهم ، وتداخل مصالحهم الذاتية وأهوائهم المتضاربة التي يحاولون فَرْضها على مسار النَّص ، ووضعيةِ سياقه المعرفي التاريخي .

وقد يكونون مُخلِصين ، لكنَّ الوُجهة التي اختاروها خاطئة. وكَم مِن مُريد للخير لا يُصيبه. وهؤلاء الفئةُ لا يَسْعَوْنَ إلى طلب العِلْم والنصيحة ظَنّاً منهم أنهم على الحق الْمُطْلَق، وغَيْرَهم على الباطل المطْلَق . أو أنهم العلماء الذين لَم يَأْتِ مِثْلُهم ، أمَّا الآخرون فمجموعة من الجهال وعلماء السلاطين . وهُم بذلك يَشُذُّون عن الأمة، ويتحملون كامل المسؤولية أمام الله تعالى ، ولن تنفعهم نيتهم الصالحة على فرض التسليم بصلاحها، لأن النية الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد .

وعدم امتلاكهم لأدوات منهجية الاجتهاد والاستنباط جعل منهم خوارج، أو قريبين من الفكر الخوارجي . وقد ورد التحذير من هؤلاء ، فقد روى البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٢١) أن رسول الله ﷺ قال : ((يأتي في آخر الزمان قَوْمٌ حُدَثاءُ الأسنان ، سُفهاءُ الأحلام، يَقولون مِن خَير قول البَرِيَّة ، يَمْرُقُون مِن الإسلام كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّة ، لا يُجاوِز إيمانُهم حَناجرَهم)).

وقد يظن البعض أن القرآن وضَّح أهميةَ المسلم فَحَسْب، وحمى وجودَه الشرعي من كل سوء ، أمَّا الكافر فهو حلال الدم في كل الأحوال. وهذه النظرة قاصرة تماماً ، وتخلو من المنطق الفكري ، والبحثِ الدقيق المنصِف . فالقرآنُ كتابُ اللهِ الناسخُ لِمَا قَبْلَه، والحاكمُ عَلَيه، والشاملُ لكل شيء. لم يأت لفئة دون أخرى، بل جاء للإنس والجن ، مسلمهم وكافرهم. فقد أوجد حلولاً للبشرية جمعاء ، ولم يُنصِف المسلمين على حساب الكافرين أو العكس ، بل أنصفَ الإنسانَ كإنسان ، فمدح المسلمَ ، وذمَّ الكافرَ ، مع منح حرية الاختيار للإنسان كي يمشيَ في الطريق الذي يناسبه ، طريقِ الإيمان الذي يقود إلى رضا الله والجنَّةِ، أو طريق الكفر الذي يقود إلى غضب الله والنارِ، دون إكراه أو قَمع أو إجبار .

والدليلُ العملي الملموس وجود أهل الكتاب الذين يعيشون في العالم العربي والإسلامي حتى اليوم الحالي . ولو كان الإسلامُ يَدعو إلى قتل المخالِف في العقيدة فلماذا لم يَقُم بقتلهم وجعل العالَم الإسلامي من فئة واحدة فقط وهي المسلمون ؟ . وقد كان قَتْلُهم ممكناً في زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وسيادتها على العالَم روحياً ومادياً ، وما كان أحد يستطيع أن يردعنا في تلك المرحلة التي كنَّا فيها الأمة الأولى عالمياً في كل المجالات ، ولا يقدر أحد أن يناقشنا فيما نفعل في تلك المرحلة . ومعَ هذا، فالإسلام لم يستغل ضعفَ الآخرين ليبتزهم ويُجهِز عليهم، ويبنيَ مجده على جماجمهم . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ

وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الْمُمْتَحَنَة]. وهاتان الآيتان الشريفتان دستورٌ متكامل قبل أن يخترعوا ما يُسَمَّى بالأمم المتحدة. فينبغي التمييز بين صِنْفَيْن : الكافر الْمُحَارِب ، وهذا مهدور الدم أينما وُجِد في هذا العالَم . والكافر غير المحارِب، وهذ الصنف يتمُّ التعاملُ معه بأدب واحترام، ونقيم معه علاقات طبيعية جداً بِحُكم الأخوة البشرية . وهذه هي العدالة الْمُطْلَقة في القرآن.

وهذا البحثُ العِلْميُّ يُلقي الضوءَ على قضية شديدة الأهمية ، تُتَّخَذُ وسيلةً للطعن في القُرآن والإسلام . وقد حاولتُ قَدْر المستطاع وضع الآياتِ القرآنية في سياقها التاريخي الدقيق ، وتوضيح معناها وضوابطها وشروط تطبيقها ، لإزالة أي لَبْس قد يَعْلَق في الأذهان ، ومَحْوِ أي فكرة سيئة قد تَعْلَق في البال جرَّاء هذه الحملة الشَّعواء على الإسلام والمسلمين .

وقد حدَّدتُ الآياتِ التي تتحدث عن موضوع القتل ومشتقاته ، وقمتُ بتفسيرها اعتماداً على أمهات الكتب المعتمَدة في مجال التفسير وغَيْرِه ، معَ إسهاماتي الشخصية البسيطة في الموضوع ، وما توصلتُ إليه واخترتُه .

....

﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾

[البقرة : ٥٤]

هذه الآية الشريفة وَردت على لسان النبيِّ موسى ﷺ مخاطِباً بني إسرائيل ، إذ إنهم ارتدوا فعبدوا العجلَ ، فكان الأمر الإلهيُّ بأن يقوموا بقتل بعضهم البعض . وقد تنشأ إشكالية في أذهان البعض ، كيف يأمر اللهُ أن يقتلوا بعضَهم بعضاً ؟ ، وهل الله تعالى يدعو إلى قتل الناس والإبادة الجماعية ؟ ، حاشى وكلا .

إن المرتد خائن خيانة عظمى ، وبالتالي يجب تطهير المجتمع الصالح منه حتى تستقيم حالُ البقية. فلو كان أحد أعضاء الإنسان مصاباً بمرض سوف يسري إلى باقي الجسم، فإنه يتم قطعه لكي تستمر حياة الإنسان ، فهل الطبيب الذي قام بقطعه مجرماً لأنه تخلَّص من عضو إنسان ؟ ، بالطبع لا . وفي بعض الحالات ومنها حالة الرِّدة يجب أن يُقتَل المرتد لئلا تتسرب رِدَّتُه إلى جسد المجتمع فيضيع المجتمع بأسره، لذلك أمرَ اللهُ أن يقتلوا بعضهم البعض، وبالتالي فقد كانت توبةً للجميع للمقتول والقاتل ، لأن هذا أمرٌ إلهي تطهيري للمجتمع من العناصر الفاسدة كي يحافظ مجتمع بني إسرائيل على تماسكه في تلك المرحلة، ويترسخ الإيمان أكثر فأكثر بعد زوال الشكوك

المتمثلة في الانحرافات العَقدية البشرية . كما أن هذا الفعل اختبار إلهي عظيم لأناس ارتكبوا أسوأ خطيئة على الإطلاق وهي الكفر ، لذا جاءت عملية التطهير شديدة ، مثل الذَّهب الذي لا نحصل عليه إلا بالنار واللهب . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٣٢٥) : ((ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابةِ إلى الله من ردتهم بالتوبة إليه والتسليم لطاعته فيما أمرهم به وأخبرهم أن توبتهم من الذَّنب الذي ركبوه قتلهم أنفسهم)) .

نلاحظ حرصَ النبي موسى ﷺ على إنقاذ قومه من كُفرهم، وانتشالهم من مستنقع الخطيئة . وقد أبلغهم أن طريقَ التوبة هو قتل أنفسهم لتحصل عمليةُ التطهر والتطهير . وهذه العمليةُ طَوْقُ نجاةٍ للقاتل والمقتول على حَدٍّ سَواء .

وروى الطبري في تفسيره (١/ ٣٢٥) عن الزُّهري وقتادة : ((قاموا صَفَّين فقتل بعضُهم بعضاً حتى قِيل لهم كُفُّوا . وقال قتادة : كانت شهادة للمقتول وتوبة للحي)) اهـ .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾

[البقرة : ١٩٠]

أمَّا سبب نزول هذه الآية فقد روى السيوطي بإسناده في لُباب النقول (١/ ١٣٧) عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_قال: ((نزلت هذه الآية في صُلْح الْحُدَيبية ، وذلك أن رسول الله ﷺ لَمَّا صُدَّ عن البيت ، ثم صالحه المشركون على أن يَرجع عامه القابل، فلمَّا كان العام القابل تجهَّز هو وأصحابه لعُمرة القضاء ، وخافوا أن لا تفيَ قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكرِهَ أصحابُه قتالَهم في الشهر الحرام ، فأنزل اللهُ ذلك)) اهـ .

إن المشركين لا عهد لهم ولا أمان . ولطالما نَكثوا عهودَهم ، وبدَّلوا كلامَهم . وقد خاف الصحابةُ ألا تفيَ قُرَيْش (رأس التشريع الوثني) بعهدها ، كما خافوا أن يقوم المشركون بصد المسلمين عن المسجد الحرام وقتالهم . وهذا كله سَبَّب ضِيقاً في نفوس الصحابة الذين كرهوا القتالَ في تلك اللحظة ، ليس بسبب الضعف أو العجز أو الخوف. وإنما بسبب الشهر الحرام الذي يَحرم فيه القتالُ . فقد كرهوا قتالَ المشركين تعظيماً لِحُرمة الشهر الحرام .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٥) : ((اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم : هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشِّرك. وقالوا : أُمر فيها المسلمون بقتال مَن قاتلهم من المشركين ، والكف عَمَّن كَفَّ عنهم ، ثم نُسخت ببراءة)) اهـ .

وتتضمن الآيةُ أمراً إلهياً بقتال المشركين ، ولكنْ ليس كل المشركين . وإنما قتالُ المشركين الذين يُقاتِلون المسلمين . أمَّا المشركون المسالِمون فقد تم إخراجهم من دائرة القتال . ولا يجوز الاعتداءُ على الأبرياء الذين ليس لهم ناقة ولا جَمل في أمر القتال . إذن ، فالقتالُ في هذه الآية عبارة عن رد فعل ، وليس فِعلاً . إنه قتالٌ دفاعي لا قتال هجومي .

وروى الطبري بإسناده في تفسيره (٢/ ١٩٥) : ((قال ابن زيد في قوله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ . قال: قد نُسخ هذا، وقرأ قولَ الله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] ، وهذه الناسخة . وقرأ : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التَّوبة: ١] ، حتى بلغ ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ... ﴾ [التَّوبة: ٥] . وقال آخرون : بل ذلك أمرٌ مِن الله _ تعالى ذِكره _ للمسلمين بقتال الكفار لم يُنسَخ ، وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه هو نهيه عن قتل النساء والذراري . قالوا : والنهي عن قتلهم ثابت حُكمه اليوم. قالوا: فلا شيء نُسخ مِن حُكم هذه الآية)) اهـ .

وفي كتاب الأم للإمام الشافعي (٤/ ٢٢٠) : ((فقال عز وجل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة :١٩٠] ثم ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة : ١٩١] ... قال الشافعي رحمه الله تعالى : يُقال : نزل هذا في أهل مكة وهم كانوا أشد العدو على المسلمين، وفُرض عليهم في قتالهم ما ذَكَرَ اللهُ _ عز وجل _، ثم يقال : نُسخ هذا كله والنهي عن القتال حتى يقاتلوا، والنهي عن القتال في الشهر الحرام بقول الله عز وجل : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الآية [البقرة: ١٩٣] ، ونزول هذه الآية بعد فرض الجهاد ، وهي موضوعة في موضعها)) اهـ .

من الواضح من سياق الآية الشريفة ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ١٩٠] أن القتال في هذه الآية مقيَّد ضمن ثلاث نقاط مركزية ومحورية . الأولى : إن القتال يجب أن يكون في سبيل الله تعالى، وليس في سبيل مصالح الناس وأهدافهم الذاتية الآنية ، وليس من أجل استعباد الآخرين وسحقهم وابتزازهم وسرقتهم ، والثانية : إن القتال مُوَجَّه ضد المشركين الذين يقاتلون المسلمين فقط، ولا يجوز البدءُ بقتالهم . وفي هذه الحالة يكونُ القتالُ رَدَّ فعلٍ لا فِعلاً ابتدائياً. والثالثة: عدم الاعتداء والتمادي والتجاوز، فالهدف هو رد العدوان فقط.

ونحن لا نعتقد بأن الآية منسوخة ، لأنها آية مُحكَمة وقاعدة عامة تأصيلية شاملة لا يُمكِن أن تُنسَخ مُطْلَقاً. أمَّا الذين يَعتقدون بنسخها معتمدين على آيات أخرى في القتال ، فكل حالة لها

وضعها الخاص بها ، وكل الآيات تُجمَع معاً دون تعارض يقتضي اعتقادَ النسخ . إذ إن كل آية تتحدث عن حالة خاصة بعينها لا تتعدى إلى حالة أخرى . ومن غير المنطقي أن نخلط بين أحكام الآيات ، لأن كل حُكْم قادم لعلاج وضعية معينة ، واستئصالِ كل القيم السلبية فيها عبر الوسيلة الأكثر نجاعة في هذه النقطة المحدَّدة والمسيطَر عليها مِن قِبَل الْحُكم الرَّبانِيِّ الشَّرعيِّ . أمَّا باقي الآيات القرآنية فسيأتي الحديث عنها مُفصَّلاً _ إن شاء الله تعالى _ . ولا يخفى أن القاعدة الشرعية التأصيلية هي تقديم الجمع والتوفيق بين النصوص الشرعية قبل الذهاب إلى النَّسخ أو الترجيح .

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِن حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

[البقرة : ١٩١]

هذا أمرٌ إلهي للمسلمين بقتل المشركين حيث وَجدوهم في حِل أو حَرَم ، وتمكنَّوا منهم ، وأبصروا مَقاتلهم . وأيضاً يجب إخراجهم من مكة . فلا بد من إخراج المشركين من ديارهم كما أخرَجوا المسلمين من ديارهم . والبادئُ أظلم . والفتنةُ التي صنعها المشركون ، والرامية إلى إرجاع المسلمين إلى الكفر أشد من القتل، فارتدادُ المؤمن أشد عليه من القتل. فالكفرُ قتلٌ متواصلٌ للرُّوح والجسد ، أمَّا القتلُ فهو نهاية الجسد لمرة واحدة فقط . ويمكن حملُ المعنى على أن شِرك الكافرين أعظم من قَتلهم في الْحَرَم ، أو أن شِركهم بالله وكُفرهم به أعظم من القتل .

قال الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٧) : ((يعني تعالى ذِكره واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم، وأمكنكم قتلهم، وذلك هو معنى قوله : ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾. ومعنى الثَّقفة بالأمر الحِذْق به والبصر، يقال إنه لَثَقُفَ إذا كان جيد الحذر في القتال ، بصيراً بمواقع القتل...فمعنى ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم وأبصرتم مقاتلهم. وأمَّا قوله : ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِن حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ فإنه يعني بذلك المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذِكره : أَخْرِجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم _وقد أخرجوكم من دياركم _ من مساكنكم وديارهم كما أخرجوكم منها...يعني تعالى ذِكره بقوله : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ، والشرك بالله أشد من القتل . وقد بَيَّنتُ فيما مضى أن أصل الفِتنة الابتلاء والاختبار ، فتأويل الكلام وابتلاء المؤمن في دِينه حتى يَرجع عنه فيصير مشركاً بالله من بعد إسلامه أشد عليه وأضر من أن يُقتَل مُقيماً على دِينه متمسكاً عليه محقاً فيه)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٧) : ((ولهذا قال في هذه الآية : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِن حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ ، أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قِصاصاً. وقوله: ﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾، أي قاتِلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري من الْمَثُلة والغُلول _الخيانة_ وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم والرُّهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم)) اهـ .

مِنَ الواضح أن الآية الشريفة ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِن حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ تتحدث عن المشركين الذين عذَّبوا المسلمين ، وقد أمرَ اللهُ بقتلهم لأنهم كفار محارِبون ، يُحارِبون الإسلامَ والمسلمين ، لذلك فهؤلاء فقدوا عِصمةَ الدم لأنهم لم يلتزموا بالقواعد التي تحفظ لهم دماءهم ، فجاء الأمر صريحاً بقتلهم ، وأيضاً القيام بإخراجهم من منازل المسلمين في مكة التي وَقعت تحت احتلال المشركين ، لذلك فقتل المشركين هو ضمن سياسة المقاومة المشروعة للاحتلال ، والمكفولة في كل الدساتير السماوية والوضعية . وهذه الحالة موجودة في زماننا المعاصر ، وهي احتلال فلسطين وبعض بلاد المسلمين ، والواجب وفق هذه الآية قتل الأعداء ، وإخراج المحتلين من الأماكن التي طردونا منها ، وهذا حق شرعي مكفول لا يملك أحد الاعتراض عليه .

وهؤلاء المشركون أهدرَ اللهُ دماءهم لأنهم أعداء محارِبون وليسوا مدنيين أبرياء . وقد تسببوا بإحداث فتنة كبرى وهي الابتلاء الشديد (ما وقع للمسلمين بمكة من تعذيب الكفار لهم وإخراجهم) ، وهذه الفتنة التي تستهدف إخراج المسلمين مِن دِينهم أشد من القتل ، لأن المرتد عن الإسلام هو ميت روحياً وجسدياً ، لذلك فالذي يُقتَل وهو ثابتٌ على دِينه أفضل من الذي يعيش مرتداً. وبما أن المشركين يقومون بفِتنة الناس عن دِينهم، ومحاربةِ الإسلام والمسلمين بشتى الوسائل، كان لزاماً على المسلمين أن يتخذوا موقفاً للحفاظ على كيانهم المعنوي والمادي ، لذلك جاء أمر قتل المشركين وهم الأعداء المحارِبون الذين لم يلتزموا بالقواعد المرعية في طرق تعامل الكفار مع المسلمين حتى يستحق الكفارُ الحياةَ الكريمة في ظل دولة الإسلام دون مساس بهم ، وهكذا أُلغيت عِصمة دمائهم جزاءً بما كانوا يعملون من أعمال حربية معادية للإسلام والمسلمين

ترفض قيمةَ التسامح الإسلامي، وترفض العيش في كنف الدول الإسلامية، وبالتالي فهؤلاء يُعتبَرون خارجين على الحاكم الشرعي العادل ، وهم بذلك يتلبسون بذنب الخيانة العظمى التي جزاؤها القتل. وهذا ما تفعله دول كثيرة حيث تَحكم على بعض أفرادها بالخيانة العظمى التي جزاؤها الموت. فلماذا عندما يقوم الإسلامُ بحماية نظامه المتكامل من الأخطار يُعتبَر فعله إرهاباً وضد حقوق الإنسان أم عندما يقوم العالَم الذي يزعم أنه متحضر بحماية أنظمته يُعتبَر ذلك مدنيةً وديمقراطية وحريةً ؟! .

وانظرْ إلى هذا الدستور النبوي الشريف في فقه التعامل الحربي المنضبط بالأصول الشرعية بلا إفراط أو تفريط . فقد روى مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٥٦) عن بُرَيْدة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : ((اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتِلوا مَن كَفرَ بالله ، اغزوا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تَغْدِروا ، ولا تُمَثِّلوا ، ولا تَقتلوا وليداً ، وإذا لَقِيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خِصال أو خِلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول مِن دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوْا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حُكمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفَيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أَبَوا فَسَلْهم الجِزيةَ فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أَبَوا فاستعن بالله وقاتِلهم . وإذا حاصرتَ أهلَ حِصن فأرادوك أن تجعل لهم ذِمةَ الله وذمة نبيِّه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيِّه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تَخْفُروا ذِمَمَكم وذمم أصحابكم أهْوَن من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرتَ أهلَ حصن فأرادوك أن تُنْزِلهم على حُكم الله فلا تُنْزِلْهم على حُكم الله ، ولكن أَنزلهم على حُكمك فإنك لا تدري أتصيب حُكم الله فيهم أم لا)) .

إن الغَزو في الإسلام ليس قتالاً همجياً أو قتالاً عبثياً ، إنما هو فِعلٌ إنساني ذو تأثيرات إيجابية قريبة المدى وبعيدة المدى في آنٍ معاً . فالغزو يجيء لإخراج العباد من الظلمات إلى النُّور ، ومنع الطغاةَ من التحكم بمصائر شعوبهم واستعبادهم ، وحَجبِ النُّور عنهم . فالغزو نظامٌ متكامل يكونُ باسم الله في سبيل الله ، وليس في سبيل استعباد الشعوب وسرقتها . وهذه القوةُ الضاربة إنما

تُسْتَخْدَم لصالح الإنسان ، لأنها تجعله ذا سيادة على كيانه الإنساني ، يَملك كلمته ، ويُقرِّر مصيره بنفْسه ، ويتحدث باسمه ، فلا يُقرِّر الآخرون مصيرَه ، ولا يتحدثون نيابةً عنه .

ومع أن القتال مُوَجَّه ضد الكافرين ، إلا أنه قِتال منضبط لا فوضوي . ووفق هذه الرؤية ، ليس غريباً أن يتم تحريم الغُلول (وهو الخيانة في الغنيمة)، والغدرِ (وهو نقض العهد) ، والتمثيل بالجثث (وهو تشويهها أو قطع أجزاء منها أو ما شابه) . كما تم تحريم قتل الوليد (وهو الطفل الصغير) لأنه ليس له علاقة بأمور القتال .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٣٨) : ((معنى هذا الحديث أنهم إذا أسلموا استحب لهم أن يهاجروا إلى المدينة ، فإن فعلوا ذلك كانوا كالمهاجرين قبلهم في استحقاق الفَيء والغنيمة وغير ذلك، وإلا فهم أعراب كسائر أعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ولا غَزْو، فتُجرَى عليهم أحكام الإسلام ، ولا حق لهم في الغنيمة والفَيء ، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا بصفة استحقاقها)) اهـ .

كما يُوضِّح الحديثُ النبوي أحكامَ الحصار . فإذا حاصرَ المسلمون أهلَ حِصنٍ ، فلا ينبغي إعطاؤهم ذِمة الله ولا ذمة رسوله ﷺ. والذِّمةُ هي العهد. وإنما يُعْطَوْن ذِمة القائد المسلم وأصحابه . والمعنى : لا تجعلْ لهم ذِمة الله ، فإنه قد يَنقضها مَن لا يَعرف حُرمتها وحقَّها ومكانتها العالية . ولا يَخفَى أن نقض عهد المسلمين أهون من نقض العهد الإلهيِّ والعهد النبويِّ . وأيضاً لا ينبغي إنزال أهل الحِصن المحاصَرِين على حُكم الله تعالى ، وإنما يتم إنزالهم على حُكم القائد المسلم ، لأنه لا يَدري هل يُصيب حُكمَ الله فيهم أم لا.وهذا كله من أجل تعظيم الله تعالى،وتعظيم رسوله ﷺ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أنَّ امرأةً وُجِدت في بعض مغازي النبيِّ ﷺ مقتولةً فأنكرَ رسولُ الله ﷺ قتلَ النساءِ والصِّبيان (44).

ولو كان الإسلام دينَ إبادةٍ لَمَا منع قتل النساء والصبيان ، بل قام بالتطهير العِرقي كما في التوراة والإنجيل، ومثلما فعل الكاثوليك بحق مسلمي الأندلس، وكما فعل الأرثوذكس بحق مسلمي البوسنة والشيشان ، وكما فعل البروتستانت بحق مسلمي العراق ، وكما فعل اليهود بحق مسلمي فلسطين . لكن المنهج الإسلامي واضحٌ في عدم استهداف النساء والصبيان لأنهم ليسوا أهلَ حرب وقتال ، أمَّا إن دخلوا في مصطلح " المحارِب " فإنهم يُقتَلون فوراً .

---

(٤٤) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٩٨) برقم (٢٨٥١)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤)برقم (١٧٤٤).

وعن ابن عباس _ رَضِيَ اللهُ عنهما_ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشَه قال: ((اخرجوا بسم الله ، تُقاتِلون في سبيل الله مَن كَفر بالله ، لا تَغدروا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تُمَثِّلوا ، ولا تقتلوا الوِلدان ولا أصحابَ الصوامع)) (45)**.**

وهكذا تتضح الأخلاق الإسلامية في موضوع الحرب . فالمسلمون يُقاتِلون باسم الله لا باسمهم ، وقد ابتعثهم _ سبحانه _ ليُطَبِّقوا تعاليمَه، وهذا يعكس مسألة سيادة الإسلام على الأرض ، فالكل يجب أن يخضع للإسلام لأنه الحاضن الفاعل لمشاعر الإنسان ، والمتكفِّل بحمايته والدفاع عنه. وهذا عائد إلى كون المسلم يؤمن بمحمد وموسى وعيسى _ عليهم الصلاة والسلام_، وبالقرآن الكريم والإنجيل الأصلي والتوراة الأصلية . وقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج كتابية (نصرانية أو يهودية) ، مع منع زواج الكافر من المسلمة ، وهذه ليست عنصرية أو استعلاء بالباطل، فذلك عائد إلى أنه سيحترمها لأن يؤمن بموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام_ ، وبالتالي لن يتجرأ على الاعتداء عليهما أو المساس بهما ، ويؤمن بالإنجيل والتوراة الأصلِيَّيْن ، فلن يقوم مثلاً بشتمهما أو الطعن فيهما . أمَّا الكافر لو تزوج مسلمة فهو لا يؤمن

---

(٤٥) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٠) برقم (٢٧٢٨) وهو حَسَنٌ لِغَيره . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٧١) : ((رواه أحمد وأبو يعلى والبزَّار والطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال فيه : ((ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شَيخاً)) وفي رجال البزَّار إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة ، وثَّقه أحمد ،= =وضعَّفه الجمهور ، وبقية رجال البزار رجال الصحيح)) اهـ . قلتُ : إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة . وثَّقه أحمد ، وقال عنه يحيى بن معين : ((صالح)) [انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٨٣)] ، وقال ابن عَدِي : ((هو صالح في باب الرواية))[انظر تهذيب الكمال (٢/ ٤٣)]، وصحَّح حديثَه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١١٦) برقم (٢٥١٠)، وصحَّح حديثَه ابنُ خزيمة في صحيحه (١/ ٣٣٦) برقم (٦٧٦))) اهـ. قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ١٠٣) : ((رُوِيَ أنه ﷺ قال: لا تقتلوا النساء ولا أصحاب الصوامع. أحمد من حديث ابن عباس أن النبيَّ ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا بسم الله، قاتلوا في سبيل الله، الحديث. وفيه: ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع ، وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وهو ضعيف. وروى البيهقي من حديث عليٍّ نحوه وفيه : ولا تقتلوا وليداً ولا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، وفي إسناده ضعف وإرسال . ورواه من وجه آخر منقطعاً وفيه : ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً)) اهـ . قلتُ : وفي أقل تقدير فهو حسنٌ لغيره .

بمحمد ﷺ ولا يؤمن بالقرآن الكريم ، وبالتالي سيرفضهما ويتعدى عليهما، وهذه يجعل الحياة مستحيلة وقائمة على الاعتداء على العقيدة، وجرح الطرف الآخر في أعز ما عنده .

ولنتذكر ما قام به الصرب في البوسنة الذين يمثلون الإرهابَ الأرثوذكسي في أبشع صوره ، حيث قاموا بقتل المسلمين، وتهجير من بقي على قيد الحياة، واغتصاب المسلمات، وحرق المساجد، وما فعله الروس في الشيشان، وما فعلته قوى الاستخراب(الاستعمار) العالمي (أمريكا ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، إسبانيا ، البرتغال ، إلخ) عبر انتهاج نفس الأساليب القذرة ، في حين أن دُور عبادة اليهود والنصارى كانت تحت حماية المسلمين ، ولم يمسوها بسوء . وحينما فتح المسلمون بيت المقدس والأندلسَ والقسطنطينية وباقي البلاد، لم يَلمسوا امرأةً واحدة، ولم يقوموا بالاغتصاب أو القتل، أو الإبادة الجماعية، أو حرق دور العبادة، مع أن هذا كان بمتناول أيديهم، وهُم قادرون على فعله بكل سهولة ، ولا يملك أحد إيقافهم في تلك الفترة الزمنية التي كان فيها المسلمون الأُمَّة الأولى على الأرض في كل المجالات . ومع هذا لم يقوموا بفعله لأن الفرق الجوهري بين الفتوحات الإسلامية ، والاستخراب العالمي الذي يُسمى زوراً بالاستعمار، هو أن الفتوحات الإسلامية قادمة لنقل العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

والمسلمون لم يُجبِروا الآخرين على تقديسهم أو عبادتهم ، بل دَعَوا أنفسَهم والآخرين إلى عبادة الله وَحْدَه. ولو كان محمدٌ ﷺ نبياً مُزَيَّفاً لدعا الناس إلى عبادته وتقديسه من أجل استغلالهم ، والسيطرةِ عليهم ، وبسط نفوذه ونفوذ عائلته ونفوذ حاشيته على الناس من أجل تدعيم سُلطته وسُلطانه مثلما يفعل القادة الذين اتخذوا أنفسهم آلهة على جثث شعوبهم،ولكنه لم يفعل ذلك لأنه رسول من عند الله تعالى ينفِّذ الأوامرَ لا أكثر ولا أقل.

كما أن الإبادة والإرهاب والفوضى الجنسية التي تُنتِج الاغتصابَ موجودة في نصوص دينية يقدِّسها اليهود والنصارى على السواء، وهي نصوص الكتاب " الْمُقَدَّس " . وهذه هي فلسفة اليهود والصليبيين في كل العصور . كما أن الاستخراب جاء لاستعباد الآخرين ، واستغلال ثرواتهم، وترسيخ عبادة العباد للعباد . وانظر ماذا ترك المسلمون في الأندلس من حضارة ومعالم ، وانظر إلى الاستخراب ماذا ترك في بلاد المسلمين من تخلف وتبعية . وهذا يعكس الفرق بين الفتوحات الإسلامية الهادفة لتحرير الإنسان ، وإعادته إلى جادة الصواب ، وبين الاستخراب الكافر القادم لإعادة عصور العبودية والهمجية ، واستغلالِ الإنسان لأخيه الإنسان عبر استخدام الإرهاب بشتى أشكاله ، وتسميةِ الجرائم بأسماء عصرية مخادِعة .

﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة : ١٩١]

لا يجوز البَدْءُ في القتال عند المسجد الحرام تعظيماً لِحُرمته ، وإبرازاً لمكانته العظيمة . والحالةُ الوحيدة التي يُقاتَل فيها عند المسجد الحرام هي القتال الدفاعي الذي يكون ردةَ فعلٍ وليس فِعلاً . أمَّا الابتداءُ في القتال في هذا الموضع الشريف فهو غير جائز البتَّة .

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤٨) : ((للعلماء في هذه الآية قولان : أحدهما أنها منسوخة والثاني أنها مُحْكَمَة . قال مجاهد : الآية مُحْكَمَة ، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يُقاتِل، وبه قال طاوس. وهو الذي يقتضيه نص الآية وهو الصحيح مِن القَوْلين وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه)) اهـ .

ويؤيد كَوْنها مُحْكَمَة ما قاله النبيُّ ﷺ يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حَرَّمه اللهُ يومَ خَلق السماوات والأرض ، فهو حرامٌ بِحُرْمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحد قَبْلي ، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرامٌ بِحُرمة الله إلى يوم القيامة))[46].

وفي تفسير القرطبي (٢/ ٣٤٨) : ((وقال قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾ [التَّوبة : ٥]. وقال مقاتل: نسخها قولُه تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء : ٩١] ، ثم نَسخ هذا قولُه : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾[التوبة : ٥]، فيجوز الابتداء بالقتال في الْحَرَم)) اهـ .

ومن الواضح أن الآية مُحْكَمة وليست منسوخةً . والمذهبُ الأقوى في تفسيرها هو الاعتماد على أنها ثابتة غير منسوخة . وهي مقيَّدة بشرط أن يبدأ الأعداءُ القتالَ في الحَرم ، فيكون دور المسلمين في هذه الحالة رد فعلٍ لا أكثر ولا أقل . وهذا واضح تماماً من سياق الآية الشريفة ، ولا يحتاج إلى كثير بحث ، فقوله تعالى : ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ أبرز القاعدةَ الأساسية في التعامل مع هكذا حالة . فإن بدأ الكفارُ بالقتال ، فعندئذ يقوم المسلمون برد العدوان وقتلهم .

وقال الكاساني في بدائع الصنائع (٦/ ٨٣) : ((أمَّا إذا دَخَلَ مُكابِراً أو مُقاتِلاً يُقتَل لقوله تعالى : ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ ، ولأنه

---

(٤٦) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٤) برقم (٣٠١٧) ، ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣).

لَمَّا دخلَ مُقاتِلاً فقد هتكَ حُرمةَ الحَرم فيُقتَل تلافياً للهتك زجراً لغيره عن الهتك. وكذلك لو دخلَ قوم من أهل الحرب للقتال فإنهم يُقتَلون ، ولو انهزموا من المسلمين فلا شيء على المسلمين في قتلهم وأسرهم)) اهـ .

وهدفُ القتل هو الحماية والردع ، والحفاظ على حُرمة الحَرم لئلا يصبح ملعباً لكل من تُسَوِّل له نَفْسه أن يتعدى على هذه البقعة المقدَّسة ، فالذي دخل مُقاتِلاً هتكَ حُرمةَ الحَرم ولم يحترمها ، فالواجب قتله لمنع هذا الهتك، وردع كل من يُفكِّر أن يصنع صنيعه . فلو تُرِك الحبل على الغارب، ولم يتم قتلُ هاتك حُرمةِ الحَرم، لصار الحَرمُ حلبةَ مصارعة ، ولعبةً من الألعاب ، وهذا يُضاد قُدسيةَ هذا المكان الشريف. وإذا تُرك الجاني في الحَرم دون عقاب لانتشر الفسادُ بصورة كارثية .

قال الشوكاني في نيل الأوطار (٧/ ١١٨): ((الجاني في الحَرم هاتك لِحُرمته بخلاف الملتجىء إليه ، وأيضاً لو تُرك الحد والقِصاص على مَن فعل ما يوجبه في الحَرم لَعَظُمَ الفسادُ في الحَرم)) .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٣]

إن الأمر بالقتال في هذه الآية الشريفة له هدفٌ واضح، وهو حتى لا تكون فِتنة، وهي الشِّرك، ويكون الدِّين للهِ خالصاً دون شركاء وانحرافات عَقَدية . وهذا منتهى التسامح ، والحزم تجاه الذين يحاولون فتنة الناس عن دِينهم ، وإعادتهم إلى الكفر والغواية . وإذا قاموا بالامتناع عن شِركهم، وأفعالهم الحربية، فيتم الكف عن قتالهم ، ولا يُقاتَل إلا المعتدون الذين رفضوا إنهاء أفعالهم الحربية ، وجرائمهم بحق المسلمين بكافة أشكالها . وإذا انتهى المشركون عن شِركهم ، وكفوا عن قتال المسلمين ، فينبغي الكفُّ عن قتالهم ، وعدم الاعتداء عليهم .

قال الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٠) : ((حتى لا تكون فِتنة ، يعني حتى لا يكون شِرك بالله، وحتى لا يُعبَد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان الآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وَحْدَه دون غيره من الأصنام والأوثان)) اهـ .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾

[البقرة : ٢١٦]

فُرِض على المؤمنين القتالُ وهو كُرْهٌ لهم . وهذا يدل على عمق المشاعر الإنسانية في نفوس المؤمنين ، إذ لو كان متعطشين للقتل وسفكِ الدماء لأحبوا القتلَ والقتالَ . وهذا يدل أيضاً على

منظومة الرحمة في الإسلام ، وأن القتال إنما جاء ضمن سياق ضيِّق لتحقيق مصلحة إنسانية عاجلة وآجلة على حَدٍّ سَواء . إذن ، فالقتالُ هو الاستثناء لا القاعدة .

قال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٥٧) : ((فُرِض عليكم القتال ، يعني قتال المشركين ، وهو كُره لكم . واختلف أهل العِلْم في الذين عُنوا بفرض القتال، فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك أصحاب رسول الله ﷺ خاصة دون غيرهم ...قال آخرون: هو على كل واحد حتى يقوم به مَن في قِيامه الكفاية ، فيسقط فرض ذلك حينئذ عن باقي المسلمين ، كالصلاة على الجنائز ، وغسلهم الموتى ، ودفنهم ، وعلى هذا عامة علماء المسلمين)) اهـ .

الصوابُ هو أن القتال فُرِض على كل واحد حتى يقوم به مَن في قيامه الكفاية ، فقد أَطبقت الأُمةُ على ذلك ، فصار حُجَّةً لازمة . ولقول الله _ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ [النساء: ٩٥] . وهذه الآيةُ تشير إلى أن المجاهِدين والقاعدين لهم الْحُسنى . ولو كان القاعدون مُقصِّرين أو مُضيِّعين فرضاً لَمَا كانت لهم الحسنى ، وإنما كان عليهم الإثم ، ولهم العذاب . ولو كان القتالُ فرضاً على الجميع لَمَا فاضلَ سبحانه بين الفاعل والتارك . مما يدل دلالةً حاسمة على أن القتالَ فَرضُ كفايةٍ لا فرضُ عَيْن .

وهذه الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ تدل على أن طبيعة المسلم هي نَفْسها طبيعة الإنسان . فالمسلمُ ليس متعطشاً للقتل وسفك الدماء وقتال الناس ، وأكل لحوم البشر كما يتم تصويره من قبل الجهات المغرِضة . فالقتال مكروهٌ بالنسبة للنفس البشرية ، ومن باب أولى بالنسبة لنفسية المسلم ، لكنَّ الأمرَ الذي فُرِض عليك يجب أن تحمل مسؤوليته بكل أمانة وإخلاص تحقيقاً للعدل والسعادة على كوكب الأرض ، وتطهيرِه من العناصر السامة المتمثلة في بعض البشر الذين يَسْعَوْنَ في الأرض فساداً ، ويريدون تدمير العالَم وإفساده . فالكلبُ المسعور لا يُعامَل وفق حقوق الحيوان ، وإنما يُعامَل بإطلاق النار عليه . كما أن العضو الفاسد في الجسم الإنسان يتم بَتْرُه إذا كان فسادُه سينتقل إلى باقي الجسم . وبالتالي ، فلا بد من وضع القتال في نِصابه الصحيح لكي يَعُمَّ السلامُ والأمن على سطح البسيطة ، ويَسود العدلُ والإخاء . وبالطبع فبعض البشر أسوأ حالاً من الحيوانات . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفُرقان: ٤٤] .

وتظل مسألة القتال (الجهاد) في الوضع الطبيعي فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، إلا في حالة النفير العام ، حيث يتواجد عدو لا يمكن لفئة من المسلمين أن تدحره ،

وعندها تنتقل فَرْضيةُ الجهاد على شكل دوائر ، فأولاً : يجاهد أهل المنطقة ، فإن لم يقدروا فليجاهد أهل الدولة، فإن لم يقدروا فلتجاهد الدول المحيطة، وهكذا حتى تشمل كُلَّ أرجاء العالَم الإسلامي.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

[آل عِمران : ١٢١]

قال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٨٠) : ((والجمهور على أنها غزوة أُحُد)) اهـ .

إن النبيَّ ﷺ قد خرجَ في الساعات الأُولى من الصُّبح إلى أُحُد . يُنَزِّل المؤمنين أماكنَهم لقتال عدوهم .

وهذه الآية الشريفة متعلقة بمعركة بين المسلمين والكفار ، أي حرب ضد الكفار المحارِبين المسلَّحين ، فهم ليسوا أبرياء أو مدنيين . فغزوة أُحُد هي كفاح مسلَّح ضد إرهاب الكفار الذين يريدون استئصال دولة الإسلام مستخدمين كل الوسائل المدنية والعسكرية، وإبادة أتباعها، وبالتالي قام النظام الإسلامي بحماية نفْسه من هذه الهجمة، فكان القتال. وكلمة مقاعد تدل على التثبيت والرسوخ كأنهم قاعدون على كراسي أو مقاعد لا يتزحزحون ، والثباتُ هو المقصود .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٤٧) : ((وقوله: غَدَوْتَ، أي خرجتَ أول النهار، والعامل في إذْ مُضْمَر تقديره واذكر إذ غدوت ، وقوله : تُبوِّئ المؤمنين ، أي تُنَزِّلهم ، وأصله من المآب وهو المرجع ، والمقاعد جمع مقعد والمراد به مكان القعود)) اهـ .

﴿ وَكَأَيِّن مِن نبيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾

[آل عِمران : ١٤٦] .

قد يتوهم البعضُ أن الأنبياء قادمون للقتال العبثي ، واستخدامِ العنف ضد الآخرين دون وجه حق بشكل يخالف حقوق الإنسان ! . وهذه الفِرْية التي يرددها أصحاب التفكير المنقوص ليست مستغربة في ظل سقوط المنهج العلمي المنصِف .

فالنَّبي _ أي نَبي _ هو القائد الأعلى لأُمَّته ، وعليه أن يتخذ إجراءات للدفاع عنها بوسائل عنيفة في بعض الحالات . والعنفُ ليس مذموماً على الإطلاق ، بل هو واجب التطبيق في حالات خاصة لكي يتعدل مسار الآخرين ، ولئلا تحدث فتنة في المجتمع تأكل الأخضرَ واليابسَ . فلا بد من العنف في موضعه الصحيح لكي تستمر الحياةُ مستقيمةً خالية من كل المعوِّقات ، ولكي

يتسنى للناس العيش بسلام وطمأنينة ، وتترسخ استمرارية العيش بعد تطهير الوضع الإنساني من العناصر الشاذة عن المسار الحضاري للبشرية . وهو عنف محمودٌ إذا طُبِّق بشروطه الشرعية .

وبالنسبة للآية الشريفة معناها: كَمْ مِن نَبِيٍّ قاتل معه جموعٌ كثيرة وأتباع مخلِصون ، فما ضَعُفوا أو استسلموا للمصاعب والآلام التي واجهوها .

وهؤلاء الأتباع المخلِصون ما ضَعُفوا ، ولم يَرفعوا الرايةَ البيضاءَ رغم كلِّ الشدائد الرهيبة ، ولم تسقطْ عزائمهم بسبب القتل أو الجراح .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٢) : ((وفي معنى الرِّبِّيِّين خمسة أقوال: أحدها_ أنهم الألوف... والثاني_ الجماعات الكثيرة... والثالث_ أنهم الفقهاء والعلماء... والرابع _ أنهم الأتباع ... والخامس _ أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى)) اهـ .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ ﴾

[آل عمران : ١٥٧]

إن هذه الآية دعوة للقتال في سبيل الله تعالى ضمن الضوابط الشرعية ، ولا تتضمن حَضَّاً على الإبادة أو تشجيع قتل الآخرين لأنهم مخالِفون في العقيدة . بل هي قاعدة عامة لوضع السيف في موضعه اللائق الصحيح، وتأصيل قاعدة الجهاد الماضي إلى يوم القيامة ، والمبني وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة . ولا يَخفَى أن الموت والحياة بيد الله تعالى . وإذا حانت مَنِيَّةُ الإنسان فلا يمكن ردُّها .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٩٢) : ((لا تكونوا أيها المؤمنون في شك من أن الأمور كلها بيد الله وأن إليه الإحياء والإماتة كما شك المنافقون في ذلك ، ولكن جاهدوا في سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله على يقين منكم بأنه لا يُقتَل في حرب ، ولا يموت في سَفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته . ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة)) اهـ .

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾

[آل عمران : ١٩٥]

فالذين هَاجروا من أوطانهم (دار الشِّرك) وأتَوا إلى دار الإيمان ، وأُخرِجوا من ديارهم ظُلماً وعدواناً بسبب إيمانهم ، وقَاتَلوا أعداءَ الله ، وقُتلوا في سبيل الله . فهؤلاء على خير عظيم . وقد وَعَدهم اللهُ بتكفير سَيِّئاتهم . ووعدُ الله لا يتخلف .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٥٥): ((﴿ فالذين هاجروا ﴾ قومَهم من أهل الكفر وعشيرتهم في اللهِ ، إلى إخوانهم من أهل الإيمان بالله والتصديق برسوله ، ﴿ وأُخرِجوا من ديارهم ﴾ ، وهم المهاجرون الذين أَخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة ، ﴿ وأُوذوا في سبيلي ﴾، يعني وأُوذوا في طاعتهم ربهم ، وعبادتهم إياه مخلصين له الدِّين، وذلك هو سبيل الله التي آذى فيها المشركون من أهل مكة المؤمنين برسول الله ﷺ من أهلها)) اهـ .

إن الآيةَ تتحدث عن ظلم فظيع وقعَ على المؤمنين . فهم هاجروا أوطانهم ، وتركوا كل ما يملكون بعد أشد أنواع التنكيل والمعاناة على يد الكفار ، وتم إخراجهم من ديارهم قسراً وظلماً ، وتم إيذاؤهم بكل وحشية. لذا فمن الطبيعي جداً أن يُقاتِلوا دفاعاً عن وجودهم الإنساني وما يتعلق به ، بل يجب عليهم أن يُقاتِلوا ، حتى لو قُتِلوا . فعند الله تعالى الجائزة الكبرى لأنهم قاموا بتنفيذ أوامر اللهِ العَدْلِ الذي يَمْقُتُ الظلمَ . فردُّ الظلمِ كان بالسيف الذي وُضِع في موضعه الصحيح النهائي والحاسم .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا بِالآخِرَةِ ﴾

[النساء : ٧٤]

إنَّ اللهَ تعالى يحضُّ المؤمنين على قتال الأعداء من أهل الكفر . وهذا القتالُ ليس نزوةً عابرة ، أو شهوةً ساديةً مَرَضِية . إنه قتال في سبيل الله من أجل إعلاء راية الإسلام . وهذا الهدفُ الجليل لا يَقْدر على تنفيذه إلا المؤمنون الذين يبيعون الحياةَ الدنيا الفانية من أجل الحياة الآخرة الباقية .

والآيةُ تقدِّم قاعدةً عامة للجهاد في سبيل الله تعالى ضمن الضوابط ، وضمن التعريف الشرعي الدقيق لمفهوم الجهاد المحدَّد في نصوص الكتاب والسُّنة الصحيحة . وبالتأكيد فهي ليست دعوةً للقتل الفوضوي ، أو الإبادة الجماعية ، أو ممارسة ترويع الأبرياء وإرهابهم . بل دعوة صريحة لتوضيح شرعية استخدام السيف في الحالات الخاصة .

وفي تفسير البغوي (١/ ٢٤٩) : ((قيل : نَزلت في المنافقين ، ومعنى يَشرون أي : يشترون، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة ، معناه : آمِنوا ثم قاتِلوا . وقيل: نزلت في المؤمنين المخلِصين معناه:فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون، أي : يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويختارون الآخرة)).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾

[النساء : ٨٩]

إن الفئةَ الشاذةَ المقصودة في الآية هي المنافقون، فإن أعرَضوا عن التوحيد والهجرة في سبيل الله ، فيجب أخذُهم وقتلُهم حيث وُجدوا ، سواءٌ في حِل أم حَرَم .

وهؤلاء المنافِقون قد رُفِع عنهم الأمان ، وتم إهدار دمائهم ، لأنهم طابور خامس ينخر في جسد الأمة الداخلي ، فكان لزاماً على المسلمين أن يتصدوا لهؤلاء الكفار المحارِبين الذين يمارسون لعبتهم السرية في نخر أساسات الدولة الإسلامية ، وبالتالي فهم ليسوا أبرياء أو مدنيين ، بل هم أشد إرهاباً من الكافر الحامل للسلاح. وقتلُهم إنما هو قتلٌ مُوَجَّه ضد أعداء يُريدون هدم أساسات الدولة الإسلامية ، لذلك فهُم مُدانون بتهمة الخيانة العظمى التي عقوبتها القتل . وهذه هي العدالة التامة .

وفي زاد المسير (٢/ ١٥٦) : ((واعلم أن الناس في الهجرة على ثلاثة أضرب: مَن تجب عليه وهو الذي لا يَقدر على إظهار الإسلام في دار الحرب خوفاً على نَفْسه ، وهو قادر على الهجرة ، فتجب عليه ... والثاني : مَن لا تجب عليه بل تُستحَب له وهو من كان قادراً على إظهار دِينه في دار الحرب ، والثالث : مَن لا تُستحَب له وهو الضعيف الذي لا يَقْدر على إظهار دِينه ، ولا على الحركة ، كالشيخ الفاني)) اهـ .

﴿ فَإِن لم يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾

[النساء : ٩١]

فإن لم يجتنبوكم ، ويَخضعوا لكم ، ويستسلموا لأمركم ، ويمتنعوا عن قتالكم ، فخذوهم أَسرى واقتلوهم حيث وَجدتموهم.فهؤلاء فئةٌ شاذة يجب استئصالها من المجتمع الإنساني لئلا تُفسِده.

نلاحظ من سياق الآية الشريفة أن أهلَ الكفر هم المعتدون عبر قيامهم بإجراءات حربية تستهدف استئصالَ الوجود الإسلامي ، وقد حدَّد اللهُ تعالى مسألةَ الأخذ والقتل في حالة عدم اعتزالهم القتال ، ورفض الصلح ، ومواصلتهم للقتال. ومع أُناس مثل هؤلاء هل يُفترَض بالمسلمين أن يقدموا لهم باقات الورود شكراً على إرهابهم وجرائمهم ؟! . بالطبع لا ، فتلك حماقة وتخاذل . فيجب أخذهم وقتلهم أينما وُجِدوا لأن الكافر المحارِب يُقتَل أينما وُجِد في هذا العالَم تحقيقاً لمفهوم جدوى الحياة ، واستمرارية التواجد البشري دون منغِّصات ، فالذي يرفض أن يكون إنساناً

، ويُصِر أن يكون وحشاً مفترِساً ضد الأبرياء يجب أن يُقتَل لكي يتواصل الآخرون مع إنسانيتهم دون عوائق ، وهذا ما فعله المسلمون ويَفعلونه . فساحةُ المعركة ضد الأعداء هي العالَم كله .

والمسلمون يَسْعَوْنَ إلى عالَم طاهر نقي من الأوبئة الفكرية والعقائد الإرهابية التي يعتنقها الذين يقتلون الإنسانَ ، ويتشدقون بحقوق الإنسان . فلن يُسمَح لأي منحرف أن يلوِّث هذه الأرض بِحُجَّة أنه حُر في اختياره . ولو كان الأمر كذلك لكان تاجر المخدَّرات حراً في اختياره ، ولكان اللص حراً في تنفيذ سرقاته ، وهذا لا يقول به عاقل .

قال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢١٤) : ((فإن لم يعتزلوكم بالكَف عن التعرض لكم بوجه ما ، ويلقوا إليكم السَّلم ، أي لم يُلقوا إليكم الصُّلح والعهد بل نبذوه إليكم ، ويكفوا أيديهم ، أي لم يكفوها عن قتالكم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، أي تمكنتم منهم)) اهـ .

﴿ إنما جزاءُ الذين يُحارِبون اللهَ ورسولَه ويَسْعَوْنَ في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلُهُم مِن خِلاف أو يُنفَوْا من الأرض ﴾

[المائدة : ٣٣]

فجزاءُ الذين يُحارِبون الشريعةَ الإلهيةَ والمسلمين ، وينشرون الفساد وسفك الدماء في الأرض أن يُقتَلوا عقوبةً لهم ، أو يُصلَبوا ، أو تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ، أو يُنفوا من بلدٍ إلى بلد. وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧٤) : ((وفسَّره الجمهور هنا بالذي يقطع الطريق على الناس مُسْلماً أو كافراً)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٥٣) : ((واختلف العلماء في المراد بهذه الآية الكريمة . فقال مالك : هي على التخيير ، فيُخيَّر الإمام بين هذه الأمور إلا أن يكون المحارِب قد قَتل فيتحتم قتله . وقال أبو حنيفة وأبو مصعب المالكي : الإمام بالخيار وإن قَتلوا،وقال الشافعي وآخرون : هي على التقسيم ، فإن قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ، وإن قَتلوا وأخذوا المالَ قُتلوا وصُلبوا، فإن أَخذوا المالَ ولم يَقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خِلاف، فإن أخافوا السبيل ولم يأخذوا شيئاً ولم يَقتلوا طُلبوا حتى يُعزَّروا ، وهو المراد بالنفي عندنا)) اهـ .

وبما أن ضرر هذه الجرائم مختلف ، وتأثيرها متفاوت، فقد كانت عقوباتها مختلفة، لكي تتناسب العقوبة مع الجريمة دون إفراط أو تفريط . والناظرُ في حَد المحاربة قد يظن _ للوهلة الأولى _ أنه قاسٍ وعنيف . ولكنْ ينبغي النظر إلى الأمر من كل زواياه إذا أردنا تكوين صورة

صحيحة . فالحِرابةُ _ قطع الطريق _ هي تمرُّد مسلَّح لإرباك المجتمع ، وإشاعة الفوضى والقتل ، وانتهاك الأعراض ، وانتزاع الأموال من أصحابها دون وجه حق .

وهذه الجريمةُ الكبرى لا بد من التصدي لها بحزم حفاظاً على أرواح الناس وممتلكاتهم ومجرى الحياة دون عوائق . وسوى ذلك ستنتشر الفوضى في المجتمع ، ويعمُّ القتل والسلب والنهب بكل أريحية ، ودون رادع .

والحدودُ شُرعت من أجل ردع الناس ، وإحاطة المجتمع بسياجٍ واق ضد الجريمة والمجرمين والذي يُفكِّرون في ارتكاب الجرائم ، وليس من أجل تحويل الأفراد إلى مشلولين ومُعاقين . فالحدودُ هي عقوباتٌ حازمة تجعل الأفراد يُفكِّرون ألف مرة في عاقبة ارتكاب الجرائم ، وبالتالي يَطردون فكرة الجريمة من أذهانهم خوفاً من العقوبة الشديدة الحاسمة . ودِرهمُ وقاية خَير مِن قِنطار علاج. أمَّا التساهل في العقوبة سيؤدي إلى جرأة الناس على ارتكاب الجرائم ، لعلمهم أن الطريق مفتوح بسهولة ، والعقوبةُ بسيطة لا تستحق أن يُخاف منها . وكما قيل : مَن أَمِنَ العقوبةَ أساءَ الأدب .

وعن أنس _ رضي الله عنه_: أنَّ نَفَراً مِن عُكْل _اسم قبيلة_ ثمانية قَدِموا على رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام ، فاسْتَوْخَمُوا الأرضَ ، وسَقِمَتْ أجسامُهم ، فَشَكُوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ((ألا تخرجون معَ راعينا في إبِلِهِ فَتُصيبون مِن أبوالها وألبانها ؟)) ، فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحُّوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبلَ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأُدرِكوا فَجِيءَ بهم ، فأُمِرَ بِهم ، فَقُطِعَت أيديهم وأرجلُهم ، وسَمَرَ أعينَهم ، ثُمَّ نُبذوا في الشمس حتى ماتوا [47].

هؤلاء النَّفَر قابلوا الإحسان بالإساءة ، وقابلوا المساعدةَ النبوية بالخيانة . فالنبيُّ ﷺ أراد إنقاذهم من مأزقهم ، وإخراجهم من أزمتهم ، وإنهاء معاناتهم . فَعَرض عليهم الخروج مع راعي الإبل للتزود من أبوالها وألبانها من أجل أن يستعيدوا عافيتهم ، وحالتهم المعنوية والجسمانية . وقد خرجوا مع الراعي وشربوا من أبوال الإبل وألبانها ، فلمَّا عادت إليهم الصِّحة ما كان منهم إلا

---

(٤٧) متفق عليه. مسلم (٣/ ١٢٩٦) برقم (١٦٧١) ، والبخاري (٦/ ٢٥٢٨) برقم (٦٥٠٣) .
" فاستوخموا الأرض" : استثقلوها ، ولم يوافق هواؤها أبدانَهم . " سَمَرَ أعينَهم " : أحمى لهم مسامير الحديد ، ثم كَحَّلهم بها .

أن قَتلوا الراعي ، وطَردوا الإبلَ . وإنهم بهذا الفعل يُعلِنون الحربَ على الله ورسوله ﷺ ، لذلك فقد استحقوا العقوبة الحازمة التي تُوقفهم عند حَدِّهم ، وتَردع الآخرين .

وقال السيوطي في شرحه لسُنن النَّسائي (٧/ ٩٣): ((وإنما فعل بهم ذلك لأنهم فعلوا بالرُّعاة وقتلوهم فجازاهم على صنيعهم بِمُثْلة . وقِيل : إن هذا كان قبل أن تَنْزل الحدود ، فلمَّا نزلت نهى عن الْمُثْلة)) اهـ .

لقد اتخذ البعضُ هذه الآية الشريفة لِبَثِّ ما يعتقده إجراء قاسياً ومخالفاً لحقوق الإنسان . فالقتل أو الصلب أو قطع الأطراف من خلاف أو النَّفي للذين يحارِبون اللهَ ورسولَهﷺ من وجهة نظره القاصرة تُعتبَر اعتداءً على حقوق الإنسان ، وهذا مردود مِن أوْجُه : الأول _ إن هذه العقوبات عقوبات رادعة وفعالة ، وهي أصلاً موجودة لإثارة الخوف والرعب في قلوب الذين يمارسون الأفعال الشريرة ، أو يريدون ممارستها . فهذه العقوباتُ متعلقة بالرَّدْع بدرجة أكبر من التطبيق .

والردعُ ينبغي أن يكون واضحاً وحاسماً لأننا نتحدث عن مجتمع عالمي بأسْره، أمَّا أن يقوم الإنسان بقتل الأبرياء ثم يجلس في السجن بضعة سنين ويخرج ، فهذا يعني ضياع المجتمع لأنه يُكرِّم المجرمين ، ويمنحهم إجراء مخففاً مكافأة على أفعالهم الإجرامية ، فلا بد من الحزم ، فالذي يرتكب جُرْماً لا بد أن يدفع ثمنَ استهتاره بأرواح الآخرين ، وكأنها مُلْكٌ شخصي له . ومن هنا كانت الحدود رادعة وفاعلة، ومن بينها القتل. وتطبيق هذه الحدود ليس بهذه السهولة ، فلا بد أن تتحقق شروط صارمة جداً ونادرة جداً حتى يتم التطبيق . لذلك في كل تاريخ الدولة الإسلامية كانت الحدود المقامة محصورة جداً تجاه أُناس فرَّطوا عن سبق الإصرار والترصد . الثاني _ إن السياق التاريخي للآية المنضوي تحت سبب النُّزول يُحدِّد طبيعةَ فهمنا لهذه الآية. الثالث_ إن الذين يَحتجُّون بهذه الآية لِبَثِّ أفكارهم المنحرفة بأن الإسلام يأمر بقتل كل مَن هُوَ غير مسلم، لا يعرفون أن هذه الآية تشمل المسلمين والكفار على السواء ، وهو قول الجمهور .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ﴾

[الأنفال :١٧]

الآيةُ تتحدث عن يوم بَدْر . وفيها ردُّ الفضلِ إلى اللهِ صاحبِ الفضل _ سُبحانه وتعالى _ . وقد أُضيف القتل إليهم على جهة الكسب ، أمَّا التأثيرُ فهو للهِ وَحْدَه . فهو _ سُبحانه _ الذي

قَتَلَهم بما يَسَّره من الأسباب التي أدَّت إلى هزيمة الأعداء وانتصارِ المسلمين . وهو _ سبحانه _ الذي أعانَ على الأعداء ، وبث في قلوبهم الرعب ، وثبَّت قلوبَ المؤمنين .

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٣٧) : ((أي يوم بدر . رُوِيَ أن أصحاب رسول الله ﷺ لَمَّا صَدروا عن بدر ذَكَرَ كل واحد منهم ما فعل ، قتلتُ كذا، فعلتُ كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو الْمُميت والْمُقدِّر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسُّبه وقصده)) اهـ .

والسياق التاريخي للآيةِ يتَّضح في غزوة بدر ، لذلك فهذه الآية تتحدث عن معركة حقيقية ضد أعداء مُسلَّحين لا أبرياء أو عُزَّل ، وهم يستهدفون قتلَ المسلمين ، واللهُ قامَ بقتلهم ، أي إنه سهَّل على المسلمين قتلَهم ، ومكَّنهم من الكافرين ، وقادهم إلى مصارعهم . وهذا لا يتعارض مع حقيقة أنَّ اللهَ هُوَ الرحمن الرحيم . فاللهُ هو الإلهُ الْمُتصرِّف في الكون وَحْدَه ، يَرحم مَن يَشاء ، ويُعذِّب مَن يَشاء. وَمَن عادى اللهَ فعليه أن يتحمل المسؤولية، وينتظر انتقام الله وعذابه . واللهُ لا يُكرِمِ أعداءه ، بل يُهينهم ويَسحقهم . وهو _ سُبحانه _ قَتَلَ أعداءه جزاء محاربتهم له، وقرَّب أولياءه ، فمن عمل خيراً وجد خيراً، ومن عمل غيرَ ذلك وجد غيرَ ذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾

[الأنفال : ٦٥]

التحريضُ هو الْحَثُّ على الشيء . والآيةُ تَأمر النبيَّ ﷺ بأن يَحُثَّ المؤمنين على القتال .

وقد يظن بعضُ الْمُغرِضين أو العوام في الشرق أو الغرب بأن الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النبيَّ ﷺ بالكراهية والعنصرية تجاه الآخرين، وبث الحقد والقتال في النفوس دون وجه حق . وهذا الوهم ليس له أدنى نصيب من الحقيقة . وهو استنتاج مغلوط لأنه مبني على فرضية مغلوطة تُغفِل السياقَ التاريخي للنَّص . فقد كان الأعداءُ يُحيطون بالدولة الإسلامية من كل الجهات ، وقد قضى المسلمون جزءاً كبيراً جداً من أعمارهم ، وهم في حالة حرب . فلا يجوز إخراج الآيات التي تتحدث عن حالات الحرب ، وإسقاطها على أوضاع السِّلْم ، والأوضاع الطبيعية .

فالحرب حالة طوارئ خاصة تستدعي شحذاً للهمم ، وتحريضاً على القتال بكل الوسائل المعنوية والمادية . فلا يمكن أن أستقبل عدوي الذي يريد قتلي بالورود وعباراتِ الترحيب والاستقبال. إذن ، هي حالة حرب ، ولا بد من التعبئة المعنوية والعسكرية لقتال أعداء الحق من أجل إرساء دعائم الحق والعدل والأمان حتى تستقيم الحياة للناس ، فلا يُعقَل أن نترك كل مجرمٍ

يعيث في الأرض فساداً ، ثم نمنحه وسام الشجاعة والأخوة الإنسانية . يجب قتل الأعداء المحاربين الذين هم أعداء البراءة والأخوة الإنسانية والاحترام المتبادل .

قال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٣٤) : ((بَالِغْ في حَثِّهم عليه _ أي القتال _ ، وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور الْمُرغِّبة التي أَعْظَمُها تذكير وَعْده تعالى بالنصر ، وحُكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم . وأصل التحريض الْحَرَض ، وهو أن يُنهكه المرض حتى يشفى على الموت)).

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾

[التَّوبة : ٥]

هذا أمرٌ إلهي للنبيِّ ﷺ إذا انقضى الأجل ، أن يَقتل المشركين حيثما وُجدوا ، سواءٌ كانوا في الحِل أو الْحَرَم . وذلك صيانةً للأشهر الْحُرُم من القتل والقتال .

إذن ، معَ رفع الأمان عن المشركين الذين لم يرتدعوا عن أفعالهم المعادية توجَّب قتلهم لكي تأخذ الحياةُ دورتها الطبيعية ، والقتال حتى اعتناقهم الإسلام . لكن أحدهم قد يقول إن الله تعالى يقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فكيف يُقاتَلون حتى اعتناقهم للإسلام ؟! .

فنقول يجب التمييز بين الكتابيين والمشركين ، فالإسلام خصَّص مكانة مُعتبَرة لأهل الكتاب باعتبارهم شركاء مع المسلمين في بعض الأصول بعكس المشركين، فالمشرك لا يستند إلى أي كتاب سماوي ولا وَضعي ، بل هو يعبد أحجاراً من صنع يديه ، وبالتالي تَمَّ تصنيفهم كخونة خيانة عظمى عليهم السَّيف حتى يرتدعوا ويعتنقوا الإسلامَ ، ورُفِع عنهم شرعية الغطاء الإنساني لأنهم شواذ عَقَدياً ضد الإنسانية . وليس في ذلك إجبار أو إكراه ، أَرأيتَ المجرمين والقتلة وتجار المخدَّرات الذين يبيدون شعوباً بأسرها ، لا خيار أمامهم إلا أن يصبحوا مواطنين صالحين ، أو يلاقوا مصيرهم المحتوم وعقوبتهم الرادعة ، فمن غير المعقول أن نترك تاجرَ المخدرات حراً في تصرفاته بحجَّة أن أفعاله حرية شخصية وقناعة ذاتية . والمشرك يريد فرضَ عبادة الأوثان في أرض الله ، فلا يُعقَل أن يَجزيَه اللهُ خَيراً على هذا الفِعل . فكان لا بد من وضع حد لهم ، وإيقافهم عن طريق قتلهم واستئصالهم، لأن كل وسائل الحوار لم تنفع معهم، وفوق كل هذا فهم يحملون السلاحَ في وجوه المسلمين ، فكان لزاماً على نظام الدولة الإسلامية أن يضع حداً لهذه المهزلة ، لئلا يحدث تسيُّب أو انفلات يقضي على كل المجتمع، ويعيد الناس إلى الوثنية التي هي ضد الله في أرض الله. أَرأيتَ لو أن شخصاً يشتم الحاكمَ في قصره ويرفع في وجهه السلاح ، أو يشتم الحكومةَ في المقرات الحكومية، ويقتل موظفي الدولة.ماذا ستكون رد فعل الأجهزة الأمنية ؟! .

ولله الْمَثَلُ الأعلى ، فالأرض أرضُه، ولا يقبل لأحد أن يشاركه فيها من أوثان المشركين وآلهتهم الوهمية ، فكان القتل الحل الوحيد والأكثر نجاعةً للتعامل مع هؤلاء الذين لا يُرسِلون ولا يَستقبلون، ولا يفهمون إلا لغة السيف .

قال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٣٩٨) : ((قولُه تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ فيها قَوْلان : أحدهما _ أنها رجب وذو القعدة وذو الحِجَّة والْمُحرَّم ، قاله الأكثرون . والثاني : أنها الأربعة الأشهر التي جُعلت لهم فيها السِّياحة ... فعلى هذا سُمِّيت حُرُماً ، لأن دماء المشركين حُرِّمت فيها)) اهـ .

﴿ وَإِن نكَثُوا أَيْمَانَهُم مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾

[التَّوبة : ١٢]

فإن نقضَ المشركون أيمانهم وعهودهم ، وطعنوا في الإسلام ، أي عابوه وانتقصوه . فعندئذ لا عِصمة لدمائهم ، ويجب قتالُ أئمة الكفر ، وهُم رؤساء الضلال (صناديد قُرَيْش) الذين يَتْبعهم الناسُ ، ويَعتبرونهم القُدوة ، والمَثل الأعلى .

ويظهر من سياق الآية الشريفة أن هؤلاء القوم ليس أبرياء أو مُسالِمين ، بل إنهم خانوا الأمانةَ بنكثهم أيمانهم من بعد عهودهم ، وأضف إلى هذا طعنهم في الإسلام بغير وجه حق ، وهذا نقلهم إلى دائرة الكافرِ المحارِب الذي يُقتَل أينما وُجِد في العالَم في كل زمان ومكان . فهذه الآية تتعامل مع أعداء فاعلين في عداوتهم لا مدنيين أبرياء . والبعض يظن واهماً أن الكافر المحارِب هو الذي يُوَجِّه نحو المسلمين السلاح فَحَسْب، وهذا جزء من الحقيقة ، وليس كل الحقيقة ، فكل من حارب الإسلامَ (الدِّين السماوي الوحيد) بأي شكل من الأشكال يجب قتله ، سواءٌ كانت حربه بالكلمة أو بالسيف أو بأي شكل آخر .

وفي زاد المسير (٣/ ٤٠٤) : ((قال ابن عباس : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسُهَيل بن عمرو ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وسائر رؤساء قُرَيش الذين نَقضوا العهدَ حين أعانوا بني بَكْرٍ على خُزاعة حُلفاءِ رسول الله)) اهـ .

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدؤوكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

[التوبة : ١٣]

هذا التوبيخُ يَحمل معنى الحض على قتالهم. وسببُ نزول الآية هو نقض قُرَيْش عهد النبيِّ ﷺ الذي عاهدهم بالحديبية ، حيث أعانوا بني بَكْرٍ على خُزاعة (حلفاء النبيِّ ﷺ). وقد هَمُّوا بإخراج

الرسول من مكة ، حين اجتمعوا في دار النَّدوة ، وتشاوروا في أمره ﷺ . وهؤلاء المشركون هم الذين بدأوا القتالَ يَوم بَدْر ، والبادئُ أظلم .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٣١) : ((يقول تعالى ذِكره للمؤمنين بالله ورسوله حاضًّاً لهم على جهاد أعدائهم من المشركين : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ ﴾ أيها المؤمنون هؤلاء المشركين الذين نَقضوا العهدَ الذي بينكم وبينهم ، وطَعنوا في دِينكم ، وظاهَروا عليكم أعداءكم ، ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ مِن بَين أظهرهم فأخرَجوه ، ﴿ وَهُم بَدؤوكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بالقتال ، يعني فِعلهم ذلك يوم بدر ، وقيل : قتالهم حلفاء رسول الله ﷺ مِن خُزاعة)) اهـ .

والآيةُ الشريفة تُوضِّح _ بلا أدنى لَبْس _ عِلَّةَ القتال ضد هؤلاء الشاذين عن المسار الإنساني الحضاري ، فهم قومٌ نكثوا أيمانهم وعهودهم والشروطَ التي أعلنوا التزامهم بتطبيقها ، وعملوا جاهدين لإخراج النبيِّ ﷺ عبر التضييق عليه ، ومحاصرته بكل السُّبل ، فكانوا سببَ خروجه ، وهُم الذين اعْتَدَوا على المؤمنين أول مرة ، فكان بَدء القتال منهم ، وكل هذه الأفعال العدائية يجب أن يتم التصدي لها بشكل حازم ، لذا جاء تحريض المؤمنين على القتال (ردة الفعل) لكف عدوان المشركين (الفِعل) وتحجيمهم ، وتثبيت دعائم الوجود الإسلامي الذي ينشر الرحمة والعدل والتسامح بعد أن يتم استئصال العناصر المسعورة التي لا تُرسِل ولا تَستقبِل . فلا بد للعقيدة من قوة تحميها ، ولا بد للقوة من عقيدة تُوجِّهها . والإسلامُ مُصْحَفٌ وَسَيْف ، لا يُقبَل أحدهما بدون الآخر . ولكل مقامٍ مقال ، ففي بعض الأحيان يكون الكلامُ هو وسيلة الحوار ، وفي أحيان أخرى يكون السيف وسيلة الحوار مع بشر صاروا حيواناتٍ همجية، وأضل من الحيوانات . فهؤلاء لا يفهمون إلا لغة السيف ، مثلما تتعامل أية دولة في العالَم مع أعدائها، ومع الخونةِ من شعبها، ومع تجار المخدَّرات ، والقتلة ، الذين يريدون الدمارَ للعالَم .

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾

[التوبة : ١٤]

إنه أمرٌ إلهي بقتال الأعداء . وقد تكفَّل اللهُ بقتلهم بأيدي المؤمنين ، وإذلالهم بالأسرِ والقهر.

قال السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٣٨) عن نزول الآية : ((وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة _ رضي الله عنه _ قال : نَزلت في خُزاعة)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٣٢): ((يقول تعالى ذِكره: قاتِلوا أيها المؤمنون بالله ورسوله هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم ، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم ، وأخرجوا رسولَ الله ﷺ مِن

بَين أظهرهم ، ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ يقول : يقتلهم الله بأيديكم ، ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ يقول : ويُذِلُّهم بالأسر والقهر ، ﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ فيعطيكم الظَّفَر عليهم والغَلبة)) اهـ .

نلاحظ من خلال السياق التاريخي للآية الشريفة أنها تتحدث عن المشركين الذين نقضوا عهودهم ، وتلبَّسوا بالخيانة العظمى ، وأَعملوا سيوفَهم في رقاب الأبرياء ، وبالتأكيد فإن جزاءَ القتلِ القتلُ.لذا جاءَ الأمرُ الإلهيُّ بوجوب قتال هؤلاء المجرمين وقتلهم لكي يُلاقوا جزاء أفعالهم .

وكما قلنا في أكثر من موطن، فهذا الأمرُ الإلهيُّ بالقتل ليس مُوَجَّهاً ضد أبرياء أو مدنيين ، وإنما مُوَجَّه ضد قتلة محترفين مُسلَّحين لم يضعوا أَسلحتهم . ولا أظن أن هناك عاقلاً يتعاطف مع إرهاب المشركين بحق المؤمنين إلا أن يكون صاحب هوى، أو غرض مُبَيَّت في رأسه للطعن بغير حق في القرآن الكريم، وهذا دَيْدن المستشرقين أصحاب المستوى الضحل عِلمياً، وصبيانهم من أبناء جِلْدتنا الذين يَحفظون كلمتين بالإنجليزية أو الفرنسية ، ويَسرقون أفكار فلاسفة الغرب ، ويظنون أنفسهم شيوخاً للشافعي أو البخاري .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾

[التوبة : ٢٩]

نَسَخَ اللهُ _ عَزَّ وجلَّ _ عَفْوَه عن المشركين والصَّفْحَ عنهم ، بفرض قتالهم حتى يُصبحوا مؤمنين لا مكان في قلوبهم للكفر .

قال الإمام الشَّافعي في الأُم (١/ ٤٢٦) : ((فَمَن لَم يَزَلْ على الشِّرك مُقيماً لَم يُحَوَّل عنه إلى الإسلام ، فالقتل على الرجال دون النساء منهم)) اهـ .

لقد سبق القول إن علينا التمييز بين المشركين الذين رُفِع الأمان عنهم لأنهم وصلوا إلى الدَّرْك الأسفل من الحيوانية فلم يعد هناك فائدة منهم ، وبين الكتابيين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وبالتالي فالآية لا تشملهم . إذن ، الآية مختصة بالمشركين ، وقد سبق الحديث عن سبب رفع الأمان عنهم ، ووجوب قتلهم في تلك المرحلة ، أو أن يُعطوا الجِزيةَ وهم أذلة لقاء حمايتهم في ظل الدولة الإسلامية ، وخضوعاً لقوانين الشريعة الإسلامية ، وهذا ما تفعله كل الدول التي تضع قوانين وضرائب، وتجبر الشعبَ على التقيد بها للصالح العام من وجهة نظرها، وكَوْنهم أَذِلَّة بسبب إقامتهم على الكفر، فالكفر ذُل في الدَّارين ، ومن اعتنقه سيظل ذليلاً في كل حالاته وإنساناً درجةً عاشرة، والعقائد لا مُجاملة فيها ، ولا حِياد فيها ، فالمؤمن مؤمن ، والكافر كافر ، وكل واحد منهما يتحمل المسؤولية أمام اللهِ عن اختياره. لكن الفرق بين النظام الإسلامي السماويِّ، والأنظمة

الوضعية، هو أن النظام الإسلامي لم يأتِ لاستغلال الناس وسرقتهم، وإجبار الناسِ على عبادة الحكام ، بل جاء لينشر الخيرَ في المجتمع ، ويحافظ على الأمن والأمان في شتى المناحي .

والجِزيةُ هي الخراج المقدَّر على رؤوسهم ، وذلك مقابل تكفل الدولة بحماية نفْس الذِّمي وماله وعِرضه ودِينه ، ولا يُكلَّف حرباً ولا يدفع للدولة زكاة . فدافع الجِزية يُمنَح الأمان على نَفْسه وأسرته وممتلكاته ، وينطلق في أرجاء الدولة الإسلامية بكل أريحية ليقوم بالمشاريع التي يراها .

والجِزيةُ ليست إجراءً استكبارياً أو استغلالياً ، لأن المسلم يدفع الزكاة بإرادته ورغم أنفه ، والذِّميُّ مَعفيٌّ من دفع الزكاة ، فمسألة الدفع المادي ليست مُوَجَّهة للذميين خاصة ، بل هي عامة للجميع ، لأننا نتحدث عن دولة ذات أركان ، وبحاجة إلى أموال لكي تقوم بواجباتها تجاه مُواطنيها المنضوين تحت لوائها ، ولكي تستمر ، ولا تَسقط .

﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُون ﴾

[التوبة : ٣٠]

أخزاهم اللهُ تعالى، كَيفَ يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/١٠٧): ((أي لعنهم الله ، يعني اليهود والنصارى ، لأن الملعون كالمقتول)) اهـ .

وهذا الطردُ من رحمة الله عادلٌ ومنطقي ، لأن الكافر يجب أن يَعلم أنه اختار الكفر ، أي محاربة الله تعالى ، ولكنَّ رحمةَ اللهِ الواسعةَ سمحت له بالعيش بكرامة في هذه الدنيا ، لكي تُقام عليه الحُجَّة يوم القيامة ، ويلقى مصيره العادل . وهذا لا يناقض التسامح الدِّيني ، فالمسلم يجب أن يعلم أنه مسلم ، والكافر يجب أن يعلم أنه كافر ، والمومس يجب أن تعلم أنها مومس ، واللص يجب أن يعلم أنه لص. وهكذا ، فالتسامح لا يقتضي إبطال عقائد الإسلام من أجل سواد عيون الآخرين .

وفي الإنجيل يُشتَم اللهُ تعالى عبر استخدام عبارات التثليث ، ويُنسَب للهِ الولدُ ، ويُقَدَّمُ المسيحُ كإلهٍ بُصِق عليه وصُلِبَ . وفي التوراة نجد أن زنا المحارم منسوب إلى الأنبياء ، كما يتمُّ وصف أثداء الزانيات . وهذه قضايا مُقدَّسة عند أهل الكتاب ، لأنها نصوص دينية في الإنجيل والتَّوراة . ولهم كامل الحرية في اعتناقها ، ولا أحد يمنعهم من ذلك ، معَ أنها عقائد باطلة .

وفي المقابِل ، عليهم أن يَحترموا عقائدَ المسلمين ، وألا يتدخَّلوا فيها ، لأننا تركنا لهم حريةَ عباداتهم الباطلة رغم كل ما في الإنجيل والتوراة من أشياء لا تليق . فالمسلم يعتقد أن غير

المسلم كافرٌ خالدٌ في النار ، واليهودي يعتبر كل ما سوى اليهودي كافراً، والنصراني يعتبر كل ما سوى النصراني كافراً لا يدخل الجنَّة، وهذه عقائد . واللهُ يَحكمُ بين الناس فيما كانوا فيه يَختلفون.

ولكن علينا التنبه إلى أن الأستاذ لا يمنح الترقيةَ لطالب مشاغب،والحكومة ترفض المعارِضين، ومدير العمل يطرد الموظف الكسول. وللهِ الْمَثَلُ الأعلى . فَمِنَ الْمُحال أن يمنح اللهُ الجنةَ لأعدائه الذين يَسُبُّونه ليلَ نهار ، بل إنه تعالى طردهم ووعدهم جهنم جزاءَ أفعالهم ، ومع هذا أعطاهم فرصة العيش بسلام في الدنيا لئلا يكون لهم حَظ في الآخرة .

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

[التوبة : ٣٦]

هذه الآية الشريفة تهدف إلى الأمر برد العدوان الذي يتعرض له المسلمون ، فالأمر بقتال المشركين كافة إنما جاء لأنهم يقاتلون المسلمين كافة كما يتضح من السياق اللغوي للآية . وبالتالي كان هذا القتال في خانة رد الفعل المنطقي على الجرائم التي يرتكبها المشركون كافة مستخدمين عقلهم الجمعي، وإمكانياتهم الكلية ، وكل طاقتهم مجتمعةً ، ومن أجل رد هذا العدوان الجماعي كان لا بد من القتال الجماعي حتى تنكسر شوكة المشركين .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٥) : ((فَيُحتمَل أنَّه منقطع عمَّا قَبْلَه، وأنه مُسْتَأنَف، ويكون من باب التهييج والتحضيض ، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلتموهم بنظير ما يفعلون)) اهـ .

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾

[التوبة : ١١١]

إن هذه الآية _ التي مَدحت الذين يُقاتِلون في سبيل الله فَيَقْتُلون أو يُقْتَلُون _ ليست دافعاً للإرهاب والحقد والكراهية ، وإنما هي تأصيل شرعي تحدثنا عنه كثيراً عند شروحاتنا للآيات السابقة. فاللهُ تعالى حدَّد القتالَ بأن يكون في سبيله ، أي وفق ضوابط شرعية ، وليس من أجل الاستعلاء في الأرض بغير الحق ، أو ابتزاز الآخرين ، ووأد إنسانيتهم . ولا مفر من التعامل مع بعض البشر الذين لا يَفهمون إلا لغة السيف ، وإذا لم يتم تطهير المجتمع العالمي منهم ، فسيصبح العالَم مكاناً موبوءاً فاسداً لا يصلح للحياة . وهكذا ، فلا بد من بتر العضو الفاسد من أجل الحفاظ على استمرارية الحياة في الجسد كاملاً .

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلا مُضِر كَوَضْعِ السيف في موضع النَّدَى

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٥) : ((أي سواء قَتَلُوا أو قُتِلوا أو اجتمع لهم هذا وهذا ، فقد وَجبت لهم الجنَّة)) اهـ .

والجنة مكافأة لهم على عملهم الدؤوب في نشر السلام على الأرض عبر تصفية المحارِبين جسدياً الذين يريدون لكوكب الأرض الفساد والدمار . ومما لا شك فيه أن التخلص من العناصر السامة في أي مجتمع أمرٌ محمود ، يُقابَل بالترحاب من الآخرين لأن فيه استمرارية الحياة بصورة معتادة لأولئك الذين يريدون الحياةَ ويحترمون الحياةَ ، أمَّا أولئك الذين يريدون سلب الحياةَ من الإنسان ، فيجب سلبُ الحياة منهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

[التوبة : ١٢٣]

أمرَ اللهُ تعالى بقتال الأقرب فالأقرب ، وإظهار الشدة والصبر على القتال . وقد أُمر النبيُّ ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين . فالأقربُ هو الأحق بالرحمة والرعاية والنصيحة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١١٣) : ((أُمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنَّسَب . قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : مثل بني قُرَيظة والنضير وخَيبر ونحوها . وقيل : أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق)) اهـ .

مما لا شك فيه أن المقصود في الآية هم الكفار المحارِبون الذين ينبغي قتلهم فوراً لتطهير المجتمع منهم ، والآيةُ ذات سياق تاريخي محدَّد ، وهي أيضاً عامة لمواجهة الأعداء المحارِبين في كل زمان ومكان ، وهذا هو العدل المطْلَق . ففي هذه الآية لا يوجد دعوة للقتل العبثي ، أو إبادة الآخرين ، أو ممارسة العنف الهمجي ، بل هي مُوَجَّهةٌ ضد مَن تُسوِّل له نَفْسُه أن يحارِب الإسلامَ والمسلمين .

وكل الدول في العالَم تقوم بحماية شعبها من الأعداء ، وقتلهم للحفاظ على حياة شعبها . والدولة الإسلامية هي التي تُطَبِّق تعاليمَ الله لا التعاليمَ الوضعية ، وهي تقوم بواجبها لحماية الناس من أولئك الذين رَمَوا القيمةَ الإنسانية للحياة وراء لمعان سيوفهم المرفوعة في وجوه الأبرياء ، وبالتالي كان لزاماً التدخل لوأد هذا الفساد في الأرض .

﴿ فَرِيقَاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقَاً ﴾

[الأحزاب : ٢٦]

إن القتلَ واقعٌ على الرجال ، والأسرَ واقعٌ على النساء والذُّرية . ومبدأُ الإسلامِ واضحٌ في الحرب ، والقواعدُ الشرعية المتعلقة بالقتل والقتال ظاهرة وعادلة . فالرجالُ الذين يُقاتِلون يجب قتلُهم بلا تردد ، أمَّا النساء والأطفال فهؤلاء يتم أسرُهم ولا يُقتَلون . وهذا تفريق عظيم يراعي حالة الإنسان ووضعه . أما فهم الآية الشريفة فهو محدَّد تماماً في سياق تاريخي واضح المعالم .

قال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٨٣) : ((وأنزل اللهُ الذين أعانوا الأحزابَ مِن قُرَيش وغَطَفان على رسول الله وأصحابه، وذلك هو مُظاهَرتهم إيَّاهم ، وعَنى بذلك بني قُرَيظة ، وهُم الذين ظاهَروا الأحزابَ على رسول الله)) اهـ .

إنَّ الذين تتحدث عنهم الآيةُ هم أُناس مُتلبِّسون بالخيانة العظمى (قُرَيش ، وغَطَفان ، بنو قُرَيظة)، والتواطؤ مع جهات معادية تحمل السلاحَ (الأحزاب) . وهكذا صار كل هؤلاء القوم في سلة واحدة ، فَرُفِع عنهم الأمان ، ووُضِع عليهم السَّيف ، لأنهم تعاونوا في قتال المسلمين ، والسعي الحثيث لتقويض دعائم الدولة الإسلامية . وهُم بذلك يكونون كفاراً محارِبين ، وهؤلاء لا يتمتعون بعصمة الدَّم . فمن غير المنطقي أن تحضنَ الذي يرفع السلاحَ في وجهك بحجَّة حقوق الإنسان والتسامح بين الشعوب لأن التسامح لا يعني أن يَخضع القتيل للقاتل في ذِلَّة وصَغار .

والإسلام متسامح مع المتسامِحين ، أمَّا معَ المحارِبين فاللغة التي يفهمونها ويتحدثونها هي السيف، ويجب التعاملُ معهم بهذه اللغة حتى يستقيم مسار البشرية دون أي تهديد أو تقويض .

وهذا منتهى احترام كينونة الإنسان، وحمايته من الجهات التي تريد تمزيقه . فالتكريم الإلهيُّ للإنسان يتضمن تشريع وسائل دفاعية ضد كل من يعمل على هدم هذا الكيان الإنساني الرَّاقي ، لأن الجسد الكلي لا يمكن أن يستمر في حالة وجود عضو ملوَّث فيه ، فينبغي تطهير هذا العضو ، فإن تعذَّرَ ذلك ، فيجب التخلص من العضو الفاسد ، لضمان استمرارية الجسد الكلي ليؤديَ وظائفه المحدَّدة .

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾

[الأحزاب : ٦١]

هؤلاء مطرودون مُبعَدون عن الرحمة الإلهية، أينما وُجدوا ، وحيثما لُقوا من الأرض ، أُخذوا رغم أنوفهم ، وقُتِّلوا _ لكفرهم بالله تعالى _ تقتيلاً . ولا تسامح معهم إطلاقاً . وهذا هو الحُكم الإلهيُّ الذي يجب تطبيقه عليهم .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٢٣) : ((﴿ ملعونين ﴾ ، منصوب على الحال ، أي : لا يجاورونك إلا وهم ملعونون . ﴿ أينما ثُقفوا ﴾ ، أي: وُجدوا وأُدركوا. ﴿ أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً ﴾ معنى الكلام: الأمر. أي: هذا الحُكم فيهم سُنَّة الله،أي: سَنَّ في الذين يُنافقون الأنبياءَ ، ويُرْجِفون بهم أن يُفعَل بهم هذا)) اهـ .

تتحدثُ الآيةُ الشريفة عن المنافقين الذين يُظهِرون الإيمانَ ، ويكتمون الكفرَ ، وهؤلاء هم طابور خامس ينخر في جسد الأمة من الداخل. فهم كالجواسيس الذين يزرعهم العدوُّ بين ظهرانينا ليحققوا له مصالحه الذاتية . وهذه الفئة بالغة الخطورة لأنها عدو داخلي غير مرئي مُطَّلع على كافة مجريات الحياة الداخلية للجماعة، لذلك طردهم اللهُ تعالى من رحمته ، وأَهدر دمَهم لأنهم كفار محارِبون أشد خطورة من العدو المكشوف . وهذا ما تفعله كل الدول تجاه الخونة والعملاء، فمن غير المنطقي صبغ الإسلام بالإرهاب لأنه يدافع عن نظامه بالطرق المشروعة ، في الدساتير السماوية والوضعية . فالقتل لا يأتي ضد بريء أو مدني أو أعزل ، بل ضد أُناس يحترفون كرهَ الإنسان ، ويحتقرون حريته في اختياراته . والتخلص من المفسِد ليس فساداً أو إرهاباً ، بل هو التسامح الحقيقي الذي يجسِّده الإسلام في أروع الصُّوَر دون هَرطقات الدول التي تبني على جثة الإنسان دساتير حقوق الإنسان .

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾

[الفتح : ١٦]

سَتُدْعَوْن إلى قوم أشداء ، يمتازون بالبطش والبأس الشديد . وهُم بنو حَنيفة أصحاب اليمامة (قوم مُسَيْلمة الكذاب) ، تُقاتِلونهم أو يُسلِمون .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٦/ ٣٦) : ((ستُدعون إلى حرب قوم أشداء ، هم بنو حنيفة _ قوم مُسَيلمة الكذاب _ أصحاب الردة .. إمَّا أن تقتلوهم ، أو يدخلوا في دِينكم بلا قتال))اهـ.

هذه الآية تتحدث عن قتال المحارِبين سواءٌ كانوا بني حنيفة _ قوم مسيلمة الكذاب المرتدين عن الإسلام _ الذين تلبَّسوا بالخيانة العظمى، وعليهم أن يلاقوا مصيرهم المحتوم، أَم فارس والروم.

فالقتالُ شرعي لأنه ضد أعداء محارِبين يرفعون السلاح في وجه المسلمين ، وليسوا مدنيين أو غير مسلَّحين. أمَّا الخِيار بين القتال (القتل) أو اعتناقهم للإسلام ، فقد يظن البعض أن الإسلام

قام بإكراههم على اعتناقه تحت تهديد السيف ، وهذا مجانب للصواب ، وضد المسار التاريخي للأحداث . فقوم مسيلمة الكذاب هم مرتدون عن الإسلام ، أي كانوا مسلمين ثم رَمَوْهُ وراء ظهورهم، والمرتد خائن خيانة عظمى لذا وجب قتلُه أو رجوعه للإسلام مثل المنشقين في كل الدول حيث تقوم الدولة بتصفية أبنائها المنشقين عنها أو أن يعودوا لإعلان الولاء لها ، مع الفارق العظيم بين النظام الإسلامي المعصوم الذي يريد الخيرَ للناس ، وبين الأنظمة الحاكمة التي تريد تكميمَ الأفواه وسحق المعارِضين .

فالمعارِض للإسلام هو معارِض للإيمان بالله تعالى والفِطرةِ السليمة ، والخير، والعدالة، وقيم الجَمال، وهو شخص فقدَ إنسانيته . أمَّا المعارِض للأنظمة الحاكمة الوضعية القمعية لأنها ظالمة فهو على حق . ولا يجوز قياس مُعارَضة الأنظمة الطاغوتية على مُعارَضة النظام الإسلامي الحاكم الذي أسَّسه النبيُّ ﷺ بصورة تضمن له العِصمة الكاملة ، والعدالة المطْلقة .

وأيضاً لو أخذنا حالة فارس والروم ، فهم أيضاً كفار محارِبون كان بإمكانهم أن يحفظوا ماءَ وجههم لو لم يعتدوا على المسلمين ويقفوا سداً أمام نشر النور الإلهيِّ (الإسلام) ، وبما أن الأمور وصلت إلى مرحلة الحرب ، فعليهم أن يتحملوا مسؤوليةَ هذا التكبر ، واستعبادِ الناس ، والعيش كآلهة على جثث المسحوقين الذين منعوهم قسراً من الاطلاع على الإسلام ، ومنعوا المسلمين _ الذين هم رُسل الله تعالى لهداية الناس _ من نشر الدعوة . وإذا وصلت الأمور إلى السيف ، فعلى الكفار المحارِبين أعداء الخالق أن يتحملوا هذه المسؤولية .

وكما أن حكومات الدول تَفرض على المتواجِدين داخل حدودها الالتزام بقوانينها. فاللهُ تعالى له الْمَثَلُ الأعلى ، وهو مالك كل شيء ، يتصرف في مُلْكه كما يشاء .

ومع هذا تظل رحمة الله واسعة ، إذ إنه _ سبحانه وتعالى _ وضعَ ثلاثة خيارات أمام الكافر ، وعليه أن يختار : الإسلام ، فإن أبى فالجِزية ، وإن أبى فالقتل ، لأنه بذلك صار فرداً غير صالح على وجه الأرض ، وصار أقل رتبة من الحيوانات، وعندها يجب التخلص منه مثلما يُقتَل كل المجرمين ومهربي المخدِّرات والأعداء. وقد وضَّحنا فيما سبق الموضوع بشكل تفصيلي خصوصاً الحِكمة من الجِزية ، فكل الآيات إنما جاءت من منبع واحد، وكلها تؤخذ معاً ضمن دستور متكامل لسعادة الإنسان الذي يحترم إنسانيته ، أمَّا الإنسان الذي يَعيث في الأرض فساداً ، فهو يتحمل كامل المسؤولية عن أفعاله الشريرة التي ينبغي التصدي لها بالحزم حتى الوصول إلى كوكب أرضي نقيٍّ من المجرمين وأعداء اللهِ تعالى، وأعداء الإنسانية والحياة.

﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾
[الْحُجُرات : ٩]

هذه الآية الشريفة تدحض المزاعمَ القائلة بأن الإسلام وضع السيف على رقاب غير المسلمين عبر قتالهم ، في حين أنه حمى المسلمين من السيف. فهذه الآية تتحدث عن البُغاة من المسلمين الذين يجب قتالهم كمرحلة أخيرة إذا تعذَّر الإصلاح بين الفئتين المتنازعتَيْن. إذن ، فالتشريع الإسلامي شامل للمسلمين وغيرهم ، والقتال غير مُوَجَّه للكفار فقط . فكل من يتورط في مشاكل عليه أن يتحمل المسؤوليةَ سواءٌ كان مسلماً أو كافراً . فالمسلم ليس فوق القانون الإلهيِّ والدستورِ القرآنيِّ، وفي بعض الأحيان يجب قتاله ضمن ضوابط وحالات خاصة، وهذا يدل_ بما لا يدع مجالاً للشك_ على أن القتال ليس مُوَجَّهاً للكفار فَحَسْب ، بل مُوَجَّهاً ضد كل أولئك الذين يستحقونه ومن ضمنهم المسلمون . فآخر الدواء الكَي ، وإذا تعذَّرت كل الحلول فلا مناص من المواجهة المسلَّحة لكي تعود الأمور إلى نِصابها الصحيح . فقتلُ شخص أو ألف شخص أو مئة ألف شخص من البغاةِ الذين رفضوا الرجوعَ أفضل من ضياعِ الأُمة ، وتفرُّقِ كلمتها ، وانتهاءِ وجودها .

قال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٨٦) : ((فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حُكم كتاب الله له وعليه ، وتعدَّت ما جعل اللهُ عدلاً بين خَلقه ، وأجابت الأخرى منهما، ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ ، يقول:فقاتِلوا التي تعتدي ، وتأبى الإجابة إلى حُكم الله ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ ، يقول : حتى ترجع إلى حُكم الله الذي حَكم في كتابه بين خَلقه)) اهـ .

﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾
[الحديد : ١٠]

لا مقارنة بين الذين أنفَقوا مالَهم وقاتلوا المشركين قبل فتح مكة ، والذين أنفَقوا مالهم وقاتلوا بعد فتح مكة . ولا شكَّ أن الذين أنفَقوا مالهم وقاتلوا الأعداء قبل فتح مكة أعظم درجةً ، وأسمى مكانةً ، وأقوى إيماناً.قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٧/ ٧٧) : ((أي لا يستوي في الفضل مَن أَنفق مالَه وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة ، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة)).

والسبب في ذلك راجع إلى أنه قبل فتح مكة كان الإسلام محاصَراً بضراوة ، والمسلمون يتعرضون لأشد أنواع التعذيب والمضايقة ، فكان الجهاد ضرورياً للغاية ضد الأعداء المسلَّحين من المشركين، أمَّا بعد فتح مكة فدخل الناس في دِين الله أفواجاً، وتحسنت حال المسلمين كثيراً .

وهذه الْمُفاضَلة ليست للقتال العبثي، أو القتل الفوضوي تجاه الأبرياء، أو التطرف والإرهاب. بل هي مكافأة للذين أَنفَقوا وقاتلوا الأعداءَ المسلَّحين ، لذا فالقتال كان ضرورياً ومشروعاً ومُوَجَّهاً ضد أعداء يرفعون السلاحَ ، فالأمر هو منتهى العدالة التسامح والسلام ، عن طريق التخلص مِنَ الْمُحارِبين الذين يَرفضون إنسانيةَ الإنسان، ويَمنعون النُّورَ الإلهيَّ مِنَ الوصول للناس.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾

[الصف : ٤]

إن هذه الآية الشريفة توضِّح حُبَّ اللهِ للمقاتِلين على شكل صفوف ثابتة متراصة ضد الأعداء المسلَّحين ، وبالطبع فالحديث عن المعارك الحربية فلا يمكن حدوث صفوف إلا في المعارك . ومن المعلوم أن أرض المعركة لا تحوي إلا على مقاتِلين ، فلا وجود للعُزَّل أو المدنيين فيها من كلا الطرفين. إذن، هي مواجهة مسلَّحة ضد الأعداء لنشر الإيمان دونما إكراه ، ونشر السلام في المجتمع عن طريق استئصال العناصر الفاسدة .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٨) أن سعيد بن جُبَير قال : ((كان رسولُ الله ﷺ لا يُقاتِل العدوَّ إلا أن يُصَافَّهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين)) اهـ .

إن القتل والقتال في الإسلام عملية منضبطة بالحدود الشرعية ، ولا تُؤخَذ بشكل عبثي أو فوضوي ، فالقتال إنما يَحدث ضد أعداء محارِبين لا أبرياء مدنيين مساكين لا ناقة لهم ولا جَمل .

ومن حق الإسلام بوصفه الدِّين السماوي الوحيد أن يحمي عقيدته وأتباعه من الأعداء المجرمين الذين يتربَّصون به مستخدمين أكثر الأسلحة تطوراً وفَتكاً . لذا فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ضد الكفار المحارِبين في كل زمان ومكان وفق الضوابط الشرعية ، واحترام حقوق الإنسان، ونشر العدالة والسلام والخير عن طريق استئصال العناصر المتطرفة ، وقتلِ الوحوش البشرية الذين يريدون أن يظلوا كالأنعام يعبثون بمصير الآخرين ، ويُريدون تدميرَ مستقبل الأرض ، وإطفاءَ شُعلة الحضارة الإنسانية .

رابعاً : أخطاءُ ابْنِ تَيْمِيَة

إن هذا البحث الموجَز يحاول تسليط الضوء على رَجُل ثار حَوْله الكثير من الجدل . فأتباعُ الطائفة السلفية التَّيمية النجدية يحرصون على تسميته بشيخ الإسلام [1]. وبعضُ علماء المسلمين يهاجمونه بلا هَوادة ، ويصفونه بالْمُجَسِّم والْمُشَبِّه . وأغلبُ عُلماء المسلمين يَتَّخذون منه موقفاً وسطياً، فهم يترحمون عليه باعتباره عالِماً مَعَ تحذير الناس مِن عقائده الباطلة وضلالاته . وبشكل عام ، إِنَّ ابن تيمية _ رَحِمَهُ اللهُ _ عالِمٌ بارز ، لَدَيه بعض الأخطاء القادحة في العقيدة ، ونَرجو أنَّهُ قد تجاوزها ، فكثيرٌ من أفكاره متناقضة . وما يُثْبِتُه في موقف يَنقضه في موقف آخر .

قال الذهبي عن ابن تيمية : ((ومَن خَالَطَه وعَرَفَه يَنْسِبُني إلى التقصير فيه ، ومَن خَالَفه ونابذَه قد ينسبني إلى التغافل فيه ، وقد أُوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده ، وأنا لا أعتقد فيه عِصمة ، بل أنا مُخالِفٌ له في مسائل أصلية وفَرعية ، فإنه كان _ معَ سَعَةِ عِلْمه ، وفَرْطِ شجاعته ، وسَيَلان ذِهنه، وتعظيمِه لِحُرُمات الدِّين _ بشراً من البشر، تعتريه حِدَّة في البحث وغضب وصدمة للخصوم ، تزرع له عداوةً في النفوس ، ولولا ذلك لكان كلمةَ إجماع ، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنْز ليس له نظير ، ولكنهم يأخذون عليه أخلاقاً وأفعالاً ، وكلٌّ يُؤخَذ مِن قَوْله ويُترَك))[2].

ولستُ معنياً بالرد على ابن تيمية بشكل تفصيلي لأنَّ علماء كثيرين من القدماء والمحدَثين ألَّفوا كتباً كثيرة في الرد على انحرافاته بالأدلة الشرعية التفصيلية ، وهذه الكتب موجودة في الأسواق ، وعلى مواقع الإنترنت ، ومعروفة للجميع. وأيضاً المآخذ على ابن تيمية صارت في متناول القارئ . ولن أكون أكثر عِلماً من كل هؤلاء العلماء في هذا الموضوع بأيَّة حال من الأحوال،وهُم قد قاموا بعمل جليل في صد هذه الحملة التَّيمية التي تؤدي إلى زلزلة عقائد الناس .

---

(١) عبارة " شيخ الإسلام" مرفوضة جملةً وتفصيلاً، ولا يَصِحُّ إطلاقها على أي إنسان كائناً من كان ، ولا يجوز إطلاقها على النبيِّ ﷺ، فهذه العبارة البِدْعية ضد الإسلام تماماً، فالإسلام لا شيخ له، لأنه السَّيدُ على الناس والحاكم عليهم، وكلهم خاضعون له. وحتى الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ هُم خَدَمٌ للإسلام بإرادتهم ورغماً عنهم . والإسلامُ سَيِّدُهم ، وهم الذين يحتاجونه ، وهو لا يحتاجهم .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، طبعة دار الحديث ، لندن _ قبرص ، ص ٦٠٦.

وقد أردتُ في مقامي هذا تحليل منهجية ابن تيمية بشكل مُوجَز سريع ، والخلفيةِ الفكرية التي يستند إليها في بثِّه لهذه العقائد الزائغة ، وكيف انحرف بهذا الشكل الفاضح. ومن أراد الاستزادة فعليه مراجعة المجلدات الضخمة لكثير من العلماء في كل الأزمنة الذين يفوقونني عِلماً وإخلاصاً وعمقاً وتمكناً في العلوم والمعارف ، وبالطبع فإن إنتاجاتهم منتشرة في كل مكان من أجل تفنيد شُبهات ابن تيمية ، ودحض عقائده الباطلة، وهي متوفرة ولا تحتاج إلى كثير بحث وعناء، خصوصاً مع وجود الإنترنت ، ودور النشر النشطة ، والعلماء المخلِصين .

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧١) : ((وأَنكرَ ابنُ تيمية في كتاب الرد على ابن الْمُطَهَّر الرافضي المؤاخاة بين المهاجرين ، وخصوصاً مؤاخاة النبيِّ ﷺ لِعَليٍّ . قال : " لأن المؤاخاة شُرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبيِّ لأحد منهم ، ولا لمؤاخاة مُهاجري لمهاجري ". وهذا رَد للنَّص بالقياس ، وإغفال عن حِكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى مِن بعض بالمال والعشيرة والقوى ، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى ، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعليٍّ لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا مِن قَبْل البعثة واستمر . وكذا مؤاخاة حمزة وزَيْد بن حارثة لأنَّ زَيداً مَولاهم فقد ثبت أُخوتهما ، وهُما من المهاجرين)) اهـ .

قلتُ ـ اعتماداً على ما سَبَقَ ـ :

١) إن الخطيئة التي وقعَ فيها ابنُ تيمية ، هي التقليل من شأن علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ والحط مِن قَدْره الشريف عندما يَرُدُّ ابنُ تيمية على الشيعة الروافض ، وهذا معروفٌ عنه وواضح كالشمس . فكتابه " منهاج السُّنة " [3] مليء بالطعن في عليٍّ بن أبي طالب ، والطعن في فضائله الثابتة ظنَّاً منه أنه بذلك يرد على الروافض ، ويُفحمهم . وهذا خطأ منهجي ارتكبه ابن تيمية الذي لم يتمتع بالمنهج العلمي في البحث المنصِف ، لذا جاءت أفكاره مشوَّشة ، مما أدَّى إلى هجوم العلماء عليه ورميهم له بالنَّصْبِ ، ومُعاداةِ آل البَيت ـ عليهم السلام ـ .

---

(٣) ورَدَ في كتاب كشف الظنون (٢/ ١٨٧٢) : ((منهاج السُّنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية. للشيخ تقي الدين: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلي. المتوفى : سنة ٧٢٨ ، ثمان وعشرين وسبعمائة. ألَّفه : رداً على (منهاج الكرامة) . قال التقي السُّبكي : رأيتُه قد أجاد في الرد عليه ، لكنْ صَرَّح باعتقاد حوادث لا أوَّل لها ، وأنها قائمة بذات الباري)) .

٢) إن إنكار ابن تيمية للمُؤاخاة ، خصوصاً مؤاخاة النبيِّ ﷺ لابن عمِّه عليِّ بن أبي طالب _ كرَّم اللهُ وجهه _ يعكس مدى التطرف الذي وقع فيه ابنُ تيمية من أجل الرد على الروافض عن طريق انتهاج أسلوب سيء ، وهو تجريد عليِّ بن أبي طالب من الفضائل ، وأيضاً قاده كرهه للروافض إلى إنكار المؤاخاة أصلاً ، وما هكذا يكون الرد على الروافض . وإنما يكون الردُّ بفضح باطلهم ، وتفنيد أدلتهم الواهية ، ونقض منهجهم الوهمي الخاضع للأهواء والتعصب ، وقطع العلائق المتخيَّلة بينهم وبين عليِّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ ، لا مهاجمة هذا الصحابي الجليل الذي قام بدورٍ عظيم في حمل راية الإسلام طيلة حياته .

٣) الكارثةُ الحقيقية أن ابن تيمية قد رَدَّ النصَّ معتمداً على القياس ، وهو الذي يزعم طوال حياته بأنه سلفيٌّ متَّبع للكتاب والسُّنة ، فنحن نجد كيف رَدَّ النصَّ عندما خالفَ هواه ، واعتمد على القياس في وجود النَّص . والوقت لا يتَّسع لاستعراض كل أدلة المؤاخاة الشرعية لأنها أكبر من أن تُنكَر، وقد وردت المؤاخاة في أدلة صحيحة لا تُنكَر ، وهي مبسوطة في كتب الحديث. وهذا يدل على جرأة سلبية في رد الأحاديث الصحيحة ، أو عدم معرفة درجة الحديث .

٤) بعض أدلة المؤاخاة الصحيحة التي ردَّها ابن تيمية :

روى البخاري في صحيحه (٢/ ٦٩٤) عن عَوْن بن أبي جُحَيفة عن أبيه قال : ((آخَى النبيُّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء)) .

وروى الحاكم في المستدرَك (٣/ ٣٥٥) وصحَّحه ووافقه الذهبي : عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما_ قال : ((آخى النبيُّ ﷺ بين الزُّبير بن العَوَّام وعبد الله بن مسعود)) .

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧١) : ((وهما من المهاجرين. قلتُ: وأخرجه الضياء في المختارة من المعجم الكبير للطبراني ، وابن تيمية يُصرِّح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرَك)) اهـ .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما_ قال : إنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بين أصحابه ، فآخى بين أبي بكر وعمر ، وبين طلحة والزُّبَير ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عَوف ، فقال عليٌّ : يا رسول الله: إنك قد آخيتَ بين أصحابك، فمَن أخي ؟، قال رسول الله ﷺ: ((أمَا ترضى يا عليُّ أن أكون أخاك ؟))(4).

(٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ١٦)، والترمذي في سُننه مع اختلاف في الألفاظ (٥/ ٦٣٦) =

روى البخاري في صحيحه (٢/ ٧٢٢) عن عبد الرحمن بن عوف_ رضي الله عنه _ أنه قال: ((لَمَّا قَدِمْنا المدينةَ آخى رسول الله ﷺ بَيْني وبين سعد بن الربيع)).

ولنذهب إلى عقيدة ابن تيمية"حوادث لا أوَّل لها"، فقد قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤١٠) : ((" كانَ اللهُ ولَم يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَه " [5]. تقدَّمَ في بَدء الخلق بلفظ : "ولَم يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُه " [6]. وفي رواية أبي معاوية " كانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شيء " [7] . وهو بمعنى كان الله ولا شَيء معه ، وهي أصرح في الرد على مَن أثبت حوادث لا أوَّل لها من رواية الباب ، وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية ، ووقفتُ في كلام له على هذا الحديث يُرجِّح الرواية التي في هذا الباب على غيرها مع أن قضية الجمع بين الروايتين تقتضي حمل هذه على التي في بَدْء الخلق لا العكس، والجمعُ يُقَدَّم على الترجيح بالاتفاق)) اهـ .

قلتُ _ اعتماداً على ما سَبَقَ _ :

١) هذه العقيدة الكُفرية " حوادث لا أوَّل لها " تعني وجود مخلوقات لا بداية لها تشترك في القِدَم مع الذات الإلهية ، وهذه العِبارة تحمل تناقضاً غريباً في داخلها . فكلُّ حادثٍ مخلوقٌ ، وكلُّ مخلوق له بداية ، وكل مخلوق يَعتمد على الذي أوجده وخَلَقَه ، فمُحالٌ وجود مخلوق خلقَ نفْسَه لأن فاقد الشيء لا يُعطيه . ولحظة الخلق يحدِّدها الخالقُ الذي أوجدَ المخلوقَ ، فكيف تكون هذه الحوادث المخلوقة لا بداية لها ؟! . وهذه العقيدة تفترض أن هذه الحوادث هي قديمة بالنَّوع ، أي إنها واجبة الوجود ، وبالتالي فهي غير خاضعة لأي خالق مُوجِد ، بل كانت معه نِدَّاً لِندٍّ ، وخارجة عن نفوذ قدرة الله على الخلق . وهذا كفرٌ بواح . فكل ما سِوى اللهِ مخلوق ، وكل مخلوق لا بد أنه جاء إلى هذا الوجود في لحظة زمنية مُعَيَّنة ، أي إنَّ له بدايةً. وقد كان الله ولا

=برقم (٣٧٢٠)وقال : ((هذا حديث حسن غريب)) اهـ.قلتُ :[طعن الذهبي في سند الحاكم ، لكن الحافظ قال في الفتح (٧/ ٢٧١) معلِّقاً : ((وإذا انضم هذا إلى ما تقدَّم تقوَّى به))] .

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٦٩٩) برقم (٦٩٨٢) .

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٦٦) برقم (٣٠١٩) .

(٧) رواه أبو نُعَيم في الحِلية (٢/ ٢١٦) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٦) : [عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يزال الناس يقولون : كان اللهُ قبل كُل شيء ، فما كان قَبْلَه ؟)) . رواه البزَّار ، وله في الصحيح حديث غير هذا ، ورجال مُوَثَّقون] اهـ .

شيء معه ، أي إنه أوجد العناصر مِن العَدَم ، فاللهُ وَحْدَهُ هو الأوَّلُ فليس قَبْلَه شَيء ، وكان اللهُ ولا شَيْءَ مَعَه . واللهُ قَديمٌ ، وما سِواه حادث وُجِد بعد إذْ لَم يَكُنْ .

وللأسف فهذه العقيدة الكُفرية " حوادث لا أوَّل لها " ملتصقة بابن تيمية بصورة يصعب الفكاك منها وهو يدافع عنها بشراسة ، والعجيب أنه عاد ونقضها بكل حماس في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨١): ((فإنَّ الرُّسُلَ مُطْبِقون على أنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ مُحْدَثٌ مخلوقٌ كائنٌ بَعْدَ أن لَم يَكُنْ ، لَيْسَ مَعَ اللهِ شَيْءٌ قَديمٌ بِقِدَمِه)) اهـ. وهذا يدل على شراسة الصراع في عقل ابن تيمية ، فما يُثبته ويدافع عنه في موضع بكل إصرار ، ينقضه في موضع آخر بكل إصرار .

٢) أخطأ ابنُ تيمية حينما عَمَدَ إلى الترجيح قافزاً فوق الجمع والتوفيق ، وهذا يدل على أنه يريد الوصول إلى هدفه المرسوم في رأسه مهما كَلَّفه الثمن ، فهو يَحمل فكرةً مُسبقة في ذهنه ، ويريد تطويعَ الأدلةِ ولَوْيَ أعناق النصوص من أجل إثباتها قافزاً على المنهج العِلمي. ونحن لا نَعلم الغَيبَ ، ولكنَّ المظهرَ يدل على الجوهر ، والمسارَ الخارجي يُنْبِئُ عمَّا في الصدور .

وهناك مسألة عَقَدية أخطأ فيها ابن تيمية تتعلق بطبيعة التحريف في الإنجيل والتوراة ، فقد قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٢٤) عن مسألة التحريف في الإنجيل والتوراة ، وهل وقعَ التبديلُ في الألفاظ أم المعاني : ((سُئل ابن تيمية عن هذه المسألة مجرداً ، فأجاب في فتاويه إن للعلماء في ذلك قَوْلَين: واحتج للثاني مِن أوجه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وهو مُعارَض بِقَوله تعالى : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ [البقرة: ١٨١] . ولا يتعين الجمع بما ذُكِرَ مِن الحَمل على اللفظ في النفي ، وعلى المعنى في الإثبات،لجواز الحمل في النَّفْي على الحُكم، وفي الإثبات على ما هو أعم من اللفظ والمعنى)).

قلتُ _ اعتماداً على ما سبقَ _ :

تتمركز عقيدة ابن تيمية الشاذة في هذا الموضوع حول تحريف معاني الإنجيل والتوراة دون الألفاظ . أي إن ألفاظهما _ من وجهة نظر ابن تيمية _ هي التي أنزلها الله دون تغيير . وهذا رأي فاسد ، فالتحريف شامل للألفاظ والمعاني . أمَّا استدلال ابن تيمية فهو استدلال منقوص ، ومُعارَض بآية قرآنية . فينبغي علينا فهم الآية القرآنية بشكل كامل ، وأسباب نزولها ، والحوادث التاريخية التي عالجتها قبل تصوُّر أفكار عن الآيات القرآنية لا تكمن إلا في الأذهان القاصرة .

قال ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٣١٩) : ((... في ما يُعاب به ابن تيمية من العقيدة، طالعتُ الرد المذكور فوجدته كما قال السُّبكي في الاستيفاء ، لكن وجدته كثيرَ التحامل إلى الغاية

في رد الأحاديث التي يوردها ابن الْمُطَهَّر _ الرافضي_، وإن كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات، لكنه رَدَّ في رَدِّه كثيراً من الأحاديث الجِياد التي لم يستحضر حالة التصنيف مظانَّها لأنه كان لاتساعه في الحفظ يتَّكل على ما في صدره ، والإنسان عامد للنسيان، وكَم مِن مُبالَغة لِتَوهين كلام الرافضي أدَّته أحياناً إلى تنقيص عليٍّ _ رضي الله عنه_ وهذه الترجمة لا تحتمل إيضاح ذلك وإيراد أمثلته)) اهـ .

لقد عَلَّقْنا على هذه النقطة سابقاً ، وقلنا إن ابن تيمية في فَورة حماسته في الرد على الرافضي ابن المطهر في كتابه " منهاج السُّنة" ردَّ كثيراً من الأحاديث الجياد التي عجز عن استحضار مظانها، وهذا نقصٌ فيه ، فهو يتَّكل على ما يحفظه في صدره ، والإنسان ناقص ومحدود القدرات ، وكان عليه أن يراجع المسائل من مظانها ، لا أن يعتقد أنه يحفظ كل شيء ، وأنه مستغنٍ بذاكرته عن المراجع والكتب والتدوين ، فآفة العِلْم النِّسيان ، أمَّا أن يَظُنَّ الإنسانُ نفْسَه أعلم أهل الأرض، وأنه ليس بحاجة إلى مراجعة الكتب ، فهذا هو الغرور القاتل . وقاده ذلك إلى التطاول على عليٍّ _ رضي الله عنه_ ، وهذا مشهور عنه ، مما جعل كثيراً من العلماء يضعونه في خانة النواصب.

قال ابن حجر في الدُّرر الكامنة (١/ ١٧٩و١٨٠ و١٨١و١٨٢) تلخيصاً لأهم العقائد التي أخطأ فيها ابن تيمية : ((وقال الأقشهري في رحلته في حق ابن تيمية : بارع في الفقه والأصْلَيْن والفرائض والحساب وفنون أُخَر ، وما مِن فن إلا له فيه يد طولى وقلمه ولسانه متقاربان. قال الطوفي: سمعتُه يقول : مَن سألني مستفيداً حَقَّقْتُ له ، ومَن سألني مُتَعَنِّتاً ناقضتُه فلا يلبث أن ينقطع فأُكفَى مُؤنته . وذكر تصانيفه . وقال في كتابه إبطال الحِيَل : عظيم النفع وكان يتكلم على المِنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسُّنة واللغة والنظر ما لا يَقْدر أحد على أن يورده في عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه فأَخذ منها ما يشاء ويَذَر ، ومِن ثَمَّ نُسب أصحابه إلى الغُلُوِّ فيه ، واقتضى له ذلك العُجْب بنفْسه ، حتى زها على أبناء جنسه واستشعر أنه مجتهد فصار يردُّ على صغير العلماء وكبيرهم قَوِيِّهم وحديثهم ، حتى انتهى إلى عُمر فخطَّأه في شيء ، فبلغ الشيخ إبراهيم الرقي فأنكر عليه فذهب إليه واعتذر واستغفر ، وقال في حق عليٍّ أخطأ في سبعة عشر شيئاً ثم خالفَ فيها نَصَّ الكتاب ، منها : اعتداد الْمُتَوَفَّى عنها زوجُها أطولَ الأجلَيْن ، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الأشاعرة ، حتى إنَّه سَبَّ الغزالي فقام عليه قوم ... فذكروا أنه ذكر حديث النُّزول فنزل عن المِنبر درجتين فقال كَنُزولي هذا، فنُسِب إلى التجسيم ، وَرَدَّ على مَن توسَّل بالنبيِّ ﷺ أو استغاث ...، وافترق الناس فيه شِيَعاً فمِنهم مَن

نَسَبَه إلى التجسيم لِمَا ذَكَرَ في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك كقوله إن اليد والقَدَم ... والساق والوجه صفات حقيقية للهِ، وأنَّهُ مُسْتوٍ على العرش بذاته ، فقِيل له يلزم من ذلك التَّحَيُّز والانقسام ، فقال أنا لا أُسلِّم أن التحيز والانقسام من خواص الأجسام ، فأُلزم بأنه يقول بتحيُّز في ذات اللهِ . ومِنهم مَن يَنْسِبُه إلى الزَّندقة لِقَوله إن النبيَّ ﷺ لا يُستغاث به ، وأن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبيِّ ﷺ ... ومِنهم مَن ينسبه إلى النفاق لِقَوله في عليٍّ ما تقدَّم ، ولقوله إنه كان مخذولاً حيث ما توجَّه، وإنه حاولَ الخلافةَ مِراراً فلم يَنَلْها ، وإنما قاتل للرئاسة لا للديانة ، ولقوله إنه كان يحب الرئاسة، وإن عثمان كان يحب المال ، ولقوله أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول ، وعليٌّ أسلمَ صبياً ، والصبيُّ لا يَصِحُّ إسلامُه على قَوْل ، وبكلامه في قصة خِطبة بنت أبي جهل... وقصة أبي العاص بن الربيع ، وما يُؤخَذ من مفهومها فإنه شَنَّع في ذلك فألزموه بالنِّفاق لِقَوله ﷺ : ((ولا يُبْغِضُكَ إلا مُنافق))[8]. ونَسَبَه قوم إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى فإنه كان يَلْهَج بِذِكْر ابن تومرت ويُطريه ، فكان ذلك مُؤَكِّداً لِطُول سِجنه ، وله وقائع شهيرة ، وكان إذا حُوقِق وأُلزم يقول : لَم أُرِدْ هذا ، إنما أردتُ كذا فيذكر احتمالاً بعيداً)) اه .

قلتُ ــ اعتماداً على ما سبقَ ــ :

هذا الكلام الموجَز العميق يُلخِّص حال ابن تيمية بدقة متناهية، وأهم ضلالاته التي يعتنقها ويدافع عنها بالباطل ، ونحن نعترف بِسَعة عِلْمه واطِّلاعه وتبحُّره ، ولكن هذا لا يكفي إذا لَم يصاحبه عملٌ صالح ، فكثيرٌ من المنحرفين عَقَدياً يملكون عقولاً جبَّارة ، وثقافات موسوعية ، ولكنَّ العِلمَ والعمل ينبغي أن يكونا وفق الكتاب والسُّنة . ونحن نوجز انحرافات ابن تيمية ــ وفق ما ذُكر سابقاً دون زيادة أو نقصان ــ :

١) الغرور والاستعلاء بالباطل مَدعوماً مِن قِبَل أتباع جُهَّال يركضون وراء كل ضَوء زائف ، فقد غَرَّ ابنَ تيمية عِلْمُه الواسع ، فظنَّ أنه صار عالِماً مجتهداً لا يُستَدرَك على كلامه ، ولا يملك أحدٌ أن يناقشه ، فكلامه لا يُرَد ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خَلْفِه ، وهذا الغرور القاتل مقبرة العلماء .

٢) تطاوله على الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ، وتخطئتهم اعتماداً على تفكيره الشخصي ، لكي يبرز كعقلية خارقة قادرة على إحصاء أخطاء الرَّعيل الأول مِمَّن حملوا الإسلام . ونحن نؤمن

---

(٨) رواه مسلم (١/ ٨٦) برقم (٧٨) . والمقصودُ بالحديث هو عليُّ بن أبي طالب .

أن الصحابة يُخطِئون لأنهم غير معصومين ، حتى الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ قد يُخطِئون فيما لا وَحْيَ فيه ، بمعنى أنهم قد يرتكبون خِلافَ الأَوْلَى. ولكن نقد بعض أفعال الصحابة بحاجة إلى عالِم ربانيٍّ لا يقوم بتحطيم صورة الصحابة في نفوس الناس ، وإنما يُناقِش هذه المسائل في المجالس المغلَقة لئلا يُسبِّب فِتنةً في المجتمع ، ويُزلزِل عقائدَ الناس .

٣) تَوَغُّله في مذهب النَّصْبِ ومُعاداةِ آل البَيت _ عليهم السلام _ عبر التطاول على عليٍّ _ رضي الله عنه _ في أكثر من عشرة مواضع بكلمات جارحة .

٤) التعصب الأعمى للمذهب الحنبلي ، أو بشكل أدق التَّعصب لِمُجَسِّمة الحنابلة . والحنابلةُ عُموماً معروفون بالغِلْظة والقَسوة والشِّدة والتَّعصب الْمَقيت . وإِلَيْكَ هذا النص الذي ننقله بِطُوله بسبب أهميته الكُبرى :

[معَ قوة رجال الفِقه الحنبلي لم يكن انتشارُه متناسباً معَ هذه القوة واتساع الاستنباط فيه ، وإطلاق فقهائه حرية الاجتهاد لأهله ، فقد كان أتباع المذهب من العامة قليلين ، حتى إِنهم لَم يكونوا سَواد الشعب في أي إقليم من الأقاليم ، إلا ما كان من أمرهم في نَجْد، ثم في كثير من الجزيرة العربية بعد سيادة حُكم آل سُعود في تلك الجزيرة . ولماذا كانت تلك القِلَّة؟ والجواب عن ذلك أن عدة أسباب تضافرت فقلَّلت من انتشار هذا المذهب] . مِن بين تلك الأسباب :

[شِدَّة الحنابلة وتعصُّبهم، وكثرة خِلافهم معَ غيرهم ، لا بالْحُجَّة والبُرهان ، بل بالعمل ، وكانوا كُلما قَوِيَتْ شَوْكَتُهم اشتدُّوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واقرأ ما كتبه ابن الأثير في الكامل: ((وفيها أي في سنة ٣٢٣ هـ ، عَظُمَ أمر الحنابلة ، وقَوِيَت شوكتُهم ، وصاروا يَكْبِسُون دُورَ القُوَّاد (القادة) والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مُغَنِّيَةً ضربوها ، وكسروا آلةَ الغِناء، واعترَضوا في البيع والشراء،ومشى الرجال مع النساء والصِّبيان ، فإذا رَأَوا ذلك سألوه عن الذي معه مَن هُوَ ؟ ، فأخبرَهم ، وإلا ضربوه ، وحَمَلوه إلى صاحب الشرطة ، وشَهِدوا عليه بالفاحشة ، فأزْعَجوا بغداد ...)) اهـ . وبهذه الأعمال وغيرها ، نَفَرَ الناسُ مِنهم ، وقَلَّ أتباعُهم] [9].

٥) التطاول على أهل السُّنة والجماعة (الأشاعرة) بالباطل لأنهم يعتنقون عقائدَ التَّنْزيه ، ويقفون شوكةً في حُلوق الْمُجَسِّمة .

---

(٩) تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ص ٥٤٣ . دار الحديث . لندن ، قبرص .

٦) شتم العلماء الكبار مثل الإمام الغزالي ، وليست هذه من أخلاق المسلم ، ولكنَّ الغَيرة القاتلة مِن بعض العلماء أدَّت إلى الشتائم . والذي يشتم عَلِيًّاً ، ليس غريباً أن يشتم الغزالي . والغَيرةُ بين العلماء أشدُّ مِنَ الغَيرة بين النساء .

٧) حمل النصوص على ظاهرها ، وإنكار الْمَجاز ، مِمَّا أوقعه في فخ التجسيم ، وإسناد صفات الحوادث إلى الذات الإلهية ، وهو بذلك تداخلَ معَ عقائد اليهود والنصارى في التجسيم.

٨) إنكاره للتوسل والاستغاثة بالنبيِّ ﷺ مع أنهما ثابتان بالنصوص الشرعية ، وقد وضَّحتُ هذه المسألة في بداية هذا الكتاب بالأدلة التفصيلية الدقيقة .

٩) البعضُ يَنْسِبُ ابنَ تيمية إلى الزَّندقة لِقَوله إنَّ النبيَّ ﷺ لا يُستغاث به ، واعتبار ذلك منعاً من تعظيم النبيِّ ﷺ . والبعضُ يَنْسِبُه إلى النِّفاق لانتقاصه عَلِيًّاً .

١٠) مدح الحكام لكسب مناصب دنيوية زائلة ، مثل إطرائه لابن تومرت . فيا للعَجَب ! ، يُطري ابن تومرت ، ويتهجم على رابع الخلفاء الراشدين .

*

خامساً : نقد عقائد الشيعة فلسفياً

لستُ معنياً في هذا الصدد أن أرد على عقائد الشيعة الروافض بالتفصيل لأن الردود موجودة في آلاف المجلدات عبر تاريخ المسلمين كله ، وكل عقائدهم تمت غربلتها اعتماداً على منهجية علمية قوية جداً على أيدي كبار العلماء القدماء والمحدَثين المتخصصين في عقائد القوم . ولن أكون أفضل منهم بأية حال من الأحوال، لكنه بحثٌ مُختصَر يعتمد تياراً فلسفياً شخصياً من أجل تسليط الضوء على بعض الجوانب العَقَدية . والأمر أشبه ما يكون بغربلة فلسفية، والغوص في فلسفة تكونات هذا المذهب المنحرِف عن الجادة . ولستُ أدَّعي كمالاً في هذا الزخم الفكري إلا أنها خواطر فلسفية تحليلية نابعة من أفكاري وتصوراتي المعتمدة على قراءاتي الشخصية . وقد تم الرد على عقائد الشيعة الروافض بشكل شرعي تفصيلي وفق الأدلة المعتمدة سواءٌ عند أهل السُّنة والجماعة أم عندهم ، وأنا هنا لا أود تكرار ما قيل ، إلا أنني أحاول تأصيل منحى فلسفي تشريحي تفتيتي لهذا المذهب المنحرِف .

بدايةً ينبغي أن ندرك أن لفظة " الشيعة" نطلقها على الروافض مجازاً لأنهم عُرِفوا بها ، فصارت لفظةً دالة عليهم يمتازون بها ، ولكن هذه اللفظة في واقع الأمر خاطئة إذا ما التصقت بالروافض ، لأن الشيعة الحقيقيين هم أهل السُّنة والجماعة الذين شايَعوا آل البيت _ عليهم السلام _ ، وصاهروهم ودافعوا عنهم ، وعَرَفوا قَدْرَهم بدون اختراع الأكاذيب والأساطير حَوْلَهم .

أمَّا الروافض فكان دَيْدنهم طوال الفترات التاريخية المتعاقبة هي خيانة آل البيت ، عبر تسليمهم لأعدائهم ، واختراع الأكاذيب ونِسبتها إليهم، ولنتذكر ما فعله أهل الكوفة الخونة الذين خانوا علياً والحسين _ عليهما السَّلام_ ، وباعوا ضمائرهم من أجل الدرهم والدينار ، ومع هذا يُقدِّمون أنفسهم على أنهم شيعة آل البيت ، ومُناصروهم ، وحُماة أفكارهم ومدرستهم .

وهؤلاء " الشيعة" الذين قتلوا أئمةَ آل البيت ثم بَكَوْا عليهم ، هُم تماماً مثل الذين خانوا المسيحَ ﷺ ، ثم صاروا ينتظرون قدومَ المسيح الْمُخلِّص آخِرَ الزمان . وفي هذا الْمَقام ، يجب التذكيرُ بأن آلَ البَيتِ عَرَبٌ لا فُرْس . وهذا الأمرُ شديد الأهمية ، وله مَغزى واضح .

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني _ قدَّس اللهُ رُوحَه _ : ((وأمَّا الشيعة فلهم أسامٍ منها الشيعة والرافضة والغالية والطيارة ، وإنما قيل لها الشيعة لأنها شايعت علياً _ رضي الله عنه _ ، وفضَّلوه على سائر الصحابة ، وقيل لها الرافضة لرفضهم أكثر الصحابة ، وإمامةِ أبي بكر وعمر _ رضي الله

عنهما_ ، وقيل سُمُّوا الروافض لرفضهم زَيد بن عليٍّ لَمَّا تولَّى أبا بكر وعمر _ رضي الله عنهما_ وقال بإمامتهما ، وقال زيد : رفضوني . فسُمُّوا رافضة))[1].

ولكن البعض قد يقول إن هناك مسلمين قتلوا عظماء من آل البيت ، فنقول إن هذا صحيحٌ ، ولكن من قال لك إن هؤلاء القَتَلة يُمثِّلون أهلَ السُّنة والجماعة ، ومن قال لك إن أئمة آل البيت يُمثِّلون الشيعة الروافض . إن أعداء آل البيت يُمَثِّلون أنفسهم بشكل فردي محض ، وإذا كانوا نواصب فهذه مشكلتهم لا مشكلة أهل السُّنة والجماعة . أمَّا خيانة الشيعة الروافض فكانت جماعية مُنظَّمة عبر خياناتهم المتكررة لآل البيت ، وحياكة الأساطير ونسبتها إليهم ، وهذا سيأتي تفصيله لاحقاً _ إن شاء الله_ . وبالتأكيد فإن النواصب والروافض وجهان لعملة واحدة اسمها خيانة آل البيت بكل تطرف ، فكل واحدٍ فِعْلٌ وردُّ فعلٍ في آن معاً ، وكلاهما غارق في الوهم الأيديولوجي المنفي عن قِيَمه الوجودية .

وهؤلاء القوم يُسمُّون أنفسهم بالشيعة ليوهموا الناس أنهم مُتَّبعون لآل البيت ، وهذا اللفظ إنما جاء في أذهانهم وفق أفكارهم النسقية المبنية على مبدأ الاقتران . فالشيء الذي يقترن بشيء محبَّب للنفوس يصير محبَّباً للنفوس هو أيضاً ، وكل المسلمين مجمِعون على حب آل البيت ، وفكرة اقتران طائفة ضالة بهم ، وانتسابهم إليهم ، سيعطيهم شرعيةً في أذهان العوام وأصحاب العقول البدائية الخالية من المنهجية العلمية المتينة . وهذا الاقتران الأيديولوجي يعكس التشويشَ الرهيب في الدِّين الشيعي الرافضي الذي يُحاول إعادة تكوين نَفْسه من خلال الارتباط بأمور خارجة عنه . أي إن الارتباط في عقائد الروافض يَتَّخذ طابعاً حياتياً خارجياً لتحقيق مكاسب سياسية . ولا يَخفى أن عوامل الانهيار كامنة في الدِّين الشيعي، فهو يَحمل بذرةَ سقوطه في داخله، لأنه يَعتمد على أدلجة تاريخية متواصلة لا تتمتع بالسيادة على المكوِّنات الفكرية .

إن نشأة العناصر الوهمية في العقيدة الشيعية تفتقد إلى المنطق ، وتَخلو من التناسق الزمني والترتيب المكاني . فهذه النشأةُ المتطرفة هي شعورٌ هلامي غير مبني على قاعدة صلبة . وهذا الوهمُ الديني الذي يأخذ شكلَ " حُب آل البيت " ، إنما هو وهمٌ يَسعى إلى تأويل التاريخ الذاتي ، ومحاولة تعميمه ، وتصويره كتاريخ عام للعرب والمسلمين . ويسعى _ أيضاً_ إلى احتكار متواليات الشعور القامع للحرية .

---

(١) الغُنية لطالبي طريق الحق (١/ ٨٦و٨٧)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م).

وفي العقل الشيعي الجمعي ، يتم بناءُ النَّص الدِّيني على تتابع الوهم الأيديولوجي ، وهذا أدى إلى بروز تيارات فوضوية تستند في تكوين أنساقها الهلامية إلى منظور متخيَّل في الذهن ، لا يتمتع بالمنطق والعقلانية . وذلك من أجل توظيف العقائد المتصوَّرة لصالح تدعيم الأسطورة . وبعبارة أخرى ، إن الشيعة الروافض يَكتبون تاريخَ المسلمين كما يتصوَّرونه ، وليس كما هو موجود في الواقع . وهذا الانفصام في طبيعة الأفكار قادَ إلى شروخ خطيرة في النَّص الديني المتطرف . وهذه مصيبةٌ تضاف إلى المصيبة الأساسية ، وهي أن النص الديني عاجز أن يُثبِت نَفْسَه بِنَفْسه ، فهو غير قائم بذاته، وإنما قائمٌ بفعل الإسناد الخارجي الذي يأتي على شكل أساطير دينية، وخرافات تاريخية. وسببُ هذا الانهيار الميثولوجي الحاد يَرجع إلى إعلاء السياسة على الدِّين ، وتجذير المصلحة السياسية كبُنية دِينية معصومة ، من أجل نشر أوهام الذاكرة الجزئية ، وصناعة ذاكرة جماعية غير قابلة للنقد .

إن غياب تجانس البناء الزمكاني (الزماني _ المكاني) في معمارية الفكر الدِّيني، ما هو إلا ارتداد طبيعي لحالة التخبط التي يعيشها النَّص الدِّيني . فهو يَعيشُ على التنفس الاصطناعي في ظل غياب الوعي الجزئي والكلي ، وفي ظل انهيار معرفةِ الذات ، ومعرفةِ الآخر . كما أن سياسةَ النص الديني تائهة بين الجذور والأغصان . أي إن الأجزاء لا تُشكِّل الكلَّ ، والكلُّ لا يمكن تَفكيكه إلى أجزاء ، والأطرافُ تتصادم مع المركز ، والمركز لا يَعترف بالأطراف . وهذا الغبشُ المذهل كان نتيجةً حتمية لحالة تغييب الوعي .

وبسبب غيابِ الوعي عن مسار المتمركِزات (الأنوية الأساسية) ، ارتطمَ اللفظُ بالمعنى ضمن حركة دورانية فراغية قَتلت روحَ النَّص الديني ، وسلَّطتْ السلوكياتِ المنحرِفة على بؤرة الفكر الديني المركزي ، فصار الدِّينُ الشيعي ذا صبغة جدلية هشَّة ، وعاجزاً عن الصمود أمام النقد والنقض .

إن لامنطقية العقيدة الشيعية ، وتقاطعها مع انكماش الهوية الشرس ، وسَيْرَها بموازاة الأداء العقلاني ، كل ذلك ساهم في تكوين تيار مُؤَدْلَج نَزع من قُدرة المعنى استمراريةَ البناء على الواقع ، فحدث الشرخُ العنيف بين صورة النَّص الديني وواقعه الافتراضي . وبالتالي ، تحوَّلت أنساقُ المعرفة الدِّينية إلى منظومة ذهنية تتبنى احتكارَ تأويل إفرازات التاريخ المتخيَّل . أمَّا التاريخُ الحقيقي ، فتمَّ إقصاؤه من النسق الحضاري، وإخضاعُه لآليات لغوية مشوَّشة تقوم بقراءته بشكل متطرف مغرِض، وتصويرُه في أذهان العامة كعبء ثقيل . والذين يَقومون بهذا المهمة الدنيئة ،

ويَلعبون هذه اللعبة الخطيرة ، هُم رِجال الكهنوت الشيعي (آيات الله) الذين يَحملون في عقولهم فكرةً مسبقة ، ويُريدون إثباتها بأية وسيلة ، لذلك يلجأون إلى الأحداث التاريخية ، ويُطوِّعونها حَسَبَ أهوائهم ، ثم يُسقطون أفكارَهم المريضة عليها لكي يَبنوا التجانس الوهمي بين الفكرة الدينية والحدث التاريخي .

إنهم لا يَتركون التاريخَ يَتحدث من تلقاء نَفْسه ، وإنما يَجعلون التاريخَ يَقول ما يُريدون . وبعبارة أخرى ، إنهم يُقوِّلون التاريخَ ما لَم يَقُلْ . وهذه اللعبة المكشوفة هي الأساس الفكري للتشيع . فالتشيعُ _ أولاً وأخيراً _ هو حركة تاريخية ضد التاريخ، تَمَّ إلباسها لبوساً دينياً لأغراض سياسية وشُعوبية (فارسية مُعادية للعَرب وحاقدة عليهم).

والإشكاليةُ الوجودية الحقيقية التي لا يَقدر الشيعةُ الروافض على التخلص منها ، والتي سبَّبت لهم كثيراً من الاضطراب والتناقض هي القراءة المتطرفة للتاريخ ، فهم أكثر تطرفاً في قراءة التاريخ من الماركسيين. فإذا ارتكب عليُّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ خطأ ما ، فلا خطأ عليه لأنه إمام معصوم من وجهة نظرهم ، أمَّا إذا ارتكب عثمان _ رضي الله عنه _ خطأ، فعلى الفور يتم تكفيره، وإخراجه من المِلة لأنه أُمويٌّ، وتبدأ حكايات ألف ليلة وليلة عن عداوة الأمويين للهاشميين، وتبدأ القصص البوليسية التي لا تنتهي. وإذا أخطأت فاطمة الزهراء _ رضي الله عنها_ في مسألة ، فهذا غير مقبول لأنها معصومة لا تخطِئ نهائياً _من وجهة نظر الروافض _، أما إذا أخطأت عائشة _ رضي الله عنها _ ، فعلى الفور يضعونها في النار برفقة أم جميل زوجة أبي لهب، لا لشيء إلا لأنها ابنة أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ ، وتبدأ مغامرات اغتصاب الخلافة المشوِّقة ! .

وهذه الحالة الموغلة في إرهاصات التطرف متماهية مع المسار الماركسي في إثبات أوهامه عن طريق نشر أوهامه ، وإسقاطها على الواقع المتخيَّل في الذهن القاصر ، فيبدأ العقلُ في قراءة الوهم الذي يُغلِّف الصورةَ ، وينسى الصورةَ الحقيقية . وهذا المبدأ الأحادي المنحرِف أُسَمِّيه مبدأ قراءة واقعية الذهن التحطيمي لا قراءة واقعية الواقع . فمثلاً أنا أفترض أن جارنا لص مع أنه رَجل شريف، وأُسقِط عليه صفاتِ اللصوص، وبعدها يبدأ عقلي بقراءة الصِّفة التي صَبغتُ بها جارَنا وهي اللصوصية ، فيستنتج عقلي أنه لص بحُكم الظاهر له من الصفات التي أسقطتُها عليه.

وقد جاء التحذير شديداً تجاه هذه الحالة الحاملة للأفكار المسبقة ومحاولة إثباتها بالباطل. فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] .

فَهُم متمسكون بمواقف مسبقة مُتوارَثة ، ولا نية لديهم في تغييرها، سواءٌ ظَهر لهم الحق أم لم يَظهر . إنهم لا يَبحثون عن الحق إطلاقاً، ولا يَطرحون على أنفسهم الأسئلةَ . وبالتالي ، فهُم غير معنيين بالشك المنهجي، وثقافةِ الأجوبة . إنهم متمسكون بأفكار جاءتهم من آبائهم وبيئتهم ، ويُريدون تحصينها من كل هجوم_مهما كان الثمن _، وهُم سعداء بذلك. يَسبحون في الظلمات، ويتمتعون بالظلام، وسوفَ يَصعقهم نورُ الشمس بعد فوات الأوان .

ونحن هنا لا نُكفِّر الشيعةَ الروافض إلا في حالة إنكار معلوم من الدِّين بالضرورة ، وانتفاء الموانع عبر إقامة الْحُجَّة ، وإزالةِ الشُّبهاتِ . لكن المبدأ الذي تتحدث عنه الآية هو مبدأ الفكرة المسْبقة عند الكفار الذين لا يُغيِّرون عقائدهم سواءٌ تم إنذارهم أم لا، لأنهم حاملون لفكرة الوهم ، ويتخندقون حولها، وهي مثبتة في أذهانهم تلقائياً بشكل هلامي تفتيتي سواءٌ تم نَفيها أو إثباتها ، وفي هذه الحالة لا يستطيع الإنسان تمييز الخير من الشر ، لأنه ليس صادقاً في بحثه عن الحقيقة ، واعتناقها حتى لو خالفتْ موروثَه الذي نشأ وتربَّى عليه طوال حياته التي قضاها قامعاً مقموعاً .

وتظل السلوكياتُ الرمزية تُوَظَّف لصالح تكريس هيمنة الموروث الدِّيني المسيَّس ، وذلك من أجل تثبيت دعائم الانهيار التكاثري في زمكانيات القراءة المتطرفة للتاريخ التي يقوم بها الرافضة . وبالطبع ، فإن تغييب إشارات المعنى _ عن سبق الإصرار والترصد _ من شأنه تثبيت الألفاظ على خارطة شرعية الأسطورة، وإحالة الذات الإنسانية إلى شظايا متماهية مع شريعة المتخيَّل الوسواسي. وعندئذ تحل الكلماتُ المؤدلَجة محل المعاني المحدَّدة . وفي هذه الحالة يَحدث الخلطُ الرهيب بين تقاطعات العناصر المنبوذة في الذات الذهنية، فتتشابك التصوراتُ المنحرفة في عقل الدِّين الشيعي .

وهذا الخلطُ المقصود يُغذِّي الجذورَ السياسية للتشيع الظاهري والباطني ، ويُكرِّس الدلالاتِ الدينية العمياء ، ويَصبغها بهالة الصورة الوظيفية للشعائر المؤدلَجة ، فيتزاوج الموروث العَقدي مع الموروث الشعبي العابث ، مثل : إحياء يوم عاشوراء باللطم والضرب وتمزيق الثياب ... إلى آخر هذه الشعائر الأسطورية التي هي بالأساس موروث شعبي خرافي لا أساس له من الناحية الدينية، بل هو يسير باتجاه مضاد للدِّين.وللأسف، فإن هذا الموروث الصُّوَري قد تَمَّت صناعةُ برواز دِيني له ، وتصويره كعبادة يتم التقرب بها إلى الله تعالى . وهنا تتضح خطورةُ استثمار جهل العوام في صناعة الدِّين المسيَّس ، واستثمار الدِّين في توجيه التراث الشعبي الأسطوري لتحقيق مصالح شخصية ، وفوائد مادية. وبالطبع، فهذه المكاسب المادية يَجنيها عِلْية القوم (رِجال الدِّين ورِجال السياسة)

. وهذان الصنفان (العلماء والأمراء) بينهما زواج مُتعة ومصلحة ، وكلُّ طرفٍ يُحقِّق أهدافَه الشخصية بواسطة الطرف الآخر . إنها علاقة تبادلية مصلحية شائكة تدرُّ أرباحاً وفيرة متعددة الصور والأشكال .

إن تَدْيِينَ الموروث الشعبي (جَعْله دِيناً) ، وصَبَّ الأنساق الشعبية المتوارثة في قالب الأيديولوجية الشِّيعية ، يُسهمان في نقل السلوك الاجتماعي الانهياري إلى بؤرة اللامنطق الدِّيني . وبما أن أوهام الانحراف العَقدي تتخذ من ذاتها المتوازِية مع قيمة الوهم الموظَّف سياسياً ، نَصَّاً دينياً معصوماً، كان لزاماً على الشعور الوجداني الناقد أن يُشرِّح مساراتِ احتكار تأويل النص التاريخي، ويَكشف العلاقاتِ المتشابكة بين الطبقات الفكرية المبنية على قاعدة " افتراق الرؤية عن الرائي "، إي افتراق المشاهَدَات الواقعية عن الذهن التحليلي . وهذا الانفصام الصادم انعكاس طبيعي لحالة الحصار المفروض على الفرد ، وذلك لمنعه من الخروج من التناقض إلى التأسيس الفكري المنطقي . فالفردُ خاضعٌ لسُلطة دِينية جماعية تَحشره في اللاوعي الانتكاسي ، وحطامِ الذاكرة الإنسانية الفاقدة للمعنى. وبالتأكيد فإن هذه الانحرافات الشيعية المحاطة بالعناصر المخيالية الأفقية والعمودية، من شأنها إعادة توليد مصطلحات متطرفة تقيم قطيعةً مع عقائد أهل السُّنة والجماعة الذين هم الحراس الحقيقيون للإسلام .

وإقامة قطيعة مع جيل الصحابة لأهداف سياسية، وعِرقية(رَفع العنصر الفارسي على العربي)، ومصالح دنيوية بحتة ، وإسناد هذه القطيعة إلى أئمة آل البيت ، إنما يَعكس طبيعةَ التلاشي في أنساق النص التاريخي الشخصي الذي تتم أدلجته لترسيخ تيارات التطرف ، وتجزئةِ الانهيار الأنثروبولوجي في قيمة الوعي الداخلي في أذهان الذين يعتنقون الخرافةَ عقيدةً لازمة .

ولا يمكن أن يتحرر الشيعةُ من ثقل العقائد الخرافية، إلا إذا تم فصلُ المدلول الثقافي الأُسطوري عن تكوينات ذاكرة التاريخ . وأيضاً ، فصل التفاعلات الدينية الهلامية التي تتأجج في التاريخ الشخصي القابع في الذِّهن المريض .

والإشكاليةُ المركزية في الدِّين الشيعي تتمحور حول مبدأ القراءة التاريخية المجتزأة . ويمكن القول إن إصدار الأحكام على تاريخ شخصي مُنْتَزَع من واقعية النص التاريخي الكلي ، ومُفَرَّغ من قيمة الحقيقة ، إنما هو من أجل منح الشرعية التأسيسية للمنظور الأسطوري في الداخل الدِّيني الشيعي . حيث تظهرُ الماهياتُ المسمومة في أنوية التكوين الذهني التاريخي ، وتتركز الدلالاتُ المعرفية على بؤرة سيادة الخرافة على أنساق التَّدين. وهذه الأنساقُ المؤدْلَجَة (

الماهيات/الدلالات) تتحرك في مدارات سُلطة كهنوتية شيعية موغلة في تقديس الأصنام البشرية الذين يُسَمُّون أنفسهم " آيات الله ". فمثلاً " ولاية الفقيه " هي عقيدة متماهية مع سُلطة بابا الفاتيكان المقدَّسة غير القابلة للنقد أو الطعن. تماماً كما كان يحدث في حقبة كنائس القرون الوسطى ، حيث يتخذ الإنسان أخاه الإنسان إلهاً حاكماً على العناصر والتكوينات . وللأسف فهذه الجاهلية الاستغلالية عادت بشكل أكثر شراسة في " ولاية الفقيه " ، فالفقيه الذي يتخذ نفسَه صنماً إلهاً في أعلى هرم السُّلطة السياسية يصبح فوق مستوى النقد ، والمناقشة، والاستدراك عليه ، والتعقيب على كلامه وأفعاله. أضف إلى هذا ، العمق الفلسفي لتجذير مبدأ المتاجرة بآل البيت على الصعيدَيْن : المادي والروحي.

وبالتأكيد فالفقيه سيكون سعيداً بهذه السُّلطة الوهمية التي يعرف في قرارة نفْسه أنها تحايل وتطفل واضطهاد للآخرين وغُلُو بالباطل، حيث بساطير رجاله فوق رقاب الشعب المسحوق الذي تم تدجينه بعدما أَقنعوه بأن انكساره وذله هو جزءٌ لا يتجزأ من الدِّين الذي يمثِّله الفقيه صاحب أعلى سُلطة سياسية في هذا المشروع العالي على رقاب الشعب المطحون. وهكذا يُحصَر حق الحُكم بالصواب أو الخطأ في يد شخص يُنظَر إليه على أنه إله معصوم ، ويتم إلحاقه تلقائياً بأئمة آل البيت المعصومين ، وبعد جيل أو جيلين يصبح الشعبُ كله معصوماً ، وتستمر هذه الأدلجة الجنونية من فعل العِصمة ورد الفعل والعِصمة المضادة من أجل منح شرعية للعقائد الأسطورية ، واختزال الدِّين في رَجُل واحد يُصَنَّف على أنه من طينة خاصة . ومن أجل ضمان ديمومة هذا المنصب الإلهيِّ المتجسد في وحدانية شخص واحد ، تُنقَل كل تفاصيل منهجية التسييس إلى الدِّين ، فيصير الفقيه والدِّين شيئاً واحداً لا ينفصلان . فنقد الفقيه هو نقدٌ للدِّين ، ونقد الدِّين هو نقدٌ للفقيه الذي يَحتكر سُلطةَ تأويل الدِّين ، وإصدار الأحكام نفياً وإيجاباً . وهكذا يرجع الإنسان إلى الجاهلية الأولى ، حيث كان الناس يصنعون آلهتهم بأيديهم ، ثم يأكلونها حينما يجوعون ، وهذا هو الحاصل في هذه الجاهلية المعاصرة .

وكما أن الأيديولوجية الشيعية متماهية مع التقديس النصراني للبابوات والكرادلة ومَن هُم دونهم، فهي أيضاً متماهية بشكل صاعق مع المشروع اليهودي العَقَدي . فقد قال الإمام الشَّعبي : ((محبة الروافض محبة اليهود ، قالت اليهود : لا تصلح الإمامة إلا لرَجل من آل داود ، وقالت الرافضة : لا تصلح الإمامة إلا لرَجل من ولد عليٍّ بن أبي طالب ، وقالت اليهود : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال ، ويَنْزل بسبب من السماء ، وقالت الروافض : لا جهاد في

سبيل الله حتى يخرج المهديُّ وينادي منادٍ من السماء ، وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الروافض يؤخرونها ، واليهود تزول عن القِبلة شيئاً، وكذلك الرافضة ، واليهود تَنُود في الصلاة (يعني تتمايل) ، وكذلك الرافضة، واليهود تُسْدِل أثوابَها في الصلاة، وكذلك الروافض ، واليهود تستحل دم مسلم ، وكذلك الروافض ، واليهود لا ترى على النساء عِدَّة ، وكذلك الرافضة ، واليهود لا ترى في الطلاق الثلاث شيئاً ، وكذلك الروافض ، واليهود حرَّفت التوراةَ، وكذلك الرافضة حرَّفوا القرآنَ، لأنهم قالوا القرآن غُيِّر وبُدِّل، وخُولِف بين نَظْمه وترتيبه، وأُحيل عمَّا أُنزل عليه، وقُرئ على وجوه غير ثابتة عن الرسول ﷺ ، وأنه قد نقص منه وزِيد فيه ، واليهود يُبغِضون جبريل _ عليه السلام _ ويَقولون هو عدونا من الملائكة ، وكذلك صِنف من الروافض يقولون : غَلِطَ جِبريلُ _ عليه السلام_ بالوحي إلى محمد ﷺ ، وإنما بُعِث إلى عليٍّ _ رضي الله عنه_، كَذبوا تَبَّاً لهم إلى آخر الدَّهْر))[2].

والتَّشابهُ بين عقائد الشيعة وعقائد اليهود ثابتٌ وواضح .

((عن عبد الرحمن بن مالك بن مِغْوَل عن أبيه قال : قال لي الشَّعبيُّ : أُحَذِّرُكم هذه الأهواء الْمُضِلَّة ، وشَرُّها الرافضة ، لَم يدخلوا في الإسلام رَغبة ولا رَهبة ، ولكنْ مَقْتاً لأهل الإسلام وبَغياً عليهم ، قد حرقهم عليٌّ _ رضي الله عنه _ بالنار ، ونفاهم إلى البلدان ، منهم : عبد الله بن سبأ يهودي من يهود صنعاء نفاه الى ساباط ، وعبد الله بن يسار نفاه إلى خازر . وآية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يَصْلُح الْمُلْكُ إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا تصلح الإمامة إلا في ولد عليٍّ . وقالت اليهود : لا جهاد في سبيل الله حتى يَخرج المسيح الدجال، ويَنْزل سيف من السماء، وقالت الرافضة : لا جهاد في سبيل الله حتى يَخرج المهديُّ ، وينادي مُنادٍ من السماء . واليهود يُؤخِّرون الصلاةَ إلى اشتباك النجوم ، وكذلك الرافضة يُؤخِّرون المغرب إلى اشتباك النجوم...واليهود تزول عن القِبلة شيئاً وكذلك الرافضة. واليهود تَنُودُ في الصلاة وكذلك الرافضة. واليهود تُسْدِل أثوابَها في الصلاة وكذلك الرافضة ، واليهود لا يَرَوْنَ على النساء عِدَّة وكذلك الرافضة ، واليهود حَرَّفوا التوراةَ وكذلك الرافضة حَرَّفوا القرآن. واليهود قالوا : افترضَ اللهُ عَلَينا خمسين صلاة وكذلك الرافضة ، واليهود لا يُخْلِصُون السلام على المؤمنين ، إنما يقولون : السَّام عليكم ، والسام الموت . وكذلك الرافضة . واليهود لا يأكلون الجري والمرماهي

---

(٢) الغُنية لطالبي طريق الحق (١/ ٩٠) .

والذُّناب وكذلك الرافضة. واليهود لا يَرَوْنَ المسح على الخفين وكذلك الرافضة. واليهود يستحلون أموال الناس كُلِّهم وكذلك الرافضة ... واليهود تسجد على قُرونها في الصلاة وكذلك الرافضة. واليهود لا تسجد حتى تخفق برؤوسها مِراراً شِبْه الركوع وكذلك الرافضة. واليهود تُبغض جبريل ويقولون هو عدونا من الملائكة ، وكذلك الرافضة يقولون : غَلِطَ جِبريل بالوَحْي على محمد ﷺ . وكذلك الرافضة وافَقوا النصارى في خَصْلة النصارى ليس لنسائهم صَداق إنما يَتمتَّعون بهنَّ تَمَتُّعاً ، وكذلك الرافضة يتزوَّجون بالْمُتعة ويستحلون الْمُتعة . وفُضِّلت اليهودُ والنصارى على الرافضة بِخَصْلتَيْن سُئلت اليهود : مَن خَير أهل مِلَّتكم ؟ ، قالوا : أصحاب موسى . وسُئلت النصارى : مَن خَير أهل ملتكم ؟ ، قالوا : حَوارِيُّ عيسى . وسُئلت الرافضة : مَن شَر أهل ملتكم ؟ ، قالوا : أصحاب محمد ﷺ))(3).

وهذا التشابه المرعِب يُشير إلى التماهي الجزئي والكلي مع مشروع الكيانات العَقَدية اليهودية. وهكذا تم إدخالُ عناصر صَهْينة الفكر الشيعي في عمق الأيديولوجية المرتكِزة إلى تكرارات الوهم المغلَّف بصيغ احتكار التاريخ . والجدير بالذِّكر أن ديناميكية الحِراك الشيعي لا تنبع من حيوية الحلم التاريخي ، وإنما تَنبع من بؤر التمركز غير الطبيعي في مشاعر العلاقة مع تاريخٍ يُصبَغ بهالة الالتباس ذهنياً . وهكذا تتجسد حالةُ الإغراق الهستيري في حَقن التاريخ الذهني بالقراءة المتعصبة ، مما يؤدي إلى تعارض اتجاهات المعنى الشيعي ، وتصادم أنويته الداخلية . ومن خلال هذه الرؤية ، يتضح أن عوامل انهيار العقيدة الشيعية كامنة فيها ، والشيء إذا سَقط داخلياً ، سَقط خارجياً .

وهذا السقوطُ المدوِّي يَدور في أفلاك فارغة إلا من أدوات التحليل المغرِض المتناقض مع قيمة المسار التاريخي للفكر الاجتماعي العام . فاللهاث وراء محور تضاد الجزيئات في العقل التصوري ، يفرز تياراً انتكاسياً في طبيعة البناء الذهني على تاريخ مسيَّس يَطمس التاريخَ الواقعي .

وطمسُ التاريخ بالإفرازات التشعبية ذات التأطير السياسي الرامي إلى أدلجة الأسطورة في عقول العوام ليس عمليةً ساذجة ، أو كتلةً من النوايا الحسنة . فهذا الطمسُ تركيبٌ مصدري لإيقاع اجتماعي يَدور في مسارات نافية لذاتها عن طريق إثبات قيمة النفي ، فإثبات النَّفي نفيٌ .

(٣) منهاج السُّنة النبوية (١/ ٢٣و٢٤و٢٥و٢٦ و٢٧) .

وفي ظل ازدحام دلالات العقيدة، يُصار إلى استحضار روح الموروث العَقدي وتجسيده في زوايا الحقد العِرْقي داخل مجتمع الكراهية . وتصوراتُ المخيال التشعبي المسْبق من شأنها أن تَنقل إمكانيات العقل الجمعي ذي النزعة التحليلية من الوعي بالمحيطات إلى محيطات اللاوعي، أو محطياتِ وعي الصورة غير الواقعية . ومن هنا يبدأ التأسيسُ الفكري المغلوط الذي يُفضي إلى أدلجة الصورة وفق صوت الفوضى الخلاقة .

وبالطبع فإن تماهي المنظور الشيعي مع إفرازات الشخصية اليهودية يشير إلى الاختراق الاختزالي الذي تعرضت له العقيدة الشِّيعية المحاصَرة بانهيار الوعي المؤَدْلَج . لذلك ، ليس من الغريب أن تتكرس العقيدةُ الشيعية كإطار مُغلَق محصورٍ في مدارات التسييس المغرِض ، ومدفونٍ في المعيارية النسبية لأنثروبولوجيا الوهم الدِّيني .

إننا أمام حالة دِينية اصطناعية تمت هندستها في تأطير ذاكرة الوهم ، من أجل صناعة نصوص عَقَدية مُتصوَّرة، ومدعومة مِن قِبَل المخيِّلة المتوارَثة. وهذا الغبشُ الميثولوجي _ المعتمِد على الابتزاز والاصطياد في الماء العكر _ أوقعَ الموروثَ الشِّيعي في فخ التكرار الوهمي لتاريخٍ مُصْطَنَعٍ ، ومحاصَرٍ ذهنياً ضمن متواليات معاني تنظيم الفوضى .

وفوضى النصِّ الديني الشيعي ليست تأويلاً أيديولوجياً فَحَسْب ، بل هي _ أيضاً _ منظومةٌ متكاملة تنتشر بصورة غير منطقية في مبدأ الاحتكارِ ، احتكارِ الخيال الموظَّف الذي يتم إسقاطه على الآيات القرآنية. فالتفسيرُ الشِّيعي للقرآن هو إسقاطٌ هلامي بعيد كل البعد عن الفهم الحقيقي للآيات القرآنية ، إذ إن مُفَسِّري الشيعة يقومون بتفسير أوهامهم الذهنية ، ثم يُركِّبونها بصورة عجائبية ، ثم يُسقطونها على الآيات القرآنية، وهذا تحريفٌ معنوي للقرآن الكريم .

فالتفسيرُ يجب أن يكون منضبطاً بلغة العرب ، وأسبابِ النُّزول ، والظروفِ التاريخية التي نزلت فيها الآيات. أمَّا اختراعُ واقعية عجائبية بعد استخدام الآيات القرآنية كداعم للوهم الذهني، فهذا عدم احترام لكتاب الله تعالى ، ويتعارض مع قُدسية الكلام الإلهيِّ .

والذي قاد إلى هذه العبثية الفجَّة في تفسير الآيات، هو سيطرة فكرة "الْمُسْبَق" على مستويات البناء الذهني للإنسان السائر باتجاه مضاد لتاريخ إنسانيته . فالإنسانُ الشيعي السجين في الشعائر الدينية البشرية التي تمَّت تغطيتها بالقداسة الافتراضية غير الحقيقية ، هو جزءٌ ميكانيكي يقف محتاراً بين الألفاظ الشخصية والمعاني المعرفية . فالألفاظُ والمعاني في الميثولوجيا الشيعية تسيران بشكل متعاكس ، مما يَجعل النصوصَ الدينية متضاربة ، يُحطِّم بعضُها بعضاً ضمن متاهة لا

نهاية لها . وكلُّ نَص يُثبِت نَفْسَه عن طريق إلغاء نَص آخر. وهذه الثنائية الآلية الفوضوية (الإثبات / الإلغاء) هي نتيجة طبيعية للإشارات الأسطورية في الفكر الديني المنسوب_زوراً_ إلى آل البيت عليهم السلام.

ومَن يَزرع الوهمَ لا بد أن يَحصد الفراغَ . وكلُّ دلالةٍ دِينية مركزية تنشأ في محيطات ذهنية مضطربة ، ستتحول _ حتماً _ إلى صورة مسمومة مندمجة مع فلسفة الخرافة . والخرافةُ لا تَقدر أن تقوم بذاتها ، ولا تَستطيع أن تقف بمفردها ، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه . لذلك ، يتم تجميعُ شظايا فكرية خارجية غير متجانسة من أجل أن تُسنِد الخرافةَ . وعندئذ يصبح للخرافة منطقٌ تدافع به عن نَفْسها ، وشريعةِ وجودها في نفوس العامة ، وشرعيةِ تواجدها على أرض الواقع .

والفكرُ الديني في العقل الشيعي يَعتمد على تأسيس لغة تخاطبية بين تقاطعات الموروث المتخيَّل. والهدفُ من هذه الحِيلة هو تعويم المصطلَحات في تداخلات الموروث المبني على أُسس غير منطقية ، ثم تحويل هذه المصطلحات إلى رموز زمكانية بين الرؤية والرائي . وهذه اللعبةُ الثنائية المعتمدة على التعويم والتحويل هي الأساسُ الفكري لمبدأ " التَّقِيَّة " الذي يُعتبَر من أهم عقائد الشيعة الروافض .

ودِينُ الشِّيعة قائمٌ _ بالأساس _ على التَّقِيَّة (النِّفاق) ، وهي تعني إظهار خِلاف الباطن ، والقَول باللسان عكس ما في القلب . وقد نَسَبَ الشيعةُ الروافض إلى الإمام جعفر الصادق _ رَحِمَه اللهُ _ أنَّه قال: ((التَّقِيَّةُ دِيني ودِينُ آبائي)) . وهذا غَير صحيحٌ البَتَّة .

وقصةُ الإمام جعفر الصادق مع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور دليلٌ واضحٌ على إبطال التَّقِيَّة التي نَسَبَها الروافض إلى آل البَيت _ عليهم السلام _ . فقد كتب أبو جعفر المنصور إليه : ((لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟)) . فردَّ عليه الإمام جعفر الصادق بِكُل حَزْمٍ وصراحة بِلا نفاق ولا تَقِيَّة : ((لَيْسَ عِندَنا مِنَ الدنيا ما نخافك عليه ، وليس عِندَك من الآخرة ما نرجوك له ، ولستَ في نِعمة فَنُهنِّئك بها ، ولا نرى ما أنت فيه نِقمة فَنُعزِّيك فيها)) ، فكتبَ إليه يقول : ((تصحبنا لتنصحنا)) ، فردَّ عليه بقوله : ((مَن يريد الدنيا لا ينصحك ، ومن يريد الآخرة لا يصحبك)) . اهـ . وهذه الصراحةُ الصاعقةُ تُبْطِل أكذوبة التَّقِيَّة .

وعليُّ بن أبي طالب _ رضي اللهُ عنه _ حَمَلَ السلاحَ في صِفِّين ومَوقعة الجملِ ، والحسينُ حَمَلَ السلاحَ وقاتلَ ، وزَيد بن عليٍّ خَرَجَ على الخليفة الأمويِّ . وبشكل عام ، إنَّ أئمةَ آل البَيت قَضَوا حياتَهم ثُوَّاراً ضد الْحُكْم الأمويِّ والعباسيِّ.فلماذا لَم يَلتزموا بالتَّقِيَّة ويَجلسوا في بيوتهم ؟!.

إنَّ الدِّين الشيعي كتلةٌ نِسبية غير مُطْلقة ، ومليء بالمفاهيم المتشابهة غير المنضبِطة ، والتعريفاتِ الفوضوية حَمَّالة الأوجه، لذلك يَسهل التلاعبُ بها، وتشكيلها حَسَبَ الظروف الزمانية والمكانية ، وإلباسها مئات الأقنعة . لذلك فمن الصعب مناقشة رَجل الدِّين الشيعي وإفحامه ، ليس لأنه عبقري ، بل لأنه يتلاعب بالألفاظ والمعاني معتمداً على اتباع الهوى واللف والدوران ولوي أعناق النصوص والرواياتِ المنسوبة _ كَذِباً وزُوراً _ إلى أئمة آل البَيت . ولا يَسعى علماءُ الشِّيعة إلى البحث عن الحق والتسليم له . وهذا الرَّوغان المقصود _ مثل حركة الأفعى _ لا يمكن السيطرة عليها ، ولا يمكن إمساكها .

وفي فتح القدير للشوكاني (١/ ١٧) : ((أخرجَ ابنُ سعد أن علياً قال لابن عباس : اذهبْ إليهم _ يعني الخوارج _ ولا تُخاصِمْهم بالقُرآن فإنه ذُو وجوه، ولكنْ خَاصِمْهم بالسُّنة، فقال له : أنا أعلمُ بكتاب الله مِنهم ، فقال : صَدَقْتَ ، ولكنَّ القُرآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجوه)) اهـ .

وما قاله عليُّ بن أبي طالب حقيقةٌ واقعية . لذلك من الصعب مناظرة الشيعة الروافض بالقرآن الكريم، بسبب وجود تفاسير خاصة بهم للآيات القرآنية، وبسبب قُدرتهم على لَوْي أعناق الآيات، وإخراجها من سياقها اللغوي والتاريخي ، وتجريدها من أسباب النُّزول ، ووضعها في غَير موضعها .

وفي هذا السياق يَبرز التَّشابه بين الشِّيعة والخوارج . وإلَيْكَ هذا النص : ((فاليزيدية _ وهُم أتباع يزيد بن أبي أُنَيسة الخارجيّ ادَّعَوْا أن الله سُبحانه وتعالى يَبعث رَسولاً مِنَ العَجَمِ ، يُنْزِل عليه كتاباً يَنسخ بِشَرْعه الشريعةَ المحمَّدية ، وذلك بلا شك رأي فارسي ، إذ الفُرْس هُم الذين كانوا يَحِنُّون إلى نبيٍّ مِن قَومهم . و " الميمونية " أتباع (مَيمون العَجْرَدي) أباحوا نِكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الأخوة والأخوات ، وتلك آراء فارسية ، فالفُرْسُ المجوس هم الذين يُبيحون تلك الأنكحة)) [4].

والخطيئةُ الكبرى التي يَغرق فيها العقلُ الديني الشيعي _ عامداً متعمِّداً _ ، هي تنسيق مواقف دينية لا رابط بينها سوى التَّسييس الشَّيئي . وبعبارة أخرى ، تحويل الشعائر الدينية إلى أشياء سياسية ، وبناء شظايا العِبادة على أنوية الظروف التاريخية وَفق منظور جزئي يتم تقديمه كتفاعل ديناميكي كُلِّي . وهذه الأفكارُ الدينية المنحرِفة التي تُحصِّن الجزءَ وتَعتبره كُلاً لا يَتجزأ ، تَفتقد إلى منهج " البحث عن الحقيقة ". وهذا المنهجُ هو الطريق الوحيد لفهم حقيقة الدِّين .

---

(٤) تاريخ المذاهب ، محمد أبو زهرة ، ص ٦٥ .

إنَّ تخزينَ المؤروث الشيعي الباطني الرمزي في بُنية الأساطير ، يستمد حيويته القاتلةَ وديمومةَ أنساقه البدائية ، من خيوط المجتمع الشِّيعي الخاضع قسرياً لسُلطة أُناس يَنسبون أنفسهم إلى النبيِّ ﷺ دون وجه حق ، أو هُم من آل البيت حقيقةً، ولكن مِن جهة النَّسَب فقط لا غَيْر ، وهذا لا يُعَوَّل عليه مُطْلقاً ، ولا أهمية له بالمرة . وهي شرعية واهية لا دليل عليها. فالشرعية الحقيقية هي الالتزام التام بالكتاب والسُّنة الصحيحة، وإذا كان بعد ذلك من أهل البيت، فيكون قد جمع المجدَ من أطرافه. أمَّا أن يكون من آل البيت ، ولكن سلوكه مخالف للإسلام ، كأن يكون شيعياً رافضياً أو صاحب فسق ومعصية، فلن يستفيد شيئاً مِن نَسَبه ، وسيكون نَسَبُه حُجَّةً عليه لا له . ومحاولته العابثة لنيل الشرعية اعتماداً على النَّسَب فقط ، إنما هي محاولة فاشلة ، وحِيلةٌ ساذجة لا تنطلي إلا على السُّذج .

وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٣٢].

إذن ، فالفضيلة مرتبطةٌ بالتقوى ، ولَيْست مرتبطة بالحسَب والنَّسَب ، والمكانةِ الاجتماعية .

قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٥٧): ((﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ ، أي خِفْتُنَّ اللهَ. فَبَيَّن أن الفضيلة إنما تتم لهنَّ بشرط التقوى لِمَا منحهنَّ اللهُ مِن صُحبة الرَّسول ، وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن في حقهنَّ))اهـ .

أي إن الأفضليةَ للتقوى ، وليست لأنهن زوجات النبيِّ ﷺ ، فمن المعلوم بالضرورة أن زوجَتَيْ نوح ولوط_عليهما الصلاة والسلام_ كانتا كافرتَيْن. فشرط الأفضلية هو التقوى، وليس النَّسَب. فلا تغتر بكون الشخص من الأشراف أو السادة ، فهذا ليس فضلاً بحد ذاته ، وإنما الفضل للتقوى وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة ، فإن رأيتَه تقياً ومن آل البيت ، فقد جمع المجدَ مِن طَرَفَيه ، وأمَّا إن رأيتَه مخالفاً للإسلام ، وحتى لو كان من آل البيت ، فلا فائدة مِن نَسَبه مُطْلقاً حتى لو كان ابن النبيِّ ﷺ مباشرةً. وسيكون حسابُه أشدَّ وأكثر تدقيقاً من الإنسان العادي، فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾[الأحزاب : ٣٠] .

وهذا بسبب مكانتهنَّ السامية وعُلُو درجتهنَّ ، ووضعهنَّ الاجتماعي المميَّز كزوجات للنبيِّ ﷺ، وأمهاتٍ للمؤمنين، وكونهنَّ في مَهْبِط الوَحْي. فإذا جاءت إحداهنَّ بكبيرة واضحة قُبحها، فإن العذاب يُضاعَف لها ضِعْفَيْن . أي إنها تُعذَّب مِثْلَي عذاب غَيرها من النساء إذا جاءت بِمثل تلك

الكبيرة. إذ إن وقوعَ ذلك من نساء بَيت النُّبوَّة يقتضي شيئاً أكبر من الفاحشة، وهو أذى النبيِّ ﷺ. وهذا الأمرُ يؤثر سلباً على الدعوة الإسلامية ، ويُزَلْزِل إيمانَ الناس ، ويَبعث الشكوكَ في قلوبهم .

قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٤٠) : ((وذلك لشرف مَنْزلتهنَّ ، وإلا فلا يُتصوَّر إتيان منهنَّ صِيانةً لزوجهنَّ الْمُكرَّم الْمُعظَّم)) اهـ .

إن التشديد عليهنَّ مُضاعَف في حال إتيان الفاحشة لِسُمُو رُتبتهنَّ . وعلى هذا فالتدقيق على الأنبياء والعلماء والأغنياء وأصحاب المكانة الاجتماعية أكثر من باقي الناس .

وَلَم يَقُلْ أحدٌ من العلماء إن ذرية الأنبياء معصومة أو أنها من أهل الجنَّة ، فابنُ النبيِّ نوح ﷺ كان كافراً ، فقد قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] . وهكذا ترى نبياً كريماً مِن أُولي العَزم ، وفي أعلى درجات الجنة ، وابنه المباشِر خالداً في جهنم. فالإسلام ليس دِيناً إقطاعياً ، وليس نظاماً مَلكياً يَفترض أن ابن الْمَلِك سيكون مَلِكاً بعد أبيه . وهنا تبرز حقيقة هامة ، وهي أن التَّشيع هو نَزعة فارسية ، لأن العرب تَدين بالحرية ، أمَّا الفُرْسُ فَيَدينون بالوراثة في البَيت المالك ، وهذا سبب اختراع خرافة عِصْمة الأئمة ، حيث يَرِثُ كلُّ إمامٍ الإمامَ الذي قَبْلَه .

والتقوى هي المِحَك الأول ، فإن صَلُحَت أضفْ إليها النَّسَب الشريف الطاهر، أمَّا إن فَسَدَتْ فلا فائدة من النَّسب ، بل سيكون حُجَّةً على صاحبه ، وعبئاً عليه في الدَّارين .

وكلنا يَعلم مَن هو أبو لهب (عم النبيِّ ﷺ) ، وهو عبد العُزَّى بن عبد المطلب القرشيُّ الهاشميُّ صاحب النَّسب الشريف، وهو خالدٌ في النار، ولَعَنَه اللهُ تعالى في القرآن، ويُتلَى لعنُه والحُكم بهلاكه وخُسرانه المبين حتى قيام الساعة : ﴿ تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١]، بينما الإسلام رَفعَ بلالاً الحبشيَّ العبد الأسود الذي كان لا يجد ما يأكله ، وهذا مثال واضح على أن التقوى هي الأساس قبل النَّسب ، ويدل على عَظَمة الإسلام الذي ألغى النظامَ الإقطاعي الجاهلي . إنه الإسلام ذلك الدِّين الذي لا يُشْرَى بالمال أو الجاه، ولا يوجد فيه صكوك غفران، مَن يَدفع يَحجز له موقعاً في الجنة . أو من كان ذا نسب شريف أو مال عريض أو إمكانيات مادية بِوُسْعه شراء الجنة . فلا بد للجميع أن يعملوا بِجِد لكي ينالوا شرف رضا الله تعالى ، ثم دخول الجنة .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٩١): أن رَجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي ؟، قال: ((في النار))، فلمَّا قَفَّى دعاه ، فقال : ((إن أبي وأباك في النار)) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٦٧١) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((استأذنتُ ربي أن أستغفر لأُمي ، فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أَزور قبرها فأذِنَ لي)) .

وقد قال رسول الله ﷺ : ((وَأيْمُ الله ، لَوْ أنَّ فاطمةَ بنت مُحمَّد سَرقتْ لَقَطعتُ يَدَها))(5).

وهذه الأحاديث الشريفة دليلٌ ساطع على أن الإسلام ليس دِيناً إقطاعياً ، ونظاماً وراثياً استغلالياً أو استبدادياً، فلو كان محمد ﷺ ليس نبياً، لما قال هذا الكلام، بل تستَّر على حال أبويه ، وكان تجاوز عن ابنته في حال ارتكابها خطيئة، ولكن القضية أكبر من النبيِّ ﷺ نفْسه،فهي تطبيق أوامرِ اللهِ تعالى . وها نحن نجد أن نَسب السيدة فاطمة الزهراء_ عليها السلام_ لن يَشفع لها إذا قامت بِفِعل السرقة_وحاشاها_، كما أن والدَي النبيِّ ﷺ في النار ، وليس كما يقول البعض إنهما من أهل الفترة .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٧٩) : ((من مات على الكفر فهو في النار ، ولا تنفعه قرابة المقرَّبين . وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم ، وغَيْره من الأنبياء ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم)) اهـ.

إذن ، فالمحور هو التقوى قبل كل شيء ، وإذا لم يخضع النَّسب للتقوى ، فلا أهمية للنَّسب مُطْلقاً، بل سيكون عبئاً ثقيلاً على صاحبه ، ووبالاً عليه . لذلك جاء التوضيح النبوي الدقيق في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤): ((وَمَن بَطَّأ به عَمَلُه لَم يُسرِع به نَسبُه)).

يعني : مَن أخَّره عملُه القبيحُ ، أو إضاعته للعمل الصالح ، لم ينتفع في الآخرة بشرف نَسبه ، أو مكانته الاجتماعية الرفيعة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢) : ((معناه مَن كان عمله ناقصاً لَم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي أن لايتَّكل على شرف النسب ، وفضيلة الآباء ، ويُقصِّر في العمل)) اهـ .

وعن أبي هُرَيْرة_ رضي الله عنه_ قال: قام رسولُ الله ﷺ حين أَنزل اللهُ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشيرتكَ الأقربين ﴾ [الشُّعراء : ٢١٤] ، قال : ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْش _ أو كلمة نَحْوها _ اشْتَرُوا أنفسكم ، لا أُغني عنكم مِنَ الله شيئاً، يا بَني عبد مناف، لا أُغني عَنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد

(٥) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٢٨٢)برقم (٣٢٨٨)، ومسلم (٣/ ١٣١٥) برقم (١٦٨٨).

المطلب لا أُغني عنكَ من الله شيئاً ، ويا صفية عَمَّة رسول الله ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ ، سَلِيني مَا شِئتِ مِن مالي ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً)) [6].

وشراءُ النَّفْسِ يكون بتخليصها من النار ، وذلك باعتناق الإسلام الذي فيه السلامة والنجاة . والنبيُّ ﷺ لا يَملك الجنَّةَ ولا النارَ . فلا يَقْدر على إدخال الناس الجنَّة أو إخراجهم من النار . فلا فائدة من الاتِّكال على قَرابة النبيِّ ﷺ ، لأنه ليس له من الأمر شيء . وذَكَرَ النبيُّ ﷺ هؤلاء لشدَّة قرابتهم. فإذا كان النبيُّ ﷺ لا يُغني عن قَرابته من الله شيئاً ، ولا يَقْدر على إنقاذهم ، فهذا يَعني أنه لا يُغني عن الناس من الله شيئاً.ومَن كان لا يَقدر على مساعدة قَريبه ، فطبعاً لن يُساعدَ البعيدَ عنه.

وقد أَحسنَ القائل :

عَلَيْكَ بتقوى اللهِ في كُلِّ حَالةٍ ولا تَترك التقوى اتِّكالاً على النَّسَبِ
فقد رَفع الإسلامُ سَلمانَ فارس وقد وَضع الكفرُ الشريفَ أبا لَهبِ

وقد لَعَنَ النبيُّ ﷺ عِدَّةَ أصناف مِن بَيْنهم : ((والْمُسْتَحِلُّ مِن عِترتي ما حرَّم اللهُ))[7].

يعني : مَن فَعَلَ مِن أقارب النبيِّ ﷺ ما لا يجوز ، وارتكبَ المعاصي ، وانتهكَ حُرماتِ الله تعالى.

وهذه أدلة ساطعة على ما ذهبنا إليه من تحليل ثنائية التقوى والنَّسب ، والتي صارت إشكاليةً ملتبِسة في أذهان البعض ، بسبب انحصار تفكيرهم في ظواهر الأشياء، والتعويل على أفكار غير منضبطة بالشرع الحنيف .

وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عِمران : ٦٨] .

ولَم يقل تعالى إن أولى الناس بإبراهيم آلُ بيته أو صحابته ، فالاتِّباع هو الذي يُعَوَّل عليه ، وكلما كان الإنسان حريصاً على الْمُتابَعة كان قريباً من النبيِّ ﷺ ، وإذا أعرض عن الاتِّباع كان بعيداً مطروداً حتى لو كان من آل بيته أو من صحابته. فآل البيت منهجٌ لا نَسَب. وهذا المبدأ يقودنا إلى معانٍ جديدة لآل البيت وَقَفَ عليها المحقِّقون .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ١٦٠) : ((وقيل : المراد بالآل جميع الأُمَّة أُمة الإجابة ، وقال ابن العربي: مالَ إلى ذلك مالك، واختاره الأزهري، وحكاه أبو الطيب الطبري عن بعض

---

(٦) متفق عليه. واللفظ للبخاري(٤/ ١٧٨٧)برقم(٤٤٩٣) . ومسلم (١/ ١٩٢) برقم (٢٠٦).

(٧) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٩١) برقم (١٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الشافعية، ورجَّحه النووي في شرح مسلم، وقيَّده القاضي حسين والراغب بالأتقياء منهم . وعَلَيْه يُحمَل كلام مَن أَطلق. ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وقوله ﷺ : ((إنَّ أوليائي مِنكم الْمُتَّقون)) (8). وفي نوادر أبي العَيناء أنه غَضَّ من بعض الهاشميين ، فقال له : أتغضُّ مِنِّي وأنتَ تُصلِّي عليَّ في كل صلاة في قَوْلِك : اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ؟! ، فقال : إني أريد الطيبين الطاهرين، ولستَ منهم)) اهـ .

وهذا يدل على أن الأتقياء هُم آل البَيْت الحقيقيون ، بغضِّ النظر عن كَوْنهم هاشميين أو غير هاشميين . فالعِبرةُ هي بالتقوى (رابطة الدِّين) ، وليس بالنَّسَب (رابطة الدَّم) . وهذا هو الفارقُ الجوهريُّ بين الفكر الإسلاميِّ والفكر القَوميِّ .

وعن عمرو بن العاص قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ جِهاراً غَيْرَ سِر ، يقول : ((ألا إنَّ آلَ أبي (يَعني فُلاناً) لَيسوا لي بأولياء ، إنَّما وَلِيِّ اللهُ ، وصالِحُ المؤمنين))(9).

إن النبيَّ ﷺ يَجعل التقوى هي معيار القُرب أو البُعد . فالصالحُ قريبٌ من النبيِّ ﷺ حتى لو كان نَسَبُه بعيداً ، وغيرُ الصالحِ بعيدٌ عن النبيِّ ﷺ حتى لو كان نَسبُه قريباً .

وينبغي أن ننتبه إلى مسألة هامة ، وهي أن آل بيت النبيِّ _ أيِّ نبيٍّ _ لهم احترام واعتبار لأنهم البيئة الحاضنة لهذا النبيِّ، فالطعن فيهم طعنٌ ضمني في النبيِّ، لكنَّ الذين يَحملون الرسالة _ أساساً_ هم أصحاب الأنبياء لا آل البَيت ، فالاستقراء يؤيد هذا، ولو اطلعْتَ على سِيَر الأنبياء لعرفتَ هذا الأمر بكل وضوح دون جهد في البحث . وهذا يدحض خرافاتِ الشيعة الروافض حول حصر التلقي بعليِّ بن أبي طالب ، ويَدحض خرافةَ عِصمة الأئمة المأخوذة من الميثولوجيا الإنجيلية

(٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . والنص الكامل للحديث : عن إسماعيل بن عُبَيد بن رِفاعة عن أبيه عن جَدِّه قال: جَمَعَ رَسولُ الله ﷺ قُرَيْشاً ، فقال: ((مَن غَيْرُكم ؟))، قالوا : فِينا ابنُ أختنا ، وفِينا حَليفُنا ، وفِينا مَولانا ، فقال : ((حَليفُنا مِنَّا ، وابنُ أختنا مِنَّا ، ومَولانا مِنَّا ، إنَّ أوليائي مِنكم المتقون)) .

(٩) متفق عليه.واللفظ لمسلم(١/ ١٩٧) برقم (٢١٥). والبخاري (٥/٢٢٣٣) برقم (٥٦٤٤) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٨٧) : ((هذه الكِناية بِقَوْله : يَعني فُلاناً ، هي مِن بعض الرواة ، خَشِيَ أن يُسَمِّيَه فيترتب عليه مفسدة وفِتنة ، إمَّا في حَق نفْسه ، وإمَّا في حَقِّه وحق غَيره فكنَّى عنه)) .

التي تزعم أن الرُّوحَ القُدُس اختار أربعة رجالٍ (متَّى ، مرقس ، لوقا ، يوحنا) وأوحى إليهم. لذلك قال الخميني كلاماً كُفْرياً في كتابه الحكومة الإسلامية (ص ٥٢/طبعة إيران): ((وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يَبْلُغه مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل)) اهـ .

وللتأكيد على أن صحابة أيِّ نبيٍّ هُم حملة الرسالة لا آل بَيْته ، أورد الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) : عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((مَا مِن نبيٍّ بَعثه اللهُ في أُمَّة قَبْلي إلا كان له مِن أُمَّته حَواريون وأصحاب يأخذون بِسُنَّته ويَقتدون بأمره)) .

والأمرُ ليس محصوراً في الأنبياء_عليهم الصلاة والسلام_، بل إن كل مفكِّر أو مصلِح أو شيخ أو إمام، أصحابه هم الذين يَحملون أفكاره لا أهل بَيْته . وانظر إلى الخميني شخصياً ، فإن أصحابه هم الذين حَملوا دعوته ، وليس أهل بَيْته . وهذه القاعدة ثابتة عقلياً وتاريخياً ، وعامة بلا استثناء.

وفي الغالب الأعمِّ يكون أزهدُ الناسِ في العالِم أهلَ بَيْته . وقد قِيل : زَامِرُ الحيِّ لا يُطرِب .

وقد قال الشاعرُ :

لا عَيْبَ لِي غَيْرَ أني مِن دِيارهم وزَامِرُ الحَيِّ لا تُطرِب مَزامِرُه

ويجب أن نفرِّق بين شيعة عليٍّ الذين قاتلوا إلى جانبه ضد الفئة الباغية (معاوية وعمرو) أو الخوارج ، وهؤلاء الشيعة كثيرٌ منهم من الصحابة ، ونحن يُشرِّفنا أن نكون منهم لأنهم نصروا الحق الساطع الذي كان في صَف عليٍّ _ رضي الله عنه _ ، وبين الذين بدَّلوا بعد ذلك من الجهال والعوام وأصحاب الأغراض غير الشرعية من أعداء الإسلام ، وركَّبوا عقائد زائغة منها شتم الصحابة ورميهم بالنفاق وإخراجهم من الإسلام،واغتصاب الخلافة...إلخ . فهذه الفئة الضالة لا تستحق أن تُسمَّى بالشيعة، لكننا ندعوهم كذلك مجازاً ، لأنهم معروفون بهذا .

إذن ، نَخْلُص إلى القول بأن التشيع نوعان: محمود ومذموم.التشيع المحمود هو التشيع لآل البيت ونصرتهم بالحق، والتشيع للصحابة_رضوان الله عليهم_ أعظم أشخاص بعد النبيِّ ﷺ، فنحن من شيعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ والحسن والحسين ، سَلَمٌ لِمَن سالمهم ، وعدوٌّ لمن عاداهم .

لكن الانحراف المبني على استغلال فضائل أئمة آلبيت_ عليهم السلام_ أدَّى إلى الحصول على عقائد شيعية منحرفة إلى حد التماهي مع الهذيان المدهش ، وهذا هو التشيع المذموم . مما يدل على وجود أيدي خفية تلعب بعقائد الناس مستغلةً حبهم لآل البيت_ عليهم السَّلام_، وهذي

الأيدي تنتمي إلى اليهودية، وكذلك تنتمي إلى النَّزعة الفارسية المجوسية ، فالعرب تدين بالحرية ، وعدم النظر إلى الْمُلْك نظرة قداسة بعكس الفُرْس الذين يدينون بالْمُلك وبالوراثة في البيت المالك.

وهذه النَّزعة الفارسية المبنية على انهيار قيم العقيدة ، وتسييسِ الدِّين لأغراض مصلحية شخصية منسوبة زوراً إلى أئمة آل البيت ، تعكس حجم المؤامرة الحقيقية التي لعبت بعقول الكثيرين. فبدافع حب آل البيت أَخْرَجوا الناسَ من الإسلام ، أو سكبوا في عقائدهم الانحرافاتِ الشديدة . وهذا استدراج عن طريق استخدام وسائل محبَّبة إلى نفوس الناس .

والنَّزعةُ الفارسية المجوسية المتطرفة متجذرة في الموروث الشيعي الرافضي ، فحتى هذه اللحظة تُسَمِّي إيران الخليجَ العربي بالخليج الفارسي ، وهذا تطرفٌ مصادم للتاريخ يعكس نزعة توسعية في المنطقة تستغل الدِّين للحصول على أكبر قَدْر من الابتزاز والتوسع والسيطرة. وأيضاً يتم الاحتفال بعيد النيروز بصورة أكبر بكثير من الاحتفال بعيدَي الفِطْر والأضحى. كما أن كراهية عُمر ــ رضي الله عنه ــ إنما تنبع من تحطيمه لدولة فارس التي ينظرون إليها على أنها ذات حضارة لا تُجارَى ، وأن هؤلاء الأعراب البدائيين قد حطَّموا هذه الحضارة المزدهرة ، وهذا النظرة المضادة للحقيقة متجذرة بشكل صاعق في النص الشِّيعي الرافضي العَقَدي . وهذه النَّزعة الشُّعوبية الرافضة للعرب إنما تنبع من النظرة الدونية للعرب على أساس أنهم لا يملكون حضارة ، وأن الفُرس هم أصحاب الحضارة التي لم يأتِ مِثْلُها . وهذا سبب التمييز العنصري ، واضطهاد العرب في إيران وتهميشهم واحتقارهم، واستبعادهم من وظائف الدولة ، والمناصب المهمة . واتسع هذا الأمر لينال أهل السُّنة كلهم في إيران ، والذين يُشكِّلون نسبةً كبيرة من عدد السكان . وطهران هي العاصمة الوحيدة في العالم التي لا يوجد فيها أي مسجد للسُّنة . حتى عاصمة الكيان الصهيوني فيها مساجد للسُّنة ، وحتى روما عاصمة الصليب فيها مساجد للسُّنة. كما أنهم يَسوقون الإمامة في أولاد الحسين دون الحسن ــ عليهما السلام ــ ، لأن زوجة الحسين هي السيدة شهربانو بنت يزدجرد، وهي فارسية . أي إن أولاد الحسين أخوالهم الفُرْس ، وهذا لا يتوفر في أبناء الحسن ، مما أدَّى إلى استبعاد أبنائه وإقصائهم وتهميشهم من وجهة نظر الروافض . ويأتي تعظيمهم المتطرف ، والمغالاةُ في تقديس سَلمان الفارسيِّ ــ رضي الله عنه ــ دون باقي الصحابة فقط لأنه فارسي.

إن النَّزعة الفارسية المجوسية الضاربة جذورَها في قلب الموروث الدِّيني الشِّيعي ، تتحدد وفق تصادم المسارات الفكرية العاجزة عن تشييد تصور فكري واعٍ للمسار التاريخي العمومي الدقيق . وعمليةُ ترقيع المنظور الدِّيني الشيعي المتوارث لا تجدي نفعاً ، لأن انحسار قيم الوعي يَضرب بشدة في مراكز بؤر الأساطير الأيديولوجية المشيَّدة على الظواهر التاريخية المتخيَّلة .

وبما أن تأريخ النَّزعة الفارسية ينبثق من عبثية التأطير الذهني الذي يصير تياراً توليدياً للميثولوجيا الشِّيعية ، تكرَّست حالة التنافر بين مفردات الذاكرة البدائية ، وهذا أدى إلى صناعة أنساق دِينية مشوَّشة ، هي في الحقيقة إفرازات سياسية موظَّفة بشكل مَصْلحي . كما أن تقييد المنحى الفكري بالهالة الإعلامية الشرسة المعزَّزة بقراءة تاريخية متطرفة ، أنتجَ مساحةً من الانتكاسة المعرفية في عوالم الشعور الدِّيني داخل الحوْزات ، الأمر الذي جعل كلام الفقيه فوق النَّص .

فالخميني مَثَلاً الذي قادَ انقلابَه من فرنسا (التي آوَتْه ودَعَمَتْه) ، استطاعَ تحقيق مكاسب شخصية، وتثبيت نفْسه إماماً معصوماً كلامُه يُقدَّم على القرآن الكريم ، ويُقدَّم على كلام الإمام جعفر الصادق _ رضي الله عنه _ شخصياً. وفي ظل هذا العبث المريع ليس غريباً أن يتم اختراع لقب من قبيل " آية الله العُظمى " ، وهو لقبٌ دعائي لا معنى له . وللأسف فهو يُطلَق على أُناس يفتقدون الحسَّ الدِّيني المستقيم ، وتنقصهم المعارفُ الدينية اللازمة . وهؤلاء الذين يَحْملون هذه الألقاب لا يمكن اعتبارهم متبحرين في العلوم الشرعية، لأن تحصيلهم العِلمي يعتمد على كلام الأشخاص النابع من الأهواء والعصبيات ، ولا يَعتمد على المنهج العلمي المتكامل . وهُم _ في حقيقة الأمر _ يُقدِّسون آراءَ الرجال ، ولا يُقدِّسون النَّصوص الدينية في الكتاب والسُّنة .

وقد صارت مسألة إعطاء الألقاب مثل الواسطة في المؤسسات الحكومية ، لأن مؤسسة التشيع الدينية تتنافس عليه قوتان : عربية وفارسية ، عربية متمثلة في النجف ، وفارسية متمثلة في قُمْ . وهذا التنافس الهستيري جعل الألقاب تبدو جزءاً من الصراع العنيف بين هاتين المؤسستَيْن، مما أدَّى إلى فقدان هذه الألقاب لمعناها ، حيث أضحى كل من يحفظ عدة سور من القرآن الكريم ، أو يحفظ عدة صفحات من كتاب الكافي فقيهاً لا يُستدرَك عليه، وآية من آيات الله العظمى ، وهذه كلها محاولاتٌ يائسة لذر الرماد في العيون ، وخداع العامة الذين لا يملكون مستوى علمياً دينياً ، فتراهم يتشبَّثون بكل صاحب عِمامة سوداء ظناً منهم أنه من أئمة آل البيت

_ عليهم السَّلام _ ، وهذا مرفوضٌ جملة وتفصيلاً، لأن الشيعة ضد منهجية أئمة آل البيت ، حتى لو انتسبوا إليهم ظاهرياً ، فالنَّسبُ المجرَّد من الاستقامة لا قيمة له البَتَّة .

والصراعُ على احتكار إشكاليات النَّص الشِّيعي بين هاتين المدرستين ، سَيُدْخِل الحالةَ المعرفية الفكرية في نزاع صادم ودائم ، مما يؤدي إلى انكماش مساحات الوعي ، وتغييب العقلانية عن المستويات المعرفية في جزيئات المسار العَقَدي . لذلك صار التاريخُ المتصوَّر في أذهان الشيعة كياناً جدلياً عاجزاً عن الانفتاح على باقي العناصر ، ووعياً جزئياً مفكَّكاً ومُؤَدْلَجاً بصورة فجَّة ، وكتلةً معرفية مشوَّهة ، ومسيطر عليها مِن قِبَل فرضيات الصراع السياسي الذي أُلبِس لبوساً دِينياً . وهذا الصراعُ السياسي يتم إخضاعه لتكثيف أيديولوجي صِدامي وغير منطقي .

فمثلاً ، نجد أن علماء الشِّيعة الروافض يَدرسون حالة قتل الأمويين لأئمة آل البيت _ عليهم السَّلام _ على أنها استمرار للصراع التاريخي بين الهاشميين والأمويين ، وتُسوَّق هذه الأفكار على أنها صراع تاريخي بين أُسْرَتَيْن. لكن هذه الأصوات اختفت عندما قتل العباسيون أئمة آل البيت، لأن العباسيين هم هاشميون ومن آل البيت، فلم نسمع أحداً من علماء الشيعة قال إنه الصراع بين الهاشميين والهاشميين، وإن آل البيت يَقتلون آلَ البيت . وذلك لأن التركيب الأيديولوجي الشِّيعي المتماهي مع القراءة الماركسية المتطرفة للتاريخ ، يحاول استثمار أية لحظة صراع تاريخي ، والعمل على أدلجتها بشكل فوضوي لتحقيق مكاسب سياسية. فمثلاً عبد الله بن الزُّبير _رضي الله عنهما_ لم يكن من آل البيت ، ومع هذا قتله الأمويون ، وصلبوه بطريقة وحشية .

فبطشُ الأمويين والعباسيين لم يكن مُوَجَّهاً ضد آل البيت لأنهم آل البيت ، بل كان مُوَجَّهاً ضد المعارِضين الخارجين على نظامهما السياسي . فلو خرج عليهم أي شخص لقاموا بقتله دون النظر إلى كونه عَلَوياً أو أموياً أو عباسياً . فهؤلاء يريدون تثبيت حُكمهم بأي ثمن حتى لو قَتلوا الصحابة أنفسهم . وقد قتل بعضُ خلفاء بني أُمية بعض الصحابة بكل خيانة دنيئة ، فقد قتل معاويةُ ابن أبي سفيان الصحابيَّ الجليلَ حُجْر بن عَدِيٍّ _ رضي الله عنه_ ، وهذا مشهور ، وسيأتي تفصيله بإذن الله. كما قتل يزيدُ بن معاوية أحدَ سادات الصحابة الإمام الحسين _ رضي الله عنه_، وقتل عبدُ الملك بن مروان الصحابي الجليل عبد الله بن الزُّبير _ رضي الله عنهما _ . فالمسألة هي قتل المعارِضين للحُكم بغض النظر عن انتمائهم العائلي . وكما هو معلومٌ فإن أئمة آل البيت قَضَوا حياتَهم ثواراً ضد ظُلم الأمويين والعباسيين ، وهذه هي منهجيتهم في الخروج على الحاكم الظالم ، وهي نفس منهجية بعض علماء الأمة من خارج مدرسة آل البيت البريئة من

الشيعة الروافض . فنحن عندما نقول مدرسة أئمة آل البيت نقصد العلماء الأفذاذ المتقدِّمين وبعض اللاحقين، وكل الأئمة الأثبات من آل البيت هم تلقائياً من أئمة أهل السُّنة والجماعة ، فعليٌّ أو الحسين أو محمد الباقر أو جعفر الصادق ليسوا من الشِّيعة الروافض ، بل هم من أئمة أهل السُّنة والجماعة ، كيف لا وهم ملتزمون بالكتاب والسُّنة ، أمَّا المنحرِفون الذين يَنْسِبون أنفسهم إلى آل البيت ، فهذه دعوى واهية لا دليل عليها ، مثل اليهود الذين ينسبون أنفسهم إلى النبيِّ موسى ﷺ وهو منهم بريء ، أو مثل النصارى الذين ينسبون أنفسهم إلى السيد المسيح ﷺ وهم أعداؤه .

فالشِّيعة الروافض الذين بدَّلوا وغيَّروا وانحرفوا هؤلاء أشد أعداء آل البيت_ عليهم السَّلام _ حتى لو سَمَّوْا أنفسهم بالشيعة ، وبَكَوْا عند أضرحة أئمة آل البيت ، ولطموا وضربوا أنفسهم . فهذه ليست بأكثر من دموع التماسيح . فأهل الكوفة الذين كان يُسَمُّون أنفسهم شيعة آل البيت هم الذين خانوا عَلِيَّاً والحسين ، فلا تنخدع بالمظاهر الفارغة . فالدعاوى بلا بَيِّنات لا وزن لها ، فالكلام سهل ، لكن النتائج على أرض الواقع هي المِحَك. فمبدأ " قلوبنا معك وسيوفنا عليك " الذي اخترعه الشيعة الروافض هو نتاج طبيعي لطبائعهم النَّفسية بعد أن باعوا آل البيت نتيجة التلويح بالمال والعصا، وقتلوهم بكل وحشية .

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٢٣٤) : عن ابن أبي نُعْم قال : كنتُ شاهداً لابن عمر ، وسأله رَجل عن دَم البعوض ، فقال : ((مِمَّن أنتَ ؟)) ، فقال : مِن أهل العراق ، قال : ((انظروا إلى هذا يَسألني عن دم البعوض ، وقد قَتلوا ابنَ النبيِّ ﷺ)) . [يعني الحسين _ رضي الله عنه _] .

وقد خاطبَ عليُّ بن أبي طالب _ عليه السلام _ أهلَ العراق قائلاً : ((يا أشباهَ الرجال ولا رِجال ، ويا طَغَّامَ الأحلام ، ويا عُقولَ رَبَّاتِ الحِجَالِ ، لَوَدِدْتُ أني لَم أرَكُم ولم أعْرِفْكم))[جمهرة خُطب العرب (١/ ٤٢٩)] .

وتستمر لعبةُ قراءة التاريخ لتوظيفه دينياً من أجل شَرْعنة العقيدة الشِّيعية ، فمثلاً وجدنا الروافضَ من الأعراب والفُرْس الذين يحتلون العراقَ يُصَنِّفون صدام حسين سُنِّياً داعماً للعرب السُّنة وقاتلاً للشِّيعة والأكراد، وهذه نظرة قاصرة . فصدام حسين لم يكن سُنِّياً ، بل بعثياً عَلمانياً . وهو قتلَ الكثيرين من العرب السُّنة ، فإعدامُ الإخوان المسلمين، وقتلُ أصهاره ، وقتلُ الكثيرين من العرب السُّنة ، وتهجيرهم خارج البلاد ، يُثبِت بلا ريب أنه كان ضد كل مَن يُهدِّد نظامَ حُكمه سواءٌ كان سُنِّياً أو شيعياً ، عربياً أو كردياً . وقد قتل الكثيرين من رفاقه البعثيين شركائه في الحزب الذي

يقوده . لكن لعبة قراءة التاريخ بشكل مغرِض لدى الشِّيعة إنما تتم وفق إسقاطات مركزية موغلة في توظيف التاريخ لصالح مشروعهم التوسعي ، وتأسيس دولتهم الموعودة انتظاراً لظهور المهدي المخلِّص الذي دخل في سرداب من وُجهة نظرهم . وخرافة السرداب هذه ردَّها أحد أبرز علماء الشيعة في القرن العشرين وهو محمد جواد مغنية (١٩٠٤_ ١٩٧٩) [10].

وهُم بذلك يتشابهون مع اليهود الصهاينة والنصارى المتصهينين (المحافِظين الجدد) الذين يريدون تأسيس دولة" إسرائيل" المزعومة انتظاراً لمجيء المسيح المخلِّص من وجهة نظرهم . وهذا التماهي ليس مستغرباً ، خاصةً بعد أن حدَّدْنا التشابهات العَقدية بين الشيعة من جهة ، وعقائد النصارى واليهود والفُرس المجوس من جهة أخرى .

وهذا الانهيار الانسحابي العَقدي يتشكل وفق تاريخ خاص بإفرازات الذِّهن المخيالي ، ثم إسقاطها على وقائع انهيارات معرفية محدَّدة لغايات سياسية واضحة المعالم، وهي التوسع في المنطقة ، وتكوين هلال شيعي يجرف المنطقةَ ، ويعيد ذكرياتِ الدولة الصَّفوية التي ارتكبت المجازر والإبادة الجماعية بحق السُّنة . لكن لعبة الشيعة معروفة ومتكررة، فهم يزعمون حب آل البيت لكنهم أَخْرَجُوا الناسَ من الإسلام بهذه الدعوى العريضة، ويزعمون أنهم يقاتلون العدو الصهيوني ، لكنهم يفعلون ذلك لتثبيت وجودهم في المنطقة على حساب السُّنة ، وتأسيسِ هلال شيعي يقضي على الشعوب السُّنية . وبالطبع فإن الذي لَمَّع صورة التشيع وأعطاها الزَّخْم هو وجود حركات شيعية مقاوِمة للعدو الصهيوني ، مثل ما يُسمَّى بحزب الله ، وهذا جعله يحصل على تأييد قطاعات واسعة في العالَم العربي والإسلامي . وأيضاً إيران وتحدِّيها للعدو الصهيوني والغرب عموماً ، فهذه العوامل أبرزت صورة الشيعة كقوة مقاوِمة ذات احتفاء شعبي وتأثير على الصعيد السياسي . وهذا يشابه ما جرى في الستينات والسبعينات بالنسبة للمد الماركسي والقومي ، فظهور حركة مثل " الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين " وعملياتها العالمية من خطف الطائرات المشتملة على مبدأ تسليط الضوء عليها ، واستعراض القوة على المسرح العالمي أدَّى إلى وجود أنصار لها،وتأييد شعبي قوي، لدرجة أن الجبهة الشعبية بتوجهها الماركسي اللينيني كانت الحركة الثانية بعد (فتح) في منظمة التحرير. ولم يكن لها أن تنال هذا القبول لولا اقترانها بالمقاوَمة،خاصة أن الشعب العربي شعب عاطفي يجري وراء الشعارات والخطب الرنانة دون أن يخضعها لميزان العقل .

(١٠) معالم الفلسفة ، ص ٢٠٤_ ٢٠٦ .

ونظرية الاقتران هذه تم استعمالها على أكثر من صعيد ، فارتباط التشيع بآل البيت إنما يهدف إلى الحصول على شرعية للشيعة الروافض عبر اقتران اسمهم بشرعية آل البيت المتفق عليها ، مع أن الشيعة الروافض قد تخصَّصوا في الكذب على أئمة آل البيت البريئين من خرافة مذهب الإمامية الاثني عشرية. كما أن ارتباط إيران و"حزب الله " بالمقاوَمة ضد العدو الصهيوني والغرب أدَّى إلى وجودهم تحت مظلة التأييد وشرعية التحدي والمقاوَمة ، ولكن للأسف فقد استغلت إيران هذا المشروع السياسي المدعوم من شعوب العالَم العربي والإسلامي لنشر التشيع الرافضي بالمفهوم الدِّيني، وغزو البلاد العربية والإسلامية عبر شراء الذمم بالأموال،واستئجار المرتزقِة الذين يقبضون بالدولار الأمريكي ثم يُطبِّلون ويُزمِّرون لمذهب الإمامية الاثني عشرية الباطل ، والمنسوب_ زوراً_ إلى أئمة آل البيت . وقد رَأينا كيف قام مُرْتَزِقةُ إيران بتدمير العراق وسوريا ولبنان واليمن .

إن فلسفة التشيع تعتمد على اكتساب شرعياتٍ وهمية مَظهرية متعلقة بالمعايير الاجتماعية الرافضة للمنهجية العلمية الدقيقة . والمدرسةُ الشيعية تَحصر التلقي في علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ ، وأبنائه من بعده ، والوحيد المخوَّل بالاطلاع على هذا التلقي وتفسيره وشرحه واحتكاره هم فئة " آيات الله " الذين يمارسون دوراً شبيهاً بدور الكهنة الذين يحتكرون سُلطة تأويل النص الدِّيني ضمن مساحة مظلمة بعيدة عن الطبيعة العمومية لفهم النَّص . والتجربةُ الدينية الشِّيعية باعتبارها مُراهَقَةً سياسية لا تُنتِج إلا مزيداً من الشكوك غير المنهجية ، فتظهر الْحَيرةُ والتخبط في تشييد النصوص ، وتراكيبِ الفكر الدينيِّ . ومن أبرز تجليات الفوضى في العقيدة الشيعية ، اعتماد اثني عشر إماماً . وهذا الرَّقْم (١٢) يَتشابه معَ عقائد اليهود والنصارى . ففي سِفْر التَّكوين التَّوراتِيِّ [١٧: ٢٠]: ((اثْنَي عشر رئيساً يلد وأجعله أُمةً كبيرة)). وفي إنجيل لوقا [٦: ١٣] : ((ولَمَّا طلعَ النَّهارُ استدعى تلاميذَه واختار منهم اثني عشر سمَّاهم أيضاً رُسُلاً)).

وهذا هو السِّرُّ في اختيار الرَّقْم (١٢) ، ليكون عددَ أئمة آل البَيت المعصومين _ وَفق الميثولوجيا الشيعية _ ، عِلْماً بأنَّ أئمةَ آل البَيت لا يُمكن إحصاؤُهم لكثرتهم . كما أن الأئمة من ذُرِّيَة الإمام الحسن _ رضي اللهُ عنه _ قد تَمَّ استبعادُهم بشكل كامل ، لأنَّ أخوالَهم لَيسوا مِنَ الفُرْس كما هو الحال في أبناء الحسين _ رضي اللهُ عنه _ . وتحديدُ اثْنَي عشر إماماً ، يُشير إلى حقيقة اقتباس الشيعة عقائدَهم من اليهود والنصارى .

والجديرُ بالذِّكر أن الأساطير المتفرِّعة عن أنسجة التناقضات العَقَدية ، تؤسس ماهياتٍ ميكانيكية ذات ارتباط وثيق بإفرازات الوهم النخبوي والشَّعبي . لذلك ليس من الغريب أن تبرز خرافةُ عِصمة الأئمة _ على سبيل المثال لا الحصر _ ، فهذه الخرافة إنما جاءت لتثبيت شرعية هلامية ، وإضفائها على أئمة آل البيت ، ليصير كلامُهم نَصَّاً مُنْزَلاً لا يَملك أحدٌ أن يُعارضه ، وبالتالي يريح الشيعةُ الروافضُ أنفسهم من تلقي النقد والاستدراك على كلام أئمة آل البيت غير المعصومين . وبالطبع فتأصيل هذه الخرافة دِيناً لازماً للأتباع من العوام يتعارض مع منهجية البحث العلمي. فلو كان أئمة آل البيت معصومين لما ظهرت الاختلافات والتناقضات فيما بينهم . وخرافة عِصمة الأئمة الاثني عشر متماهية تماماً مع العقيدة النصرانية غير المنطقية التي تقول إن الرُّوح القُدُس شاء في القرن الأول للميلاد أن يُوحيَ إلى أربعة رجال أن يُدَوِّنوا الإنجيلَ : مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا . وبالطبع فإن هذه العقيدة الباطلة هدفها إضفاء العِصمة على كلام هؤلاء الرِّجال الأربعة وإحاطته بالعِصمة والقداسة بلا نقاش، وهذا بالتأكيد ما أراده الشيعة الروافض من اختراع عقيدة عِصمة الأئمة لجعل كلامهم فوق مستوى النقد والاستدراك والمراجعات ، وهكذا يضمنون السيطرة على العوام وابتزازهم باسم الدِّين لأطول وقت ممكن .

قال دلدار علي في أساس الأصول ٥١ نقلاً عن حقيقة الشِّيعة ٣٦ : ((إن الأحاديث المأثورة عن الأئمة مختلفة جداً ، لا يكاد يوجد حديث إلا وفي مقابله ما ينافيه ، ولا يتفق خبر إلا وبإزائه ما يُضادُّه ، حتى صار ذلك سبباً لرجوع بعض الناقصين عن اعتقاد الحق)) اهـ .

وقال الفيض الكاشاني في الوافي المقدمة (ص ٩) عن اختلاف طائفة الشيعة : ((تراهم يختلفون في المسألة الواحدة على عشرين قولاً ، أو ثلاثين ، أو أَزْيد ، بل لو شئت أقول لم تبق مسألة فرعية لم يختلفوا فيها ، أو في بعض متعلقاتها)) اهـ .

وقال الطوسي في مقدمة تهذيب الأحكام : ((ذاكرني بعض الأصدقاء بأحاديث أصحابنا ، وما وقع فيها من الاختلاف ، والتباين، والمنافاة، والتضاد، حتى لا يكاد يَسْلم خَبر إلا وبإزائه ما يُضادُّه، ولا يَسْلم حديث إلا وفي مقابله ما ينافيه ، حتى جعل مخالفونا ذلك من أعظم الطعون على مذهبنا)). [انظرْ هذه الأقوال لِعُلماء الشيعة ، وغَيْرَها في كتاب " كشف الجاني "].

وهذا البحثُ لَيْسَ بحثاً دِينياً في ذِكر عقائد الشيعة والرد عليهم بالكتاب والسُّنة الصحيحة، بل هو بحث فلسفي لنقد عقائد الشيعة ، والخلفية التاريخية والسياسية والفكرية لتكوُّنها . وقد قُلنا إن عقائد الشيعة الروافض والرد عليها موجودة في الكثير من المجلدات ، فراجِعْها إن أردتَ

الاستزادة . أمَّا منهجي في هذا البحث الموجَز ، فهو تشريح الأنساق الدينية الشيعية فلسفياً لفهم المنهجية المضطربة التي يعتمد عليها القومُ .

وإذا قُمنا بتشريح فلسفة " عِصمة الأئمة " ، سنجد أنها ترتكزُ إلى أبعاد أُسطورية ذات قيم شعبية ، وتنحازُ إلى الوهم الأيديولوجي الذي يَحمل عواملَ انهيار أنويته في داخله . والفارسيةُ المجوسية كانت تميل دائماً إلى تقديس الأشخاص ، وصَبغهم بصبغة إلهية . وقد وَرد أن أحد ملوك فارس قد تزوَّج إحدى محارمه لكي يحافظ على الدَّم الإلهيِّ الذي يسير في عروقه _على حد زعمه_، وبما أن التشيع مصبوغ بعوامل فارسية مجوسية كثيرة فضلاً عن العوامل اليهودية ، كان متوقَّعاً صبغ أئمة آل البيت بصبغة القداسة ، ووضع برواز العِصمة حَوْلهم ، ورفعهم فوق مستوى بشريتهم . وهذه فلسفةٌ معروفة في النسق الفكري الفارسي المجوسي ، تم تأطيرُها في قلب العقيدة الشيعية التي هي _ بالأساس _ مُنتَج جدلي يَدور في حلقة مُفرَغة .

والسؤالُ الذي يَطرح نَفْسَه:لماذا تَمَّ بناءُ العقيدة الشِّيعية وفق الميثولوجيا الفارسية اليهودية ؟!.

للإجابة عن هذا السؤال الحيوي ، ينبغي أن نربطَ تناقضات الوعي الدِّيني الغامض بإفرازات الوقائع الاجتماعية . وهذا الربطُ يفيدنا في تحديد ماهية التحولات الفكرية التي أفرزت مذهباً ركيكاً قائماً على إسناد الانحراف العَقَدي إلى أئمة آل البيت _ عليهم السلام _ .

وصيغُ التفاعلِ الشيعي مع العقائد المنحرفة (اليهودية ، النصرانية ، الفارسية المجوسية ، عقائد أهل الجاهلية) تعكس غياباً تاماً للمرجعية الفكرية المبنية على الثبات اليقيني الحاسم . فالناقصُ يَرفض الكاملَ ، وبالتالي ، فالناقصُ يَسعى إلى التكامل مع النواقص لتعزيز وجوده في الفكر الديني والفكرِ الاجتماعي .

ففي الفكرِ الديني ، امتزجت عقائدُ الشيعة بعقائد أهل الكتاب والمجوس وأهل الجاهلية ، أمَّا في الفكر الاجتماعي فقد تجمَّعت الأقلياتُ ضد الأكثرية (أهل السُّنة والجماعة) ، للحفاظ على وجودها _ من وُجهة نظرها _ . وهذه اللعبةُ يتقنها الشيعة الروافض ، ويحاولون تعميمها في البلاد العربية والإسلامية _ بشكل أو بآخر _ ، من أجل كسرِ أهل السُّنة والجماعة ، وتحويلهم إلى طائفة ، مجرد طائفة . مع أنهم هُم الأُمَّة الإسلامية .

ولا شكَّ أن المذهب الشيعي عبارة عن مزيج من العقائد الجدلية المتناقضة ، وكتلة هجينة من الفلسفات المنحرفة ، بسبب اختلاط الأصول مع الفروع ، وتحول الأصل إلى فرع ، والفرع إلى أصل ، وتساوي الجوهر مع العَرَض . وهذا جعلَ الموروثَ الشعبي المشوَّش عقيدةً دِينية معصومة

، وجعلَ الأفكارَ البشرية تعاليمَ سماوية . وإذا أدركْنا هذه الحقيقة ، فلن نَستغرب من تحوُّل الأشكال الذهنية الشخصانية ذات البعد التاريخي إلى أوهام مقدَّسة نهائية وحاسمة ، غير قابلة للطعن . ولن نَستغرب _ كذلك _ من تحوُّل الزخم الميثولوجي إلى حقائق معصومة .

والعقيدةُ الشيعية تفتقد إلى المنطق ، لأنها ساوت بين الجوهر والعَرَض ، وأوصلت الفكرَ الديني المتآكل إلى تأصيل فكرة التعادل بين الحامل الأيديولوجي والمحمولِ الإنساني ، فلم يَعُد هناك فرقٌ بين الكلام الإلهيّ (القرآن الكريم) وبين كلام البشر (" الأئمة المعصومين ") .

وهذا الانهيار أدى إلى تعميق الانتكاسات الفكرية. إذ إنه بتساوي الجوهر والعَرَض ، تَمَّ القضاءُ على أشكال الحياة الشيعية الدينية وجوهرِها، فانتشرت الطلاسمُ التي أُلبست لبوس الدِّين، وتكرَّس نفوذُ السُّلطةِ الكهنوتية السِّرية (سُلطة آيات الله العُظمى وغير العظمى) ، وظهرت الانقساماتُ الحادة في الموروث الشِّيعي الرافضي ، وتفرقت طائفة الشِّيعة إلى عشرات الطوائف.

وبالتأكيد فإن انفصال الإسماعيلية عن الإمامية الاثني عشرية في تعيين الإمام المعصوم من وجهة نظر الميثولوجيا الرافضية ، قاد حركة الانفصال الشديد بصورة متماهية مع انفصال البروتستانتية عن الكاثوليكية على يد مارتن لوثر .

وهذا الالتصاق بين الفكر الشِّيعي الديني والفكر النصراني الديني ، يدل على تفشي الأنساق المعرفية السلبية. وعموماً ، إن العناصرَ الوجودية الشِّيعية المفتقِدة إلى المسار البنائي المنطقي ، لا بد أن تلجأ إلى العقائد الخارجية من أجل صناعة شرعية لأساطيرها .

إن الخيالاتِ الواهية المعتمِدة على تواجد" آيات الله " على خارطة احتكار تأويل النَّص الديني، تكرِّس عصرَ الآلهة في الجاهلية. فمثلاً الْخُمْس الذي يُخرجه الشيعة ويصب في جيوب رجال الدِّين هو فلسفة متماهية مع سلوكيات رجال الدِّين النصراني في كنائس القرون الوسطى التي قَهرت الناسَ ، وسَرقتهم باسم الدِّين . كما أنه فكرٌ استغلالي متمحور حول سلوكيات الرهبان الذين أرسلهم البابا لبيع صكوك الغفران من أجل بناء كنيسة " القديس بطرس " . وأيضاً ، إنَّ تحرُّش الكرادلة والرُّهبان بالراهبات ، وممارسة الجنس معهنَّ ، يَتماهى معَ مُمارَسة رِجال الدِّين الشِّيعي لزنا الْمُتعة الذي تَمَّت شرعنته تحت اسم " زواج الْمُتعة " . وهكذا يَكون " آيات الله " قد وَجَدوا وسيلةً للتخلص من الكبت الجِنسي .

ولا يخفَى أن المتاجرة بالدِّين تُدِرُّ ربحاً مادياً وفيراً على الذين ينتهجون هذا الخط في حياتهم ، لأنهم يستغلون جهل العوام الذين يطمعون في الجنة والخلاص الأبديّ ، ومستعدون لأن يفعلوا

أي شيء مقابل نيل هذا الشَّرف ، ويبدأ السماسرة ببيع أوهامهم المغلَّفة بصبغة دينية لتحقيق أكبر ربح مادي ممكن . إذ إن الأنظمة الدينية المشوَّشة تَعْمَد إلى استغلال جهل الناس وحاجاتهم من أجل تجذير سُلطتها على رقاب المسحوقين ، وضمان أن يظلوا خاضعين لها على الدوام، ويدفعوا بانتظام، فيصير الدِّينُ المنحرِف نظاماً إقطاعياً ، وعمليةَ ابتزازٍ تستنزف الأتباعَ حتى الرمق الأخير . وعبارة " الدِّين أفيون الشعوب " صحيحة مئة بالمئة في حالة الأنظمة الدينية الفوضوية المشوَّشة فقط ، أي إنها تنطبق على كل الأديان سوى الإسلام ، لأن الإسلام دِين لا يَقبل الظلمَ ، ولا يُخدِّر الناسَ ، وإنما يوقظهم من سُباتهم ، ويَبعث فيهم رُوحَ الانقلابِ والثورةِ بشكل واعٍ لا بشكل فوضوي .

إن أنساقَ الفكرِ الشيعي تتجذرُ في لغة دِينية مشوَّشة ، وهذه اللغةُ العَدَمية غير اليقينية عِبارة عن مفهوم فلسفي يَكشف مَظاهرَ انكماش الرُّوح في الحياة الموغلة في استهلاك الخرافات المقدَّسة . ولا شكَّ أن هذه الحياة تمثِّل طريقاً مسدوداً يُزاوِج بين نُظم الأساطير الدينية ، ويُؤرِّخ لمظاهر انهيار "الأنا الشيعية" لصالح طبقة من البشر تُسمَّى" آيات الله"، ويتم تصويرهم على أنهم آلهة معصومون.

وهذا الانهيارُ المرعِب يَنبع من مأزق المؤسسة الدينية في الفكر الشيعي ، والتي تخترع نظاماً كهنوتياً بُغية تقسيم المجتمع إلى طبقتَيْن: سَادة وعَبيد، واضطهادِ الذات الإنسانية من أجل بناء إنسان مُدجَّن هجين مُعدَّل وراثياً (من الناحية الفكرية). وفي ظل هذا التشويش العارم ، ليس غريباً أن تَظهر النصوصُ الشيعية الدينية رافضةً للعقل البشري ، ومناوئةً لحركة التاريخ ، ومناهِضةً لإنجازات الحضارة العربية الإسلامية .

لقد أَثْبتت المدرسةُ الشيعية عجزَها عن مواكبة العقل الإنساني، والمنطقِ الاجتماعي. وبالإضافة إلى هذا ، فإن تقديس الأشخاص ورفعهم فوق مستوى بشريتهم حِيلةٌ قديمة جديدة ، يُفترَض أنها لا تنطلي على أصحاب العقول التحليلية المضادة للتقليد الأعمى. وتأطيرُ سياسةِ التقديس الواهم، ومحاولة تقديمها على أنها أساس دِيني عَقَدي ، وإسقاطها على ذوات بشرية ، هي خطواتٌ جَدلية تعتمد على تقسيم الجماعة الإنسانية إلى طبقة الآلهة " آيات الله " وطبقةِ العبيد " الشعب " . وفي كل مجتمع بدائي انتكاسي تظهر هاتان الطبقتان . وهذه قاعدة ثابتة تاريخياً بلا حالات استثنائية ، رغم تغيُّر الزمان والمكان والأشخاص . وعندما يَغيبُ الدِّينُ الصحيحُ في مجتمع أعمى ، يُصبح الاستغلالُ هو الدِّين الصحيح في المجتمع الأعمى .

والمشكلةُ الجذرية في الفكر الديني الشيعي، أن أنساق استغلال البشر تُحال إلى نصوص دِينية ، وذلك من أجل إضفاء شرعية على أبعاد الأسطورة ، مما يساهم في وضع الأسطورة داخل التطبيقات الاجتماعية الضاغطة على البشر المسحوقين . وهكذا تتم هندسةُ الإنسان على أساس أنه وسيلةُ تفريغ للوهم الانعكاسي، وحَجَرٌ صغير في قلعة العبودية التي يملكها القادرون على توجيه النَّص بشكل يَخدم مصالحهم ، ويُطيل عُمرَ احتلالهم لقلوب العوام الذين لا يملكون إلا التصفيق والتطبيل دون وعي ولا منطق.وهذا الزَّخْمُ الانهياري يَمنع الوعي الإنساني من النهوض ، ويَبني حَوْل الموروثِ الشِّيعي سُوراً مِن القَداسة ، لمنع متواليات الغربلة والتمحيص من الاقتراب منه .

وفي ظل هذا التشويش الأيديولوجي ، تَحدث عمليةُ إعادة ترسيخ مفردات الفِعل الديني المضطرِب كإستراتيجية معرفية تتشظى في مركز الصراع التاريخي، من أجل انتزاع تعاطف العوام . وبالإضافة إلى ما سبقَ،فإن الفِعل الديني الشيعي يُنتِج نصَّاً دِينياً أسطورياً مُسيَّجاً بالقداسة والعِصمة رغم صفته البشرية . وهذا الأمرُ يَدفع باتجاه تشتيت الوعي الإنساني ، وسرقةِ العاطفة الدينية من صدور العوام . مع العِلم أن النَّص الديني المنفي لا يُثبِت وجوداً تفكيرياً حراً ، ولا يُثبِت قراءةً تحليلية منصفة للأحداث التاريخية . وهكذا يصبحُ النَّصُّ الديني مضادَّاً لنفْسه ، ونافياً لوجوده . وبعبارة أخرى ، يصبح الموروثُ الشيعي ضد الموروث الشيعي ، والنَّصُّ الديني ضد النَّص الديني . وبالتالي ، تتكسر أنويةُ المعرفة الميثولوجية التي يَعتمد عليها الدِّين الشِّيعي في تأطير شرعية أنساقه المتعاكسة .

والإشكاليةُ الكُبرى في هذا السياق المشوَّش ، أن قيمةَ النفي يتم تكريسها _ بفعل منطق القوة لا قوة المنطق _ كقيمة إثبات ، مما يؤدي إلى انكماش اللغة الدينية الابتزازية التي لا تَعْدو عن كَوْنها مُخدِّراً مَوْضعياً في جسدِ تاريخٍ افتراضي لا يُوجد في الواقع ، وإنما يُوجد في الأذهان المنكسرة .

ومن الأمثلة الواضحة على تحوُّل قيمة النفي إلى قيمة إثبات ، هي المنظومة الفكرية الخاصة بالقبور عند الشيعة الروافض . فهذه المنظومة عبارة عن تجارة باسم الدِّين ، وسَمْسرة عقائدية ، يتم فيها استغلالُ حُب الناس لآل البيت _ عليهم السلام _ من أجل سرقة العوام وابتزازهم . وقد نَجح مخترعو مذهب الإمامية الاثني عشرية في تحويل آل البيت إلى شَركة تجارية مساهمة غير محدودة . وهذه الشَّركةُ يُديرها الشيعةُ الفُرس الذين يُسيطرون على المناصب المهمة فيها، لأن

رأسَ مالها مستمد من سُلطة ملالي طَهران ، في حين أن المناصب الهامشية تُعطَى للشيعة العَرب الذين تستخدمهم إيران كحصان طُروادة ، وكورقة يُلعَب بها في مجال الأقليات والأكثرية ، وتفتيتِ المجتمعات على أساس طائفي وإثني وعِرْقي ، كما حدث في العراق وسوريا ولبنان واليمن .

والإفرازاتُ الشيعية العَقَدية تنفي نَفْسَها بنفْسها ، وهي _ بذلك _ تُلغي الوعي الجمعي بالتفكير النقدي ، وتُرسِّخ النفي كقيمةِ إثباتٍ . الأمرُ الذي يَضرب العمودَ الفقري للموروث الشيعي الافتراضي ، والمتشظي إلى نتائج تاريخية سائرة ضد التاريخ .

وفي واقع الأمر ، إن المدرسة الشيعية العربية لا وزن لها مُطْلقاً بسبب خضوعها بالكُلية للمدرسة الشيعية الفارسية . ولا يخفَى أن إيران الفارسية هي قلبُ التَّشيعِ النابضُ ، وهي تَسعى بكل قوة إلى بسط نفوذها في المنطقة ، والوصول إلى البحر المتوسط . والتعامل مع إيران ينبغي أن يكون حَذِراً ، فإيران نصفُ عدو، ونصف صديق. ويجب على العرب السُّنة بناء مواقفهم وفق هذه المعادَلة الإشكالية. وبرغم كل شيء، تظل إيران ضمن الإطار الإسلامي العام رغم انحرافها العَقَدي ذي الصبغة الفارسية . ويجب التعاونُ معها لاستئصال الورم السرطاني الصهيوني من جسد الأُمة ، وتحدي الغرب الإسخريوطي الذي يتاجر بحقوق الإنسان ما دامت تحقق مصالحه ، وتضمن له التدخل في شؤون الآخرين، والسيطرة على مواردهم . أمَّا إن عارضتْ مصالِحَه فسيقتل الإنسانَ والحيوانَ ، ويقضي على الأوزون والبيئة ، وكل أشكال الحياة على هذه الأرض .

إن الموروث الشيعي ذو طبيعة كهنوتية غامضة لضمان سيطرة طبقة السادة " آيات الله " على العبيد (أفراد الشعب)، وقيادتهم واستغلالهم دون أي اعتراض. ووفق هذه الرؤية الحقيقية القاتمة، تَضيع طبيعةُ الإنسان وشخصيته الاعتبارية . فالعقيدةُ الشيعية لا تَعترف بالإنسان إلا إذا كان جزءاً من الصيغة الدينية الاجتماعية المسيطَر عليها من قِبَل رِجال الدِّين المتحالفين مع السَّاسة . وهكذا يتحول الإنسانُ إلى كيان ميكانيكي خاضع للسُّلطة الأُبوية ، ويَدور في أفلاك الوهم المركزي.مما يَقود إلى تشظي الإحساس الديني إلى مخلَّفاتٍ اجتماعية ذات صبغة سياسية ، وتكوُّنِ محيطاتٍ فلسفية متضاربة، حيث النَّصُّ يَقتل رُوحَ النَّصِّ ، ويَرثه _ رغماً عنه _ ضمن سياق تاريخي هُلامي. وهذا التوارثُ القَسري من شأنه تكريس الميثولوجيا الشيعية كتيار فلسفي قامع ومقموع في آنٍ معاً. ومنهجُ النشاطِ الديني الجدلي غير المنطقي يبزغ _ أكثر فأكثر _ في بؤرة التوظيف العَقَدي والسياسي للتاريخ الذهني الافتراضي ، والذي يُنتِجُ فِعلاً إنسانياً محتقناً بالعُقد

الطائفية ، ويُزاوِجُ بين السلوكِ الاجتماعي المقموع المسيطَر عليه أيديولوجياً ، وبين الْمُنتَج الديني المكرَّس كسُلطة كهنوتية مغرِقة في ألغاز العناصر التاريخية المضطرِبة .

ومن خلال تأطير المضمون الميكانيكي لِبُنية الحدث الدِّيني ، تَظهر انكساراتُ البُنية الاجتماعية واضحةً جَليةً . فالمجتمعُ الشيعي يستند إلى سلب إنسانية الإنسان ، من أجل تنسيق الخرافات الشعبية ، وتنظيمها على شكل عقائد دِينية مقدَّسة . وما ظُهورُ نِكاح المتعة إلا مثالٌ صارخ على هذا الانهيار الاجتماعي، حيث تَمَّ تحويل الأنثى إلى شيء استهلاكي خاضع لنظرة استهلاكية جنسية ذات نزعة جزئية بامتياز . وتتضح النَّزعةُ الجزئية في اعتبار المرأة متعةً مجرَّدة للرَّجل القادر على الدفع. فالنظرُ إلى المرأة نظرة جنسية دونية تجسيدية لانتزاع جسدها واقتحامه، ثم رميها في الشارع بعد الدفع لها، هي نظرة إباحية مستندة إلى نصوص دينية شيعية مُلتبِسة. وهذا الاحتقار لأنوثة المرأة قادم من خليط ثقافات جاهلية متعددة فارسية وأعرابية، حيث تُحصَر المرأةُ وتُختزَل في جسدها فقط ، وتُغرَق روحها في شهوتها الجنسية .

وعلى الرغم من أن علماء الشيعة وعِلْية القوم لا يقبلون زواج المتعة لبناتهم وأخواتهم حتى لو وافقنَ على ذلك، إلا أنهم يبيحون هذا الزِّنا المقنَّع للعامة أو أصحاب الطبقات الاجتماعية المتدنية ، لأن التشيع هو نظام إقطاعي طبقي استغلالي بامتياز، فَمَن يَملك السُّلطةَ والمالَ بوسعه تجاوز النصوص أو تأويلها بما يخدم مصالحه،أمَّا العامة فهم منبوذون متروكون لزواج المتعة، ودفعِ الْخُمْس وفق فوضى مالية تصبُّ في صالح عِلْية القوم من العلماء الذين يبتزون العوام باسم الدِّين ، والانتماءِ إلى آل البيت ـ عليهم السلام ـ .

وللأسف فإن النظرة الدونية للمرأة بهذا الشكل السَّادي أَخذ شرعيةَ منظوره الأيديولوجي من نصوص دينية وهمية لا تاريخ لها سوى وأد التاريخ . ومما لا شك فيه ، أن احتقار المرأة في الموروث الشيعي مستمد بشكل أساسي من الفارسية المجوسية التي تنتزع الجنسَ من جسد المرأة ، ثم تُرمَى لزبون قادر على الدفع. وعلى أية حال فهذا تحايل على الزِّنا، وهو في واقع الأمر زنا صريح، ولكن بتسمية أكثر لطفاً لئلا ينفر الناسُ من هذا الفعل . ويقودنا هذا الموضوع إلى أن النصوص الدينية الوضعية تحاول إتاحة بعض الْمُنكَرات والمحرَّمات للناس، والعمل على شرعنتها وإباحتها ، لتجذب أكبر قَدْر ممكن من الأتباع، تماماً كالمحطات الفضائية التي تأمر المذيعات بكشف مفاتنهن لجذب أكبر قَدْر من الجمهور . ومما لا شك فيه أن إباحة زنا المتعة أو كما يُسمَّى " نِكاح المتعة " هو وسيلة

لجذب أتباع أكثر عبر شرعنة الزنا والاستمتاع بالنساء بطريق غير مباشر ، وبعبارات أكثر لطفاً .

إن إصرار النُّظم الرمزية في ميثولوجيا التشويش الدِّيني الشِّيعي على انتزاع إنسانية الإنسان ، أوصل المجتمعَ الشيعي إلى طريق مسدود ذهنياً ومادياً ، فظهرتْ الفوضى الدينية والاجتماعية ، وفَقدت النصوصُ الدينية_ التي يتم تقديمها كمسلَّمات _ القدرةَ على فهم طبيعة التاريخ الواقعي لا الخيالي . وهذا جعل من التاريخ مادةً صراعية داخل الذهن المتخيَّل . وما زالَ التفسيرُ غير المنطقي للدِّين عاملاً جوهرياً في تشكيل الأنساق الشيعية ، خصوصاً الأنساق اللغوية المندمِجة مع تناقضات فوضى الشعور البشري المحصور .

وبالتأكيد ، إن بناءَ مذهبٍ ديني كامل وفق أساس مُخَلْخَل لا يُعطي شرعيةً لأنساق العقيدة ، وطقوسِ الشريعة. والمذهبُ الجعفري المنسوب_زُوراً_ إلى الإمام جعفر الصادق_ رضي الله عنه _ مذهبٌ مُشوَّش لأن فيه أكاذيب كثيرة منسوبة للإمام جعفر الصادق لَمْ يَقُلْها . كما أن مصطلح " المذهب الجعفري " تَمَّ اختراعه في القرن العشرين على يد العالِم الشيعي محمد جواد مُغنية . وذلك لكي يَقف نِدَّاً لِند معَ مذاهب أهل السُّنة (الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي) . ولَم يَكن هناك شيء اسمه المذهب الجعفري، وإنما هناك روايات مُتفرِّقة مَنسوبة إلى أئمة آل البَيت ، تَفتقر إلى القواعد العِلمية في النَّقْل . فالشيعةُ لا يَملكون مَنهجاً عِلمياً في الجرح والتعديل وقبول الأسانيد والْمُتون . كما أنَّ مصطلح " المذهب الجعفري " يُشكِّل مشكلةً كُبرى ، فلماذا تَمَّ اختيار الإمام جعفر الصادق بالذات مِن بين اثْنَي عشر إماماً، لِكَي يُنسَب فقه الإمامية الاثني عشرية إلَيه؟.

وكيفَ نطمئن إلى صحة النَّقْل عند الشيعة الروافض ، إذا كان الكُلِينيُّ قد نَسَبَ القَول بتحريف القُرآنِ إلى الإمام جعفر الصادق في كتاب الجفر ؟! . وهذه هَرطقة واضحة .

((والكُلِينيُّ هُوَ الذي روى عن الإمام (جعفر الصادق) أنه قال إنَّ في القُرآن الكريم نَقْصاً . وقد كَذَّبَ تلك النِّسبة الإمام المرضيُّ وتلميذه الطوسي ، وغيرهما من كبار أئمة الاثني عشرية ، ونقلوا عن الإمام جعفر نقيض هذا ، وإنَّ مَن يَنقل الكذب ويَنْسِبُه إلى ذلك الإمام الْمُتَّبع لا يَصِحُّ عند أهل التمحيص أن تُقبَل كُلُّ روايته))(11).

(١١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة ، ص ٧٠٠ .

ولَم يَكتفِ الكَلِينيُّ بهذا ، بل كذب على الإمام جعفر الصادق مراتٍ لا تُحصَى في كتاب الجفر المنسوب _ كَذِباً وزُوراً _ إلى الإمام جعفر الصادق . وكتاب الجفر غالبية مروياته طريقها الكليني. فكيف سنثقُ بكتاب الكافي (عُمدة الشِّيعة الروافض) للكليني الذي لَم يَدَّخر جُهداً في نِسبة الأكاذيب للإمام جعفر الصادق ؟! . إذن، ما الذي يضمن صحة المذهب الجعفري المنسوب _ زوراً _ للإمام جعفر الصادق ، معَ أن الكذب على أئمة آل البيت_ عليهم السلام _ أحد أهم العقائد التأسيسية في الميثولوجيا الشِّيعية ؟ . والقاعدةُ تقول : ما تَطَرَّقَ إلَيه الاحتمالُ سَقط بِه الاستدلالُ .

والأحاديثُ المروية عن أئمة آل البَيت لا تعتمد على منهجية دقيقة مِن عِلم الجرح والتعديل ، ولا تحتوي على تاريخ زمني محدَّد لهذه المرويات ، الأمر الذي يجعلها أشبه بحكايات شعبية ومرويات لا يُعَوَّل عليها بتاتاً لأنها لا تستند إلى منهجية دراسات السند والمتن وعلم الجرح والتعديل، وهذه هي أبجديات عِلم الحديث الشريف.

إذن، نَخْلُص إلى القول إن الإمام جعفر الصادق_ رضي الله عنه _ لم يؤسس مذهباً، ولا يوجد شيء في الحقيقة اسمه المذهب الجعفري، وإن ما يُسمَّى بالمذهب الجعفري هو نتاج إسهامات مشوَّشة ذات منحى أسطوري لا حقيقة له ، وركام فكري صنعه أُناس مغرِضون من الروافض يعتمدون على المتاجرة بميراث أئمة آل البيت العِلمي وتحريفه اتباعاً للهوى والنَّزعة الفارسية الشُّعوبية .

وعدم وجود شيء اسمه المذهب الجعفري لا يطعن في الإمام جعفر الصادق ، فمثلاً الإمام الليث بن سعد أفقه من الإمام مالك، ومع هذا فلا يوجد مذهب اسمه المذهب الليثي ، وأيضاً الإمام محمد الباقر إمام عظيم، ولكن لا يوجد مذهب اسمه الباقري . فعدم وجود مذهب باسم الإمام لا يطعن في الإمام ولا يُقلِّل من شأنه أبداً .

وفي خضم وجود التناقضات المذهلة بين أقوال أئمة آل البيت _ عليهم السلام _ ، كيف نطمئن إلى أن الكلام الذي في كتب الشيعة هو كلام الأئمة مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ مع أن الروافض يعتقدون أن الأئمة معصومون؟، وإذا كانوا معصومين لماذا جاء التناقض الواضح بينهم كما وضَّحنا فيما سَبقَ ؟. وعلى أي أساس ظهر تعيين الإمام الذي يرث الإمام السابق ؟ . ولماذا اختيار أولاد الحسين لا أولاد الحسن ؟ ، ومن هو الإمام المعيَّن: الإمام محمد الباقر بن علي، أم أخوه الإمام زيد ابن عليٍّ ، وما الدليل على ذلك ؟. هل الحق في هذه المسألة مع الإمامية الاثني عشرية أم مع

الزيدية ؟ ، وما دليل هذه المسألة وضوابطها ؟. فالإمام قد يكون لديه أكثر من ولد، فهل التعيين كتابي أم شفوي؟، وإذا كان كتابياً أين ورقة التعيين ؟ ، وإذا كان شفوياً أين السند المتصل وعدالة الراوي وضبطه وعدم الشذوذ وعدم العِلة القادحة ؟ . ولماذا حصل انفصال للإسماعيلية الذين ساقوا الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل بعكس الإمامية الاثني عشرية الذين ساقوها إلى الإمام موسى الكاظم (ابن الإمام جعفر الصادق) ؟ ، ومعَ مَن الحق ؟، وما الدليل؟. وما هي الحكمة في استثناء إسحاق المؤتَمَن زوج السيدة نفيسة، وهو ابن الإمام جعفر الصادق ؟.

وللأسف فإن تعيين الإمام في الميثولوجيا الشِّيعية مشوَّش إلى أبعد حد، ويعتمد على مصالح شخصية للأتباع المفتونين بإمامهم ، فتأخذ المنفعةُ الآنية الذاتية بعداً تسييسياً لتحقيق أكبر عوائد مادية من استغلال الأتباع ، وإبقائهم خاضعين للابتزاز الشامل . وفي هذا الزَّخْم الانتكاسي ، تصيرُ إشكالياتُ الفكر الدِّيني تشريعاً إلهياً ، وهي _ في الحقيقة _ إفرازاتٌ بشرية مضطرِبة. وهكذا تَبرز أهميةُ غَربلة الموروث الشِّيعي تمهيداً لإلغائه لأنه مبنيٌّ على إسناد الأكاذيب لأئمة آل البَيْت بدعوى حُبِّهم والتمسك بميراثهم العِلمي. وهذا غير منطقي البتة ، ويتعارض مع مدرسة آل البيت النابعة من القرآنِ الكريم ، وسُنَّةِ جَدِّهم الأعظم النبيِّ محمد ﷺ .

وإذا دَرسنا العناصرَ غير المتجانسة في العقيدة الشيعية ، والشريعةِ الإمامية الاثني عشرية ، وَجدنا أن انهيار الذاكرة الشعورية متجذر في كل تفاصيل الدِّين الشيعي ، مما يَجعل لغوياتِ التراث الديني الشيعي تاريخاً من الكراهية والعنصرية والشُّعوبية والتماهي مع النواصب بشكل مرعِب . فالشِّيعة الروافض هُم نواصب في واقع الأمر ، لأنهم جعلوا دِينهم محتوياً على أكاذيب كثيرة منسوبة إلى أئمة آل البيت_ عليهم السَّلام_ . والكذبُ على إنسان هو نوعٌ من كراهيته وتشويه صُورته ، سواءٌ كان ذلك مباشراً أو غير مباشر .

والفكرةُ النَّاصبية في العقل الجمعي الشيعي تنبع من فكرة الشُّعوبية (معاداة كل شيء عربي). وبما أن أئمة آل البيت _ عليهم السَّلام _ عربٌ قرشيون هاشميون ، جاءت فكرة الحقد عليهم والكذب عليهم ، وهو _ أصلاً _ حقدٌ فارسي. وبما أن شهربانو زوجة الحسين _ رضي الله عنه _ فارسية ، أي إن الأئمة من أولاد الحسين أخوالهم الفُرْس ، ظَهرت فكرة احتكار التشيع مِن قِبَل الأداء الفارسي العَقَدي . والتشيعُ الإقصائي الْمُحتكَر مِن قِبَل الفُرْس أسَّس للقطيعة الكاملة مع جيل الصحابة _ رضوان الله عليهم _لِكَوْنهم عَرَباً . فالاستعلاءُ الفارسي ينظر إلى دولة فارس على أنها صاحبة حضارة بعكس هؤلاء الأعراب البدائيين القادمين من الصحراء الذين قَضَوا على

حضارة فارس المجيدة _ من وجهة نظر الأيديولوجية الفارسية الشيعية _. وهكذا بدأ الطعن في الصحابة استناداً إلى تيار عِرْقي عنصري يتمحور حول نقاء العِرْق الفارسي ، وتفوقه على باقي الأعراق ، خصوصاً العِرْق العربي الذي يُنظَر إليه مِن قِبَل الفُرْس على أنه بدائي مُتخلِّف همجي بدوي .

وانظرْ إلى كلام أحد الشعراء الشُّعوبيين يفتخر بالفُرْس أمام الخليفة الأمويِّ هشام بن عبدالملك:

مَنْ مِثْلُ كِسْرَى وسابورِ الجنودِ معاً والهُرْمُزانِ لفخرٍ أوْ لتعظيمِ
أُسْدُ الكتائبِ يوم الرَّوعِ إن زَحَفُوا وهمْ أذلُّوا ملوكَ التُّرْكِ و الرُّومِ
يمشُون في حَلَق الماذِيِّ سابغةً مَشْيَ الضَّرَاغِمةِ الأُسدِ اللَّهاميمِ
هناك إنْ تسألي تُنْبَيْ بأنَّ لنا جُرثُومةً قَهَرتْ عِزَّ الجراثيمِ

إن أي مذهب منحرِف بحاجة إلى غطاء لإقناع الآخرين باعتناقه ، أو شرعيةٍ يتسترون بها لترويج باطلهم . فاليهود استغلوا الهولوكوست لجلب تعاطف الناس مع مشروعهم الصهيوني ، والنصارى استغلوا عَظَمةَ المسيح ﷺ وطهارة أُمِّه العذراء _ عليها السلام_ لترويج باطلهم ، وتسويق تأليههم للمسيح باعتباره رمزاً للطهارة والنقاء والألوهية ! . وأيضاً قام الفُرْس بالتستر المزيَّف وراء آل البيت الأطهار الذين لا تُنكَر صفاتهم المحمودة ومكانتهم في الإسلام من أجل التشويش على عقائد المسلمين ، وتوجيه القلوب إلى اعتناق المذهب الشِّيعي الرافضي الذي يسير باتجاه مضاد للإسلام والعُروبة ومدرسةِ آل البيت ، مستخدمين حُب آل البيت ، والمتاجرة بتضحياتهم المشهورة ، وثورتهم على الظالمين .

وهذا أدَّى إلى ظهور صراع على التشيع،وصراع داخل التشيع. فالصراع على التشيع _ كما أسلفنا_ صراع بين مدرسة النجف العربية ، ومدرسة قُمْ الفارسية . وبالتأكيد فإن الفارسية قد انتصرت في صراعها بسبب وجود دولة صفوية وراءها تساندها وتحميها وتدعمها وهي إيران . كما أن الشيعة في كل العالَم تمت أدلجتهم إيرانياً ، بحيث صار المرشد الأعلى للثورة الفارسية الإيرانية هو إمام الشِّيعة الحامي لهم والراعي لمصالحهم ، وحارس الكهنوت الفارسي الشِّيعي الرافضي ، كما هو حال بابا الفاتيكان معَ الكاثوليك .

ومما لا شك فيه أن وجود إيران بوصفها الدولة الشِّيعية الرافضية الوحيدة في العالَم جعلها مركز الاستقطاب العالمي للشِّيعة، فمثلاً شيعة العراق موالون قلباً وقالباً لإيران الفارسية، وسائرون باتجاه مضاد للعروبة مع أنهم عرب، وكذلك شيعة لبنان والبحرين، وغير ذلك من الدول. فنخلص إلى القول إن التشيع تم احتكاره فارسياً حتى النخاع ، وتوجيهه باتجاه مضاد للوجود العربي الإسلامي في المنطقة، وللأسف فإن إيران تلعب لعبةً خطيرة، فهي تدعم المسلمين في مكان، وتقتل المسلمين في مكان آخر. ونحن من مصلحتنا أن تكون إيران قويةً لا توسعية، فنحن في خندق واحد من أجل اجتثاث العدو الصهيوني، وإلغاء المشروع الغربي الصليبي المتصهين في المنطقة ، لكننا ضد إيران كعقيدة رافضية ، وضد إيران توسعية، ومحتلة لأراضينا مثل الجزر الإماراتية الثلاث وغيرها ، وضد هذه القومية الفارسية العنصرية المتطرفة التي تحاول فَرْسَنة كل شيء بَدءاً من العقائد الدينية ، وانتهاء بالأماكن الجغرافية مثل الخليج العربي الذي يُسمِّيه القوميون الفارسيون المتطرفون بالخليج الفارسي. وكما أننا نؤكد على أن أمريكا هي الشيطان الأكبر، فإننا نؤكد في نفس الوقت أن إيران هي الشيطان الأصغر. وكما نؤكد على خطورة الكيان اليهودي الصهيوني ، نؤكد على خطورة الكيان الفارسي الصهيوني (إيران) .

ومفاهيم القطيعة الشيعية تنبثق من فرضية نقاء العِرْق الفارسي وتفوقه على باقي الأعراق والأجناس ، وهذه الفكرةُ المتطرفة هي ذاتها التي استعملها هتلر لتأكيد عُلُوِّ الألمان (العنصر الجرماني الأبيض النقي) على باقي الشعوب . وللأسف ، فإن الألمان وَقَعوا في هذا الفخ ، واعتنقوا فكرةَ نقاء عِرْقهم ، وتفوقهم على باقي الأجناس البشرية اعتماداً على عوامل بيولوجية ورُوحية ، فآمَنوا بأحقيتهم في السيطرة على العالَم ، وأن تكون الشعوبُ الأخرى خادمةً لهم . وهذه الأيديولوجية اعتنقتها الحركة اليهودية الصهيونية التي سَمَّت اليهودَ شعبَ الله المختار .

إذن، فمنظومةُ التطرف العِرقي والقَومي والديني واحدةٌ_ رغم اختلاف الأشكال والمسمَّيات_ ويتم استيراد هذه المنظومة ، ثم إعادة تشكيلها بما يتلاءم مع المسار الفكري والسياق التاريخي لكل مُكوِّن اجتماعي . وهنا ، تتجلى المنفعة الشخصية القائمة على تأسيس عبودية الإنسان للإنسان .

فاليهودُ مَثَلاً استغلوا الهولوكوست ليقوموا بحرق الفلسطينيين بنفس أسلوب محارق النازية مع الانتباه إلى أن محارق النازية لم تستهدف اليهودَ وَحْدَهم . كما أن أرقام ضحايا الهولوكوست مُبالَغ فيها . واليهودُ كانوا قد أَعَدُّوا أمورَهم لمغادرة ألمانيا بعد التسبب في اندلاع الحرب العالمية

الثانية. وبعد أن دَمَّر اليهودُ أوروبا بخيانتهم، أرادوا انتزاع شرعيةَ التعاطف معهم ، فقاموا بصناعة الهولوكوست ليغطوا على خيانتهم ، وينالوا عطفَ الآخرين. فبدلاً من أن يُحاسَب اليهودُ على مكرهم وخيانتهم التي دمَّرتْ حياةَ الشعوب الأوروبية، صار اليهودُ يُحاسِبون الأوروبيين على الهولوكوست التي لَم تحدث لليهود فقط .

وقد يتساءل أحدُهم فيقول : ما علاقة الكلام السابق بالتشيع الرافضي المؤدلَج فارسياً ؟ . فنقول إن التشابه المرعب بين الشِّيعة واليهود يضع علامة استفهام كبيرة حول أنظمة التسييس المتماهي مع الفكر اليهودي الصهيوني . وقد وضَّحنا بعضَ نقاط التقاطع بين الفكر الشِّيعي والفكر اليهودي سابقاً ، إلا أننا في هذا المقام سنكشف نقطةَ تقاطع محورية بين المدرستَيْن . فكما أن اليهودَ حرقوا أوروبا بخيانتهم، وحَمَّلوا الأوروبيين المسؤوليةَ ، فأيضاً الشِّيعة خانوا أهلَ البيت وحمَّلوا المسؤوليةَ لأهل السُّنة والجماعة ، مع أن التاريخ الساطع والمعروف للجميع يُثبِت أن أهل الكوفة الذين زعموا أنهم شيعة آل البيت قد خانوا عَلِيَّاً والحسين، واستمروا في خيانة آل البيت على مدار الأطوار الزمنية ، بعد أن رفضوا تضحياتِ أئمة آل البيت ، وباعوهم من أجل الدرهم والدينار . وبعدكل هذه الخيانات المتعاقبة صارت المسؤولية على أهل السُّنة والجماعة الذين تمَّ تصويرهم في الميثولوجيا الشيعية كمجرمين قَتَلوا رِجالَ آل البيت ، وقاموا بِسَبْي نساءَ آل البيت ! .

والمفارقةُ الواضحة أن التشيع الرافضي ينجح فارسياً بشكل نسبي في حين أنه يفشل عربياً ، والتحليل المنهجي لهذه الحالة هو أن الفُرْس عموماً يميلون إلى التحلل من الأخلاق والقيم النبيلة ، فالزِّنا في الوسط الفارسي كان متفشياً بصورة جنونية وبشكل منهجي أسَّسه كل الذين تناوبوا على حُكم فارس ، وهذا انعكس على شرعنتهم لنكاح المتعة المحرَّم في الإسلام ، فأهل السُّنة والجماعة والزيدية والإباضية يدٌ واحدة في تحريم نكاح المتعة الذي هو زنا مُقنَّع ، أما الإمامية الاثنا عشرية فبحُكم خضوعهم للفكر الفارسي المجوسي فإنهم أوجَدوا شرعيةً للزِّنا عن طريق شرعنة نكاح المتعة، وصبغه بأدلة شرعية من وجهة نظرهم ، حيث إنهم قاموا بلوي أعناق النصوص ، وتطويعها لتتناسب مع أفكارهم المسبقة في تحليل الحرام ، وإباحة الزِّنا ، والعلاقات الجنسية ، مما يضمن للتشيع الرافضي شعبيةً في أوساط الذين يريدون التحلل من شرائع الإسلام، واستغلال شهواتهم في الطريق الخاطئ، وبالتالي فإن صُنَّاعَ التشيع أتاحوا فرصةً_ زعموا أنها مضبوطة من ناحية الشريعة_ للزِّنا بشكل غير مباشر ، وفتحِ المجال واسعاً أمام الشباب الذين يريدون ممارسة

الجنس بلا زواج شرعي معترَف به لكنهم بحاجة إلى غطاء منسوب إلى الدِّين ، وإلى شرعية اجتماعية تحفظ ماءَ وجههم أمام المجتمع الإنساني ، فتم لهم ما أرادوا عن طريق تجارة الرقيق الأبيض تحت مُسمى نكاح المتعة الذي اخترعوا له مناقب جمة، ونسبوها إلى أئمة آل البيت ليؤسِّسوا شرعيةً دِينية معصومة .

وفي تاريخ المسلمين ظهرت في فترة من الفترات القِيان والمغنيات والجواري الفارسيات اللواتي تواجدن في قصور الخلفاء والأثرياء من أجل الرقص والاستمتاع بهن ، لأن الفُرْس ينظرون إلى الجنس بصورة شهوانية موغلة في الإباحية ، حتى إن زنا المحارم كان موجوداً في أوساط الفُرْس المجوس ، ثم صار يُعاد تشكيله وفق صور مختلفة وأشكال متعددة ، وإلباسه لبوساً دينياً وفتاوى من كبار علماء الشيعة الروافض . مثل فتوى الخميني الشهيرة في موضوع الْمُفاخَذة ، والاستمتاع بالرضيعة ، وهي مشهورة ومتداولة في أوساط الروافض . كما أن التشيع المتماهي مع الفارسية المجوسية شَرَّعَ التحللَ والإباحية ليجذب الأتباعَ ، وهكذا نفهم الانتشار الجنوني للزِّنا المسمَّى نكاح المتعة الذي يُعَد نتاجاً طبيعياً لإفرازات الفوضى الجنسية المصبوغة بالدِّين ، ونفهم كذلك وجود ملايين الشباب الإيرانيين الذين يتعاطون المخدَّرات حَسَبَ تقارير منظمات دولية في دولة تُسمَّى إسلامية ، مع أن الحكومة الإيرانية تعترف بأعداد قليلة جداً لتُحسِّن صورتها ، أضف إلى هذا ، مئات الآلاف من الإيرانيات الضائعات في نِكاح المتعة .

وفي كتاب العَين للفراهيدي (٧/ ٢٠) : ((قال أوس بن حَجَر :

والفارسيَّةُ فِيكُمْ غيرُ مُنْكَرةٍ فكُلُّكُمْ لأبيه ضَيْزَنٌ سَلِفُ

شَبَّهَهُم بالمَجوسِ يتزوَّج الرَّجلُ مِنهم امرأةَ أبيه ، وامرأةَ ابنه . الضَّيْزَنُ : النَّخاسُ)) اهـ .

وقد كان الرَّجلُ من المجوس يتزوج من أُخته ، أو ابنته ، أو أُمِّه ، بلا نكير . وهذه ثقافة اجتماعية منتشرة ، وواضحة ، ومشهورة ، ولَيست بحاجة إلى شواهد تاريخية . فجميعُ الباحثين في أنحاء العالَم يَعرفون هذه الحقيقة ، ولا أحد يُنكِرها ، حتى في الأوساط الفارسية الإيرانية .

ولَيْسَ يَصحُّ في الأَذْهانِ شَيْءٌ إِذَا احتاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ

إن احتكار الشيعة الروافض لآل البيت ، وانتسابهم الظاهري إليهم ، مع أن آل البيت بريئون من خرافات الإمامية الاثني عشرية ، جعل الناسَ حينما يسمعون بذكر الفضائل الجليلة لآل البيت يظنون الشخصَ شيعياً رافضياً . وقد ذكرتُ أمام الناس _ ذات مرَّة _ الحسين ، وقلتُ عقب اسمه _ عليه السَّلام _ ، فتضايق الجميع ظناً مني أني شيعي ، وحَدثت إشكالاتٌ جَمَّة يومئذ . وفي واقع الأمر لا أريد أن ألوم الناس لأن الأدلجة الشيعية الرافضية والكذب على آل البيت جعل الناسَ بحركة تلقائية عفوية يبتعدون عن ذكر ثورة الحسين المجيدة أو فضائل الإمام الباقر، أو فضائل الإمام الصادق خوفاً من اتهامهم بالتشيع. وأنا أُحَمِّل المسؤوليةَ كاملةً للشيعة الذين أسندوا العقائدَ الباطلة إلى أئمة آل البيت ، وبَنَوا وَهْمَهم الفارسي الشُّعوبي الذين يطعن في عقائد المسلمين على كلمات خيالية نسبوها لأئمة آل البيت وهُم منها بَراء .

إذن ، ينبغي إنهاء احتكار الشيعة لآل البيت عبر إعادة تثبيت المفاهيم الصحيحة في نفوس المسلمين . فكما أن الكتاب والسُّنة الصحيحة هما عمودا الإسلام ، فأيضاً آل البيت والصحابة هما العمودان اللذان يقوم عليهما الإسلامُ ، ولا يُمكِن الفصل بينهما مُطْلقاً ، وهما رأس أهل السُّنة والجماعة . أمَّا الذين يُسَمُّون أنفسهم بالشيعة وهم _ في الحقيقة_ نواصب ، فيعملون في محيطات ذهنية موالية للمشروع الفارسي الإيراني ، فولاؤهم لإيران الفارسية الرافضية لا للعروبة والإسلام.وهذا الاحتكار الأيديولوجي يُشبِه احتكار النصارى للمسيح ﷺ ومريم _عليها السَّلام_.

والواجب تعرية المتواليات العَقَدية الشيعية ، وتوضيح برامجها المشبوهة التي تستغل الدِّينَ لأهداف سياسية ومذهبية هادفة إلى إعادة صناعة الدولة الصفوية المتطرفة ، وإرجاع صيغة الحضارة الفارسية الشاذة عن المسار الإنساني . ولا يخفَى أن شعارات الوحدة الإسلامية ، وسحق العدو الصهيوني ، والتصدي للغرب الإسخريوطي شعارات جميلة، ولكن ينبغي تدقيق تفاصيلها، وأجزائها الداخلية، وأبعاد تطبيقها ، ففي الغالب تتزامن هذه الشعارات مع فكر توسعي شيعي مدعوم من إيران للسيطرة على العالَم الإسلامي السُّني. وكما قلتُ فنحن في مركب واحد _ سُنَّة وشيعة_ ضد العدو الصهيوني وسيطرة الغرب الاستخرابي الكافر ، ولكننا ضد المشروع الشيعي المتطرف لابتلاع العالَم الإسلامي،وتأسيس الهلال الشِّيعي وكسر الهلال السُّني. إننا مع المقاومة يداً بيد، ولكننا ضد احتلال الشيعة لإيران والعراق وسوريا ولبنان ، والمارد السُّني حاضر بقوة في هذه المنطقة مما يُشكِّل عائقاً مرعباً أمام وحدة الاتصال الشيعي الرافضي ، فَرُبْعُ سكان إيران مِنَ السُّنة ، رغم أنهم مقموعون، حيث يُقتَل علماؤهم على يد أجهزة الأمن الإيرانية، ويُمنَعون من بناء

مساجدهم وأماكن التعليم والتدريس الخاصة بهم، ويتم التمييز ضدهم في الوظائف،ونصف العراق سُنَّة (العرب والأكراد والتركمان)، و ٨٠ % نسبة السُنة في سوريا على الرغم من أن النظام نُصَيْري قامع لأهل السُنة، وقامَ بتهجيرهم ، و٣٥% من لبنان سُنَّة تحت ضغط الميليشيات الشيعية المسلحة المتطرفة ،كما أن المحيط العربي محيط سُنِّي ، وأيضاً السُنة قوة ضاربة ولا يُعتبَر الشيعة أصحاب وزن في العالَم الإسلامي عددياً ، فهم نقطة في بحر ، ومع هذا فقد أخذوا _ بالتعاون مع جهات خارجية _ يحاولون احتلال البلاد الإسلامية للسيطرة عليها مثل العراق وسوريا ولبنان والبحرين واليمن . الأمر الذي يستدعي انتباهاً حقيقياً لردعهم ووضعهم في قَدْرهم ومنعهم من السيطرة سلمياً وعسكرياً.لكن السُنة ليسوا أطفالاً، فهم أكبر تكتل بشري نقي في العالَم، إذ إن عددهم أكثر من عدد الكاثوليك.والسُنة في أندونيسيا فقط أكثر من عدد الشيعة في العالَم .

إن ترسيخَ قيمة الوهم كأيديولوجية نفعية قائمة على استغلال الدِّين من قبل" آيات الله" وسرقة الناس وابتزازهم باسم الْخُمْس ، هو ترسيخٌ لانهيارِ الماهياتِ الدينية ، والمركزياتِ ذات المنحى الشعبي الميثولوجي . والتمحورُ حول انتكاسة الفكر الشيعي أرسى دعائمَ الفوضى الخلاقة التي تُحال إلى نصوصٍ دِينيةٍ خياليةٍ قائمةٍ على النفي والنفي المضاد ، ومعتمدةٍ على جمع إشكاليات النفي والنفي المضاد في صيغة إثبات شَرعية . وهذا تناقض مرعب لا يمكن أن يستمر لأنه يَحمل في جَوْفه بذورَ نهايته .

واعتمادُ النَّص الديني الشيعي على تكرار الأساطير ، إنما يَرمي إلى انتزاع شرعية افتراضية من كَومة علاقات تاريخية ذهنية . وهذا الأمر قادَ إلى جعل التشيع نظاماً كهنوتياً مغلقاً وقائماً على أُسس باطنية ، وأدى إلى اصطدام المعنى باللفظ واللفظ بالمعنى ضمن السياق اللغوي العَقَدي ، وقَسَمَ المجتمعَ الشيعي إلى طبقتين: طبقة " آيات الله " التي تتاجر بشرعية آل البيت لتحقيق أغراض توسعية فارسية ، وطبقة الشعب العادي المسحوق ، وصَنَعَ مفاهيم أكثر عنصرية وحِدَّةً في التعامل مع التاريخ الأناويِّ (نسبة إلى الأنا) ، والغَيْري (نسبة إلى الغَيْر) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشيعة سَيَبْقون أقليةً في العالَم الإسلامي ، واقعة تحت الحكم السُني، لأن العالَم الإسلامي فتحه الصحابةُ العَرَب _ رضوان الله عليهم _، ولم يفتحه الخميني وشيعته أو الفُرس . ولولا قيام عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ الذي يُكفِّره الشيعة الروافض ويشتمونه ، بالقضاء على دولة فارس لظلت إيران متخلفة ساجدة للنار ،كما كانت طوال الحضارة

الفارسية المجوسية الرجعية البائدة . وَلَبَقِيَ الشيعة عبيداً في قصور كِسرى، ونساؤهم جواري القصر، بلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل .

ونحن هنا لا نريد تفريق الصف الإسلامي، ولكن القيادة لا تكون إلا بيد السُّنة ، وغير ذلك يعني حرباً ضرورية لتطهير العالَم الإسلامي من أي حكم شِيعي ، لذا علينا جاهدين قلب نظام الحكم في إيران وتأسيس نظام سُنِّي بالتنسيق مع قوى الداخل وغيرها . وهكذا نضمن استمرارَ مسيرة العالَم الإسلامي مع المحافظة على الأقليات دون التعدي عليها ، لأنَّ من العبث أن يَحكم الشيعة وهم أقلية لا يُمثِّلون سوى ١٠% من العالَم الإسلامي .

إن نقض الأيديولوجية الشيعية يستلزم الوقوف على التناقضات الجلية والخفية في سياقات غبش السلسلة الحديثية في النقل عن أئمة آل البيت ، فالكذبُ عليهم بشكل منهجي مُبرمَج هو دستور الشيعة المقدَّس ، لذا فالكلام المنسوب إليهم تعتريه شكوكٌ كثيرة فلا ترتاح إليه النَّفْس .

لذا فإن سند الأحاديث موغل في العَتَمة إلى حد كارثي مما أدَّى إلى ظهور فوضى عارمة في أنساق الطبيعة السياقية للتسلسل . ولا يخفَى أن انهيار سند الحديث يَسحب الشرعيةَ من المتن بشكل حاسم ونهائي . وفي سلسلة الأئمة الاثني عشر الذين يَنسب الشيعةُ أنفسهم إليهم هناك بعض الإشكاليات المتعلقة بثلاثة أئمة وهم :

[١] علي بن موسى الرضا (الإمام الثامن) : طَعن فيه ابنُ طاهر . وقال ابنُ حبان في المجروحين (٢/ ١٠٦): ((يَروي عن أبيه العجائب. روى عنه أبو الصَّلْت وغيره. كأنه كان يَهِمُّ ويُخطِئ)).
لكن الذهبي دافع عنه ، وقال إنما الشأن في ثبوت السند إليه، وإلا فالرَّجل قد كُذِب عليه . [ميزان الاعتدال (٣/ ١٥٨)] .

[٢] محمد بن علي الجواد (الإمام التاسع): توفي وهو في الخامسة والعشرين، ولم يُعرَف عنه طلب العِلم أو تدريسه [انظر كشف الجاني ، ص ١٧٣] .

[٣]الحسن بن علي العسكري(الإمام الحادي عشر):قال ابن حجر في لسان الميزان(٢/ ٢٤٠): ((ضعَّفه ابن الجوزي في الموضوعات)) اهـ. وقال ابن تيمية في منهاج السُّنة النبوية(٤/ ٨٧) : ((قَد ذَكر محمد بن جرير الطبري وعبد الباقي بن قانع،وغيرهما من أهل العلم بالأنساب والتواريخ أن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل ، ولا عَقِب . والإمامية الذين يزعمون أنه كان له ولد ، يَدَّعون أنه دخل السرداب بسامرا ، وهو صغير)) اهـ .

وهكذا يتضح مدى الإشكاليات التي رافقت متأخري أئمة آل البيت كما يُسمِّيهم الشيعة ، ونحن لا نُسَلِّم أنهم كانوا جميعاً أئمة ، فينبغي التفريق بين المتقدمين منهم والمتأخرين ، فالسلسلة إلى الإمام موسى الكاظم _ رضي الله عنه_ تشتمل على أئمة عِظَام من أهم علماء المسلمين في كل العصور ، وهم سادات بني هاشم في العِلْم في زمانهم ، أما بعد الإمام موسى الكاظم فَضَعُفَ المستوى العلمي " للأئمة " وضَعُفت الشخصيةُ الاعتبارية التي كانت للأئمة المتقدِّمين ، على الرغم من أن الإمام علي بن محمد الهادي كان فقيهاً إماماً مُتعبِّداً وهو من المتأخرين .

لقد تَمَّ حقنُ النصوص الدينية الشيعية بفِكر التبعية لسُلطة الكهنوت الفارسي المتركِّزة في قبضة شخص واحد معصوم _ حَسَبَ أيديولوجية التشيع الانتكاسي _ ، وهو المرشد الأعلى للثورة الإيرانية التي لم تكن سوى انقلاب مصلحي لتحقيق نفوذ شخصي ومكاسب مادية ذاتية ، في حين أن الشعب لا أحد يَعبأ به ، فالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية من سيء إلى أسوأ ، وهذا يدل على أن ما قام به الخميني عبارة عن انقلاب عسكري لتحقيق مكاسب مادية له ولأتباعه . خصوصاً أن فرنسا هي التي احتضنت الخميني ، وهذا يَجعل الخميني شخصاً مشبوهاً .

وفي هذه الحالة من الانهيار الهادم ، لا مفر من تعرية النَّص الديني المؤدلَج ، وذلك عن طريق تجريد سُلطة الكهنوت الشيعي المسلَّط على العوام من غبش الألفاظ وغموضِ المعاني . وهذا الأمر شديد الصعوبة ، لأن العقيدةَ الشيعية الفارسية الضاغطة هي كَومة تراكمات روتينية مُقنَّعة لتجذير الخنوع في نفوس الناس ، مما يضمن استغلالاً أوسع وأكثر ديمومة وأكثر شراسة . أمَّا عباءة التقوى التي يرتديها " آيات الله " فتهدف إلى خداع الرأي العام ، ومحاولة انتزاع رأي عام مساند لهم على أساس أنهم أنقياء يُمثِّلون الدِّين الصحيح ، ويُطبِّقون شرعَ الله تعالى ، ويَسيرون على خُطى أئمة آل البَيْت ، وهذا مخالف تماماً للحقيقة .

ولأن تعميم الغموض الكهنوتي يهدف بالأساس إلى إقامة قطيعة فعلية مع المقوِّماتِ الرئيسية للإسلام، ظهرت لدينا نصوصٌ دينية شيعية تُشَرْعِن هذه القطيعةَ، وتَلْوي أعناقَ النصوص الشَّرعية، وتخرجها من سِياقها الحقيقي، وتصنع بُنى شكلية موغلة في تقديس اللامقدَّس.ومثل هذا الاضطراب يؤدي إلى تفريغ النَّص اللغوي الخاضع لفلسفة التشيع الوهمية من معاني الفكر المنهجي الحاسم. وهنا تبزغ إشكالية صارمة، وهي أن الأنساق التاريخية المتخيَّلة ، والإفرازات الفكرية البشرية ، تتم إحالتها إلى تيار دِيني وهمي (مذهب الإمامية الاثني عشرية) الذي يَحمل في أنساقه المتشعبة بذورَ انهياره، بسبب التشويش الهائل في طبيعة بناء إشكاليات النص الديني .

ومن الواضح أن دِينَ الشيعة قائم على قاعدة تفوق العِرْق الفارسي . والشيعةُ العرب ليس لهم أي وزن مُطْلقاً لأنهم خاضعون لأسطورة ولاية الفقيه الفارسية التي وُضِعَت لتجذير سيادة الفُرْس على العرب عبر احتكار التشيع بصورة دراماتيكية ، واستخدامِ العملاء من الشيعة العرب المعادين للعروبة والموالين للفُرْس كورقة رابحة لخيانة أمتهم في سبيل تحقيق رِفعة المشروع الفارسي الصَّفوي على أنقاض العروبة السُّنية .

ومن الجدير بالذِّكر أن هناك علماء من الشيعة لا ينتهي نسبُهم إلى النبيِّ ﷺ ، ومع هذا يضع الواحدُ منهم على رأسه عِمامة سوداء ليخدع العوام بأنه من أئمة آل البيت _ عليهم السَّلام _ ليكتسب شرعيةً واهمة ، ويُسَوِّق نفْسَه من أجل تحقيق مزيد من الأرباح والمكاسب المادية على حساب الشعب المسحوق الباحث عن رغيف الخبز . ونحن عندما نقول " آل البيت " فإنما نعني الثَّقَلَ الأكبر الملتزم بالكتاب والسُّنة الصحيحة ، أمَّا الفَسَقة من آل البيت فلا وزن لهم ، وليس لهم أية قيمة . وكذلك بالنسبة للصحابة _ رضوان الله عليهم _ فإننا نعني الثَّقَلَ الأكبر الملتزم بالكتاب والسُّنة الصحيحة ، أمَّا إن كان صحابياً وغير ملتزم بالشَّرع ، فلا وزن له ، وليس له أية قيمة . وقد رأينا أشخاصاً لا قيمة لهم من آل البيت ومن الصحابة. وهؤلاء حُجَّة على أنفسهم ولا يُمثِّلون المدرسة الفكرية المستقيمة لآل البيت والصحابة .

لقد قامت " الاثنا عشرية " بتشييد فرضيات دينية استغلالية ، وتحويلها إلى نظريات عَقَدية ذات امتداد فكري في الواقع العملي ، مع أنها في الحقيقة تفتقد إلى معنى النظريات، فهي لَيْست بأكثر من فرضيات رمزية مُؤطَّرة ضمن أُطر المتاجرة بثورات أئمة آل البيت الذين ضَحُّوا بحياتهم لكي يَكذب عليهم الشِّيعةُ في كل المحافل . وبالإضافة إلى هذا ، فإن البُنية الشيعية الفارسية مضادة للعروبة والإسلام ، وهذه ردة فِعل ناتجة عن انكسار دولة فارس في معركة القادسية .

والنَّصُّ الديني الشيعي الحِكائي يمثِّل حتميةً متشعبة لا ديناميكية . وأيضاً ، يقوم النَّصُّ بنفي نفْسه رغماً عنه ، لأنه يَحمل فكراً ميكانيكياً مضطرِباً يقضي على مصداقية العقيدة ، ويكرِّس التآكلَ الاجتماعي في بيئة الفرد والجماعة ، ويؤسِّس أركان سُلطة اللامقدَّس التي تُقدَّم على أنها مركزية المقدَّس . وهذه القضايا مجتمعة تُفرِز علمَ كهنوت شيعياً قائماً على استغلال الثغرات التاريخية. ويقومُ النَّصُّ الدِّيني المسيَّس بتوظيف هذه الثغرات من أجل صناعة هولوكوست شخصاني وافتراضي خاص بآل البيت لأنهم آل البيت، والمتاجرة بدمائهم الثورية ، وتوظيفها

سياسياً لإخراج الناس من الإسلام ، وإدخالهم في مذهب مشوَّش تنخره الشكوك والشبهات والنقد والنقض ، وهو المذهب الجعفري الوهمي .

وتبرز فكرةُ الخطيئة في الميثولوجيا الشيعية بشكل يتماهى مع فكرة الخطيئة عند النصارى (أسطورة الإله المصلوب الذي ضحَّى بحياته من أجل أتباعه لكي يضمن لهم الخلاصَ الأبديَّ). والشيعة يلعبون نفسَ اللعبة، فهم ينظرون إلى تضحيات أئمة آل البيت_عليهم السلام_ على أنها خلاص وتخليص لهم . ففي الكافي (١/ ٢٦٠) كتاب الحجة : ((إن أبا الحسن موسى الكاظم _ وهو الإمام السابع من أئمة الإمامية الاثني عشرية_ قال : الله عز وجل غضب على الشيعة ، فخيَّرني نَفْسي أو هُم ، فَوَقَيْتُهُم بنفْسي)) اهـ .

وعِبْءُ الخطيئة التي يحملونها في ذكرياتهم _ وهُم الذين خانوا آلَ البَيتِ وشَتَموا الصحابة _ يجعلهم يدخلون في حفلة اللطم والضرب والنحيب في كل مناسبة مثل عاشوراء وغيرها كثير، وهذه المراهَقَة الدينية نابعة من فكرة الخطيئة ، وحُلمِ التطهير والخلاص . وبشكل عام ، إن النَّص الديني الشيعي نتاجٌ أيديولوجي غامض لفكرة الخطيئة المتماهية مع الميثولوجيا النصرانية، فكما أن النصارى يعتقدون أن المسيحَ ابنُ اللهِ صُلِبَ لِيُخَلِّص البشريةَ مِن ثِقْلِ الخطيئة ، يعتقد الشيعةُ بشكل أو بآخر بأن الحسين قُتِلَ لِيُخَلِّصهم ، مع أنهم هم الذين قتلوه وخانوه وطلبوا منه المجيء لإنقاذهم ثم باعوه مقابل الدينار والدرهم ، وهذه هي فلسفة التشيع في كل الأطوار التاريخية .

ومن أبرز العقائد الخيالية عند الشيعة ، النظرُ إلى أهل السُّنة على أنهم قَتَلة آل البيت _ عليهم السلام _ . وهذه العقيدة الخرافية منتشرة بصورة مرعبة في أوساط الشيعة ، فمعاوية يُقدَّم على أنه إمام أهل السُّنة الذي جعل شتمَ عليٍّ بن أبي طالب على المنابر . وبالطبع فالشيعة يُقدِّمون عَلِيَّاً على أنه إمام الشيعة . ويزيد السُّني قتل الحسينَ الشيعي ، والدولتان الأموية والعباسية (السُّنة) قتلتْ وأبادت أئمة الشيعة (أئمة آل البيت) ، وأبادت الشيعةَ . وهذه العقائد المغلوطة هي نتاج لسياسة المراهَقة الدينية السائدة في الفكر الشيعي المؤدلَج فارسياً ، والْمُعادي للعروبة والعرب الذين أسْقَطُوا دَولة فارس . وحِقْدُ الشِّيعةِ مُرَكَّزٌ على عُمر بن الخطاب بالذات ، لأنَّه قضى على دَولة فارس المجوسية .

إن القاتل لا يُمثِّل إلا نَفْسَه . والدولتان الأموية والعباسية تمثِّلان نَفْسَيْهما ، ولا تتحدَّثان باسم الإسلام ، لأن الإسلام معصوم ، أمَّا المسلمون فغير معصومين . فإن رأيتَ مُسلِماً قاتلاً ، فهذا لا يعني أن الإسلام قاتِلٌ . وإن رأيتَ مُسلِماً يزني ، فهذا لا يعني أن الإسلام يحض على الزنا

والفواحش . فالسلوكيات التي تَصدر عن أي شخص تعكس شخصيته الذاتية ، وهو يتحمل أعمالَه . وكل مُسلِم هو حُجَّةٌ على نفْسه ، وليس حُجَّةً على الإسلام ، فالإسلام هو الْحُجَّة على الناس ، وليس العكس .

ومن المشكلات الأساسية في الفكر الديني الشيعي ، افتراضُ حتميةً تاريخية مرتبكة ، ومحدَّدة المسار والمصير مُسْبقاً ، تنتهي بظهور الإمام المهديِّ المخلِّص حسب أدلجة الوهم الشيعي ، وهذا مرجعه إلى التماهي غير المنطقي مع انهيارات فكر اللامنهجية الدينية. ونحن نقول إن المهديَّ سيظهر لا محالة ، وظهوره العلني مسألة وقت ، وهو إمام أهل السُّنة والجماعة. وسوف يعود كل الشيعة الروافض إلى الإسلام الصحيح (منهجية أهل السُّنة والجماعة) في حال ظهوره الصاعق ، حيث سَيُسْقَط في أيديهم . فَمَن اتَّبعَ الحقَّ وخالفَ هواه اتبع المنهجَ السليم ، ومَن أخذته العِزَّةُ بالإثم فقد باء بالْخُسْران في الدارَيْن .

إن انتشار التشيع المسيَّس بقوة السيف والإبادة الجماعية ساهم بشكل كارثي في فرض الإقامة الجبرية على المسار النقدي العقلي . فالدولة الصفوية التي أسَّست وجودَها على دماء البشر عبر إجبارهم على اعتناق المذهب الشيعي الرافضي ، أو قتلهم وتهجيرهم ، هي نتاج سياسات غارقة في ميكانيكا النُّظم الرمزية المزدهرة في حفلات الإبادة الجماعية والتطهير العِرْقي . ومع غياب الدولة الصفوية الأولى ظهرت الدولة الصفوية الجديدة (إيران) بصورة أشد تطرفاً من ناحية العقيدة الدينية . وأيضاً ، انتشر التشيع بالمؤامرات والخيانات والخطط المرسومة خلف الأبواب المغلقة ، والتحرك تحت الطاولة .

وهذا واضحٌ تماماً في تاريخ الشيعة والتَّشيع ، بحيث إنه أمرٌ بديهي لا يَحتاج إلى إعطاء أمثلة ، والتاريخُ شَاهِدٌ لا يَكذب . إذن ، لا بد من كسر الصَّنم الشيعي ، فكسرُ الصنم أهم من تحذير الناس من عبادته . ولا بد _ كذلك _ من الثورة على التشيع ، التي تُعتبَر بحق انقلاباً على نظام إقطاعي يأخذ منحى دينياً ، تماماً كما يحدث في الهند من تقسيمات طبقية ذات خلفية عَقَدية هندوسية . ولا مَعنى لهالة القداسة الأسطورية التي تُحيط برجال الدِّين الروافض الذين يعتمدون _ بالحق أو بالباطل _ على كَوْنهم من ذُرية الإمام الحسين _ رضي الله عنه _ لكسب تعاطف الناس ، وإضفاءِ فقاعة العِصمة والقداسة على أعمالهم التي تَظهر وكأنها تأييد مباشر لهم من الله تعالى ، وهذه النظرة النرجسية المتهاوية ساهمت في غرورهم ، وازدياد ابتزازهم للعوام الجهال . وهؤلاء ينطبق عليهم قول الإمام الشافعي _ رحمه الله _ :

دَعْ عَنْكَ الذين إِذَا أَتَوْكَ تَنَسَّكوا   وإذا خَلَوْا فَهُـمْ ذِئَابُ خِرَافِ

إن إيران _ باعتبارها قائدة المشروع الشيعي في العالَم _ تعمل جاهدةً على ترسيخ الوجود الشيعي في منطقة ترفضه ، وإعلانِ نجاح مشروع الهلال الشيعي على حساب رفاهية الشعب الإيراني الذي يعاني من مشكلات الفقر والبطالة والعنوسة وتعاطي المخدرات .

فعلى إيران بوصفها الدولة الشيعية الرافضية الصفوية الوحيدة على سطح الأرض أن تركز جهودَها في بناء الشعب الإيراني ، وبناء دولة قوية من أجل استئصال الورم الصهيوني في جسد الأمة، والقضاء على الوجود الأمريكي في المنطقة . وعليها في نفْس الوقت أن تتخلى عن قتل أهل السُّنة والتضييق عليهم في إيران والعراق وسوريا ولبنان ، وتلغيَ مشروع الهلال الشيعي الذي لن يستفيد منه سوى العدو الصهيوني والغرب عبر تمزيق الأمة أكثر وأكثر .

ومن الواضح للجميع أنه بعد سقوط نظام صدام حسين بسبب تواطؤ الشيعة مع أمريكا لغزو العراق ، _ وهذا غير مستغرب عنهم في كل العصور _ ، بدأ الشيعة الروافض يتحسسون شهوةَ السُّلطة والسيطرة على البلاد ، ونهبِ خيراتها ، وتأسيس نظام قمعي تماماً كنظام صدام . وهذا ساعد إيران على ابتلاع العراق ، والتغلغل في أدق تفاصيله . وبدأ المدُّ الشيعي الرافضي يتكرس بالتعاون مع أمريكا . إذ إن تقاطع المصالح الأمريكية والإيرانية في أرض العراق جعل العراقَ هو الضحية ، وكأنه صار ملعب كرة قدم يلعب عليه فريقان لا يحتويان على أي عنصر محلي . فالحلمُ الإيراني هو الوصول إلى البحر المتوسط ، من أجل استعادة أمجاد دولة فارس المنقرضة . والناظرُ إلى خارطة العالَم الإسلامي من جاكرتا حتى مراكش ، يُلاحِظ وجود كيانَيْن غريبَيْن ، الأوَّل هو العدو الصهيوني في فلسطين ، والثاني هو العدو الإيراني الفارسي .

وقد انتبهت أمريكا إلى الخطر الشيعي أكثر من أي وقت سبق ، خصوصاً مع صعود إيران كقوة إقليمية ، وغيابِ اللاعب العربي على الخارطة العربية . والفكرة التي تخيف أمريكا هي أن الشيعة في العراق بوصفهم أتباعاً لإيران ، إذا سيطروا على العراق _ وهذا مستحيل تاريخياً وجغرافياً واقعياً وخيالياً _ فإنهم سيتحالفون مع سَيِّدتهم إيران ، ويصبحون عملاء مزدوَجين ، يبتزون أمريكا لصالح إيران، ويبتزون إيران لصالح أمريكا لكي يخرجوا بفوائد مادية شخصية ، ومكاسب على الأرض،وتعميق نفوذهم على جثث أهل السُّنة في العراق أصحاب البلاد الحقيقيين.

وبالطبع فالأمور ليست بهذه السهولة ، فالروافض الذين يسيطرون على العراق بصورة شكلية حالياً ستزول سيطرتهم الوهمية تماماً كما حدث في مصر،حيث تكرَّست الدولةُ " الفاطمية " الإسماعيلية واحتلت البلادَ ، ثم قُضِيَ عليها تماماً. وهذا ما سيحصل في العراق . إذ إن تأسيس دولة صفوية في العراق بواسطة عملاء إيران من الأعراب أعداء آل البيت _ عليهم السلام_ ليس سهلاً بالمرة . فأهل السُنة (العرب والأكراد والتركمان) متواجدون بكثافة في العراق ، وهم نصف العراق عددياً ، ويسيطرون على ثُلُثَي العراق جغرافياً . والأنبارُ _ التي هي محافظة سُنِّية _ تُشكِّل لوَحْدها رُبْعَ مساحة العراق .

أضف إلى هذا أن أمريكا لن تسمح بسيطرة شيعية على العراق، ليس حباً في أهل السُنة، بل كرهاً لإيران . فأمريكا تعلم أن زعماء العمق الشيعي الجنوبي العراقي خَدَمٌ لإيران ، وهكذا تتكرس نظرية الحصار التي تفرض وجودَها على النمط العَقَدي الشيعي ، وأحلامِ استعادة أمجاد الدولة الصفوية .

إن أهلَ السُنة يؤمنون بآل البيت والصحابة كوَحدة واحدة وكيان متراص غير مفكَّك بعكس الشيعة الروافض الذين يحاولون البناء الجدلي على التفريق بين آل البيت والصحابة باعتبارهما من الأضداد التي لا تلتقي، وهذا الذي قتل الروحَ في نصوص الميثولوجيا الشيعية ، وأفقدها بريقَ الخرافة ، وضوءَ الأسطورة ، على الرغم من كل التلميع والضغط الأيديولوجي المسيَّس فارسياً.

وتُعتبَر شريعةُ الغموض داخل أنساق الفكر الديني الشيعي،نظاماً متكاملاً له إسقاطات سياسية. كما أن تاريخ كتابة النصوص الدينية الشيعية غامض ومشوَّش تماماً كتاريخ كتابة الأناجيل . والشيعةُ _ طيلة وجودهم _ يتحركون تحت الطاولة ، ويُتقنون العملَ في الظلام ، ولا يَقْدرون على العمل تحت الشمس . وهذا ثابتٌ تاريخياً ، والتاريخُ لا يَكذب . أضف إلى هذا ، أن التشيع قد انتشر بالسيف والخيانات المتكررة ، مثل المجازر التي قامت بها الدولة الصفوية الأولى والدولة الصفوية الثانية (إيران)، وتواطؤ ابن العلقمي مع المغول ضد بلاد المسلمين، حيث فتح لهم بغداد، ومحاولة الروافض اغتيال صلاح الدين الأيوبي ، وخيانة الدولة الصفوية بينما كانت الدولة العثمانية على أبواب فيينا ، وفي قلبِ أوروبا، وغير ذلك كثير من الخيانات الموثَّقة المنتشرة في كتب التاريخ، والتي تعكس حقداً فظيعاً ضد أهل السُنة والجماعة يُغذِّيه المسارُ الفارسي الشُّعوبي.

ومصادرُ التشريع الشيعية مضطرِبة للغاية ، حيث التأويل المتطرفُ لآيات القرآن الكريم والبعدُ كل البعد عن السياق الطبيعي للآيات القرآنية سواءٌ من حيث أسباب النُزول أو قواعد اللغة

العربية. وكيفَ يَكون الشِّيعةُ مؤمنين بالقُرآنِ وهُم يُسْقِطُون الصحابةَ ؟ . ومعلومٌ أنَّ الصحابة هُم حَمَلةُ القُرآنِ وناقلوه . وهذا أمرٌ شديد الغرابة . وأيضاً عبثية البناء الحديثي في التشيع سواءٌ من ناحية السند أو المتن ، لأن التشويش في مصادر الحديث الشيعية مثل كتب الكافي أو بحار الأنوار وغيرهما مرجعه إلى أدلجة الكذب المحوري، وبناءِ أسانيد مُركَّبة تنتهي إلى أئمة آل البيت مع أن أئمة آل البيت لا يعلمون عنها شيئاً . وهذه الأدلجة نابعة من الكُره الفارسي الأعمى لكل ما هو عربِيٌّ. ومعلومٌ أن أئمة آل البيت كلهم عَرَبٌ، وبالتالي اعتمد الفُرْسُ في منهجهم الشُّعوبي على تنفير الناس من الإسلام الذي قام بالأساس على أكتاف العرب وتضحياتهم ، حيث إن النبيَّ ﷺ عربِيٌّ ، والصحابة عَرَب ، معَ تقديرنا للصحابة مِن غَير العرب وعددهم ضئيل للغاية ، وهذا لا يُنقِص مِن قَدْرِهم الشريف . فكان المنهج الشيعي الرافضي مستنداً إلى الطعن في آل البيت ، وقتلهم ثم البكاء عليهم والمتاجرة بثوراتهم ، والكذب عليهم، ونِسبة الصفات الإلهية إليهم ، والطعنِ في الصحابة ورميهم بالكفر والنفاق دون دليل مُعتمَد.

ومن الأهمية بمكان التنبيه على أن التشيع يعتمد _ لترويج نفْسه وزيادة أتباعه _ على التعاون مع قوى خارجية معادية لأهل السُّنة والجماعة على أساس أهل السُّنة يَضطهدون الشيعةَ ويقمعونهم ويُضيِّقون عليهم ، ويُعاملونهم كأقلية منبوذة . وهذه هي " المظلومية " التي يُوظِّفها الشيعةُ لاكتساح العالَم الإسلامي ، وبسطِ نفوذ سَيِّدتهم (إيران) على المنطقة . وهذه المظلومية الوهمية يُرَدُّ عليها من خلال أمرَيْن . الأول _ مِن واجب النظام السُّني المجتمعي أن يمنع كافةَ الانحرافات الشيعية ، خصوصاً وأن الشيعة يعتمدون منهجيةَ استغلال حُب الناس لآل البيت ، والمتاجرة بدمائهم وتضحياتهم من أجل تحقيق مكاسب سياسية فارسية ذات نزعة شُعوبية . والثاني _ إن العقيدة الشيعية الرافضية هي تيار إقصائي يُقيم قطيعةً مع التاريخ بشكل كامل ونهائي ، وهذه القطيعة الوَسواسية من شأنها تفتيت المجتمع ، ونقله من حالة التكتل البنائي المتين إلى التشظي والتمزق وتفتيت المكوِّنات الاجتماعية على أساس مذهبي وعِرْقي وإثني . ومن هنا كان لزاماً منع امتداد التشيع لأنه قنبلة موقوتة داخل المجتمع ، مزروعة في القراءة المتطرفة للسياقات الدينية ، والأنساقِ التاريخية .

وإذا انتقلنا إلى دور الطبيعة الإقطاعية " للإمامية الاثني عشرية " ، سنجد أن هناك منظومةً متكاملة لترسيخ المجتمع الطبقي ، حيث إن الشيعة المتاجرين بالدِّين ، سواءٌ انتسبوا للنبيِّ ﷺ (أصحاب العمائم السوداء) أم لَم يَنْتَسبوا (أصحاب العمائم البيضاء) ، هُم يؤسسون مشروعاً

تجارياً استثمارياً يتلاعب بعواطف العوام الدينية، ويُوجِّهها إلى وِجهة مُؤدلَجة بُغية فصل اللفظ عن المعنى، أي تأسيس مكانة اجتماعية راقية ومعصومة لرجال الدِّين على حساب جُوع العوام ولهاثهم وراء رغيف الخبز ، ووعدهم بصكوك غفران شيعية مثل ظهور المهديِّ الإمام الثاني عشر بعد أن دخل في السرداب(في منطقة سامراء) ، وهذه العقيدة الشيعية المرفوضة متماهية تماماً مع أسطورة صكوك الغفران حيث كانت الكنيسة تمنح الجنةَ للقادر على الدفع ، أمَّا الفقراء فَيُكْتَفَى بتخديرهم ليسهل ذبحهم والمتاجرة بدمائهم ، أو سَوقهم كالأغنام إلى الهدف المنشود ، وهذا هو لُبُّ المناخ الفلسفي للعقيدة الشيعية، وأساسُ ظهورها كتيار إقصائي فارسي مضاد للإسلام والعروبة.

إن انتشار التشيع بالسَّيف ، خصوصاً ما قامت به الدول" الفاطمية" والصفوية والإيرانية من استخدام العنف العبثي تجاه المخالِفين، ما هو إلا نتاجٌ طبيعي للأدلجة المستعرة في صياغات التأسيس الرمزي للعاطفة الروحية في نفوس الأتباع الجهال، حيث تتجذر البيئة المضطربة فلسفياً في تقاطعات الهرم الاجتماعي ، بَدءاً من الخرافة النسقية حتى الفصل العناصري بين ألفاظ الذاكرة ومعاني الصيغ الدينية الخاضعة لِسَطْوة إفرازات المجتمع البشري الإقطاعي ، خصوصاً مع وجود عائلات شيعية تَنْسِب نفْسَها للنبيِّ ﷺ زُوراً، أو هي تنتسب للنبيِّﷺ حقاً ، ولكن من ناحية النَّسَب لا الاتِّباع، وهذا النَّسَبُ بلا اتِّباع لا ينفعها مُطْلقاً، وهو حُجَّةٌ عليها لا لها ، وهذه الزعامات الوهمية قائمة على أساس المتاجرة بدماء آل البيت ، واستغلالِ هذا النَّسب الصحيح أو غير الصحيح لابتزاز العوام ، ومحاولة تحصيل أكبر فوائد مادية منهم ، وتكريس النفوذ على حساب المسحوقين . والتمثيلُ السياسي في ذاتية الدِّين الشيعي يُفضي إلى التماهي القاتل بين ولاية الفقيه الذي هو رأس الدولة المعصوم كما يُرَوَّج له ، وبين النظام الكهنوتي الصليبي لدولة مثل بريطانيا ، حيث الملكة التي هي رأس الدولة سياسياً ، هي أيضاً رأس الكنيسة الأنكليكانية . ومن هنا فإن لعبة المتاجرة بالدِّين من أجل أهداف سياسية ما زالت السِّمة المميِّزة للفوضى الخلاقة في ميثولوجيا المجتمع الشيعي. وهذا المجتمع الإقطاعي صار فيه الدِّينُ عبئاً على الفرد ، وجزءاً من المشكلة لا الحل ، وهذا راجع إلى ما محتويات الدين الشيعي العنصرية ، والتي تشتمل على تياراتٍ ماديةٍ تقيم التجمعاتِ البشرية على أساس احترام مَن يَمْلك ، ونبذ مَن لا يَمْلك . ومن هنا ، تتم صناعة فئة محدودة مُتنفِّذة تعيش عالةً على ظُهور الشعب المهمَّش . فالفرد يَصنع آلهته ، أو بالأحرى ، يتحول الفردُ إلى ماكينة لتفريخ الآلهة ، ثم يُقدِّسها ظناً منه أن في عبادتها خلاصَه ، وعندما يجوع سوفَ يأكل تلك الآلهة الخرافية _ عاجلاً أو آجلاً _ .

إن إيران _ وريثة الدولة الصفوية _ تحاول جاهدةً استرجاع أمجاد الإمبراطورية الفارسية ، وها هي تتمدد بواسطة الشيعة الأعراب العملاء لها مثل " حزب الله " ، وهو منظمة شيعية خاضعة بشكل مباشر لسُلطة المرشد الأعلى للثورة الإيرانية ، وتتلقى التمويلَ من طَهران . ومن الواضح للجميع أن " حزب الله " يحاول الهيمنةَ على لبنان ، وإحالته إلى دولة صفوية . ونحن بالطبع نساند المقاومة ضد العدو الصهيوني ، ولكن ينبغي أن نعلم أن " حزب الله " لا يقاوم العدو الصهيوني من أجل سواد عيون المسلمين ، أو من أجل الدفاع عن أهل السُّنة ، فهو قد قَتل أهلَ السُّنةِ في بيروت الغربية بكل دم بارد بالتعاون مع ميليشيا " حركة أمل " الشيعية التي سَبق أن حاصرت المخيماتِ الفلسطينية في ثمانينات القرن العشرين بالتنسيق مع النظام النُّصيري في سوريا . إذن ، فما يُسمَّى بحزب الله يُقاتِل من أجل تحقيق مصالحه ، وتأسيس دولة صفوية في جنوب لبنان ، وإدخال لبنان في الفلك الشيعي الفارسي الإيراني المعادي للعروبة والإسلام . وعلى أية حال فإن إيران والكيان الصهيوني وجهان لعُملة واحدة فكلاهما يحتلان بلادَنا. فإيران هي مشروع صَهْينة السياسة الصفوية الشيعية من وجهة نظر فارسية ، كما أن الكيان الصهيوني هو صهينة أكاذيب الصفات التوراتية اليهودية . وعلينا معرفة كيفية التعامل مع هذه الفكرة، ومسكِ خيوط هذه المرحلة الحساسة بما يضمن الدفاع عن الإسلام ومصالح المسلمين .

إننا نساند المقاومةَ ضد العدو الصهيوني، وضد الغرب الإسخريوطي ، وفي نفس الوقت ينبغي الانتباه إلى التوسع الشيعي الفارسي من أجل نشر الضلال في بلاد أهل السُّنة ، وإخراجهم من الإسلام بحجَّة حُب آل البيت ومظلوميتهم . فلنتذكر على الدوام الاحتلال الشيعي لإيران والعراق وسوريا ولبنان ، وأن لا ننخدع بالدعاوى المخدِّرة الصادرة عن الشيعة الروافض، والتي تنادي بالوحدة الإسلامية في حين أنهم يقتلون أهلَ السُّنة. ونحن في هذا المقام لا نريد أن نزيد الأُمَّة تمزقاً فوق تمزقها،ولكن وللأسف فالشيعة يلعبون لعبتهم القذرة القديمة الجديدة في التعاون مع الأجنبي ضد أبناء جِلْدتهم لكي يسيطروا على الحُكم كما فعلوا في العراق، وقيامهم بإبادة أهل السُّنة ، وتفريغ كل المناصب الحساسة في الدولة منهم، ثم بعد ذلك يُنادون بالوَحدة الإسلامية،وعدم الانجرار إلى الفتنة الطائفية، وكل هذه الدعاوى المخدِّرة تهدف إلى كسب مزيد من الوقت لتحقيق سيطرة سياسية شيعية على المنطقة أكثر شمولية ، وأكثر إرهاباً باستخدام أساليب التعاون مع الأجنبي الغازي . وهذه اللعبة المرفوضة تعتمد على تحويل كل شيعي إلى عميل

مزدوَج: عميل لإيران بوصفها الأم الحاضنة للإمامية الاثني عشرية ، ولأمريكا بوصفها القوة الخارجية العظمى التي تقدم الحمايةَ للوجود الشيعي الحاكم في الدَّاخل .

والوجودُ الديني الشيعي محصور في خدمة الطواغيت (آيات الله العُظمى وغير العُظمى) ، وتقديم الدعم للميليشيات الشيعية الطائفية ، والمدعومة من المرشد الأعلى للثورة الإيرانية الذي نصَّب نفسَه إماماً مَعصوماً فوق المستوى البشري ، وحامياً للكهنوت الشيعي ، وراعياً لمصالح الشيعة في أنحاء العالَم. ولا أحد يسأله عن أرصدته البنكية، ولا أحد يحاسبه أو ينقد أفعالَه المنحرِفة، فهو الدولة والدولة هو ، وهذا التخلف الذي قَسَمَ المجتمع إلى قِسْمَيْن : السادة والعبيد ، لا بد أن ينهار عاجلاً أو آجلاً لأنه مجتمع مبني على وجود الآلهة البشرية والكراهية والشطط الطبقي وانعدام العدالة الاجتماعية وسوء توزيع الثروة ، وازدياد الأغنياء غنىً وهم الفئة الضئيلة على حساب الشريحة الساحقة في المجتمع وهم الفقراء المغلوب على أمرهم. وللأسف فإن الدول الكافرة تتمتع بالعدالة الاجتماعية ومحاسبة المسؤولين بَدءاً من رئيس الدولة حتى عامل النظافة ، في حين أن الدول في العالم العربي والإسلامي مبنية على عِصمةِ الحاكم الذي نصَّب نفسَه إلهاً برفقة حاشيته، وسوءِ توزيع الثروة ، وسرقةِ الشعب في وضح النهار من قبل المتنفِّذين دون حسيب أو رقيب . وهذا ما جعل دُوَلَنا فاشلةً ومستقرةً في مؤخرة القافلة العالمية .

ومن الأهمية بمكان ، إظهار سَعي المؤسسة الشيعية الدينية إلى احتكار الأسطورة من أجل إيجاد مَوْطِئ قدم لها في الذاكرة الشعبية . وللأسف ، فإن المجتمع الشيعي يتاجر بكل شيء ، بدءاً من الدِّين ، والكذبِ المنهجي على أئمة آل البيت ، ومروراً بالشعائر العبثية في عاشوراء ، وطقوسِ اللطم والضرب وغير ذلك من سيناريو هذه المسرحية (الكوميديا السوداء) التي يقوم بها أحفاد قتلة الحسين حزناً على الحسين !. وانتهاءً بِفُروج النساء ضمن شرعية الزِّنا المقنَّع (نِكاح المتعة) ، حيث تصير المرأة ضحيةً لمجتمع أيديولوجي متخلِّف يُفسِّر النصوصَ الدينية تفسيراً ذكورياً لكي يُهيمن على الذاكرة الجزئية والكلية للأفراد الموعودين بصكوك غفران جديدة .

وفي هذا السياق ، لا بد من ذِكر مراكز التشريع الشيعي (كربلاء وقُم والنجف) التي يتم فيها تكديس مبادئ سيادة الأساطير الهلامية على عقول البسطاء باسم الدِّين وآلِ البيت . وهذا الانحرافُ العَقَدي نتاج طبيعي للجاهلية المعاصرة المتماهية مع الجاهلية الأولى للأعراب البدائيين الذين كانوا يصنعون آلهتهم بأيديهم، ثم يأكلونها حينما يجوعون . وبالإضافة إلى هذا ، نجد أن

الصراع على اقتسام الغنائم بين الأُسر الشيعية ذات الشرعية الدينية الشكلية، يَظهر بشكل واضح في الحالة العراقية مِثْل عائلَتَي الحكيم والصَّدْر _ على سبيل المثال لا الحصر _ .

والسُّلالاتُ العائلية التي تتاجر بدماء آل البيت قد أسَّست مشروعها التجاري الاستثماري على الدِّين ، حيث صار مجالاً نفعياً لزيادة الأرصدة البنكية ، مع التركيز على العلاقات مع إيران التي تشتري هذه الأُسر بأموالها، وتُوجِّههم عن بُعد لِيَظلوا موظفين مطيعين تحت ظِل المرشد الأعلى للثورة الإيرانية ضمن أسطورة " ولاية الفقيه " . وهكذا تحوَّل الإنسانُ الشيعي إلى دجاجة لا تَمْلك إلا التصفيق لذابحها سعيدةً بمستقبلها المفروض عليها بحد سيف النصوص العَقَدية المحمول على فكرة النفعية الإقطاعية ، حيث تصير القيم الروحية مجالاً خصباً لقتل الرُّوح، تحت غطاء شرعية وصاية النظام السياسي الفقهي الهلامي على شعب لا يملك إرادةً للتغيير الروحي أو المادي ، لأنه تحوَّل إلى كيانات استهلاكية تتلقى الأوامرَ وتنفِّذها دون أدنى تفكير . والاحتلالُ الشيعي الصفوي لإيران وشرق المتوسط هو صورة الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، أي إن المنظور الشيعي السياسي المنحرِف _ مهما اختلفت أقنعته _ يظل انعكاساً طبيعياً للسياسة الصهيونية في فلسطين ، وهذا راجع إلى التماهي المرعب بين العقيدتَيْن الشيعية واليهودية كما سَبَقَ أن وَضَّحْنا .

سادساً: الصُّحبة والصَّحابة

إن بحث " الصُّحبة والصَّحابة " يمتاز بحساسية بالغة ، ذلك أن الصحابة _ رضوان الله عليهم_ يُنظَر إليهم نظرة تقديسية لا تجيز النقد أو الاستدراك على أفعالهم، فكل أفعالهم مُبرَّرة دون مناقشة، وكلهم عدول من أولهم إلى آخرهم ، وهذه الخرافات التي يعتنقها الكثيرون كانت هي الفِعل ، وجاءت ردة الفِعل مِن قِبَل الروافض الذين اقتبسوا خرافة "عدالة الصحابة فرداً فرداً"، وأسقطوها على أئمة آل البيت ، فصار أئمة آل البيت معصومين لا يتم الاستدراك على أفعالهم .

وهاتان الخرافتان من كلا الجانبين وُضِعَتا لترسيخ الحصانة ضد النقد، وتجذير نوع من العِصمة على الأفعال البشرية. ونحن لا نناقش في حُب الآل والأصحاب، ولكن ينبغي وضع الأمور في نِصابها الصحيح ، وعدم إعطاء العِصمة ضد النقد ، أو إعلاء الأشخاص فوق قَدْرهم ، ووضعهم في مكانة الذين لا يُسْأَلون عمَّا يَفعلون . فالآلُ والأصحاب هُم بَشَرٌ أولاً وأخيراً ، وتجري عليهم الأحكام البشرية بَدءاً من الإيمان وحتى الكفر ، مروراً بكل الدرجات بين هذين المفهومين .

وقد أخذتْ بعضُ القضايا ذات الصبغة الدينية منحى الفِعل ورد الفِعل ، فمثلاً عقيدة " عدالة الصحابة " قابلتها عقيدة " عِصمة الأئمة " ، ولقب " شيخ الإسلام" قابله لقب " آية الله العُظمى"، وسَب عليٍّ _ رضي الله عنه_ على منابر بني أُمَيَّة قابله سَب أبي بكر وعمر _ رضي الله عنهما _ ، وهكذا دخلت كثير من الأمور المصبوغة بالدِّين في حَيِّز الفِعل ورد الفِعل .

ونحن هنا ملتزمون بالكتاب والسُّنة ، والآلُ والأصحاب خاضعون لهما. وينبغي أن نُنبِّه إلى أن المقصود بآل البيت في المعنى المتداول المشهور هم الثَّقَل الأكبر الملتزم بالكتاب والسُّنة ، إذ إن هناك أفراداً من آل البيت سلوكهم مُنحرِف ، وهُم فَسَقة أو منافقون ، وأفعالهم في الحضيض . وأيضاً الصحابة فيهم أفراد معدودون أفعالهم سيئة للغاية وهم فاسقون أو منافقون . لذا فإن آل البيت والصحابة المقصود بهما الثَّقَل الأكبر الذي اتَّبع خطواتِ النبيِّ ﷺ بدقة دون أن يتنكب الطريقَ .

وفي هذا المقام أود طرح مجموعة من الخواطر السريعة ، والومضاتِ الفكرية التي لمعت في ذهني وفق أدلة مُعتبَرة ، ولستُ أهدف في هذه العُجالة إلى تأليف كتاب مستقل جامع لكل جوانب هذه المسألة يكون مرجعاً تفصيلياً لا يُضاهى . فما أرمي إليه من وراء هذه الكلمات وضع النقاط على الحروف ، وإضاءة بعض الجوانب على الطريق لا أكثر ولا أقل ، تاركاً التفاصيل

الدقيقة للباحثين المتخصصين في هذه السياقات الفكرية. وهذه الكتابات هي مجموعة أفكار وفق نقاط محددة، الهدف منها نشر بعض التساؤلات التي تضطر العقلَ إلى التحرك بعيداً عن المعطيات الجاهزة التي يتم تحفيظها للناس من خلال الوسائل التلقينية ، أو الدروس التي تعتمد على التقليد الأعمى دون إعمال العقل وفق الكتاب والسُّنة .

تعريف الصَّحابِيِّ :

إنَّ تعريف " الصحابِيِّ " يُعتبَر تحدياً حقيقياً ، فالعلماء اختلفوا في تعريف الصحابي اختلافاً واضحاً . قال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢١٥) : ((والمعروف عن طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله ﷺ فهو من أصحابه . قال البخاري في صحيحه : مَن صَحِبَ النبيَّ ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه. وَرُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب أنه كان لا يَعُدُّ الصحابِيَّ ، إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين)) اهـ .

وقال البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٣٥) : ((ومَن صَحِبَ النبيَّ ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣و٤) : ((إن اسم صُحبة النبيِّ ﷺ مستحق لمن صحبه ، أقل ما يُطلَق عليه اسم صُحبة لغةً ، وإن كان العُرف يخص ذلك ببعض الملازمة ، ويُطلَق أيضاً على من رآه رؤية ولو على بُعد ، وهذا الذي ذكره البخاري هو الراجح ، إلا أنه هل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يُميِّز ما رآه ، أو يُكتفى بمجرد حصول الرؤية محل النظر ؟ . وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني ... . وكذا رُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبيِّ ﷺ سنة فصاعداً أو غزا معه غزوة فصاعداً . والعمل على خلاف هذا القول لأنهم اتفقوا على جمع جم في الصحابة لم يجتمعوا بالنبيِّ ﷺ إلا في حَجَّة الوداع ، ومن اشترط الصُّحبة العُرْفية أخرج مَن له رؤية أو من اجتمع به لكن فارقه عن قُرب ، كما جاء عن أنس أنه قِيل له : هل بقي من أصحاب النبيِّ ﷺ غَيْرُك ؟، قال: لا ، معَ أنه كان في ذلك الوقت عدد كثير مِمَّن لَقِيَه من الأعراب. ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً وهو مردود أيضاً لأنه يخرج مثل الحسن بن عليٍّ ونحوه من أحداث الصحابة)) اهـ .

وقال السَّخاوي في فتح الْمُغيث (٣/ ١٠١) : ((قال موسى السيلاني فيما رواه ابن سعد في الطبقات بسند جيد قلتُ لأنس : أأنتَ آخر مَن بقي من أصحاب النبيِّ ﷺ ، فقال بناءً على ما

في ظَنَّه : قد بقي قوم من الأعراب ، فأمَّا أصحابه فأنا آخرهم ، لكن قد يُجاب بأنه أراد إثبات صُحبة خاصة ليست لتلك الأعراب)) اهـ .

إذن ، نَخْلُص إلى القول بأن الصُّحبة تنقسم إلى قسمين : صحبة لغوية وصحبة عُرْفية . وهذا التقسيم مهم جداً في بحثنا هذا . فلو جئنا إلى الواقع المعاش ، فإن الحاكم قد يراه الكثيرون من أفراد شعبه سواءٌ في زياراته للأماكن المختلفة أو في خُطبه أو مَواكبه ، ولكن هل كل من رآه صار صاحباً له ؟ ، بالطبع لا . إذ إن هناك فرقاً واضحاً بين رَعِيَّة الحاكم وبين أصحابه . وهذا المعنى تنبَّه إليه الحافظ ابن حجر في كلامه السابق خصوصاً عندما قال : ((وإن كان العُرف يخص ذلك ببعض الملازمة))، إذ لا بد من الملازمة حتى نطلق لقب صحابي بالمعنى الشرعي الاصطلاحي ، ولكننا على أية حال نطلق لقب صحابي على كل مسلم رأى النبيَّ ﷺ فترة من الوقت أو صحبه حتى لو كانت مدة الصحبة دقيقة واحدة ، ولكننا نعني بهذه الصحبة معنى لغوياً لا شرعياً يستلزم أن يصير الصحابي عَدْلاً أو من المقطوع له بالجنة . فيجوز لغةً أن نقول مثلاً لقد صحبتُ رئيس الدولة دقيقتين ، وهذا لا يعني أنني صرتُ من رجال الدولة أوعِلْيةِ القوم أو المستشارين المقرَّبين أو المخلِصين الأطهار الشرفاء المحافظين على النظام . ووفق هذا الأساس قد يكون الصحابي سيء السُّمعة أو فاسقاً أو منافقاً أو كافراً ... إلخ ، وعندما نطلق لقب الصحابي على أحد ما فلا يعني بالضرورة أن يكون عَدْلاً تقياً طاهراً شريفاً ، لذا فلقب " صحابي " بحد ذاته ليس شرفاً أو مَنْزلة سامية ، مثلما وجود شخص من آل البيت فهذا لا يُعَدُّ شرفاً أو فضلاً بحد ذاته ، وقد سبق أن وضَّحنا هذه المسألة . وقد روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٤٣) عن حُذَيفة_ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((في أصحابي اثنا عشر مُنافقاً ، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الْجَمَلُ في سَمِّ الخِياط)) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٢٥) : ((في أصحابي ، فمعناه الذين يُنْسَبون إلى صُحبتي)) اهـ .

وعن شَقيق قال : دخل عبد الرحمن بن عَوف على أُم سَلَمة ، فقال : يا أم المؤمنين، إني أخشى أن أكون قد هلكتُ، إني من أكثر قريش مالاً نظير أرض لي بأربعين ألف دينار، فقالت : أَنْفِقْ يا بُنَيَّ ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إنَّ مِن أصحابي مَن لا يراني بعد أن أُفارقه)) ، فأتيتُ بيت عمر فأخبرتُه، فأتاها فقال: باللهِ أنا منهم، قالت : اللهُمَّ لا ، ولن أُبرِّئَ أحداً بَعْدَك [1].

---

(١)رواه أحمد في مسنده(٦/ ٣١٧)برقم(٢٦٧٣٦)،وأبو يعلى(١٢/ ٤٣٦) برقم(٧٠٠٣)، =

وهكذا يتبين لنا أن كلمة " الصحابي " لا تُشكِّل أية قيمة لوحدها مجرَّدة . بل إن الحديث النبوي الشريف حَكم بنفاق اثني عشر صحابياً وبكُفر ثمانية صحابة ، ولو عُدنا للحقب التاريخية الماضية وجدنا كيف أن المسيح ﷺ قد خانه واحد من صحابته المقرَّبين (يهوذا الإسخريوطي) : ((ويهوذا الإسخريوطي الذي خانه)) [متّى ١٠ : ٤] .

وأيضاً قام ابنُ النبيِّ نوح ﷺ بخيانة والده الخيانة العظمى بأن اعتنق الكفرَ رافضاً الإسلام . وهذا الابن يُعتبَر من النظرة الزمنية صحابياً مُلازِماً لوالده مدة طويلة ، ومع هذا قال اللهُ تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] .

وأيضاً قال الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذِينَ كَفَرُوا امْرَأَة نُوحٍ وَامْرَأَة لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم : ١٠] . وكما هو معلوم فالزوجة هي الصاحبة الملازِمة لزوجها لمدة طويلة جداً ، ومع هذا فهاتان الزوجتان تحت اثنين من الأنبياء قامتا بالخيانة ، وليست الخيانة هنا بمعنى الخيانة الزوجية، بل بمعنى خيانة الكفر، لأن الكفر هي الخيانة العظمى التي ما بعدها خيانة .

واعتماداً على هذه الأدلة الساطعة، نَخْلُص إلى أن إطلاق لفظ " الصحابي " على شخص ما ، لا يعني تعديله، ولا تعني سوى معنى له علاقة بصحبة زمنية ، وقد يكون صحابياً تقياً وقد يكون عكس ذلك،بل إن الصحابي تجري عليه كل الحالات، فقد يدخل في الكفر ويكون خالداً في جهنم، فلا تنفعه الصُّحبة بأية شيء ، وهذا واضح في الحديث النبوي الشريف السابق الذي حَكم بكُفر ثمانية من الصحابة .

والصحابِيُّ ليس معصوماً فهناك صحابة من أهل الرِّدة ، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: خطب النبيُّ ﷺ، فقال : ((... ألا إِنَّهُ يُجاءُ برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشِّمال، فأقول : يا رَب أصحابي ، فَيُقال : لا تَدري ما أَحدثوا بَعْدَكَ))(2).

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٣٦) : ((قوله : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟[رواية مسلم] ، وفي الرواية الأخرى: قد بدَّلوا بعدك فأقول : سُحقاً سحقاً . هذا مما

=والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣١٧) برقم (٧١٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٣) : ((رواه البزَّار ، ورجاله رجال الصحيح)) اهـ .

(٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٦٦) برقم (٤٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤) برقم (٢٨٦٠).

اختلف العلماء في المراد به على أقوال ، أحدها أن المراد به المنافقون والمرتدون فيجوز أن يُحْشَروا بالغُرَّة والتَّحجيل ، فَيُناديهم النبيُّ ﷺ للسِّيما التي عليهم ، فيقال : ليس هؤلاء مما وُعدتَ بهم، إن هؤلاء بدَّلوا بعدك،أي لم يموتوا على ما ظَهر من إسلامهم،والثاني أن المراد مَن كان في زمن النبيِّ ﷺ ثم ارتد بعده فيناديهم النبيُّ ﷺ وإن لم يكن عليهم سِيما الوضوء لِمَا رأى ﷺ في حياته من إسلامهم فيقال: ارتدوا بعدك . والثالث أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام ، وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يُذادون بالنار ، بل يجوز أن يُذادوا عُقوبة لهم ، ثم يرحمهم الله _ سبحانه وتعالى _ فيدخلهم الجنة بغير عذاب، قال أصحاب هذا القول: ولا يمتنع أن يكون لهم غُرَّة وتحجيل ، ويُحتمَل أن يكون كانوا في زمن النبيِّ ﷺ وبَعْدَه ، لكن عَرَفهم بالسِّيما)) اهـ .

وذكر الحافظ في الفتح (٧/ ٥) عن علي بن المديني قوله : ((مَن صَحِبَ النبيَّ ﷺ أو رآه ساعة من نهار فهو من أصحاب النبيِّ ﷺ)) اهـ .

وقال الخطيب البغدادي في الكفاية في عِلْم الرواية (١/ ٥٠و٥١) بإسناده : ((كان سعيد ابن المسيِّب يقول : الصحابة لا نَعُدُّهم إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . اهـ . قال ابن عمرو : رأيتُ أهل العلم يقولون : كل من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك الْحُلُمَ وأسلم ، وعَقِلَ أمرَ الدِّين ورَضِيَه ، فهو عندنا مِمَّن صَحِبَ النبيَّ ﷺ ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام)) اهـ .

هذا المعنى مهم للغاية ، فلا توجد مشكلة في إسباغ لقب " صحابي " ، لأن التدقيق هو طبقات الصحابة وتقدمهم وإنجازاتهم وفضائلهم ، هذا هو المِحَك الحقيقي لفرز الصحابة وتمييزهم . فمثلاً أنتَ تجد آلاف الخريجين من الجامعة، وكلهم حاصلون على شهادة جامعية ذات اسم واحد ، وكل واحد منهم اسمه خريج ، ولكن التمييز بينهم يعتمد على المعدل والإبداع والمهارات والإنجازات والقدرات . وهذا المعنى مُشابه تماماً لمعنى الصحابي .

وقال السُّيوطي في الأشباه والنظائر (١/ ٨٥) : ((إنَّ مَن صَحِبَ النبيَّ ﷺ ثم ارتد ومات على الرِّدة كابن خَطَل ، لا يُطلَق عليه اسم الصحابي ، وأمَّا مَن ارتدَّ بعده ثم أسلم ومات مسلماً كالأشعث بن قيس ، فقال الحافظ أبو الفضل العراقي في دخوله في الصحابة نظر فقد نص الشافعيُّ وأبو حنيفة على أن الرِّدة مُحبِطة للعمل ، قال والظاهر أنها مُحبِطة للصُّحبة السابقة . قال أمَّا مَن رجع إلى الإسلام في حياته كعبد الله بن أبي سَرْح ، فلا مانع من دخوله في الصُّحبة)) اهـ .

وذكر الحافظ في الفتح (٤/٧) : ((من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك ولم يعد إلى الإسلام فإنه ليس صحابياً اتفاقاً ، فينبغي أن يُزاد فيه ومات على ذلك . وقد وقع في مسند أحمد حديث ربيعة بن أُمَيَّة بن خلف الْجُمَحِيِّ ، وهو مِمَّن أسلمَ في الفتح وشهد مع رسول الله ﷺ حَجَّة الوداع وحدَّث عنه بعد موته ، ثم لَحِقَه الخِذلان ، فلحق في خلافة عمر بالروم وتنصَّر بسبب شيء أغضبه.وإخراج حديث مثل هذا مُشْكِل، ولعل مَن أخرجه لَم يقف على قصة ارتداده، والله أعلم. فلو ارتد ثم عاد الى الإسلام لكن لم يره ثانياً بعد عَوده فالصحيح أنه معدود في الصحابة لإطباق المحدِّثين على عَدِّ الأشعث بن قيس ونحوه مِمَّن وقع له ذلك وإخراجهم أحاديث في المسانيد)).

ومسألة العدالة يمكن أن نُلخِّصها في بَيْتين من الشِّعر :

أمَّا الصحابِيُّ فَقِيلَ عَدْل وقيل مِثْل غَيره والفِصَل
بأنه عَدْل إلى حين الفِتن وبَعْدَها كَغَيره فَلْيُمْتَحَن

هذان البيتان يوضحان أن الصحابة حينما كانوا متواجدين أثناء حياة النبيِّ ﷺ كانوا ملتزمين بالمنهجية الإسلامية المستقيمة ، وإذا ظهر منهم أي خطأ أو ذنب ، فإن النبيَّ ﷺ بما له من قوة الشخصية النبوية المؤيَّدة بالوَحْي المعصوم ، والحضور الإنساني النبيل ، يقوم بتوجيههم وإرشادهم إلى الجادَّة دون أن يعترض عليه أحد .

أمَّا بعد انتقال النبيِّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومع ظهور أمواج الفِتن المتلاطمة تعرَّض الصحابة إلى فرز دقيق وتمييز حقيقي ، فظهر أصحاب الميول الدنيوية مثل معاوية بن أبي سفيان وعمرو ابن العاص ، وبعض الصحابة ساءت سيرته بعد النبيِّ ﷺ . وكل فريق صار يعتقد أنه على الحق المطْلق ولا يوجد بينهم من يَفصل بينهم بكلام قاطع نهائي وحاسم ، لأن الذي كان يقوم بهذا الأمر هو النبيُّ ﷺ مُؤيَّداً مِنَ اللهِ بالوَحْي ، أمَّا الصحابة فصاروا يجتهدون في مواقفهم المتضاربة من الفتن دون وجود وَحْي فاصل يُميِّز الصحيح من غير الصحيح .

وأيضاً ينبغي أن نعرف أن حَجَّة الوداع قد حضرها أكثر من مئة ألف صحابي ، ومن المحال أن يكونوا كلهم عدولاً أتقياء سائرين وفق الكتاب والسُّنة بلا زَيْغ ، وهذا يجب أن يكون مفهوماً ، فمجتمع الصحابة ليس مجتمعاً من الملائكة المعصومين ، بل هو مجتمع بشري متفاوت في درجة الإيمان ، له ما له ، وعَلَيْه ما عليه . هناك صحابة مشهود لهم بالجنة ، وهناك صحابة مشهود لهم بالنار ، وهناك صحابة خَلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

عدالة الصحابة :

إن عقيدة " عدالة الصحابة " وُضِعت لرسم هالة من العِصمة والقداسة حول الصحابة بحيث لا يمكن نقدهم أو انتقاص مَن فرَّط مِنهم ، وقد تعزَّزت في بدايات الدولة الأموية التي أسَّسها معاوية بن أبي سفيان على دماء المسلمين الطاهرة ، فمِثل هذه العقيدة ستضمن له ولجماعته حصانة ضد النقد وغربلة أفعالهم ، وهذا هو المطلوب . إذ إن الأمر صار مثل الحصانة الدبلوماسية التي تكفل للفرد أن يخلط الحابل بالنابل دون مساءلة ، وتحت حماية القانون الواضح للعيان . وللأسف الشديد فإن ردة الفعل عند الشيعة الروافض قد تكرَّست على شكل " عِصمة الأئمة " من أجل إعطاء حصانة للأكاذيب المنسوبة إلى أئمة آل البيت ، وبالتالي تتكرس القداسة حول مذهب الإمامية الاثني عشرية ليضمن أن يشق طريقه دون معارِضين أو حركة نقدية تميِّز الغث من السمين.

لكننا نقول إذا كان المراد بعدالة الصحابة هي عدالة الصحابة كوَحدة جمعية كلية فهذا صحيحٌ، مثل أن نقول إن المسلمين معصومون من الوقوع في الضلال ، أي إن المسلمين كوَحدة جمعية لا تجتمع على ضلالة، والأمر بهذا المعنى مقبول، أمَّا أن نقصد أن كل صحابي معصوم بِعَيْنه، أو كل صحابي عَدْلٌ بعَيْنه، فهذا مرفوض بشكل قطعي ، وإليك الأدلة :

أ) قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمَاً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الْحُجُرات : ٦] .

قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٦٤) : ((قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط ، وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيَّ ﷺ بعث الوليد بن عُقبة مُصَدِّقاً إلى بني الْمُصْطَلِق ، فلمَّا أبصروه أقبلوا نَحْوَه فهابهم . في رواية لإِحْنة [يَعني : لِحِقْدٍ] كانت بَينه وبينهم فرجع إلى النبيِّ ﷺ فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام فبعث نبيُّ الله ﷺ خالد بن الوليد، وأمره أن يَتثبَّت ولا يَعْجَل ، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه فعاد إلى نبيِّ الله ﷺ فأخبره فَنَزلت هذه الآية))اهـ. وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٨٣) : ((وذُكِرَ أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط ... عن أُم سَلَمة قالت : بعث رسولُ الله ﷺ رَجلاً في صَدَقات بني المصطلق بعد الوقعة فسمع بذلك القوم، فَتَلَقَّوْهُ يُعظِّمون أمرَ رسول الله ﷺ.

قال: فحدَّثه الشيطان أنهم يُريدون قتله ، قالت : فرجع إلى رسول الله ﷺ. فقال: إن بني المصطلق قد مَنعوا صدقاتِهم ، فغضب رسولُ الله ﷺ والمسلمون)) .

والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط صحابِيٌّ بالمفهوم اللغوي المتداول والمنتشر ، وهو أخو عثمان ابن عفان _ رضي الله عنه _ مِن أُمِّه ، وكان الوليد بن عُقبة شارباً للخمر ، والصحابة اتفقوا على جَلْده [كما في شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢١٩)]. وقد وصفه اللهُ بالفاسق في آية مُحْكَمَة مُوَجَّهة إلى شخص بعَيْنه . فهذا الصحابِيُّ فاسقٌ بنص القرآن الكريم ، ومَن أنكرَ هذا فهو كافرٌ لتكذيبه القرآن . ومَن سَمَّاه اللهُ فاسقاً ، فلا بُدَّ أن تَسقط عدالتُه .

لكنَّ مفهوم العدالة يقودنا إلى البحث بالتفاصيل في بعض التعريفات والملابسات حول هذا الموضوع ، فكلمة العدالة التي نجدها هنا وهناك لا بد لها من ضوابط تعريفية وسلوكية، وإليك هذا التلخيص السريع لهذه المسألة ، والذي يضع النقاط على الحروف بشكل غير مُخِل .

قال ابن رشد في بداية المجتهد (١/ ١٢٧٣) : ((أمَّا العدالة فإن المسلمين اتفقوا على اشتراطها في قبول شهادة الشاهد لقوله تعالى : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]. ولقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ [الطلاق : ٢] . واختلفوا فيما هي العدالة فقال الجمهور : هي صفة زائدة على الإسلام هو أن يكون ملتزماً لواجبات الشرع ومستحباته مجتنباً للمحرَّمات والمكروهات. وقال أبو حنيفة: يكفي في العدالة ظاهر الإسلام وأن لا تعلم منه جَرحة . وسبب الخلاف كما قلنا ترددهم في مفهوم اسم العدالة المقابلة للفسق ، وذلك أنهم اتفقوا على أن شهادة الفاسق لا تُقبَل لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ ﴾ [الحجُرات: ٦]. ولم يختلفوا أن الفاسق تُقبَل شهادته إذا عُرِفت توبته إلا مَن كان فِسْقُه مِن قِبَل القَذْف ، فإن أبا حنيفة يقول : لا تُقبَل شهادته وإن تاب ، والجمهور يقولون تُقبَل)) اهـ .

ب) الحديث الشريف : ((في أصحابي اثنا عشر منافقاً ، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخِياط)) [سبق تخريجه] .

ج) الحديث الشريف :((... ألا إنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول : يا رب أصحابي ، فيُقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك)) [سبق تخريجه] .

د) روى البخاري في صحيحه (١/ ١٧٢) أن رسول الله ﷺ قال : ((وَيْحَ عَمَّار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار)).

وهذا الحديث الشريف يوضح أن هناك صحابة دعاة على أبواب جهنم ، يَدعون إلى النار ، فكيف تجتمع العدالة مع مَن يَدعو إلى النار ؟! . وأيضاً فإن الصحابة أعملوا سيوفهم في رقاب بعضهم البعض ، فلا بد أن تكون طائفة على الحق، وأخرى على الباطل، فمُحال أن يكون الطرفان على حق ، لأن الحق واحد فقط لا يتعدد . وهذه الأدلة التي سُقْتها على عُجالة تنسف بشكل نهائي حاسم خرافة " عدالة الصحابة " بمعنى عدالة كل صحابي بعَيْنه ، معَ الإيمان بأن الصحابة عُدول عَدالةً عامة ، ومعصومون عِصمةً عامة .

إمكانية تفوق بعض المتأخرين على بعض الصحابة :

لَيْسَ كُلُّ الصحابةِ الخلفاءَ الراشدين ، أو العشرة المبشَّرين بالجنة. بل إنهم يتفاوتون في الدرجات والمراتب بصورة متباينة جداً ، وبينهم فروق شاسعة للغاية في كل شيء من الإيمان حتى الكفر . وما أدين اللهَ به هو إمكانية أن يتفوق بعض المتأخرين على بعض الصحابة في المنْزلة عند الله تعالى . لكن معظم العلماء متفقون على أن مَن صَحِب النبيَّ ﷺ ورآه ولو مَرَّة في عُمُره أفضل ممن يأتي بعده ، وأن فضيلة الصُّحبة لا يَعْدلها عمل . وقد استندوا _ على تفضيل أوَّل الأُمَّة على من بعدهم _ إلى الحديث المتَّفق عليه الذي سبق تخريجه : ((خَيْرُكم قَرْني ثُمَّ الذين يَلُونَهم ثُمَّ الذين يلونهم)) .

لكن الذي نُرَجِّحه في هذا السياق هو إمكانية أن يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جُملة الصحابة . وقد أكد ابن عبد البَر المعنى السابق ، وأكَّد كذلك على أن حديث " خَيْر القرون " ليس على عمومه بدليل ما يَجمع القرنُ من الفاضل والمفضول ، وقد جمع قرنُه جماعة من المنافقين المظهِرين للإيمان ، وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ، وقال لهم ما تقولون في السارق والشارب والزاني (3).

وإليك بعض الأدلة في تأييد إمكانية أن يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جُملة الصحابة :

---

(٣) انظر التمهيد لابن عبد البَر (٢٠/ ٢٥٠و٢٥١) ، وتفسير القرطبي (٤/ ١٦٦) .

أ) عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ_ رضي الله عنه_ قال: قال النبيُّ ﷺ : ((لا تَسُبُّوا أصحابي))[4].
وهذا الخطاب قيل مواجهة لِمَن هو في قَرْنه . وهذا الحديث الشريف يدل على أن الخطاب للصحابة متضمناً عدم سَب الصحابة .

ب) قال رسول الله ﷺ : ((يا خالد ، لا تَسُبَّ عَمَّاراً ، فإنَّه مَن يَسُبُّ عمَّاراً يَسُبُّه اللهُ ، وَمَن يُبغِض عَمَّاراً يُبغِضه اللهُ ، ومَن يُسفِّه عمَّاراً يُسفِّهه اللهُ))[5].

إذن، قد يظهر بعض السلوكيات السيئة من بعض الصحابة،فيحدث سَب بينهم ، أو يتطاول بعضهم على بعض ، ولكن النبيَّ ﷺ يعالج هذه الأمور بما يراه مناسباً ، ويضع الأمور في نِصابها الصحيح ، وهذا لا يطعن في فضائل الصحابة ، فمجتمع الصحابة _ رضي الله عنهم _ مجتمع بشري تجوز عليه ما يجوز على باقي المجتمعات ، ولكن الصحابي المستقيم هو الذي يعود إلى الحق ، ويلتزم بأوامر اللهِ والنبيِّ ﷺ ، ولا يتجاوز حدوده ، وإذا فعل مُنكَراً ، فإنه يعترف بِذَنْبه ، ويتوب ، ويرجع إلى جادة الطريق ، ولا تأخذه العِزة بالإثم .

ج) عن أبي أُمامة _ رضي الله عنه_ أن النبيَّ ﷺ قال : ((طُوبى لِمَن رآني ثُمَّ آمنَ بي ، وطوبى سَبْعَ مَرَّاتٍ لِمَن آمنَ بي وَلَم يَرَني))[6].

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٥٠) : ((وطُوبى في الأصل شجرة في الجنة ...وتُطلَق ويراد بها الخير أو الجنة أو أقصى الأُمْنِيَة . وقِيل : هي من الطِّيب ، أي : طَابَ عَيْشُكم)) اهـ .

د) عن عُمر_رضي الله عنه_قال : كنتُ مع النبيِّ ﷺ جالساً، فقال رسول الله ﷺ : ((أتدرون

---

(٤) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٤٣)برقم (٣٤٧٠)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧) برقم(٢٥٤٠).

(٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٤٣٩)برقم (٥٦٧٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢١٦)برقم (٧٢٣٣) وفي سنده ضعف، وله شواهد عديدة تنقله إلى درجة الحسن لِغَيْره، إذ رُوِيَ عن ثلاثة صحابة: أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة ، وأبو أمامة ، ورواه أحمد (٣/ ٧١) برقم (١١٦٩١)، وأبو يعلى (٦/ ١١٩) برقم (٣٣٩١) . وقد حسَّن الهيثمي إسنادَ أبي يعلى في المجمع (٥٤/١٠) اهـ، ورواه الطبراني(٨/ ٢٥٩)برقم (٨٠٠٩). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٧) : (("طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع". رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجالها رجال الصحيح غير أيمن بن مالك الأشعري وهو ثقة)) .

أيَّ أهلِ الإيمانِ أفضلَ إيماناً ؟)) ، قالوا : يا رسول الله الملائكة، قال: ((هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غَيرهم))، قالوا: يا رسول الله فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنُّبوَّة والرسالة ، قال : ((هم كذلك ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم))، قال : قلنا : فمَن هُم يا رسول الله ؟، قال : ((أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولَم يَرَوْني ، ويجدون الورق المعلَّق فيعملون بما فيه ، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً))(7).

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٣٨و١٣٩) ناقلاً كلام القاضي عِياض عن ابن عبد البَر : ((وأن قَوله ﷺ : ((خَيْركم قَرني)) على الخصوص ، معناه خير الناس قرني أي السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ومن سلك مسلكهم ، فهؤلاء أفضل الأمة وهم المرادون بالحديث . وأمَّا من خلط في زمنه ﷺ وإن رآه وصحبه أو لم يكن له سابقة ولا أثر في الدِّين فقد يكون في القرون التي تأتي بعد القرن الأول من يفضلهم على ما دلَّت عليه الآثار . قال القاضي : وقد ذهب إلى هذا أيضاً غيره من المتكلمين على المعاني . قال : وذهب معظم العلماء إلى خلاف هذا ، وأن من صحب النبيَّ ﷺ ، ورآه مرة من عُمره ، وحَصلت له مَزِيَّة الصُّحبة أفضل من كل من يأتي بعد ، فإن فضيلة الصُّحبة لا يعدلها عمل)) اهـ .

وعن عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَثَلُ أُمتي مَثَلُ المطر لا يدري أوَّلُه خَير أو آخِرُه))(8).

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٦) برقم (٦٩٩٣) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((بل محمد ابن أبي حميد ضعَّفوه)) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥١) : ((رواه أبو يعلى ورواه البزَّار ... وقال الصواب أنه مُرسَل عن زيد بن أسلم ، وأحد إسنادي البزَّار المرفوع حسن)) اهـ .

(٨) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢١٠) ، والترمذي (٥/ ١٥٢) برقم (٢٨٦٩) ، وأحمد (٣/ ١٣٠) برقم (١٢٣٤٩) ، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٣١) برقم (٤٠٥٨) ، وأبو يعلى (٦/ ٣٨٠) برقم (٣٧١٧) . قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦) : ((وهو حديث حسن ، له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. وأغرب النووي فعزاه في فتاويه إلى مسند أبي يعلى من حديث أنس بإسناد ضعيف مع أنه عند الترمذي بإسناد أقوى منه في حديث أنس، وصحَّحه ابن حبان من حديث عمار)) اهـ.

وينبغي أن ندرك أن الآيات القرآنية التي مَدحت الصحابةَ _ رضوان الله عليهم _ إنما مدحتهم في مواقف محددة ، وضمن أسباب معينة . وهذا الفضلُ والمديح من الله للصحابة _ رضوان الله عليهم _ مرتبط بأسباب وحوادث معينة ، وهذه المواقف الشريفة التي وقفها الصحابة الكرام هي سبب مَدْحهم، وهذه المواقف النبيلة هي لوازم المدح، وإذا ثَبَت الشيءُ ثَبَتت لوازمُه .

ولم يكن المدحُ خاصاً بكل صحابي مدى الحياة بغض النظر عما فعل بعد ذلك . بل إن رضوان الله تعالى ورضاه شامل لكل صحابي التزم بالكتاب والسُّنة الصحيحة حتى مماته ، فلقي اللهَ تعالى على ذلك غير مُبَدِّل ولا مُغَيِّر، أمَّا الصحابة الذين خلطوا العمل الصالح بالطالح فلهم وضعية خاصة بهم. كما أن رضوان الله تعالى هابط على الصحابة كوَحدة جمعية كُلية ، وليست فرداً فرداً، لأن تخصيص أحد الصحابة بعَيْنه بالرضوان ورضا الله بحاجة إلى دليل ثابت متعلق بذلك الصحابة بعَيْنه .

أدلة القائلين بعدالة الصحابة فرداً فرداً :

[أ] قال الله تعالى : ﴿ لقد رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح: ١٨] .

قال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٤٧) : ((يقول تعالى ذِكْره : لقد رضي الله يا مُحمَّد عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، يعني بَيعة أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله بالحديبية حين بايعوه على مُناجَزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يَفِرُّوا ، ولا يُوَلُّوهم الدُّبر تحت الشجرة ، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذُكر تحت شجرة)) اهـ .

وقال الصابوني في صفوة التفاسير (١٦/ ٣٧) : ((لقد رضي اللهُ عن المؤمنين حين بايعوك يا محمد (بيعة الرضوان) تحت ظل الشجرة بالحديبية)) اهـ .

قلتُ : إن الآية الشريفة تتحدث عن رضا عمومي متعلق بموقف محدد ، فالله تعالى لم يقل لقد رضي الله عن المؤمنين الذين يبايعونك تحت الشجرة ، أو الذين بايعوك . بل رَبط الرضا بموقف البيعة ﴿ لقد رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ، وهذا يدل على أن الرضا على المؤمنين خاص في موقف البيعة تحت الشجرة (بيعة الرضوان ٦هـ) ، وليس كُلياً عاماً

وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٧): ((رواه البزار والطبراني في الأوسط، وسند البزار حسن ، وقال : لا يُروَى عن النبيِّ ﷺ بإسناد أحسن من هذا)) اهـ .

في كل المواقف دون استثناء . فقد يغضب اللهُ تعالى على صحابي في موقف آخر . فمدحُ الصحابة نابع من موقفهم المشرِّف من البيعة، وليس رضا عاماً شاملاً لكل صحابي فرداً فرداً مدى الحياة إلا من ثبت واستقام حتى مماته . وقد نعطي مثالاً لغوياً _ ولله الْمَثَلُ الأعلى _ ، فنقول : ((لقد رضيتُ على أبنائي إذ يَدرسون في الغرفة)) ، ولاحظ هنا أن الرضا مرتبط بموقف الدراسة، فقد لا أكون راضياً عنهم عندما يَضربون بعضهم البعض في الشارع مَثَلاً .

وقد يحتج فريقٌ بما رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٤٢) من حديث أُم مُبَشِّر _ رضي الله عنها_ أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول : ((لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)) ، ويذهب إلى أن الرضا عام كلي شامل لمن بايع تحت الشجرة فرداً فرداً مدى الحياة دون الحاجة للبحث في أفعال الصحابة من حيث موافقتها للشريعة أو مخالفتها، وبالتالي لن تلمس النارُ أياً منهم بشكل قطعي، وهذا فيه نظر . فالنبيُّ ﷺ هو أفصح العرب على الإطلاق ، وقد جُمِعَ له الكلام ، ولكي نفهم الحديثَ الشريف السابق يجب أن نقارنه بحديث آخر للنبي ﷺ لنفهم دلالاتِ الألفاظ بدقة ، دون التعجل والحُكم من خلال ظاهر الكلام ، فاللغة العربية ظاهرٌ وباطن (مُضْمَر) ، وحقيقة ومجاز ، والمعاني تدل على المعاني ، والألفاظ الظاهرية قد تخفي معنى داخلياً .

ففي صحيح مسلم (١/ ٩٣) عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا يَدخلُ النارَ أحدٌ في قلبه مِثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء)).

فلو أردنا أن نأخذ هذا الحديث على ظاهره لقلنا إن كل المسلمين على الإطلاق لن تلمسهم النارُ قطعاً لأن كل مسلم بالضرورة في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وإن كل مَن في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء هو كافر خالد في جهنم لأنه لا يدخل الجنة حَسَبَ ظاهر الحديث . ومن خلال هذا المنظور سيكون المسلمون الذين في قلوبهم حبة خردل من كبرياء خالدين في النار . ولكن هذا الكلام الناتج من ظاهر الحديث مرفوض قطعاً ، ولا يقول به أحد بتاتاً ، فمن المعلوم من الدِّين بالضرورة أن الذي يموت مسلماً مصيره الجنة _ بشكل فَوْري أو غير فَوْري _ ، ولا يخلد في النار بأية حال ، وأن الكافر لا يدخل الجنة مُطْلقاً، وهذا يقودنا إلى فهم مراد الحديث الشريف فهماً دقيقاً بالغوص في معانيه دون الوقوف عند ظاهره .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٩١) : ((لا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فالمراد به دخول الكفار وهو دخول الخلود)) اهـ .

وهذا هو المعنى المقبول والمنطقي لكل أولئك الذين يفهمون لغة العرب ، وبالتالي فإننا نَخْلُص إلى أن الحديث الشريف : ((لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)) يعني أنهم لا يدخلون النار دخول الكفار الخالدين فيها ، وبعبارة أخرى فهذه بشارة لهم بالموت على الإسلام فلا يخلدون في النار . أمَّا الذهاب إلى أن النار لا تمسهم قطعياً وفق هذا الحديث، فهذا القول لا نُسَلِّم به بالمرة اعتماداً على تضافر الأدلة ، وفهمِ السياقات اللغوية للنصوص. فالسُّنة تفسِّر السُّنةَ ، مما أدى إلى فهم للسياق اللغوي البلاغي . ومن أصحاب الشجرة من حُرِّم على النار قطعياً وهم الصحابة الذين جاءت النصوص صريحة بتحريمهم على النار قطعياً ، ومنهم من قد يتعرض للعذاب في النار لأنه ارتكب ذنوباً بعد بيعة الرضوان ، وخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولكنه لا يخلد فيها، لأن البشارة شاملة بالموت على الإسلام وعدم الخلود في النار بالنسبة لأصحاب الشجرة .

فمثلاً ، الْمُغيرة بن شُعبة شَهد بَيعةَ الرضوان لكنه كان ينال من عليٍّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ، واتخذ المغيرة بن شعبة من سَب عليٍّ منهجاً في حياته، فلو كان الرضا شاملاً لكل أصحاب الشجرة مدى الحياة وفي كل الأحوال، لكان اللهُ راضياً عن المغيرة وهو يشتم علياً. وهذا لا يقول به عاقل. فالله تعالى كان راضياً على المغيرة بن شعبة حينما شهد بيعة الرضوان ، وكان غاضباً عليه حينما كان يشتم علياً ــ رضي الله عنه ــ . وسوف يأتي تفصيل هذا الموضوع لاحقاً بالأدلة الواضحة من مصادرها الموثوقة .

وفي قصة الإفك سقط بعض الصحابة في الخطيئة . ففي الحديث المتفق عليه . البخاري (٤/ ١٥٢٣) ومسلم (٤/ ١٩٣٤) : عن مسروق قال: دخلنا على عائشةـرضي الله عنها ــ وعِندَها حسان بن ثابت يُنشِدها شِعراً يُشبِّب بأبيات له ، وقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ (9)

---

(٩) المعنى العام : مُحصَنة عفيفة ثابتة كاملة العقل لا تُتَّهم بشيء ، تُصبح وتُمسي جائعة من لحوم الناس فلا تغتاب أحداً ولا تَذُمُّه . وكان حسان مِمَّن تكلَّم في عِرْض عائشة في حادثة الإفك، لذلك قالت له : لكنكَ لستَ كذلك .

فقالت له عائشة: ((لكنكَ لستَ كذلك)) ، قال مسروق : فقلتُ لها : لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك، وقد قال الله تعالى : ﴿ والذي تَوَلَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم ﴾[النور : ١١]؟، فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِنَ العمى ؟ ، قالت له إنَّه كان يُنافح أو يُهاجي عن رسول الله ﷺ .

وحسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ الذي كان يدافع عنه دفاعاً قوياً ثابتاً ، والذي قال له الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩٣٥) : ((إن رُوحَ القُدُس لا يزال يُؤيِّدك ما نافحتَ عن الله ورسوله))، قد تورَّط في حادثة الإفك ، والطعن في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وقد توعَّده اللهُ تعالى بعذاب عظيم كما في الآية القرآنية السابقة ، فكيف نُوفِّق بين الموقفين ؟.

من الواضح أن مدح النبيِّ ﷺ لحسان بن ثابت مرتبط بموقف محدد وهو الدفاع عن اللهِ ورسوله ﷺ، أمَّا إن خالف الأوامرَ الشرعية فهو مستحق للعقاب. وهذا الحديث يعكس لنا ضرورة الانتباه إلى مبدأ مديح الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ ، وتحديد صيغة المدح من حيث إنها شاملة عامة أم أنها مخصوصة ضمن إطار محدَّد .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٥٢٩) : عن العلاء بن المسيِّب عن أبيه قال : لقيتُ البراء ابن عازب ــ رضي الله عنهما ــفقلتُ : طُوبى لك ، صحبتَ النبيَّ ﷺ ، وبايعته تحت الشجرة ، فقال : يا ابن أخي ، إنك لا تدري ما أحْدَثْنا بَعْدَه .

قلتُ : وهذا على سبيل التواضع مِن قِبَل البراء بن عازب ــرضي الله عنهماــ، فحسناتُ الأبرار سيئات المقرَّبين ، فقد كانت سيرة البراء مستقيمة حتى وفاته . لكن هناك مَن أحدثَ بالفعل بعد البَيعة تحت الشجرة ، فالمغيرة بن شُعبة لا ننكر أن رضوان الله نزل عليه أثناء بيعة الشجرة، لكنه كان ناصبياً يشتم علياً، وقد وردت أحاديث تدين من يشتم علياً ، ووردت أحاديث كذلك تدين شتم الصحابة عموماً . فينبغي أن تؤخذ الأدلة الشرعية كاملةً في الكتاب والسُّنة الصحيحة وليس بطريقة انتقائية اجتزائية .

وعن جابر أن عبداً لحاطبٍ جاء نبيَّ الله ﷺ يشكو حاطباً ، فقال : يا نبيَّ الله ، لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار ، فقال رسول الله ﷺ : ((كَذبتَ ، لا يَدْخُلَنَّها أبداً وقد شَهد بَدراً والحديبية))[10].

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٣٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٥٧) : ((فيه فضيلة أهل بدر والحديبية ، وفضيلة حاطب لكَوْنه منهم. وفيه أن لفظة الكذب هي الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عمداً كان أو سهواً ، سواءٌ كان الإخبار عن ماض أو مستقبل)) اهـ .

وقصة حاطب بن أبي بَلْتعة مشهورة ففي الحديث المتفق عليه ، البخاري (٤/ ١٨٥٥) ومسلم(١٩٤١/٤): أن النبيَّ ﷺ قال: ((لعل الله_ عز وجل_ اطَّلعَ على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم)).وفي رواية عند البخاري (٥/ ٢٣٠٩):((فقد وَجبت لكم الجنة)).

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٥٦و٥٧) : ((قال العلماء : معناه الغفران لهم في الآخرة ، وإلا فإن توجَّب على أَحد منهم حَد أو غَيْرُه أُقيم عليه في الدنيا . ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد ، وأقامه عمر على بعضهم . قال : وضربَ النبيُّ ﷺ مِسْطَحاً الحدَّ وكان بدرياً)) اهـ .

وفي فتح الباري (٧/ ٣٠٥ و٣٠٦) : ((وهي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم ، ووقع الخبر بألفاظ منها : فقد غفرتُ لكم ، ومنها : فقد وَجبت لكم الجنة ، ومنها : لعل الله اطلع . لكن قال العلماء : إن الترجي في كلام الله وكلام رسوله للوقوع،وعند أحمد وأبي داود وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة بالجزم ولفظه : إن الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعاً : ((لن يدخل النار أحد شهد بدراً)). وقد اسْتُشْكِل قوله: اعملوا ما شئتم ، فإن ظاهره أنه للإباحة ، وهو خلاف عقد الشرع. وأُجيب بأنه إخبار عن الماضي أي كل عمل كان لكم فهو مغفور ، ويؤيده أنه لو كان لما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضي ، ولقال : فسأغفره لكم . وتُعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه ﷺ خاطب به عمر مُنكراً عليه ما قال في أمر حاطب . وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين ، فدل على أن المراد ما سيأتي . وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ، وقيل إن صيغة الأمر في قوله : اعملوا ، للتشريف والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك، وأنهم خُصُّوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة ، وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت،أي كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور. وقيل إن المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة ، وقيل هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم، وفيه نظر ظاهر لما سيأتي في قصة قُدامة بن مَظعون حين شرب

الخمر في أيام عمر وحدَّه عمر، فهاجر بسبب ذلك ، فرأى عمر في المنام من يأمره بمصالحته وكان قُدامة بدرياً)).

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٢٠) : ((وإنما لم يعاقب النبيُّ ﷺ حاطباً ولا هجره لأنه قبل عُذره في أنه إنما كاتب قريشاً خشية على أهله وولده،وأراد أن يتخذ له عندهم يداً فعذره)) اهـ.

وفي عمدة القاري (١٤/ ٢٥٧) : ((وفيه دلالة على أن حُكم المتأوِّل في استباحة المحظور خلاف حُكم المتعمد لاستحلاله من غير تأويل ، قاله ابن الجوزي . وفيه أن من أتى محظوراً، وادعى في ذلك ما يحتمل التأويل كان القول قوله في ذلك ، وإن كان غالب الظن خلافه)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٣٥): ((وقال ابن الجوزي: ليس هذا على الاستقبال وإنما هو على الماضي تقديره : اعملوا ما شئتم أي عمل كان لكم فقد غُفر ، قال : لأنه لو كان للمستقبل كان جوابه فسأغفر لكم ، ولو كان كذلك لكان إطلاقاً في الذنوب ولا يَصِح ، ويبطله أن القوم خافوا بعد حتى كان عمر يقول : يا حُذَيفة بالله هل أنا منهم)) اهـ .

وفي الحديث الذي سبق تخريجه عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن مِن أصحابي مَن لا يراني بعد أن أفارقه)) ، فجاء عمر يسألها ويستحلفها بالله تعالى إذا كان منهم أم لا .

قلتُ : أقوى دليل قدَّمه ابن الجوزي قصةَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو ممن شهد بَدْراً، وكان حاضراً في قصة حاطب بن أبي بلتعة. وانظر كذلك إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ كيف استحلف أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ هل هو ممن لا يَرَوْنَ النبيَّ ﷺ بعد فراقه ، ولو فهم عمر ابن الخطاب أن شهود بدر يعني أنه من أهل الجنة قطعاً لما احتاج أن يأتيَ ويُتعب نفْسه بالسؤال ويستحلف أم سلمة ، ولما احتاج أن يترك قول النبيِّ ﷺ المعصوم ليسأل صحابياً أو صحابية ويستحلفها ، فهذا يعني أنه لم يعتمد قولَ النبيِّ ﷺ ولم يُصدِّقه فَعَدَلَ إلى الآخرين يسألهم ، وحاشى عمر أن يفعل هذا . ولا يقال إنه من باب التواضع أو التقوى ، لأن التقوى أن تأخذ كلامَ النبيِّ ﷺ نَصَّاً معصوماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه، وتُسلِّم له، ولا تَعْدِل عنه نهائياً ، لأن في العدول عنه عدم تصديق للنبيِّ ﷺ فيما قال ، وعدم إيمان بعِصمته في تبليغ الأحكام الشرعية ، وهذا كفرٌ بالإجماع .

وهذه وجهة نظر قوية جداً . لكن الرأي الراجح عندي في قصة عمر هو أن عمر كان يعرف أنه مشهود له بالجنة لأنه شهد بدراً، وسمع ما قال النبيُّ ﷺ في أهل بدر . حتى لو ارتكب ذنباً ، فإنه يلجأ إلى التوبة حتى مماته. لكنه فعل ما فعل من باب أن يطمئن قلبُه،ويتأكد أن فهمه لكلام النبيِّ ﷺ صحيح لئلا يكون قد فهم شيئاً آخر لم يقصده النبيُّ ﷺ. فعمر ليس ساذجاً ، فلو كان منافقاً لعرف ذلك من نفْسه دون الحاجة إلى سؤال الآخرين . وإنما أراد أن يزداد يقيناً وإيماناً. قال اللهُ تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٧) : ((فروى ابن جرير بسنده الصحيح إلى سعيد قال : قوله : ليطمئن قلبي ، أي يزداد يقيني ، وعن مجاهد قال : لأزداد إيماناً إلى إيماني)) اهـ .

وقال القرطبي كما في فتح الباري (٨/ ٦٣٥) : ((وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غُفرت بها ذنوبهم السالفة ، وتأهلوا أن يغفر لهم ما يُستأنف من الذنوب اللاحقة ، ولا يلزم من وجود الصلاحية للشيء وقوعه ، وقد أظهر اللهُ صِدقَ رسوله في كل ما أخبر عنه بشيء من ذلك ، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قُدِّر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ، ولازم الطريق المثلى ، ويعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سِيَرهم)) اهـ .

قلتُ : دعونا نترك السُّنة تفسِّر السُّنةَ . ففي الحديث الصحيح المرفوع الذي سبق تخريجه : ((لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء)) . وفي الحديث المتفق عليه عند البخاري (١/ ١٦٤) ومسلم (١/ ٤٥٥) : ((فإن الله قد حرَّم على النار مَن قال لا إله إلا الله)).

وهذان الحديثان يكشفان لنا السياق اللغوي النبويَّ . فالحديث الأول قد سبق شرحه، وفي الحديث الثاني وضَّح أن من قال لا إله إلا الله قد حُرِّم على النار ، فهل معنى هذا أن النار لن تمسه أبداً ؟! . بالطبع : لا ، فالمعنى الصحيح هو أنه لن يخلد في النار ، وأن مصيره إلى الجنة قطعاً . فكل الأمة المحمدية تقول لا إله إلا الله ، فهل يجرؤ قائل أن يقول إنه لن يدخل النارَ أيُّ واحدٍ منها ؟ ، بالطبع لا . فهناك مسلمون سيذهبون إلى النار لا محالة للعذاب ثم يَخرجون ، وهذا متواتر لا مجال لإنكاره مُطْلقاً .

لذلك فإننا نخلُص إلى أن أهل بدر جاءتهم شهادة نبوية معصومة بأنهم سيموتون على الإسلام قطعاً، وأنه وجبت لهم الجنة. أمَّا أن النار لن تمس أي واحد منهم مُطْلقاً ، فهذا بحاجة إلى دليل آخر يجزم بهذه المسألة . أمَّا قول النبيِّ ﷺ : ((لعل الله _ عز وجل_ اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)) ، فلا يعني أنه سماح بارتكاب الذنوب صغيرها وكبيرها بلا حسيب أو رقيب، بل معناه أن الله تعالى علم في الأزل أنهم سيموتون على الإسلام، وهذه هي البشارة الكبرى لأنها غير متوفرة لكل الناس، وغير متوفرة لكل المسلمين ، فكم من مسلمٍ مات مرتداً . أمَّا احتمال وقوعهم في الصغائر أو الكبائر فوارد ، لكن الله تعالى يتوب عليهم ليتوبوا . فإذا ظَهرت منهم معصية تابوا ورجعوا ، وهكذا حتى وفاتهم . والرأي الآخر أن المغفرة مضمونة لمن توفرت فيه شرط المغفرة، وكان أهلاً للمغفرة والاستقامة حتى الممات . وهذا الرأي إنما جاء من فهمنا لما رواه البخاري (٣/ ١٠٦٩): أن النبيَّ ﷺ قال : ((أوَّل جيش من أُمتي يَغزون مدينة قيصر _ يعني القسطنطينية _ مغفور لهم)) . فالظاهر أن هناك مغفرة عامة شاملة لكل فرد من الجيش ، لكن الحافظ في الفتح (٦/ ١٠٢) أورد كلاماً لابن التين وابن المنيِّر مفاده: ((أنه لا يلزم من دخوله في ذلك العموم أن لا يخرج بدليل خاص ، إذ لا يختلف أهل العِلم أن قوله ﷺ : ((مغفور لهم)) مشروط بأن يكونوا من أهل المغفرة ، حتى لو ارتد واحد ممن غزاها بعد ذلك لم يدخل في ذلك العموم اتفاقاً ، فدل على أن المراد : مغفور لمن وُجد شرط المغفرة فيه منهم)) اهـ .

وقد منع النبيُّ ﷺ عمر أن يقتل حاطباً ، لأن النبيَّ ﷺ قبل عُذره لأنه متأوِّل ، واستدلاله ﷺ ((لعل الله _عز وجل_ اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)) معناه أن كل ذنب يرتكبونه سَيُوفِّقهم اللهُ تعالى للتوبة منه، وبالتالي فإن حاطباً مشهود له بالإسلام، وأن الجنة واجبة له ، فقد نفى ﷺ عنه الرِّدة ، أمَّا ما فعله فهو ذنب مغفور لاعتماده على التأويل ، وقد قبله النبي ﷺ، لذلك كان أهلاً أن يُغفَر له بحسن نيته وتأويله الشخصي للمسألة بعيداً عن الرِّدة . وإذا ارتكب ذنباً سيهتدي إلى التوبة منه. أما أن النار لن تلمسه أبداً ، فهذا يحتاج إلى دليل آخر اعتماداً على مقارنة الصياغة اللغوية النبوية في الأحاديث ، والله أعلم .

[ب] قال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِن اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مغفرةً وَأَجْراً عَظِيمَاً ﴾ [الفتح: ٢٩] .

إن الآية السابقة فيها مدحٌ للصحابة _ رضي الله عنهم _ بالعموم ، أي إن الخطاب خاص بمجموع الصحابة كوَحدة جمعية كلية، ولا تَحمل أي تخصيص للصحابة فرداً فرداً . كما أن المدح مرتبط بمواقف محددة مثل الشدة على الكفار ، والرحمة فيما بينهم ، والركوع والسجود ، وابتغاء فضل الله ورضوانه، فمن التزم بهذه الأمور حتى مماته ، واستقام وثبت حتى لَقِيَ اللهَ تعالى فهو مرضيٌّ عنه بالقَطْع . أمَّا مَن خَلط الطاعات بالمعاصي، وبدَّل المواقف وأساء ، فهذا له وضع آخر بالتأكيد .

[ج] قال الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِن اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٨/ ٢٣) : ((كأنه يقول : الفَيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم ، فتركوا الديار والأموال ابتغاء مرضاة الله ورضوانه .. قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دِينه .. وهؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة هم الصادقون في إيمانهم)) اهـ .

إن المدح في هذه الآية مرتبط بالهجرة والتضحية في سبيل الله ، أي إن المدح متعلق بهذا الموقف المشرِّف الذي وقفه الصحابة _ رضي الله عنهم _ . وما ذِكْرُ اللهِ لهذه الصفات وهذه المواقف في الآيات القرآنية الكريمة إلا توضيح لنا أن المدح مرتبط بأسبابه ، وأن الفضل المستحق مقترن بأحداث مُعيَّنة . وهذا المدح مستمر بشرط أن يثبت الصحابِيُّ على المواقف النبيلة حتى مماته. وإذا لم يثبت ففي ذلك كلامٌ آخر .

[د] قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٨/ ٢٣و٢٤) : ((أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار .. يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم.. ولا يجد الأنصار حزازة وغيظاً وحسداً مما أعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم ..

ويُفضِّلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه .. ومن حماه الله وسَلِم من البخل فقد أفلح ونجح)) اهـ .

قلتُ : وهذا المدح للأنصار هو مدحٌ لمواقفهم النبيلة ، فجاءهم رضا الله تعالى على تلك المواقف الشريفة التي تعكس إيماناً راسخاً ، وبالطبع فالأمور مرتبطة بالأسباب والحوادث التاريخية ، وقد يكون اللهُ تعالى غير راضٍ عن مُهاجريٍّ أو أنصاريٍّ في حادثة معينة أو لحظة محددة. وليس أدل على مدح مواقف الصحابة لا مدح ذواتهم على الإطلاق من توضيح الآية الشريفة لمجريات الأمور والحوادث التاريخية بدقة ، فالمدح والفضل جاء خاصاً بأحداث محددة مثل اتخاذ المدينة منزلاً ، والإيمان ، وحب المهاجرين ، وعدم الحسد ، والإيثار . ولم يأت ذِكر هذه الصفات عبثاً ، بل هي الدواعي الحقيقية لمدح اللهِ تعالى لهم ، فإن استمروا حتى وفاتهم ثابتين عليها فالمدح مستمر لهم ، والرضوان ثابت بحقهم ، أمَّا مَن غيَّر وبدَّل وخالف هذه الصفات الحميدة التي يحبها الله تعالى ، فقطعاً سوف يخرج من نطاق المقصودين بالآية الشريفة .

[هـ] قال الله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَن أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد: ١٠] .

إن الآية الشريفة تمدح موقف الإنفاق الذي قام به الصحابة _ رضوان الله عليهم _، ومدحُهم لأنهم قاموا بالإنفاق ، أي إن مدح الذوات البشرية مرتبط بالحدث التاريخي والموقف . ونحن عندما نطلق على الصحابة عبارة _ رضي الله عنهم _ ، فنحن لا نقصد بها الصحابة الذي نكثوا وبدَّلوا وتنكَّبوا الطريقَ، فهؤلاء من النادر، والنادر لا حُكم له. وبعض الأفراد من الصحابة الذي أساؤوا، وخلطوا الحابلَ بالنابل ، وجاءت نصوصٌ شرعية ضدهم، فهؤلاء مُسْتَثْنَوْن من عبارة_ رضي الله عنهم _، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً .

[و] قال الله تعالى : ﴿ لقد تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾[التوبة : ١١٧] .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٠١) : ((يقول تعالى ذِكره : لقد رزق اللهُ الإنابة إلى أمره وطاعته نبيَّه محمداً ﷺ، والمهاجرين ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وأنصارَ رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العُسرة)) اهـ .

وهكذا نجد أن التوبةَ من الله تعالى نزلت على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ، أمَّا المهاجرون والأنصار فذُكِروا بالعموم ولم يتم ذِكر أي فردٍ بعَيْنه ، فهذه توبة عامة مُوَجَّهة للمهاجرين والأنصار

كوَحدة مجتمعية كلية ، وغير مُوَجَّهة لهم فرداً فرداً بعَيْنه . ويمكن أن تكون التوبة لكل فرد بعَيْنه ولكن هذه التوبة مرتبطة بحدث معيَّن ومحدَّد زماناً ومكاناً (الاتباع في ساعة العسرة) ، وليست شاملة لكل الأحداث ، لأن الآية تتحدث عن حادثة تاريخية بعينها ، أي إن الآية مخصَّصة . وقد يقول أحدهم إن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فنقول إن كلامك صحيحٌ في حال لم يتم تقييد الحدث التاريخي في الآية ، وبما أن الموقف المحدَّد (الاتباع في ساعة العسرة) قد ذُكِر ، فالآية خاصة بالسبب ، ولا تُحمَل على عموم اللفظ ، لأن اللفظ أصلاً غير عام .

[ز] قال الله تعالى : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَت للنَّاسِ تأمرون بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عن المنكر وتؤمنونَ باللهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

هذه الآية مختلفٌ في تأويلها وفق طرق عدة ، فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال في تفسيرها : ((هُم الذين هاجروا معَ رسول الله ﷺ مِن مكة إلى المدينة))[11].

وعن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جَدِّه أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول : ((إنكم تُتِمُّون سبعين أُمَّة ، أنتم خَيْرُها وأكرُمها على الله))[12].

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قرأ عمر بن الخطاب_رضي الله عنه_ : ﴿ كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس ﴾، ثم قال: يا أيها الناس مَن سَرَّه أن يكون من تلك الأمة فَلْيُؤدِّ شَرْطَ اللهِ مِنها[13].

إن أفضلية الأمة المحمدية مُقيَّدة بتحقيق الشَّرْط الإلهيِّ ، فهي لا تملك صكوك غفران حتى تنام وتنتظر دخول الجنة . بل عليها العمل بالعِلْم ، والمثابرة في تحقيق المراد الإلهيِّ ، حتى تنال شرفَ الصدارة بين الأمم ، والرفعة في الدارين . وإذا لم تُحقِّق شرط الرِّفعة فلا بد أن تلاقيَ نفسَ مصير الأمم الغابرة التي ذهبت إلى الهاوية مع خزي الدنيا والآخرة .

إن الخيرية شاملة للأُمَّة كوَحدة كلية جمعية ، وغير مختصة بكل فردٍ على حِدَة ، لكن الخيرية الجمعية أو الفردية متحققة إذا تم تحقيق شروط الأفضلية الثلاثة التي وضَّحتها الآيةُ الشريفة: الأمر

---

(١١) رواه الحاكم في المستدرك وصحَّحه (٢/ ٣٢٣) برقم (٣١٦٠) ، ووافقه الذهبي .

(١٢) رواه الحاكم في المستدرَك وصحَّحه (٤/ ٩٤) برقم (٦٩٨٧) ، والترمذي في سُننه وحسَّنه (٥/ ٢٢٦)، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) : ((وهو حديث حسن صحيح، أخرجه الترمذي وحسَّنه وابن ماجة والحاكم وصحَّحه وله شاهد مُرسَل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات)) اهـ .

(١٣)تفسير الطبري(٣/ ٣٨٩).وتفسير ابن كثير (١/ ٥١٩)، والعُجاب لابن حجر (٢/ ٧٣٤) .

بالمعروف، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله . فمن التزم بهذه المنهجيات الثلاث تحقَّقت له الأفضلية سواءٌ كان صحابياً أو غير صحابيٍّ ، ومن لم يلتزم بها لم يدخل في نطاق الأفضلية سواءٌ كان صحابياً أو غير صحابي . وهكذا نستنتج أن الأفضلية مشروطة بمسائل محددة ، وغير معنية بالذوات الإنسانية من حيث إنها ذوات بشرية سواءٌ كانت ذوات صحابة أو غير ذلك . فالعِلَّةُ والمعلول متلازمان وجوداً وعدماً ، وإثباتاً ونفياً .

[ح] قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّابقونَ الأوَّلون من المهاجِرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان رضي اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ﴾ [التوبة : ١٠٠].

قال الطبري في تفسيره (٦ / ٤٥٣) : ((يقول تعالى ذِكره : والذين سبقوا الناسَ أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم ، وفارقوا منازلهم وأوطانهم ، ﴿ والأنصار ﴾ الذين نصَروا رسولَ الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ، ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ ، يقول : والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله ، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام طلب رضا الله ، ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾)) اهـ .

إذن ، جاء مدحُ الصحابة على المواقف النبيلة التي وقفوها ، وليس لأنهم صحابة ، فمن ثبت حتى مماته فقد رضي الله عنه ورضي عن اللهِ ، ومن لم يَثبت فهو خارجٌ من سياق الآية قطعاً .

وكل الأحاديث النبوية التي وردت في هذا الباب جاءت مدحاً للصحابة بشكل عمومي كلي ، أي إن المدح لمجتمع الصحابة ، إلا في حالات خاصة جاء المدح لصحابي بعَيْنه ، ومثل هذه النوعية من الأحاديث تُسمَّى فضائل الصحابي . ونخلص إلى قاعدة هامة بمثابة التلخيص ، وهي أن المدح للصحابة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إنما جاء مرتبطاً بأحداث ووقائع محدَّدة ، فمن ثبت حتى وفاته فقد تحقق له الفضلُ ورضوان الله ، ومن زلَّت به القدم أو بدَّل وغيَّر ، فله وضعٌ خاص به. وأيضاً فالمدح والرضوان جاء عمومياً لمجتمع الصحابة الكلي ، فالصحابة الذين كانت سيرتهم سيئة نادرون وقلة قليلة، والنادر لا حُكم له . وقد يأتي الفضلُ مختصاً بصحابي بعَيْنه ، وهذه شهادة من الله تعالى أو من رسوله ﷺ لذلك الصحابي بالرضوان مدى الحياة ، وهذه هي أعلى مرتبة من الفضل والرضوان. ونحن نحب الصحابة_ رضوان الله عليهم _ الذين ثبتوا على الصراط المستقيم ، ونتبرأ من أفعال الصحابة الذين أساؤوا وارتكبوا الآثام ، مع العِلم بأن الصحابي يجوز عليه ارتكاب الكبيرة ، ولكن عليه التوبة منها ، وسواءٌ تاب أم لم يتب فنحن نترضى عليه ، ولا نقوم بخلعه . والأصل في الصحابي أنه عَدْلٌ حتى يثبت العكس. فالصحابي المشهود له

بملازمة النبيِّ ﷺ وبالفضل والرضوان في نصوص شرعية نطلق عليه عبارة ـ رضي الله عنه ـ تحقيقاً بكل ما تحمله العبارة من معنى ، وهذا هو الصحابي بالمعنى العُرْفي ، أمَّا إن كان الصحابي بالمعنى اللغوي، أو أنه خلط الحق بالباطل في حياته وارتكب الكبائر فنطلق عبارة ـ رضي الله عنه ـ من باب الدعاء له والتبرك بهذه الكلمة ، لعل الله أن يعفوَ عنه . فهناك صحابة سيذهبون إلى النار لا محالة ، وسينالون عقابهم بالعذاب ، ومع هذا نترضى عليهم بمعنى أن يرضى الله عنهم ويرحمهم في خاتمة الأمر ، ويُدخلهم الجنة بعد أن ينالوا العذابَ المستحق لهم . فالصحابي لا يُخلَع إلا إذا مات كافراً . ونحن نترضى على الصحابي سواءٌ كان زانياً (مثل ماعز بن مالك والغامدية) ، أو شاربَ خمر (مثل الوليد ابن عُقبة بن أبي مُعَيط وقُدامة بن مظعون) ، أو قاتلاً (مثل سَمُرة بن جندب) ، أو كان فيه نفاق (مثل النواصب من الصحابة كمعاوية والمغيرة بن شُعبة) ، بمعنى الدعاء لهم بالرحمة ونيل رضا الله تعالى ، لا أننا نضعهم مع سادات الصحابة الأتقياء الأنقياء في نفس المرتبة ، وإنما هو الدعاء لهم ، مع إيماننا بأن الصحابة طبقات ودرجات ، فكل المسلمين يدخلون الجنة ، لكن المسلم الذي قضى حياته في الخمَّارة ليس كالمسلم الذي قضى حياته في المسجد . كلٌّ له منزلة ، ولن يجعل اللهُ التقيَّ كالفاسق . فعلى سبيل المثال، معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص (رَأْسا الفتنة) والمغيرة ابن شُعبة كلهم صحابة ، ولكنهم في نفس الوقت نواصب أعداء عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كما سيأتي معنا لاحقاً بإذن الله ، والنَّصْبُ يُسقِط العدالةَ في الوضع الطبيعي ، فكيف سنفعل بالأحاديث التي رواها هؤلاء الصحابة مثلاً ؟ .

والأمر أجاب عنه ابن حجر في تهذيب التهذيب (٨/ ٤١٠) : ((فأكثر من يوصف بالنَّصب يكون مشهوراً بصدق اللهجة ، والتمسكِ بأمور الديانة ، بخلاف من يوصف بالرفض ، فإن غالبهم كاذب ولا يتورع في الأخبار. والأصل فيه أن الناصبة اعتقدوا أن علياً ـ رضي الله عنه ـ قَتل عثمانَ ، أو كان أعان عليه ، فكان بغضهم له دِيانة بزعمهم ثم انضاف إلى ذلك أن منهم من قُتلت أقاربه في حروب عليٍّ)) اهـ .

وانظر إلى هذه الأوصاف بحق بعض الرواة التي ذكرها ابن حجر في عدة مواضع من كتابه تقريب التهذيب (١/ ٩٥) : ((ثقة حافظ رُمي بالنَّصب))، وفي (١/ ١٥٦): ((ثقة ثبت رُمي بالنصب)) ، وفي (١/ ٢٥٢) : ((صدوق رُمي بالنصب)) .

والنَّصبُ بدعة كارثية إلا أنها لا تُخرِج الإنسانَ من المِلة إلا إذا استحلَّها .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٦٠) : ((قال العلماء من المحدِّثين والفقهاء وأصحاب الأصول : المبتدع الذي يكفر ببدعته لا تقبل روايته بالاتفاق ، وأمَّا الذي لا يَكفر بها فاختلفوا في روايته ، فمنهم مَن رَدَّها مُطْلقاً لفسقه ولا ينفعه التأويل . ومنهم مَن قبلها مُطْلقاً إذا لم يكن ممن يستحل الكذبَ في نُصرة مذهبه أو لأهل مذهبه ... ومنهم مَن قال تُقبَل إذا لم يكن داعية إلى بدعته ولا تُقبَل إذا كان داعية ، وهذا مذهب كثيرين أو الأكثر من العلماء ، وهو الأعدل الصحيح)) اهـ .

وقال ابن حجر في نخبة الفكر (ص ٢٣٠) : ((فالمعتمد أن الذي تُرَدُّ روايته مَن أنكر أثراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدِّين بالضرورة ، وكذا من اعتقد عكسه ، والثاني يُقبَل مَن لم يكن داعية إلى بدعته في الأصح ، أي إن روى ما يُقَوِّي بِدْعَتَهُ فَيُرَدُّ)) اهـ .

والأمر غير خاص بالنواصب فحسْب ، بل يتعداه ليشمل الشيعة . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٨/ ٥٨):((وقال أبو إسحاق الجوزجاني: كان قوم من أهل الكوفة لا تُحمَد مذاهبهم، يعني التشيع، رؤوس مُحدِّثي الكوفة مثل أبي إسحاق والأعمش ومنصور وزُبَيد وغَيرهم من أقرانه، احتملهم الناس على صدق ألسنتهم في الحديث)) اهـ .

فهناك صحابة لم يكونوا يعتقدون بعدالة الصحابة فرداً فرداً ، بدليل أن معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة صحابيان مشهوران ، ومع هذا كانا يشتمان علياً وفق نظرتهما له على أنه ظالم ومتجاوز يستحق الشتم واللعن ، يعني أنهما لا يعتقدان بعدالته . فإذا كانت عدالةُ الصحابة فرداً فرداً حقيقةً واقعة ، فقل لي لماذا جعل معاوية شتمَ عليٍّ بن أبي طالب على المنابر ؟ .

نقد أفعال معاوية بن أبي سفيان وشِيعته :

لقد وضَّحنا أن الصحابة ليسوا معصومين ، ولا يملكون أية حصانة إلا حصانة الكتاب والسُّنة لمن التزم بهما ، أما الذين لم يلتزموا بهما ، فنحن نحذِّر الناسَ من أفعالهم الشريرة لئلا يحدث الاغترار باسم الصحابي المرتبط بهم . مع التنبيه إلى أن وجود قِلة نادرة من الصحابة ذات السلوك السيئ لا يطعن في باقي الصحابة ـرضوان الله عليهمـ، لأن وجود ابن كافر للنبيِّ نوحﷺ لا يعني بأية حال من الأحوال أن نوحاً لا يُتقن تربيةَ الأبناء ، ووجود يهوذا الإسخريوطي لا يعني أن المسيح ﷺ لا يَعرف اختيارَ أصحابه . كما أن بروز صحابي ذي سيرة سيئة هنا أو هناك لا يعني أن النبيَّ محمداً ﷺ لا يعرف تمييزَ أصحابه، فليس كلُّ الصحابة هم العشرة المبشَّرين بالجنة . فالصحابة

الذين قام على أكتافهم الإسلامُ هؤلاء من اختيار النبيِّ ﷺ ، ووردت نصوص شرعية في تعديلهم وتزكيتهم وفضلهم وأنهم من أهل الجنة ، وهؤلاء هم الصحابة من الطبقات المتقدمة في التمسك بالإسلام ، ولكن من المحال أن يكون كل الصحابة على وتيرة واحدة من الالتزام الشرعيِّ، فنحن نتحدث عن مجتمع الصحابة الذين يتجاوزون مئة ألف صحابي،ومن الجنون اعتقاد أنهم كلهم ملتزمون بالشرع التزاماً حقيقياً . ومن هؤلاء الذين ارتكبوا الموبقات والكبائر ، ولم يتوبوا منها معاوية بن أبي سفيان الذي تضافرت الأدلة الشرعية ضده بشكل واضح وحاسم . ونحن في هذا المقام نستعرض الأدلة التي جاءت ضده مُرَقَّمةً ، ومعتمدة على مصادرها الموثوقة :

[١] إن معاوية قد جعل شتم عليِّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه_ على المنابر يوم الْجُمُعة ، وهذا متواترٌ لا مجال لإنكاره أبداً ، فمن غير المعقول أن كل الولاة الذين وضعهم معاوية يَشتمون علياً ، ولا يكون الأمر صادراً منه أو أنه لا يَعلم بالموضوع .

فإن كنتَ لا تدري فتلك مصيبة وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظمُ

ولو افترضنا جدلاً أن معاوية لم يأمر بِسَبِّ عليٍّ مع وجود كل ولاته يشتمون علياً، فهذا لا يعفيه من المسؤولية، بل هو شريكٌ في الشتم ، بل هو الذي أسَّس هذا المنهج الفاسد، وجعله أمراً مفروضاً على العباد .

روى مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٤) عن سهل بن سعد _ رضي الله عنه_ قال : اسْتُعْمِلَ على المدينة رَجلٌ من آل مروان ، قال: فدعا سهل بن سعد ، فأمره أن يَشتم علياً ، قال : فأبى سهل ، فقال له : أمَّا إذا أبيتَ فقل : لعن اللهُ أبا التراب ، فقال سهل : ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبُّ إليه من أبي التراب ، وإن كان ليفرح إذا دُعِيَ بها.

[٢] روى مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٠) عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً ، فقال : ما منعك أن تَسُبَّ أبا التراب ؟!، فقال : أمَّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أَسُبَّه ، لأن تكون لي واحدة منهنَّ أحبُّ إِلَيَّ مِن حُمْرِ النَّعَمِ .

وقد ذهب بعض الشراح إلى أن معاوية يتساءل فقط عن السبب الذي منع سعداً أن يشتم علياً ولم يطلب منه الشتمَ. وهذا تحايلٌ واضح، فما معنى عبارة" أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً" ؟، وبالطبع فقد أمره أن يَسُبَّ علياً ، لكن سعداً _رضي الله عنه _ رفض هذا العارَ .

[٣] عن زياد بن عِلاقة عن عمّه أن المغيرة بن شُعبة سَبَّ عليَّ بن أبي طالب ، فقام إليه زيد ابن أرقم، فقال : يا مغيرة ، ألم تعلم أن رسول الله ﷺ نهى عن سَبِّ الأموات ، فَلِمَ تَسُبُّ علياً وقد مات ؟! (14).

[٤] وروى الطبري في تاريخه (٣/ ٢١٨): إن معاوية بن أبي سفيان لَمَّا وَلَّى المغيرة بن شُعبة الكوفة في جُمادى سنة إحدى وأربعين دعاه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ((... ولستُ تاركاً إيصاءك بِخَصْلة ، لا تتحمَّ عن شتم علي وذمّه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له ، والعَيب على أصحاب عليٍّ ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم)) اهـ .

[٥] وروى البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٥٨) برقم (٣٥٠٠) أن رَجلاً جاء إلى سهل ابن سعد ، فقال : هذا فلان لأمير المدينة يدعو عَلِيَّاً عند المِنبر .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٣٠١) : ((وأمير المدينة هو مروان بن الحكم فيما أظن)) .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧) ناقلاً عن ابن سعد بإسناده : ((كان الوُلاة من بني أُمَيَّة قَبْل عمر بن عبد العزيز يَشتمون رَجلاً رضي الله عنه ، فلمَّا وَلِيَ هو أمسك عن ذلك . فقال كُثَيِّر عَزَّة : وَلِيتَ فلم تَشْتِم علياً ولم تخف بريَّاً ولم تَتْبع مقالةَ مجرمِ

تكلمتَ بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلمِ

فَصَدَّقْتَ معروف الذي قلتَ بالذي فعلتَ فأضحى راضياً كُلُّ مسلمِ

العواقب الخطيرة لِسَبِّ الصحابة خاصةً عليّ بن أبي طالب (15):

[١] عن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ _ رضي الله عنه _ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((لا تَسُبُّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه))(16).

(١٤) رواه الحاكم وصحَّحه على شرط مسلم (١/ ٥٤١) برقم (١٤١٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٤٥) : ((رواه الطبراني بإسنادين ، ورجال أحد أسانيد الطبراني ثقات)) اهـ .

(١٥) تمَّ تخصيص عليٍّ لأن شَتْمَه تَمَّ بصورة منهجية ، والانتقاص مِنه صار دِيناً وسياسةً .

(١٦) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٤٣) برقم (٣٤٧٠)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧)برقم (٢٥٤٠).

[٢] عن أبي عبد الله الْجَدَلِيِّ قال: دَخلتُ على أُم سَلَمة ـرضي الله عنهاـ فقالت لي : أَيُسَبُّ رسولُ الله ؟!،فقلت: معاذ الله أو سبحان الله أو كلمة نحوها، فقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((مَن سَبَّ علياً فقد سَبَّني))[17].

---

(١٧) رواه الحاكم في المستدرك وصحَّحه (٣/ ١٣٠) برقم (٤٦١٥) ، ووافقه الذهبي . وأحمد (٦/ ٣٢٣) برقم (٢٦٧٩١) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٧٥) : ((رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجدلي وهو ثقة)) اهـ .

قلتُ: قال ابن حجر عن أبي عبد الله الجدلي في تقريب التهذيب (١/ ٦٥٤) : ((ثقة رُمي بالتشيع)) اهـ. وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦/ ٢٢٨) : ((وكان شديد التشيع)) اهـ . وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب (١٢/ ١٦٥) : ((وكان شديد التشيع)) اهـ . واتفق أهل العِلم على أن المبتدع إذا روى حديثاً في نُصرة بدعته رُد ، حتى لو كان ثقة . قال ابن حجر في نخبة الفكر (ص ٢٣٠) : ((فالمعتمَد أن الذي تُرَدُّ روايته مَن أنكر أثراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة ، وكذا من اعتقد عكسه ، والثاني يُقبل مَن لَم يكن داعية إلى بدعته في الأصح ، أي إن روى ما يُقَوِّي بِدْعَتَهُ فَيُرَدُّ)) اهـ .

قلتُ : وهذه المسألة بحاجة إلى تأصيل جديد وتفصيل أكثر دقةً . وسأطرح وجهة نظري في الموضوع اعتماداً على كلام بعيد عن موضوعنا للإمام الشافعي في الرسالة (ص ٤٦١) : ((مَن شاهدَ أصحابَ رسول الله من التابعين فحدَّث حديثاً منقطعاً عن النبيِّ ، اعْتُبر عليه بأمور منها : أن يُنظر إلى ما أرسل من الحديث ، فإن شَرَكه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلى رسول الله بمِثل معنى ما روى كانت هذه دلالة على صِحَّة مَن قَبِلَ عنه وحَفِظه . وإن انفرد بإرسال حديث لم يشركه فيه من يسنده قُبِل ما ينفرد به من ذلك، ويُعتبر عليه بأن يُنظَر هل يوافقه مُرسَل غَيره مِمَّن قَبِلَ العِلم عنه مِن غَير= =رجاله الذين قَبِلَ عنهم، فإن وُجد ذلك كانت دلالة يُقوَّى به مُرسَله وهي أضعف من الأولى، وإن لَم يوجد ذلك نُظر إلى بعض ما يُروَى عن بعض أصحاب رسول الله قولاً له ، فإن وُجد يوافق ما رُوِيَ عن رسول الله كانت هذه دلالة على أنه لم يأخذ مُرْسَله إلا عن أصل يَصِحُّ إن شاء الله)) اهـ .

قلتُ : قد يتساءل أحدهم فيقول : وما علاقة هذا بموضوعنا ؟ . فأقول إن الشيعي المعتدل أو المغالي إذا روى حديثاً في فضائل عليٍّ ، وكانت شروط السند مكتملة ، لا ينبغي أن يُرَد الحديث بحجة أنه يؤيد بدعته بدون أي تدقيق. فالحديث إذا كان منضوياً تحت أصل شرعي ثابت، أي إنه ضمن منهجية

الكتاب والسُّنة الصحيحة ولم يخرج خارجهما فيجب أن يُقبَل لأنه ضمن الدائرة الشرعية ، ولم يكن بِدْعاً من الحديث ، فهذا لا ينبغي أن يُحكَم بأنه يؤيد بدعةَ التشيع . والأمر كذلك لو كان الراوي ناصبياً وروى في فضائل عثمان ، واكتملت الشروط المعروفة لقبول الحديث ، وبقيت مسألة تأييد البدعة ، فيُنظَر إلى ما رواه ، فإن كان منضوياً تحت أصل ثابت قُبِل ، وعلمنا أنه لم يشذ تأييداً لبدعته، وإنما الأمور ضمن الدائرة الشرعية المعتمدة... وهكذا دواليك . فمسألة تأييد البدعة التي يُرَد الحديث لأجلها تعني أن الحديث مخصَّص حصرياً لدعم البدعة مخالِف للكتاب والسُّنة الصحيحة ، أمَّا غير ذلك فلا يُعتبَر تأييداً للبدعة . فمثلاً في الإنجيل والتوراة ، ما وافق القرآنَ الكريم كان حقاً ، وما خالفه كان باطلاً ، رغم أن الإنجيل والتوراة بلا سند ثابت، ورواتهما يعتريهم الغموض والانحراف والشكوك ، والله أعلم .

فمثلاً، الحديث في صحيح مسلم (١/ ٨٦) عن عليٍّ بن أبي طالب_ رضي الله عنه_ : ((والذي فَلَقَ الحبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ إنه لَعَهْدُ النبيِّ الأميِّ ﷺ إِلَيَّ أن لا يُحِبَّني إلا مُؤمن ولا يُبغضني إلا منافق)) ، في سنده عَدِيٌّ بن ثابت . قال المِزيُّ عنه في تهذيب الكمال (١٩/ ٥٢٣) : ((قال أبو حاتم : وكان إمام مسجد الشيعة وقاصَّهم))، وقال ابن حجر في تقريب التهذيب(١/ ٣٨٨): ((رُمي بالتشيع)). وقال الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٤٩٠):((كان يتشيع))اهـ. ومع هذا فعدي بن ثابت من رجال البخاري ومسلم . وكما هو مُقرَّر عند أهل العِلم أن مرويات الثقة تُرَد إذا روى ما يؤيد بدعته ، لكن هذا الحديث لا يمكننا أن نحكم عليه بأنه يؤيد بدعةَ التشيع، لأنه ببساطة ضمن الدائرة الشرعية المعتمدة ، فحب الصحابة من الإيمان ، وبغضهم من النفاق، وهذا أمر مفروغ منه ، فما بالك بواحد من سادات الصحابة الكبار، ورابع الخلفاء الراشدين، والرَّجل الثاني في آل البيت بعد النبيِّ ﷺ ، الذي له صَولات وجَولات في المعارك والغزوات ورفع راية الإسلام ؟! . وفي الحديث المتفق عليه عند البخاري (١/ ١٤) ومسلم (١/ ٨٥) : عن أنس _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار)). بل إن عدي بن ثابت نفسه المتَّهم بالتشيع روى عن البراء _رضي الله عنه_ أنه سمع النبيَّ ﷺ قال : ((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله))[صحيح البخاري ٣/ ١٣٧٩]. إذن، ببساطة ندرك أن المسألة لا يوجد فيها شيء مُريب مِن قِبَل تأييد البدعة ، أو الخروج عن الأصول المعروفة الثابتة ، وخلاصة الأمر أن الحديث ينضوي تحت أصل ثابت ، وهو أن حب الصحابة إيمان ، وبغضهم نفاق . ومن باب أولى أن ينال هذه الميزة الصحابة المتقدمون مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي _ رضي الله عنهم _ . وبالتالي فالحاكم على قبول الأحاديث أو رفضها إذا كان في سندها ناصبي ثقة روى فضائل لعثمان ، أو شيعي

[٣] روى مسلم في صحيحه (١/ ٨٦) عن زِر بن حُبَيش قال: قال عليٌّ: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهدُ النبي الأمي ﷺ إِلَيَّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يُبغضني إلا منافق .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١٠) : ((فمعناه أن حُب عليٍّ من الإيمان ، وبغضه من النفاق. فالإيمان ذو شُعَب وكذلك النفاق يتشعب . فلا يقول عاقل إن مجرد حبه يصير الرَّجل به مؤمناً مُطْلقاً ، ولا بمجرد بغضه يصير به الموحِّد منافقاً خالصاً . فمن أحبه وأبغض أبا بكر كان في منزلة من أبغضه وأحب أبا بكر ، فبغضهما ضلال ونفاق وحُبهما هدى وإيمان)) اهـ .

[٤] عن عَوف بن أبي عثمان النهدي قال : قال رَجل لسلمان : ما أشدَّ حُبَّكَ لعليٍّ ! ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((مَن أحب علياً فقد أحبني، ومَن أبغض علياً فقد أبغضني))(18).

[٥] روى الحاكم في المستدرك (٣/١٣١) وصحَّحه ووافقه الذهبي : عن عمرو بن شاس الأسلميّ _ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن آذى علياً فقد آذاني)).

إشارات أخرى مُوجَّهة ضد معاوية :

[١] روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٠) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ أن النبيَّ ﷺ قال له : ((اذهب وادْعُ لي معاوية)) ، قال : فجئتُ فقلتُ: هو يأكل، قال : قال لي : ((اذهب فادعُ لي معاوية))، قال : فجئتُ فقلتُ : هو يأكل ، فقال : ((لا أشبعَ اللهُ بَطْنَه)) .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٥٢) : ((وفي حديث معاوية : لا أشبع الله بطنه ، ونحو ذلك ، لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء)) اهـ .

ثقة روى فضائل لعليٍّ، هو الدائرة الشرعية المستمدة من الكتاب والسُّنة الصحيحة ، فإذا كان متن الحديث ضمن الإطار المقبول في منهجية أهل السُّنة والجماعة يُقبَل _ إذا كانت باقي الشروط محقَّقة _ ، أمَّا إن كان فيه تجديف يُعرَض عنه .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٤١) برقم (٤٦٤٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال المناوي في فيض القدير(٦/ ٣٢):((ورواه أحمد ... وسنده حسن)) اهـ . وعند الطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٨٠) برقم (٩٠١) بسند حسَّنه الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨٠) : عن أُم سلمة قالت : أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((مَن أحبَّ علياً فقد أحبني، ومَن أحبني فقد أحبَّ الله ، ومَن أبغض علياً فقد أبغضني ، ومَن أبغضني فقد أبغض الله)) .

قلتُ : هذا الكلام فيه نظر، فالإمام النووي يحاول الدفاع عن معاوية بلا وجه حق ، فالنبيُّ ﷺ كان قاصداً الدعاء على معاوية ، بدليل أن دعاءه ﷺ تَمَّت استجابته . فقد قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ١٦٩) عن معاوية : ((لا يَشبع بَعْدَها، ووافقته هذه الدعوة في أيام إمارته ، فيقال إنه كان يأكل في اليوم سبع مرات طعاماً بلحم ، وكان يقول : والله لا أشبع وإنما أعيى)) .

وعن مُغيرة عن الشَّعبي قال : أوَّل مَن خطب جالساً معاوية حين كَبُرَ ، وكَثُرَ شَحْمُه ، وعَظُمَ بَطْنُه [19].

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٣) : [فسَّره بعض المحبين قال: لا أشبع الله بطنه، حتى لا يكون مِمَّن يجوع يوم القيامة ، لأن الخبر عنه أنه قال : ((أطولُ الناسِ شَبَعاً في الدنيا أطْوَلُهم جُوعاً يوم القيامة))[20]] اهـ .

---

(١٩) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٧/ ٢٤٧) ، والشيباني في الآحاد والمثاني من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق (١/ ٣٨٠) برقم (٥٢١) . قال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٠١) : ((وروى ابن أبي شيبة من طريق طاوس قال : أول من خطب قاعداً معاوية حين كثر شحم بطنه ، وهذا مُرسَل يُعضِّده ما روى سعيد بن منصور عن الحسن قال :... وأول من خطب جالساً معاوية)) اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٩٧) : ((ويُروى أن أول من خطب قاعداً معاوية)) اهـ . قلتُ : وقد رُوِيَ من ثلاث طرق تشد بعضها بعضاً وتقوِّيه : أ) مغيرة عن الشعبي ، ب) إسرائيل عن أبي إسحاق ، ج) سعيد بن منصور عن الحسن .

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرك وصحَّحه (٣/ ٦٩٩) برقم (٦٥٤٥) . وابن ماجة (٢/ ١١١٢) برقم (٣٣٥١) ، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٣٦) برقم (٦٠٨٧) . قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٩٩) : ((رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . قال الحافظ : بل واهٍ جداً فيه = =فهد بن عوف وعمر بن موسى ، لكن رواه البزار بإسنادين رواة أحدهما ثقات ، ورواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي)) اهـ . قلتُ : ((رواه الحاكم وصحَّحه (٦٩٩/٣) بسند ليس فيه فهد بن عوف ولا عمر بن موسى ، ويبدو أن الحافظ لم يطلع على هذا السند ، لأنه يتحدث عن سند آخر للحديث في المستدرك (٤/ ٣٤٦) صحَّحه الحاكم)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٤) : ((رواه الطبراني في الأوسط والكبير بأسانيد ، وفي أحد أسانيد الكبير محمد بن خالد الكوفي ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

قلتُ : وهذا التأويل الذي أورده الذهبي على لسان بعض المحبين بعيدٌ جداً ، ومحاولة واضحة لتحميل النَّص ما لا يحتمل ، فعبارة " لا أشبع الله بطنه " دعاء من النبيِّ ﷺ على معاوية ، وتمت استجابته كما وضَّحنا ، ومن الثابت أن معاوية كان معدوداً في الأكَلة ، وهذا يدل على أن الدعاء عليه قد اسْتُجِيب .

[٢] روى مسلم في صحيحه (٢/ ١١١٤) أن النبيَّ ﷺ قال لفاطمة بنت قيس عندما استشارته في الزواج من معاوية: ((وأمَّا معاوية فَصُعلوك ، لا مال له)).

وقد حاول البعض جعل الأحاديث السابقة منقبةً لمعاوية عن طريق لوي أعناق النصوص ، وإحالتها إلى معانٍ أخرى غير مقصودة، ظناً منهم أنهم بذلك يدافعون عن معاوية . فأوردوا الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠٨) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ أن النبيَّ ﷺ قال : ((اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تُخلفنيه فإنما أنا بَشَرٌ، فأيُّ المؤمنين آذيتُه شتمتُه لعنتُه جلدتُه ، فاجعلها له صلاةً وزكاة وقُربة تُقرِّبه بها إليك يوم القيامة)) .

ينبغي أن نفهم هذا الحديث الشريف في سياقه الحقيقي ، فالنبيُّ ﷺ كل أخلاقه حميدة ونقية وطاهرة، لا ينطق إلا بحق، فلسانه طاهرٌ نظيف، فليس فاحشاً ولا وقحاً ولا بذيئاً ، وكذلك كل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام_ . وهذا الحديث الشريف يُبيِّن شفقةَ النبيِّ ﷺ على المسلمين ، ورعايته لمصالحهم وشؤونهم في الدارين .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٥١و١٥٢) : [إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه والسب واللعن ونحوه وكان مسلماً ، وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين ولم يكن ذلك لهم رحمة، فإن قيل كيف يدعو على من ليس هو بأهل للدعاء عليه أو يَسُبه أو يلعنه ونحو ذلك ؟! ، فالجواب ما أجاب به العلماء ومختصره وجهان : أحدهما أن المراد ليس بأهل لذلك عند الله تعالى ، وفي باطن الأمر ، ولكنه في الظاهر مستوجب له، فيظهر له ﷺ استحقاقه لذلك بأمارة شرعية ويكون في باطن الأمر ليس أهلاً لذلك ، وهو ﷺ مأمور بالْحُكم بالظاهر والله يتولى السرائر.والثاني: أن ما وقع من سَبِّه

ودعائه ونحوه ليس بمقصود، بل هو مما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نية كقوله: ((تَرِبَت يَمينُك))[21].

و((عَقرى حَلْقي))[22]....ونحو ذلك. لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء فخاف ﷺ أن يُصادف شيء من ذلك إجابة فسأل رَبَّه _سبحانه وتعالى_ ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقُربة وطَهوراً وأجراً ، وإنما كان يقع هذا منه في النادر والشاذ من الأزمان، ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لَعَّاناً ولا منتقماً لنفْسه، وقد سبق في هذا الحديث أنهم قالوا : ادْعُ على دَوْس ، فقال : ((اللهم اهْدِ دَوْسَاً))[23]. وقال : ((اللهم اغفر لقومي))[24].] اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٧٢) نقلاً عن القاضي عياض:[كان لا يقول ولا يفعل ﷺ في حال غضبه إلا الحق لكنَّ غضبه لله قد يَحمله على تعجيل مُعاقَبة مُخالَفة وترك الإغضاء والصفح ويؤيده حديث عائشة : ((ما انتقم لنفْسه قَط إلا أن تُنتهَك حُرمات الله))[25]] اهـ .

قلتُ : وهذه الأحاديث الشريفة لا يمكن حملها على جعل الدعاء على معاوية مِن قِبَل النبيِّ ﷺ منقبةً له ، لأن معاوية أهلٌ أن يُدعَى عليه وفق الأدلة التي قدَّمناها وسنقدمها بإذن الله ، وخاصةً

---

(٢١) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٠١) برقم (٤٥١٨)،ومسلم (٢/ ١٠٧٠)برقم (١٤٤٥).
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٢١) : ((والأصح الأقوى الذي عليه المحققون في معناه أنها كلمة أصلها افتقرتَ ، ولكن العرب اعتادت استعماله غير قاصدة حقيقة معناها الأصلي ، فيذكرون تربت يداك ، وقاتله الله ما أشجعه ، ولا أم له ، ولا أب لك ، وثكلته أمه ، وويل أمه ، وما أشبه هذا من ألفاظهم ، يقولونها عند إنكار الشيء ، أو الزجر عنه ، أو الذم عليه ، أو استعظامه ، أو الحث عليه ، أو الإعجاب به ، والله أعلم)) اهـ .

(٢٢) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٨٠) برقم (٥٨٠٥) ، ومسلم (٢/ ٨٧٧) برقم (١٢١١).
قلتُ : ومعنى هذه الكلمة في هذا الحديث" إنكِ لحابستُنا " والخطاب مُوَجَّه للسيدة صفية أم المؤمنين .
وقال الزمخشري في الفائق (٣/ ١٠) عن " عَقرى حَلْقي" : ((هما صفتان للمرأة إذا وُصِفت بالشُّؤْم ، يعني أنها تَحْلِق قومَها وتَعْقِرهم ، أي : تستأصِلُهم مِن شُؤمها عليهم)) اهـ .

(٢٣) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٧٣) برقم (٢٧٧٩)، ومسلم (٤/ ١٩٥٧) برقم (٢٥٢٤).

(٢٤) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٢) برقم (٣٢٩٠) ، ومسلم (٣/ ١٤١٧) برقم (١٧٩٢) .

(٢٥) رواه البخاري (٦/ ٢٤٩١) برقم (٦٤٠٤) .

أن الدعاء عليه " لا أشبع الله بطنه " قد تمت استجابته ، وهذا دليلٌ ساطع على النبيِّ ﷺ كان قاصداً ما يقول حرفياً ، وليس وفق ما تعارف عليه من لغة العرب بأن يقولوا كلاماً ظاهره الدعاء على الشخص ، وباطنه غير ذلك .

وروى أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٧) برقم (٢٢٩٩١) عن عبد الله بن بُرَيدة قال : ((دخلتُ أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفُرش ، ثم أُتينا بالطعام فأكلنا ثم أُتينا بالشراب فشرب معاوية ، ثم ناول أبي ثم قال : ما شربتُه منذ حرَّمه رسولُ الله ﷺ ...)) .

وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٤) : ((رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح)) اهـ .

كما أن معاوية قتل عدداً كبيراً من الصالحين من أجل شهوة الْمُلْك والاستبداد بالسُّلطة، منهم الصحابي حُجْر بن عَدِيٍّ ـــ رضي الله عنه ـــ لَمَّا أنكرَ على وُلاة معاوية سَبَّ عليٍّ ـــ رضي الله عنه ـــ.

قال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٣٧) : ((وقُتِلَ بمرج عذراء ـــ قرية بغوطة دمشق ـــ بأمر معاوية)) . اهـ . وقال الذهبي في دول الإسلام (١/ ٣٨) في أحداث سنة ٥١ هـ : ((أمرَ معاوية بقتل حُجْر بن عَدِيٍّ الكِنْديِّ وأصحابه ، فقُتِلوا بمرج عذراء ـــ رضي الله عنهم ـــ ، خاف معاوية من خروجهم عليه)) اهـ . وعن أبي إسحاق قال : رأيتُ حُجْرَ بن عَدِيٍّ حين أخذه معاوية، وهو يقول: هذه بَيْعتي ولا أستقيلها ، سَماعَ اللهِ والناسِ [26].

وقد عَنْوَنَ خليفة بن خيَّاط في تاريخه (١/ ٢١٣) : ((سنة إحدى وخمسين ، مقتل حُجْر ابن عَدِيٍّ ، فيها قَتل معاويةُ بن أبي سفيان حُجْرَ بن عديٍّ بن الأدبر ، ومعه مُحرِز بن شهاب، وقَبيصة ابن ضُبَيعة بن حَرْمَلة القيسي ، وصَيفي بن فَسيل من ربيعة)) اهـ .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٥٠) عن حُجْر بن عديٍّ: ((شهد القادسية وافتتح برج عذراء ، وشهد الجمل وصِفِّين ، وكان مع عليٍّ حُجْر الخير)) اهـ .

وذكر الحلبي في سيرته (٣/ ١٦٢) : ((وكان ابن سيرين ـــ رحمه الله ـــ إذا سُئل عن الركعتين قبل القتل، قال : صلاهما خُبَيْب ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ وحُجْر ، وهما فاضلان . ويعني حُجْر ابن عَدِيٍّ ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ)) اهـ .

---

(٢٦) رواه الطبراني في الكبير (٤/ ٣٤) برقم (٣٥٦٩) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٣٢) برقم (٥٩٧٦) ، وسكت عنه الذهبي . اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٩٤) : ((رواه الطبراني ، ورجاله ثقات)) اهـ .

وقد عقد الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٣١) باباً سَمَّاه " ذكر مناقب حُجر بن عديٍّ _ رضي الله عنه _ وهو راهب أصحاب محمد ﷺ وذِكْر مقتله " .

ومن الصفات الذميمة عند معاوية : أخذ الأمر بالسَّيف بلا مشورة مع وجود الصحابة ، وجعل الخلافة وراثية استبدادية بعد أن نقل الحُكم إلى ابنه يزيد ذي السيرة السيئة [27]، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ : ((الوَلَدُ للفِراشِ ، وللعاهرِ الْحَجَرُ))[28]، وقَتْله حُجْراً .

قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٥٤) عن زياد بن سُمَيَّة : ((ادَّعاه معاوية وأمَّره على البصرة ثم على الكوفة وأكرمه وسار زياد سيرته المشهورة وسياسته المذكورة ، فكان كثير من الصحابة والتابعين يُنكرون ذلك على معاوية محتجين بحديث الوَلد للفِراش))اهـ .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٩٢) ، ومسلم (١/ ٧٩) : عن أبي ذَر_ رضي الله عنه _: أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: ((لَيْسَ مِن رَجل ادَّعى لِغَيْر أبيه وهو يَعْلمه إلا كَفَرَ ، وَمَن ادَّعى قَوْماً ليس له فيهم نَسَب ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعده من النار)) .

والمقصودُ بالكُفر هو كُفر النِّعمة (جُحودها) . أمَّا الكُفر بمعنى الخروج من الإسلام فلا يَكون إلا لمن استحلَّ ذلك (اعتقده حَلالاً) مَعَ عِلْمه بالتحريم .

---

(٢٧) في صحيح البخاري (٤/ ١٨٢٧) : ((عن يُوسُف بن مَاهَك قال : كان مروان على الحِجاز ، استعمله معاوية ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية ، لكي يُبايَع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال : خُذوه . فدخل بيت عائشة فلم يَقْدِرُوا)) اهـ . وعن محمد بن زياد قال : [لَمَّا بايع معاوية لابنه يزيد، قال مروان: سُنَّة أبي بكر وعُمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : سُنَّة هِرَقْل وقَيْصَر](رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٥٢٨) برقم (٨٤٨٣) وصحَّحه ، لكن الذهبي قال : ((فيه انقطاع))) . والمعنى : إنكم اتَّبعتم طريقتهما في تَوْريث الْمُلْك ، وإسناده إلى أولاد المالكين ، وخالفتم سُنَّة النبيِّ ﷺ وأصحابه مِن بَعْدِه،إذ إنهم لَم يَفعلوا ذلك.وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي(٤٤٤/٧): ((وأخرج ابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد أرى أميرَ المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإنْ يَسْتَخْلِفْهُ فقد استخلفَ أبو بكر وعُمر . فقال عبد الرحمن بن أبي بكر _ رضي الله عنه _ : أهِرَقْلِيَّة ؟ ، إن أبا بكر رضي الله عنه واللهِ ما جعلها في أحد من وَلده ، ولا أحد مِن أهل بَيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمةً وكرامةً لولده)) .

(٢٨) متفق عليه. البخاري (٢/ ٧٢٤) برقم (١٩٤٨) ، ومسلم (٢/ ١٠٨٠) برقم (١٤٥٧).

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٩٤) أن النبيَّ ﷺ قال : ((وَمَن ادَّعى إلى غَيْر أبيه ، أو انتمى إلى غَيْر مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقْبل اللهُ مِنه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً)).

واللعنةُ هنا تَختلف عن لعنة الكافر ، فلعنةُ الكافر هي الطرد من رَحمة الله تعالى . أمَّا اللعنةُ في سياق الحديث فهي العذاب المستحق لمرتكب هذه الكبيرة ، والطرد عن الجنَّة أوَّل الأمر .

والصَّرْفُ الفريضة ، والعَدْلُ النافلة . والمعنى : أن اللهَ تعالى لا يَقْبل مِنه يوم القيامة أعمالَه ، سَواءٌ كانت فرائض أَم نوافل . وهذا مُنتهى الخِذلان .

ومعاوية ادَّعى زياداً فهو مشارك في هذا الإثم، وداخلٌ في الوعيد ضمن هذا الحديث الشريف، لأن مَن أعان على الجريمة فهو شريكٌ فيها .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٥٤) : ((وقد ذَكر ابن جرير وغيره عن حُجْر بن عديٍّ وأصحابه أنهم كانوا ينالون من عثمان ، ويُطلقون فيه مقالة الْجَوْر)) اهـ .

ولنحاول مناقشة هذه التهمة وفق التأصيل الشرعي الدقيق بعيداً عن التهم المفتقدة إلى أدلة مُعتبَرة . بدايةً إن علياً _ رضي الله عنه_ قد وضع حُجْر بن عديٍّ _ رضي الله عنه_ على الميمنة في حربه ضد الخوارج [29]. وكما هو معلومٌ فإن القادة الكبار الذين كانوا حَوْل عليٍّ _ رضي الله عنه_ هُم باختياره وتحت إشرافه. ولو قُلنا إن علياً يُوَلِّي المناصبَ الحساسة للذين يشتمون عثمان ، ويتطاولون عليه راضياً بأفعالهم الآثمة، لكان هذا منقصةً كبيرة في حق عليٍّ _ وحاشاه _ .

وما اعتمادُ عليٍّ بن أبي طالب على الأشْتَرِ النَّخعيِّ ومحمد بن أبي بكر الصديق رغم دورهما الكارثي في قتل عثمان _رضي الله عنه_ إلا أداء خاص في ظروف الفِتَن وتفرُّق كلمة المسلمين ووجود خطر حقيقي على الوجود الإسلامي في المنطقة ، لا كما يظن البعض أن علياً يقرِّب أعداء عثمان حباً في الآثام التي ارتكبوها ، أو نِكاية في عثمان . لقد كان عليٌّ واضحاً وحازماً في الاقتصاص من قتلة عثمان الذين هم تحت إمرته بعد أن تهدأ الأمور وتستتب، وبعد أن يُحقِّق في طبيعة قتل عثمان ، ومَن الذين نفَّذوا القتلَ ، ومن الذين أعانوا على القتل ، ومن الذين أعانوا على الحصار. فلم تكن الأمور بتلك السهولة، لأن حالة قتل عثمان معقدة للغاية ، لتعدد الأشخاص والجهات والأحداث المحيطة بالموضوع ، وخصوصاً أسماء أعيان القتلة. ولم يُرد أن يفتح جبهاتٍ

(٢٩) انظر تاريخ الطبري (٣/ ١٢١) ، والبداية والنهاية (٧/ ٢٨٩) .

عديدة ، ثم يختلط الحابل بالنابل ، وتنهار دولة المسلمين. فمعاوية يتربص بالخلافة لينقضَّ عليها متاجراً بدم عثمان ، والخوارج دخلوا في شذوذهم العَقَدي وخطيئة التكفير حاملين السلاح في وجه عليٍّ بن أبي طالب الخليفة الشرعي. لكن الأمور لم تجر كما يريد علي ، وهذا ما جعله يعتمد على بعض أعداء عثمان في الحروب التي خاضها ، لأن الأمر كان أكبر من عثمان وأكبر من عليٍّ ، إذ إنه يتعلق بالإسلام كدِين ، والوجود الإسلامي في هذه البقاع . فمثلاً يزيد بن معاوية قاتل الحسين كانت سيرته في الحضيض ، ومع هذا انضم تحت لوائه المسلمون حينما غزا القسطنطينية قائداً للمسلمين ، لأن مسألة بهذا الحجم أكبر من الحسين وأكبر من يزيد ، وليس لأن يزيد هو الإمام العادل . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦) عن يزيد بن معاوية : ((له على هَنَاته حسنة ، وهي غزو القسطنطينية وكان أميرَ ذلك الجيش ، وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاريِّ)) اهـ.

فانظر إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاريِّ _ رضي الله عنه_ كيف انخرط تحت قيادة يزيد سيء السمعة من أجل نصر الإسلام ، فلا بد للناس من إمام بَر أو فاجر . وذكر الحافظ الذهبي بإسناده في سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤) عن أبي أيوب الأنصاريِّ أنه قال: ((ما عليَّ مَن اسْتُعْمِلَ عليَّ)) اهـ . والأمر متعلق بغزو القسطنطينية ، وهو يقصد يزيد بن معاوية .

ولو ثبت على أحد أتباع علي أنه ينال من عثمان لقام علي فوراً بتصويب الوضع ، وطالما صحَّح مفاهيمَ الناس المغلوطة ، وهذا غير مستغرب عليه وهو أفصح العرب على الإطلاق بعد النبي ﷺ . فمحالٌ أن يسمح علي بالتطاول على عثمان، وهذا ما تؤيده كل الروايات التاريخية على الإطلاق. وصحابي جليل مثل حُجْر بن عَدِي لم أرَ في كلام الذين ذكروه ما يفيد أنه ينال من عثمان سوى الكلام الذي تفرَّد به ابن جرير ، بل إنهم ذكروا فضائله وتقواه وعبادته ، ولو أنه ينال من عثمان _ رضي الله عنه_ لانتشر هذا الأمر في الكتب وأقوال العلماء، وهذا غير موجود . كما أن حُجْراً لم يُعِن على قتل عثمان، ولم يسعَ مع الرَّعاع من أجل النَّيل منه، مع أن الأمر كان في متناول اليد . ولم يثبت أن صحابياً تورَّط في دم عثمان ، وهذا ثابتٌ في كل الروايات التاريخية . فالله تعالى طهَّر أيدي الصحابة _ رضي الله عنهم _ من دم عثمان. ولو سلَّمْنا جدلاً بأن حُجْراً نال من عثمان ، فهذا سيكون في موضع معيَّن ، وليس وفق منهجية شتم مستمرة كما فعل معاوية وشيعته تجاه عليٍّ . ونحن هنا لا نستهين بشتم الصحابة _ رضي الله عنهم_، ولكن حصل بين أكابر الصحابة أصحاب الفضائل الثابتة احتكاكات وصلت إلى حد الضرب أو الشتم وغير ذلك ،

وهذه كارثة بالطبع ، لكننا ينبغي أن ندرك أن الصحابة مجتمع بشري يصيب ويخطئ لا ملائكي معصوم ، لكن الصحابة المستقيمين يرجعون إلى الحق فوراً ، ويتوبون ، ويستغفرون اللهَ تعالى ، ولا يجعلون من الكبائر منهجيةَ حياةٍ . فالمشكلة هي استمراء الإثم وعدم التوبة . كما أن الملابسات المحيطة بقتل حُجْر بن عَدِي منسوجة مسبقاً بإحكام بين معاوية وزياد بن سمية ، وهذان من ألد أعداء علي _ رضي الله عنه _ ، فكيف يمكن لهما أن يكونا قاضيَيْن مستقيمَيْن تجاه شيعة علي ، وهم يحملون عليهم كل ضغينة وحقد وكراهية ، فمن غير المعقول أن يكون الخصم هو القاضي. لذلك كان من الطبيعي أن يأخذا الناسَ بأدنى شُبهة ، فحب علي بن أبي طالب بحد ذاته تهمة تستوجب العقاب في شريعة معاوية وزمرته، وليس غريباً أن يُتهم حُجْر بن عدي بالنيل من عثمان، إذ إن علياً متهم بالنيل من عثمان عن طريق التستر على قَتَلته ومنحهم الأمان تحت جناحه ، ومتهم كذلك بأن له دوراً في قتل عثمان. وهذه القناعة الزائفة هي التي قادت رؤوسَ الفتنة معاوية وعمرو بن العاص وفئتهم الباغية مع حجم هائل من المصالح الشخصية التي ارْتَدت غطاءً دينياً . كما أنه يجب تدقيق ظروف الشهود وخلفياتهم في الشهادة على حُجْر ، فمثلاً الهيثم بن الأسود الذي كان من الشهود ، قال عنه ابن حجر في تهذيب التهذيب(١١/ ٧٩) : ((وكان عثمانياً منحرفاً ، وهو أحد من شهد على حُجْر بن عَدِي)) اهـ. وقال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٥٧٧) : ((رُمِيَ بالنَّصب)) اهـ . فكيف تُقبَل شهادة هذا الشخص النابعة من التعصب والهوى ؟. وإن كثيراً من النواصب اتخذوا مواقف مسبقة من علي ، زاعمين أنهم سائرون على نهج عثمان ، وأنهم يطالبون بدمه ، والاقتصاص من قتلته . فصارت الثنائية (عثمان _ علي) إشكاليةً حقيقية في أذهان الكثيرين ، وظن البعض أنه لا يمكن الجمع بينهما باعتبارهما خصمَيْن ، فإن كنتَ مع الأول فأنتَ ضد الثاني، وإن كنتَ مع الثاني فأنتَ ضد الأول. وهذه النظرة سيطرت على العقول في ظروف شديدة التعقيد شقَّت وحدةَ الصف الإسلامي. فشبَّ أهل العراق على التشيع لعلي، ومن ثم المغالاة في تقديس علي، ورفض الصحابة. ونشأ أهل الشام على النَّصب ومعاداة علي ، والالتفاف حول معاوية . وهذه كله مبعثه الجهل والهوى والتعصب دون وجه حق، وكما قيل : هَلك فِيَّ رَجلان : مُحب مُغالٍ ، ومُبغِض قالٍ .

وكذلك فإن الاتهامات متضافرة حول قيام معاوية بقتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فذكر ابن الأثير في الكامل (٣/ ٤٥٣) ، والطبري بإسناده في تاريخه (٣/ ٢٠٢) واللفظ له : ((أن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عَظُمَ شأنه بالشام ، ومال إليه أهلها لما كان عندهم من آثار

أبيه خالد بن الوليد عن المسلمين في أرض الروم وبأسه ، حتى خافه معاوية وخشي على نفْسه منه لميل الناس إليه ، فأمر ابنَ أُثال أن يحتال في قتله وضمن له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يُولِّيه جباية خراج حِمْص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص منصرفاً من بلاد الروم دسَّ إليه ابنُ أُثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص،فوفى له معاوية بما ضمن له، وولاه خراج حمص ووضع عنه خراجه)) اهـ .

وقال المِزيُّ في تهذيب الكمال (٨/ ١٧٥): ((وكان اتُّهم معاوية بن أبي سفيان أن يكون دس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مُتطبِّباً يقال له ابن أُثال،فسقاه في دواء شربة فمات فيها)) اهـ.

وقال ابن عبد البَر في الاستيعاب (١/ ٢٥٠): ((لَمَّا أراد معاوية البَيعة ليزيد ، خطب أهل الشام ، وقال لهم : يا أهل الشام ، إنه قد كَبُرَت سِنِّي وقَرُبَ أجلي ، وقد أردتُ أن أعقد لرَجل يكون نظاماً لكم ، وإنما أنا رَجل منكم فأروا رأيكم ، فأصْفِقوا واجتمعوا ، وقالوا : رضينا عبد الرحمن بن خالد ، فشق ذلك على معاوية ، وأسَرَّها في نفْسه ، ثم إن عبد الرحمن مرض ، فأمر معاوية طبيباً عنده يهودياً ، وكان عنده مكيناً ، أن يأتيَه فيسقيَه سَقية يقتله بها ، فأتاه فسقاه فانحرق بطنه ، فمات ... وقصته مشهورة عند أهل السِّيَر والعِلم بالآثار والأخبار)) اهـ .

لكن ابن كثير يقول في البداية والنهاية (٨/ ٣١) : ((وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ، ولا يَصِحُّ)) اهـ .

وأيضاً هناك شبهات تدور حول ملابسات قتل الحسن بن عليٍّ ــ رضي الله عنهما ــ . فقد قال ابن عبد البَر في الاستيعاب(١/ ١١٥): ((وقال قتادة وأبو بكر بن حفص : سُمَّ الحسن بن علي، سَمَّتْه امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكِنديِّ، وقالت طائفة: كان ذلك بتدسيس معاوية إليها، وما بذل لها من ذلك ، وكان لها ضرائر ، والله أعلم)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٤٣) : ((وعندي أن هذا ليس بصحيح)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٣١٣) : ((فلمَّا فَرغ عليٌّ من صِفِّين وبلغه أن أهل مصر قد اسْتَخَفُّوا بمحمد بن أبي بكر لِكَونه شاب ابن ست وعشرين سنة أو نحو ذلك ، عزم على رد مصر إلى قيس بن سعد وكان قد جعله على شُرطته أو إلى الأشتر النَّخعي ، وقد كان نائبه على الموصل ونَصِيبين ، فكتب إليه بعد صِفِّين فاستقدمه عليه ثم ولاه مصر ، فلمَّا بلغ معاوية تَولية عليٍّ للأشتر النَّخعي ديار مصر بدل محمد بن أبي بكر ، عَظُمَ ذلك عليه وذلك أنه كان قد طمع

في مصر واستنْزاعها من يد محمد بن أبي بكر ، وعَلِمَ أن الأشتر سيمنعها منه لِحَزْمه وشجاعته ، فلمَّا سار الأشتر إليها وانتهى الى القُلْزُم استقبله الخانسار وهو مقدم على الخراج فقدَّم إليه طعاماً وسقاه شراباً من عسل فمات منه، فلمَّا بلغ ذلك معاوية وعَمْراً وأهل الشام قالوا إنَّ للهِ جُنوداً من عسل. وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن معاوية كان قد تقدَّم إلى هذا الرَّجل في أن يحتال على الأشتر ليقتله ووعده على ذلك بأمور ففعل ذلك وفي هذا نظر ، وبتقدير صحته فمعاوية يستجيز قتل الأشتر لأنه من قتلة عثمان _ رضي الله عنه _ ، والمقصود أن معاوية وأهل الشام فرحوا فرحاً شديداً بموت الأشتر النَّخعيِّ)) اهـ .

قلتُ : وهذه الروايات التاريخية ينبغي تدقيقها من كافة النواحي، وعلى أية حال فإن الاتهامات والشُّبهات تدور حول معاوية والموالين له ، فعِشق معاوية للسُّلطة جنوني إلى أبعد حد ، وقد يرتكب أية كبيرة أو صغيرة من أجل شهوة الْمُلْك، وهذا من رواسب عقلية الكبرياء والظلم والجبروت عند بني أُمَيَّة في الجاهلية .

نقض ما يُسمَّى بفضائل معاوية :

قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٠٤): ((وأورد ابن الجوزي في الموضوعات بعض الأحاديث التي ذكروها ، ثم ساق عن إسحاق بن رَاهَوَيْه أنه قال : لَم يَصِحَّ في فضائل معاوية شيء . فهذه النُّكتة في عدول البخاري عن التصريح بلفظ منقبة اعتماداً على قول شيخه، لكن بدقيق نظره استنبط ما يدفع به رؤوس الروافض . وقصة النَّسائي في ذلك مشهورة وكأنه اعتمد أيضاً على قول شيخه إسحاق وكذلك في قصة الحاكم.وأخرج ابن الجوزي أيضاً من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل سألت أبي : ما تقول في عليٍّ ومعاوية ؟ ، فأطرق ثم قال : اعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتَّش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا ، فَعَمَدوا إلى رَجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعليٍّ . فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له . وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصح من طريق الإسناد ، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنَّسائي وغيرهما والله أعلم)) .

وقال المِزيُّ في تهذيب الكمال (١/ ٣٣٨) عن الإمام النَّسائي وسبب مقتله : ((وسمعتُ قوماً يُنكِرون عليه كتاب الخصائص لعليٍّ _ رضي الله عنه _ وتركه لتصنيف فضائل أبي بكر وعمر وعثمان _ رضي الله عنهم_ ، ولم يكن في ذلك الوقت صنَّفها فحكيتُ له ما سمعتُ فقال : دخلنا إلى دمشق والمنحرِف عن عليٍّ بها كثير فصنفتُ كتاب الخصائص رجاء أن يهديَهم الله ، ثم

صنَّف بعد ذلك فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وقرأها على الناس وقِيل له وأنا حاضر : ألا تُخرِّج فضائل معاوية ، فقال : أي شيء أُخرِّج ، اللهمَّ لا تُشْبِعْ بَطْنَه ؟! . وسكت وسكت السائل ... فخرج إلى الرملة فَسُئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه، فضربوه في الجامع ، فقال : أخرجوني إلى مكة فأخرجوه إلى مكة وهو عليل وتُوُفِّيَ بها مقتولاً))(30).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٣٥٥) : ((وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ : دخلتُ على الحاكم وهو مُختفٍ من الكَرَّامية [فِرقة مِنَ الْمُشَبِّهة] لا يستطيع أن يخرج منهم، فقلت له: لو خَرَّجْتَ حديثاً في فضائل معاوية لاسترحتَ مِمَّا أنتَ منه، فقال : لا يجيء مِن قِبَلي ، لا يجيء مِن قِبَلي)) اهـ . ونقل الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٢) عن إسحاق بن راهويه شيخ البخاري قوله : ((لا يَصِحُّ عن النبيِّ ﷺ في فضل معاوية شيء)) اهـ .

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٢٠و٢١) في باب عَقده باسم " فضل معاوية بن أبي سفيان" : ((خال المؤمنين ، وكاتب وَحْي رب العالمين ، أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عُتبة ابن ربيعة بن عبد شمس يوم الفتح ، وقد رُوِيَ عن معاوية أنه قال : أسلمتُ يوم عُمرة القضاء ، ولكني كتمتُ إسلامي من أبي إلى يوم الفتح ... والمقصود أن معاوية كان يكتب الوَحْي لرسول الله ﷺ مع غيره من كُتَّاب الوَحْي ـ رضى الله عنهم ـ ... ولَمَّا وَلِيَ عليُّ بن أبي طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام ويُوَلِّي عليها سهل بن حُنَيف ، فعزله فلم ينتظم عزله والتفَّ عليه جماعة من أهل الشام ، ومانع علياً عنها ، وقد قال : لا أُبايعه حتى يُسلِّمني قتلة عثمان ، فإنه قُتِلَ مظلوماً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلوماً فقد جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلْطاناً ﴾ [الإسراء: ٣٣])) اهـ .

قلتُ : لدي ملاحظات على هذا الكلام ، وإليك رَدِّي على ابن كثير :

[١] " خال المؤمنين " : عبارة لا دليل عليها ، وكَوْن السيدة أُم حبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان ـرضي الله عنها ـ أُمَّاً للمؤمنين ، وأختاً لمعاوية ، فهذا لا يجعله بأية حال من الأحوال خالاً للمؤمنين ، ولو كان الأمر كذلك فسيكون عدوُّ الله حُيَي بن أخطب اليهودي جَدَّ المؤمنين لأنه والد السيدة صفية أُم المؤمنين ، وهذا لا يقول به عاقل .

---

(٣٠) انظر أيضاً معجم البلدان (٥/ ٢٨٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ١٢٩) ، والبداية والنهاية (١١/ ١٢٤) .

[٢] " وكاتب وَحْي رب العالَمين " : وهذه العبارة فيها نظر من ثلاثة أوجه : الأول _ إن معاوية أسلم عام الفتح (٨ هـ) هو وأبوه ، وهما من الطلقاء . قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٠٥) عن معاوية : ((وإنما أسلم بعد ذلك عام الفتح سنة ثمان ، وقيل أنه أسلم بعد عُمرة القضاء سنة سبع ، والصحيح الأول)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٥٦٥) عن معاوية : ((إنما أسلم يوم الفتح سنة ثمان ، هذا هو الصحيح المشهور)) اهـ . فماذا بقي ليكتبه من القرآن الكريم بعد السنة الثامنة للهجرة ؟! .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٢و١٢٣) : ((ونقل الْمُفَضَّل الغلابي عن أبي الحسن الكوفي قال : كان زيد بن ثابت كاتب الوَحْي ، وكان معاوية كاتباً فيما بين النبيِّ ﷺ وبين العرب)) اهـ . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٦/ ١٥٣) : ((وقال المدائني : كان زيد ابن ثابت يكتب الوَحْي ، وكان معاوية يكتب للنبيِّ ﷺ فيما بينه وبين العرب)) اهـ .

أمَّا الذين يقولون إن معاوية كان كاتباً للوحي فهم يستندون إلى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٤٥) عن ابن عباس _ رضي الله عنه _ قال : كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ، ولا يقاعدونه ، فقال للنبيِّ ﷺ : يا نبيَّ الله ثلاث أَعطنيهنَّ، قال: ((نعم))، قال : عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أُزوِّجكها، قال: ((نعم))، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : ((نعم)) ، قال : وتُؤَمِّرني حتى أُقاتل الكفار كما كنتُ أقاتل المسلمين ، قال : ((نعم)) .

قلتُ : هذا الحديث مكذوب ولا يصح رغم وجوده في صحيح مسلم ، وهذا دليلٌ على أن صحيح البخاري أو صحيح مسلم ليسا معصومَيْن ، فالله تعالى لَم يَقُلْ : إنا نحن نزلنا صحيح البخاري ومسلم وإنا لهما لحافظون . فالكتاب الوحيد المعصوم على كوكب الأرض هو القرآن الكريم فقط لا غَيْر .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٦٣) : ((واعلم أن هذا الحديث من الأحاديث المشهورة بالإشكال ، ووجه الاشكال أن أبا سفيان إنما أسلم يوم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة وهذا مشهور لا خلاف فيه ، وكان النبيُّ ﷺ قد تزوج أم حبيبة قبل ذلك. قال أبو عُبَيدة وخليفة بن خيَّاط وابن البرقي والجمهور : تزوجها سنة ست ، وقيل سنة سبع ... قال القاضي _ عِياض _ : والذي في مسلم هنا أنه زوَّجها أبو سفيان غريب جداً ، وخبرها مع أبي سفيان حين ورد

المدينة في حال كُفره مشهور ...وقال ابن حزم: هذا الحديث وهم من بعض الرواة، لأنه لا خلاف بين الناس أن النبيَّ ﷺ تزوج أم حبيبة قبل الفتح بدهر وهي بأرض الحبشة وأبوها كافر)) .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ١٣٧) في ترجمة عكرمة بن عمار _ أحد رواة الحديث السابق _ : ((وقال صالح بن محمد : كان ينفرد بأحاديث طوال لم يشركه فيها أحد ، قال : وعكرمة صدوق إلا أن في حديثه شيئاً ... وقال إسحاق بن أحمد بن خلف البخاري الحافظ : عكرمة بن عمار ثقة روى عنه سفيان الثوري وذكره بالفصل ، وكان كثير الغلط ينفرد عن أناس بأشياء لا يشاركه فيها أحد . وقال ابن خِرَاش : كان صدوقاً وفي حديثه نُكرة ... قلتُ : قد ساق له مسلم في الأصول حديثاً منكراً ، وهو الذي يرويه عن سِماك الحنفي عن ابن عباس في الأمور الثلاثة التي التمسها أبو سفيان من النبيِّ ﷺ)) اهـ .

ولو افترضنا جدلاً أن معاوية كان كاتباً للوَحْي ، فهذه ليست شهادة له بالجنة أو العِصمة ، فقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح كاتباً للوَحْي بين يدي النبيِّ ﷺ ثم ارتد عن الإسلام . قال الحاكم في المستدرك (٣/ ١٠٧) : ((فأمَّا عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإن الأخبار الصحيحة ناطقة بأنه كان كاتباً لرسول الله ﷺ فظهرت خياناته في الكتابة ، فعزله رسول الله ﷺ ، فارتد عن الإسلام ولحق بأهل مكة ، فكان رسول الله ﷺ أباح دمه يوم الفتح ، فلم يُقتَل حتى جاء به عثمان، وقد راجع الإسلام فآمنه رسول الله ﷺ وحقن دمه)) اهـ .

ومن أدلة الفريق القائل بفضائل معاوية : عن أنس بن مالك عن خالته أم حَرَام بنت مِلْحان قالت : نام النبيُّ ﷺ يوماً قريباً مني ثم استيقظ يتبسم ، فقلتُ : ما أضحكك ؟ ، قال : ((أناس من أمتي عرضوا عليَّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأَسِرَّة)) ، قالت: فادعُ اللهَ أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم نام الثانية ففعل مِثْلَها ، فقالت مِثْلَ قَولها فأجابها مِثْلَها ، فقالت : ادْعُ اللهَ أن يجعلني منهم ، فقال : ((أنتِ من الأولين)) ، فخرجتْ مع زوجها عُبادة بن الصامت غازياً أوَّل ما ركب المسلمون البحر مع معاوية [31].

قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٨) : ((وقوله فيه أوَّل ما ركب المسلمون البحر مع معاوية كان ذلك في سنة ثمان وعشرين في خلافة عثمان)) اهـ .

---

(٣١) رواه البخاري (٣/ ١٠٣٠) برقم (٢٦٤٦) ، ومسلم (٣/ ١٥١٩) برقم (١٩١٢) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٥٨) : ((كالملوك على الأَسرة ، قيل هو صفة لهم في الآخرة إذا دخلوا الجنة ، والأصح أنه صفة لهم في الدنيا ، أي يركبون مواكب الملوك لسعة حالهم واستقامة أمرهم وكثرة عددهم...وفيه فضيلة لتلك الجيوش وأنهم غزاة فى سبيل الله)).

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٧٤) : ((لكن الإتيان بالتمثيل في معظم الإشارة يدل على أنه رأى ما يَؤول إليه أمرُهم ، لا أنهم نالوا ذلك في تلك الحالة أو موقع التشبيه ، أنهم فيما هم من النعيم الذي أثيبوا به على جهادهم مثل ملوك الدنيا على أسرتهم ، والتشبيه بالمحسوسات أبلغ في نفس السامع)) اهـ .

قلتُ : وهذا الحديث الشريف لا يمكن أن نعده فضيلةً خاصة لمعاوية، لأنه فضيلة عامة لتلك الجيوش التي تغزو باسم الله تعالى ، فالمدح للكُل ، وليس فَرْداً فرداً . وهذه الفضيلة العمومية مثل مدح الصحابة في الآيات القرآنية من حيث الوَحدة الجمعية الكلية ، لا من ناحية كُل فرد بعَيْنه ، فمدح الفرد بعينه يتطلب دليلاً واضحاً يسمي ذلك الفرد تلميحاً أو تصريحاً. كما أن المدح للحالة الْمُعاشة وهي الغزو في سبيل الله تعالى ، فهذه الصفة المحمودة للوضعية المحمودة عند الله تعالى ، وهي الجهاد في سبيل الله تعالى.

ونحن متمسكون بالقاعدة التي أصَّلْناها وهي أن أي خطاب شرعي يمدح مجتمعاً ما ، إنما هو في الأصل مدح للكُل كوحدة واحدة ، إلا إذا ظهر دليلٌ على أن المعني بالمدح كل فرد بعينه . فمثلاً كان المدح يأتي للصحابة رغم وجود صحابة منافقين وكفار كما أثبتنا ذلك في موقع سابق من هذا البحث . إذن ، نخلص إلى القول إن المدح العمومي لا يمكن أن يتعدى إلى مدح كل فرد بعينه إلا إذا ظهر دليلٌ .

وأيضاً يستدلون على ما يُسَمُّونه فضائل معاوية بما رواه البخاري في صحيحه(٣/ ١٠٦٩): عن أم حرام أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ((أوَّل جيش من أمتي يغزون البحر قد أَوجبوا))، قالت أم حرام : قلتُ يا رسول الله : أنا فيهم ؟ ، قال : ((أنتِ فيهم)) ، ثم قال النبيُّ ﷺ : ((أوَّل جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر_ يعني القسطنطينية _ مغفور لهم))، فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله ؟ ، قال : ((لا)).

قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٠٢) : ((قال المهلب : في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أوَّل من غزا البحر ، ومنقبة لولده يزيد لأنه أول من غزا مدينة قيصر بالإجماع . وتَعَقَّبه ابن التين

وابن المنيِّر بما حاصله أنه لا يلزم من دخوله في ذلك العموم أن لا يخرج بدليل خاص ، إذ لا يختلف أهل العلم أن قوله ﷺ : ((مغفور لهم)) مشروط بأن يكونوا من أهل المغفرة ، حتى لو ارتد واحد ممن غزاها بعد ذلك لم يدخل في ذلك العموم اتفاقاً ، فدل على أن المراد : مغفور لمن وُجد شرط المغفرة فيه منهم)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٧٧) : ((ومشروعية الجهاد مع كل إمام لتضمنه الثناء على من غزا مدينة قيصر ، وكان أمير تلك الغزوة يزيد بن معاوية ، ويزيد يزيد ، وثبوت فضل الغازي إذا صَلُحت نِيَّتُه)) اهـ .

قلتُ : وهذا من الأدلة الساطعة على صحة ما ذهبنا إليه من أن المدح للكُل الجمعي ، والفضل مرتبط بالوضعية الحالية الآنية في المشهد المحدَّد ، فيزيد بن معاوية سيرته في الحضيض ، لكن مدحاً جاء له في موقف معيَّن لا يتعداه ، وهو موقف الجهاد في سبيل الله . لذا فالفضل والمدح مرتبطان بشكل وثيق بالحالات المعاشة ، وليس على إطلاقه ما دام لَم يَرِدْ دليل يفيد بإطلاقه . وهذا ما قلناه وكرَّرْناه مِراراً في هذه الدراسة .

وإليك أهم الأحاديث التي اعتمدوها لصناعة فضائل وهمية لمعاوية مع تذكُّر قول إسحق ابن رَاهَوَيْه شيخ البخاري : لَم يَصِحَّ في فضائل معاوية شيء .

[١] عن عبد الرحمن بن أبي عُمَيرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمعاوية : ((اللهمَّ اجعله هادياً مهدياً واهْدِ به))(32).

بدايةً ينبغي أن نعتقد أن دعاء النبيِّ ﷺ مستجاب ، لكن معاوية لَم يكن هادياً ولا مهدياً ، فهناك أحاديث ضده ، وهو زعيم الفئة الباغية باتفاق المسلمين سُنَّةً و" شيعة" ، ولقد أضل اللهُ تعالى به العبادَ بعد أن جعل سَبَّ عليٍّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ في كل أركان الدولة الإسلامية في عهده ، كما أنه أرشد أهلَ الشام إلى النَّصب ومعاداة آل البيت ، وعلى رأسهم علي ابن أبي طالب _ رضي الله عنه _ . إذن، ندرك تماماً أن النبيَّ ﷺ لَم يقل هذا الكلام ، لأنه لَم يتحقق على أرض الواقع . وفي سند هذا الحديث سعيد بن عبد العزيز . قال عنه ابن حجر في

---

(٣٢) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٦٨٧) برقم (٣٨٤٢) ، وقال : ((حديث حسن غريب)) ، وأحمد في مسنده (٤/ ٢١٦) ، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٠٥) برقم (٦٥٦) ، ومسندِ الشاميين (١/ ١٨١) برقم (٣١١) .

تقريب التهذيب (١/ ٢٣٨) : ((ثقة ... لكنه اختلط في آخر أمره)) اهـ، وفي تهذيب التهذيب (٤/ ٥٣):((وقال أبو مُسْهِر: كان قد اختلط قبل موته...وعن ابن مَعين:اختلط قبل موته))اهـ وعلى من يعتمد هذا الحديث أن يقدِّم دليلاً على أن سعيد بن عبد العزيز لَم يَرْوِه في آخر أمره ، وغير ذلك سيكون الحديث في موضع الاحتمال ، وما تَطَرَّق إلَيه الاحتمالُ، سَقط به الاستدلالُ .

وفي سنده كذلك عبد الرحمن بن أبي عُمَيرة . قال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٣٤٧): ((مختلف في صحبته)) اهـ . وفي تهذيب التهذيب (٦/ ٢٢٠) : ((قال ابن عبد البَر : لا تَصِحُّ صُحبته ، ولا يثبت إسناد حديثه)) اهـ .

[٢] عن عُمَير بن سعد قال : لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((اللهم اهْدِ به))[33].

في سنده عمرو بن واقد . قال عنه الهيثمي في المجمع (١/ ٣٥٤) : ((رُمِيَ بالكذب ، وهو مُنكَر الحديث)) اهـ .

وقال عنه أبو مُسْهِر : ليس بشيء . وقال دُحَيم : ليس بشيء . وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث مُنكَر الحديث [34].

وقال البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٣٧٩) : ((مُنكَر الحديث)) اهـ .

وقال ابن حِبَّان في المجروحين (٢/ ٧٧) : ((وكان ممن يقلب الأسانيد ، ويروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك)) اهـ .

وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٤٢٨) : ((متروك)) اهـ .

وقال الذهبي في الكاشف (٢/ ٩٠) : ((تركوه)) اهـ .

[٣] عن العِرباض بن سارية السُّلَمِيِّ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((اللهم عَلِّمْ معاويةَ الكتاب والحساب وقِهِ العذاب))[35].

---

(٣٣) رواه الترمذي (٥/ ٦٨٧) برقم (٣٨٤٣) ، وقال : ((هذا حديث غريب. قال : وعمرو بن واقد يُضعَّف)) اهـ ، وغيره .

(٣٤) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٦/ ٢٦٧) .

(٣٥) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٩١) ، وابن خزيمة في صحيحه(٣/ ٢١٤)برقم(١٩٣٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٧) ، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥١) .

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٢/ ١٢٣) : ((وأعضلَ قُتَيبة هذا الحديثَ)) اهـ .

قلتُ : في سنده الحارث بن زياد . قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ١٤٦) : ((ليِّن الحديث)) اهـ . وفي تهذيب التهذيب (٢/ ١٢٣) : قال الذهبي : مجهول ، وقال ابن عبد البَر : مجهول الحديث مُنكَر .

[٤] روى الطبراني في الكبير(١٩/ ٤٣٩): عن مَسْلَمة بن مُخَلَّد أن النبيَّ ﷺ قال لمعاوية: ((اللهم مَكِّن له في البلاد ، وقِهِ سُوءَ العذاب)) .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٥) عن هذا الحديث: ((فيه رَجل مجهول)) .

وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٩٥) : ((رواه الطبراني من طريق جَبَلة بن عطية عن مسلمة ابن مخلد ، وجبلة لَم يسمع من مسلمة ، فهو مُرسَل)) اهـ .

[٥] روى الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٦١) : عن عبد الله بن بُسْر قال : قال رسول الله ﷺ : ((ادْعُوا لي معاوية)) ، فلمَّا وقف بين يديه ، قال رسول الله ﷺ : ((أحْضِروه أمرَكم ، وأشهِدوه أمرَكم ، فإنه قويٌّ أمين)) .

قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٩٤) : ((فهو حديث مُنكَر)) اهـ .

قلتُ : في سنده يحيى بن عثمان بن صالح .

وفي تهذيب التهذيب (١١/ ٢٢٥) : قال ابن أبي حاتم: وتكلموا فيه. وقال ابن يُونُس: وحدَّث بما لَم يكن يوجد عند غَيره. وقال مسلمة بن قاسم : يتشيع ، وكان صاحب وِراقة يُحدِّث كتبه ، فَطُعِنَ فيه لأجل ذلك .

وهناك العديد من الأحاديث الموضوعة التي وُضِعَت لصناعة فضائل وهمية لمعاوية، تركناها لأنها لا تستحق أن تُذكَر .

وينبغي أن نعتقد أن قتل عثمان بن عفان _ رضي الله عنه _ كان الباب المكسور في تاريخنا الذي دخلت من خلاله الفِتَن والفِرَق ، وبعض الصحابة رَكب الموجة لتحقيق أهداف شخصية بحتة خاضعة لشهوة السلطان والْحُكْم مثل معاوية ومجموعته الذين تاجروا بدم عثمان لتحقيق أهداف شخصية لا أكثر ، وقد قاموا بِلَوْيِ أعناق النصوص محاولين بذلك تطويعها لتصبَّ في مصلحتهم أمام الرأي العام الإسلامي في تلك المرحلة .

لذلك فالفتن غَربلت الصحابةَ ، وميَّزت الصالح من الطالح. ومعاوية رأس الفِتنة وزعيم الفئة الباغية هو الذي يتحمل المسؤولية الكبرى في قتل المسلمين وتفرق كلمتهم والقضاء على الخلافة الإسلامية الراشدة . وهذه بعض الرواسب التي كانت عند بني أُمية في الجاهلية .

ومعاوية _ أيضاً _ يتحمَّل مسؤولية انتشار التَّشيع لأنَّه جعل شَتْمَ عليٍّ على المنابر . ولكلِّ فِعلٍ رَدُّ فِعْلٍ مُساوٍ له في المقدار ، ومُعاكِس له في الاتِّجاه . وإن شَتْمَ عليٍّ قادَ المنحرِفين إلى شَتْم أبي بكر وعُمر والانتقاص من الصحابة _ رضي اللهُ عنهم _ .

ولكي ينال معاوية رضا المسلمين والقبول لديهم اتخذ من المطالبة بدم عثمان والمتاجرة به ذريعة للوصول إلى الحُكم ، مع أنه تناسى دم عثمان _ رضي الله عنه_ بعد أن صار خليفةً، وصبَّ جام حقده ونفاقه على عليِّ بن أبي طالب_ رضي الله عنه _ . وأيضاً عمرو بن العاص يتحمل جزءاً كبيراً في قتل خِيرة المسلمين وتفريق كلمتهم من أجل شهوة السُّلطة وحُبه للدنيا .

ونحن نؤمن أن في شيعة معاوية في تلك المرحلة الزمنية صحابة أجلاء معروفين بتقواهم ، ولكن للأسف انطلت عليهم حِيلة معاوية ، ودهاء عمرو ، فلم يتبيَّنوا الحق من الباطل . ونحن إنما نخص بالملام والعتاب رَأْسَي الفتنة معاوية وعمرو الذين تحايلوا على الشرع عالِمين بأنهم على الباطل ، ومع هذا واصلوا ضلالَهم .

والنبيُّ ﷺ كان عالِماً بما سيحدث بين الصحابة ، وهو الذي أطلق الحُكم في حياته بعد أن عيَّن الفئةَ الباغية . فقد قال ﷺ : ((وَيْحَ عَمَّار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار)) [سبق تخريجه] .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٥٤٢) : ((فإن قِيل كان قَتْله بصِفِّين وهو مع عليٍّ ، والذين قتلوه مع معاوية ، وكان معه جماعة من الصحابة ، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار ؟! . فالجواب أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة ، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها وهو طاعة الإمام ، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي ، وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك ، وكانوا هُم يدعون إلى خلاف ذلك ، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم)) اهـ .

قلتُ : هذا الكلام فيه نظر مِن أوْجُه :_

الأول_ إن الصحابة لن يذهبوا كلهم إلى الجنة ، بل إن هناك صحابة ذاهبين إلى النار خالدين فيها، وهناك مَن سَيُعَذَّب فيها بمقدار ذنوبه ثم يخرج ، وهناك من سيكون في الجنة دون أن

تلمسه النار . وقد قدَّمنا الأدلة الشرعية على ذلك ، ومن يقرأ هذا البحث كاملاً سوف يُلِمُّ بالموضوع، ويكتشف صحة رأينا واعتماده على المنهجية الشرعية المستقيمة بلا إفراط ولا تفريط .

وليس الصحابِيُّ بمعصوم ولا يملك شهادة بدخول الجنة إلا إذا ثَبت ذلك من خلال النصوص الشرعية. ومن ثبت أنه ذاهبٌ إلى النار ، فهو إلى النار ، مثل معاوية وعمرو بن العاص وغَيرهم . ودخول بعض الصحابة النار جائز نقلاً وعقلاً ، وهو متحقق اعتماداً على الأدلة الشرعية ، كما وضَّحنا ونوضِّح ، فليس الأمر فوق طاقة العقول كما يَتوهَّم البعض .

فعن أبي نَضْرة عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال لعشرة من أصحابه : ((آخِرُكم مَوتاً في النار))، فيهم سَمُرة بن جُندب، قال أبو نَضْرة : فكان سمرة آخرهم مَوتاً [36].

(٣٦) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٢٢٦) . وقال البيهقي عقبه : ((رواته ثقات ، إلا أن أبا نضرة العبدي لم يثبت له من أبي هريرة سماع، والله أعلم))اهـ.وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٥٣٣): ((أبو نضرة لم يسمع من أبي هريرة)) اهـ . قلتُ : إن هذا الحديث له مجموعة شواهد ذكرها الذهبي في الموضع السابق. فمن حديث أبي هريرة ، وهو ما رواه إسماعيل بن حكيم ــ ولم يذكره أحد بجرح ــ قال : ثنا يُونُس بن عُبَيد عن الحسن عن أنس بن حكيم الضبي قال : كنت أَمُرُّ بالمدينة فألقى أبا هريرة ، فلا يبدأ بشيء حتى يسألني عن سمرة فإذا أخبرته بحياته فرح ، فقال : إنا كُنَّا عشرة في بيت وإن رسول الله ﷺ قام ونظر في وجوهنا، وأخذ بِعُضَادَتَيِ الباب، ثم قال : " آخركم موتاً في النار".فقد مات منا ثمانية ولم يبق غيري وغير سمرة فليس شيء أحب إِلَيَّ من أن أكون قد ذقت الموت . وروى مثله حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد بن جُدعان ، عن أوس بن خالد قال : كنتُ إذا قَدِمْتُ على أبي محذورة سألني عن سمرة، وإذا قدمت على سمرة سألني عن أبي محذورة ، فسألته فقال : إني كنتُ أنا وسمرة وأبو هريرة في بيت فجاء النبيُّ ﷺ فقال : " آخركم موتاً في النار " فمات أبوهريرة ثم مات أبو محذورة . وقال مَعْمَر : ثنا عبد الله بن طاوس وغيره : أن النبيَّ ﷺ قال لِسَمُرة بن جُندب ولأبي هريرة ولآخَر : " آخركم موتاً في النار " . فمات الرَّجل ، فكان الرَّجل إذا أراد أن يَغيظ أبا هريرة يقول : مات سمرة ، فإذا سمعه غَشِيَ عليه وصَعِق ، ثم مات أبو هريرة قبل سَمُرة .

وقَتل سَمُرة بشراً كثيراً . وقال سليمان بن حرب: ثنا عامر بن أبي عامر قال: كُنَّا في مجلس يُونُس ابن عُبَيد في أصحاب الخز ، فقالوا : ما في الأرض بقعة نشفت من الدم ما نشفت هذه البقعة_ يعنون دار

الثاني_ إن معاوية وعمرو بن العاص لَم يكونا متأوِّلَيْن ، وإنما عارفان بالحُكم الشرعي تماماً ، وقاما بالتحايل عليه ، بعد أن خاضا في دماء المسلمين حُباً لشهوة السُّلطة الدنيوية ، وهذه رواسب الجاهلية العالقة فيهما .

أمَّا من انضوى تحتهما فالله تعالى يَعلم مَن كان مُتأوِّلاً لم يتبيَّن الحق الساطع، ومن كان مُتحايِلاً باحثاً عن سلطان الدنيا . وكيفية التحايل على الشرع مِن قِبَل معاوية واضحة في هذا الحديث : فعن ابن حزم عن أبيه قال : لَمَّا قُتِلَ عمار بن ياسر_ رضي الله عنه_ دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص ، فقال : قُتِلَ عمار، وقد قال رسول الله ﷺ : ((تقتله الفئة الباغية)) ،

الإمارة_ قُتل بها سبعون ألفاً ، فجاء يُونُس بن عُبَيد فقلت : إنهم يقولون كذا وكذا فقال : نعم ، من بين قتيل وقطيع ، قيل له : ومَن فعل ذلك يا أبا عبد الله ؟ ، قال : زياد وابنه عبيد الله وسَمُرة .

قال البَيهقي : نرجو لِسَمُرة بصحبته رسول الله ﷺ . اهـ .

قلتُ : رواية أبي نضرة عن أبي هريرة ثَبتت ، صحَّحها ابنُ حبان في صحيحه (١٢/ ٣٩٥) برقم (٥٥٨٣) . وانظر كذلك سُنن ابن ماجة (١/ ٥٣٠) برقم (١٦٥٨). ومَن يَعْلم حُجَّة على مَن لا يَعلم، كما أن الْمُثْبِت مُقَدَّم على النافي، فإثبات رواية أبي نضرة عن أبي هريرة مُقَدَّم على نفيها. قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٧): ((فإن المثبت مُقَدَّم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فَيُقَدَّم والله أعلم)) اهـ . قلتُ : ولم يُقدِّم البيهقي أو الذهبي دليل نَفْي السَّماع . إذن ، يُقَدَّم المثبت على النافي .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٢٧) : ((وقتل سمرة بشراً كثيراً ، وقد ضعَّف البيهقي عامة هذه الروايات لانقطاع بعضها وإرساله، ثم قال : وقد قال بعض أهل العلم إن سمرة مات في الحريق،ثم قال:ويحتمل أن يورد النار بذنوبه ثم ينجو منها بإيمانه فيخرج منها بشفاعة الشافعين،والله أعلم)) اهـ .

قلتُ : ((إن الطريق التي سقناها أثبتنا فيها روايةَ أبي نضرة عن أبي هريرة ، وهذه هي عِلة السند الوهمية التي تصوَّرها البيهقي ودَحَضْناها. أما الرواة فقد حَكم عليهم البيهقي نفسه بأنهم ثقات. أمَّا من ذهب إلى أن المراد بالنار هي موت سمرة في الحريق فهذا ضد اللغة العربية ، فمعروفٌ أن قول النبيِّ ﷺ لأي شخص إنه في النار، معناه أنه في جهنم ، تماماً عندما يقول النبيُّ ﷺ عن شخص إنه في الجنة ، فلا أحد يتخيَّل أن يكون المراد بالجنة في سياقها المحدَّد هي البستان الرائع مثلاً. فكلماتُ من قبيل " الجنة " أو " النار" تُفهَم في سياقها اللغوي الطبيعي ضمن قواعد اللغة العربية، والمناسبة التي قيلت فيها، وهاتان الكلمتان لهما دلالة شرعية واضحة خصوصاً مع وجود " أل " التعريف .

فقام عمرو بن العاص فَزِعاً حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك ؟، قال: قُتِلَ عمار، فقال معاوية: قُتِلَ عمار فماذا ؟، فقال عمرو : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((تقتله الفئة الباغية))، فقال له معاوية : دَحَضْتَ في بَوْلك ، أو نحن قتلناه ؟!، إنما قتله عليٌّ وأصحابُه، جاؤوا به حتى أَلْقَوْهُ بين رماحنا ، أو قال بين سيوفنا (37).

الثالث _قول ابن حجر " وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم " ، فهذه العبارة فيها نظر . فلا اجتهاد في مَوْرِد النَّص ، وما هذا الاجتهاد القائم على قتل المسلمين من أجل حُطام الدنيا؟. والاجتهاد الذي لا لَوْمَ على صاحبه ، هو الاجتهاد المبني على أدلة شرعية مُعتبَرة ، حتى لو لَم يُصِب الحقيقة. أمَّا بناء الاجتهادات فوق الهوى وحب الدنيا والمصلحة الشخصية فهذا اجتهادٌ نفعي مذموم ضد الشرع تماماً . وصدقَ القائلُ :

فَلَيْسَ كُلُّ خِلافٍ جَاءَ مُعْتَبَرَاً   إلا خِلاف له حَظ مِن النَّظَرِ

الرابع _ قول ابن حجر " لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم " عبارة غير دقيقة ، لأن العُذر بالتأويل مشروط بأن يكون التأويل وفق منهجية الضوابط الشرعية . ولو كان كل متأوِّل معذوراً ، لَكَان الروافض معذورين في شتم أبي بكر وعمر_رضي الله عنهما_ لأنهم يستندون إلى تأويل، ولَكَان النصارى معذورين في تأليه المسيح ﷺ لأنهم يستندون إلى تأويل. وهذا مرفوض تماماً. فالتأويل يجب أن يكون مبنياً وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة حتى يكون الإنسان معذوراً أمام الله تعالى سواءٌ أصاب الحقَّ أم لَم يُصِبْه .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه_ أن رَجُلَيْن أتيا عمرو بن العاص يختصمان في دم عمار بن ياسر وسَلَبِه ، فقال عمرو : خَلِّيا عنه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((اللهمَّ أَوْلَعَتْ قُرَيشٌ بعمَّار ، إنَّ قاتلَ عَمَّارٍ وسَالِبَه في النار))(38).

قلتُ:ولو كانت فِرقةُ معاوية مُتأوِّلةً كلها لَمَا قال النبيُّ ﷺ:((إن قاتل عمار وسالبه في النار))، لأن المتأول معذور باجتهاده إذا كان مبنياً على أُسس صحيحة، فلماذا يُعاقَب بالنار على اجتهاده؟، أمَّا أن يُوعد بالنار فهذا دليلٌ على أنه آثم متلبِّس بالخطيئة ، وتأويله مرفوض جملةً

---

(٣٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٨) برقم (٢٦٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٨) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣٧) برقم (٥٦٦١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وتفصيلاً . وبالتأكيد فإن معاوية وعمرو لهما نصيبٌ في هذا الوعيد ، لأنهما العقلان المفكّران في ارتكاب هذه المذبحة، والقائدان للفئة الباغية ، ومن أعان على جريمة قتلِ المسلمين من أجل شهوة السلطان والاستبداد السياسي ، فهو مجرمٌ وفق الضوابط الشرعية .

وعن حنظلة بن خُوَيلد العَنْزيِّ قال : بينما أنا عند معاوية إذ جاءه رَجلان يختصمان في رأس عمَّار ، يقول كُل واحد منهما : أنا قتلتُه، فقال عبد الله بن عمرو: لِيَطِبْ به أحدُكما نفْساً لصاحبه فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((تقتله الفئة الباغية)) . قال معاوية : فما بالُكَ معنا ؟ ، قال : إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال : ((أَطِعْ أباكَ ما دام حَيَّاً ولا تَعْصِه)) ، فأنا معكم ولستُ أُقاتِل [39].

وكما هو معلومٌ قَطْعاً بأن عماراً قاتَلَ إلى جانب عليٍّ بن أبي طالب ، وبذلك تكون فِرْقة معاوية هي الفئة الباغية بلا أدنى شك ، وهذا لا خلاف فيه . وأيضاً ففرقة علي داعية إلى الجنة ، وفرقة معاوية داعية إلى النار . وكما قلنا فالكثيرون في جيش معاوية انخدعوا بِحِيَل معاوية وعمرو، فلم يتمكنوا من تمييز الحق من الباطل،وهؤلاء_إن شاء الله_معذورون ومتأوِّلون، أما معاوية وعمرو فهما من الدعاة إلى النار بنص الحديث، وغير معذورَيْن ولا متأوِّلَيْن، ولا يجوز الترضي عليهما بمعنى التحقيق الأكيد المحتوي على معنى هبوط رضوان الله عليهما حتماً ، بل بمعنى طلب الرحمة لهما مثل فسقة المسلمين ، فهما على أية حال لم يخرجا عن دائرة الإسلام ، فهما كانا يعرفان الحق ، ومع هذا تحايلا على النصوص الشرعية، واتَّبعا الهوى والضلالَ المبين من أجل السُّلطة، وقُتِلَ عشرات الآلاف من المسلمين مجاناً بسبب عشقهما للدنيا والسُّلطة .

وقاتل عمار هو الصحابي أبو الغادِيَة الْجُهَنِيُّ ، وهذا دليلٌ آخر على وجود صحابة ذاهبين إلى النار . قال ابن حجر في الإصابة (٧/ ٣١١) : ((وقال الدوري عن ابن معين : أبو الغادية الجهني قاتل عمار له صُحبة...وقال البخاري: الجهني له صُحبة،وزاد سمع من النبيِّ ﷺ ، وتبعه أبو حاتم... وقال ابن سميع : يقال له صُحبة . وقال الحاكم أبو أحمد كما قال البخاري ، وزاد وهو قاتل عمار ابن ياسر ، وقال مسلم في الكُنى : أبو الغادية يسار بن سبع قاتل عمار له صُحبة)) اهـ .

---

(٣٩) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٤) برقم (٦٥٣٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٩٠) : ((رواه أحمد ورجاله ثقات)) .

ومن الواضح أن معاوية قد خدع أتباعَه الذين فكَّروا في حالهم بعدما قتلوا عمَّاراً ، وكونهم من الفئة الباغية ، مما يدل على أن نيتهم كانت حسنة ، وأنهم يُقاتِلون متأوِّلين ، لكن معاوية تحايل على كلامِ النبيِّ ﷺ ، ولوى عُنُقَ النَّص عبر إحالته إلى معنى آخر بلا قرينة ولا دليل مُعتبَر ، وهذا مردُّه إلى الهوى وشهوة الحُكم ، وللأسف فقد انطلت الحيلة على الجميع ، حتى على عمرو بن العاص داهية العرب الذي كان يتوجب عليه أن يُخرج حبَّ الدنيا من قلبه ليفكِّر بشكل أفضل ، ولئلا يمنعه هواه من التبصر بالأمور ، والخضوع لتأويل معاوية المكشوف الذي ليس له سند صحيح لا من الكتاب ولا من السُّنة. ومعلومٌ تحايل عمرو بن العاص وسوء نيته أثناء التحكيم وقيامه بالكذب على أبي موسى الأشعريِّ ــ رضي الله عنه ــ أثناء التحكيم مستغلاً طِيبته وحُسن نيته . وقد قُتِلَ المسلمون من أجل شهوة الحُكم عند معاوية وعمرو . وهكذا يتبيَّن أن معاوية لم يكن متأولاً ، بل كان غارقاً إلى شحمة أُذنيه في الخطيئة عامداً متعمداً، ولم يكن مجتهداً أصلاً ليأخذ أجراً أو أجرَيْن ، بل آثماً متحايلاً على النصوص،كما أنه لا اجتهاد في مورد النَّص،فمن الذي أعطى معاوية أجراً بزعم اجتهاده الخاطئ؟!. لا أجر مُطْلقاً في التحايل على النصوص ولوي أعناقها ، ولا أجر مُطْلقاً على اتباع الهوى وحب الدنيا والسُّلطة . ولا أجر مُطْلقاً على قتل المسلمين وإهراق دمائهم من أجل شهوة السلطان . فعليٌّ له الأجرُ كاملاً لأنه على الحق الساطع ، ومعاوية له الإثمُ كاملاً لأنه على الباطل عن سبق الإصرار والتعمد . وقد قال النبيُّ ﷺ : ((إن الله ــ عز وجل ــ مَوْلاي ، وأنا مَوْلَى كُلِّ مؤمن)) ، ثم أخذ بيد عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ فقال : ((مَن كنتُ مَولاه فهذا وَلِيُّه ، اللهم وَالِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه))[40].

---

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١١٨)برقم (٤٥٧٦) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي . ورواه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٣٧٦)، وأبو يعلى (١١/ ٣٠٧) برقم (٦٤٢٣). وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٠) : ((رواه أبو يعلى ورجاله وُثِّقوا))اهـ. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٣٥) : ((مَن كُنتُ مَولاه فعليٌّ مولاه . هذا حديث حسن عالٍ جداً مَتنه ، فمتواتر)) اهـ . و في مُسنَد أحمد (١/ ١١٩) : قال رسول الله ﷺ : ((اللهم والِ مَن والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر مَن نصره ، واخْذُلْ مَن خَذله)) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٣٠): ((رواه البزَّار، ورجاله رجال الصحيح غير فِطْر بن خليفة وهو ثقة)) اهـ .

وأعداء عليٍّ _ رضي الله عنه _ سوف يعاديهم الله تعالى لأن دعاء النبيِّ ﷺ مستجاب قطعاً . لذلك لا مجال للاجتهاد في ظل تضافر كل هذه النصوص الساطعة . فالتوغل في دماء المسلمين مسؤولية معاوية وعمرو باعتبارهما رَأْسَي الفِتنة ، وهما من الدعاة إلى النار بنص الحديث الصحيح ، ومقتل عشرات آلاف المسلمين سوف يكون وبالاً عليهما يوم القيامة ، لأنهما غير متأوِّلَيْن مُطْلقاً . ولا يجوز صناعة حصانة وهمية حَولهما لمنع نقدهما. بَل يجب فضح الكوارث التي ارتكباها عن طريق التغرير بالمسلمين وخداعهم ، وقتلهم من أجل السُلطة لكي يصبحا مثل ملوك الأرض حاكمين على الجماجم . وكونهما صحابِيَّيْن لا يمنحهما أية حصانة ضد النقد ، فبعض الصحابة ذاهبون إلى النار بالتأكيد استناداً إلى نصوص شرعية صحيحة كما ثبت ذلك ، خاصة أنه لم يرد في فضائل معاوية أية نصوص شرعية ، كما أن الأحاديث الواردة في"فضائل عمرو بن العاص " لا تثبت في ظل التمحيص والتدقيق وفق المنهج العِلميِّ .

إن عمرو بن العاص مُتلبِّس بدماء المسلمين عامداً متعمداً دون تأويل برفقة معاوية ، ومعروفٌ دور عمرو في الكذب والخدعة غير الشرعية أثناء التحكيم . لذا تضافرت الأدلة الشرعية الصحيحة الموجهة ضدهما ، والتي تُعرَض في هذا البحث بالتفصيل .

ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن هناك فروقات جوهرية بين السيدة عائشة وطلحة والزُّبَير _ رضي الله عنهم _ الذي واجهوا علياً في الحرب ، وبين معاوية وعمرو بن العاص . ولا يصح وضع الجميع في سياق واحد ، لأن القياس مع الفارق باطل . والفروق نوجزها كالتالي :

١) إن السيدة عائشة وطلحة والزبير هم من أهل الجنة بإجماع المسلمين، كما أن طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة اتفاقاً . وقد وردت في فضائلهم أحاديث صحيحة ثابتة. أمَّا معاوية وعمرو فهما من الدعاة إلى النار .

٢) إن عائشة وطلحة والزبير لم يكونوا من أهل الدنيا وحب شهوة السلطان والمجد الدنيوي الزائل بدليل تضحياتهم الجسام المؤثرة في سبيل نصرة الإسلام في كل مراحله . في حين أن معاوية وعمرو كانا معروفين بحب الدنيا والرئاسة وشهوة الحُكم والنفوذ .

٣) إن عائشة وطلحة والزبير كانوا متأوِّلين تماماً رغم الخطأ الذي وقعوا فيه بعدم خضوعهم لأمر الخليفة الشرعي عليِّ بن أبي طالب، فهم لم يكونوا من طلاب الدنيا ، بل كانوا يهدفون إلى لَم شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم. وعندما تبيَّنوا الحقَّ رجعوا واعترفوا بالخطأ ، ولم يَتَمَادَوْا أو يتحايلوا على النصوص الشرعية. وما خروج السيدة عائشة في وقعة الجمل إلا من أجل استخدام

مكانتها المعروفة في توحيد المسلمين لعل الله تعالى يُصلح بينهم . فلا هي تهدف إلى أن تكون حاكمةً للمسلمين مثل الملكة فكتوريا، ولا هي تريد أن تُوَلِّيَ أقاربها الخلافة. فقد عرَّضت حياتها للخطر في تلك اللحظة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من وُجهة نظرها .

قال الذهبي في دُوَل الإسلام (١/ ٢٨) : ((إن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة _ رضي الله عنهم _ نَدِموا وعَظُمَ عليهم قَتْلُه (يعني قتل عثمان رضي الله عنه) ، ورَأَوْا أنهم قد قصَّروا في نُصرته ، فخرجوا على وجوههم قاصدين البصرة للطلب بدمه من غير أمر عليٍّ ، وذلك أن قتلة عثمان الْتَقَوْا على عليٍّ وصاروا من رؤوس الملأ ، وخاف هو من أن ينتقض الناس ، فسار بعسكر المدينة وبرؤوس قتلة عثمان إلى العراق ، فجرت بينه وبين عائشة وقعة الجمل بلا عِلم ولا قصد ، والتحم القتال مِنَ الغَوغاء ، وخرج الأمر عن عليٍّ وعن طلحة والزبير ، وقُتِل من الفريقين نحو من عشرين ألفاً ، وقُتِل طلحة والزبير)) اهـ .

وعن رِبْعِيِّ بن حِراش قال : إني لَعِنْدَ عليٍّ _ رضي الله عنه _ جالس ، إذ جاء ابنٌ لطلحة فَسَلَّمَ على عليٍّ _ رضي الله عنه _ فَرَحَّبَ بِه ، فقال : تُرَحِّب بي يا أمير المؤمنين وقد قتلتَ أبي وأخذتَ مالي ؟، قال : ((أمَّا مالُك فهو ذا معزول في بيت المال ، فاغْدُ إلى مالِك فَخُذْه ، وأمَّا قَوْلُك : قتلتَ أبي ، فإني أرجو أن أكون أنا وأبوك مِن الذين قال الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَنَزَعْنا ما في صُدورِهم مِن غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقابِلين ﴾)) ، فقال رَجل مِن هَمَذان : إن الله أعدل مِن ذلك ، فصاحَ عليه عليٌّ صَيْحةً تداعى لها القَصْر ، قال: ((فَمَن إذاً إذا لَم نكن نحن أولئك)) [41].

وطَلْحة هو طَلْحة بن عُبَيْد الله ، أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، وقد عَظُمَ عليه قتل عثمان _ رضي الله عنه _، واعتبرَ نَفْسَه مُقصِّراً في الدفاع عنه ، فخرجَ من أجل المطالَبة بدم عثمان ، وقد قُتل في وَقْعة الجمل التي جَرَت بين عليٍّ وعائشة _ رضي الله عنهما _ بِلا تخطيط . لذلك اعتبرَ ابنُ طلحة علياً مسؤولاً عن قتل أبيه . وهذا غير صحيح البتَّة [42].

---

(٤١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٥) برقم (٣٣٤٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية(٧/ ٢٤٨) عن طَلْحة بن عُبَيْد الله _ رضي الله عنه_: ((فلمَّا كان قضية عثمان ، اعتزلَ عنه ، فنسبَه بعضُ الناس إلى تحامُل فِيه، فلهذا لَمَّا حَضَرَ يوم الجمل واجتمع به عليٌّ فوعظه تأخَّرَ ، فوقف في بعض الصفوف ، فجاءه سَهْمُ غَرْبٍ [يعني لا يُعرَف راميه]، فوقع في

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ١٠١) : ((كما قال عليٌّ رضي الله عنه للحارث ابن حَوْط وقد قال له : أتظنُّ أنَّا نظنُّ أن طلحة والزبير كانا على باطل ، فقال له : يا حارث ، إنه مَلبوس عليك ، إن الحق لا يُعرَف بالرجال ، اعْرِف الحقَّ تَعْرِفْ أهْلَه)) اهـ .

إن الحارث بن حَوْط غَير مُتخيِّل أن طلحة والزُّبير كانا على خطأ . وهُما بالفِعْل كانا مُخْطِئَيْن.

وعن قيس بن أبي حازم قال : لَمَّا بَلغتْ عائشة ــ رضي الله عنها ــ بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب ، فقالت : أيُّ ماءٍ هذا ؟ ، قالوا : الْحَوْأَب ، قالت : ما أَظُنُّني إلا راجعة ، فقال الزبير : لا بَعْد، تقدَّمي ويراك الناس، ويُصلح اللهُ ذَاتَ بَيْنِهم ، قالت : ما أظنني إلا راجعة . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((كَيْفَ بإحداكُنَّ إذ نبحتها كِلابُ الحوأب ؟!))[43].

انظر إلى السيدة عائشة كيف تراجعت عن الخطأ الذي ارتكبته عندما تبيَّن لها قول النبيِّ ﷺ ، ولم تقم بالتفاف على النَّص الشرعي مثلما فعل معاوية،ولم تقم بلوي أعناق النصوص. بل انسحبت بكل هدوء خضوعاً لأمر النبيِّ ﷺ ، ملتزمةً بعدم تجاوزه .

وانظر إلى الزُّبير بن العَوَّام عندما قال : ((لا بَعْد ، تقدَّمي ، ويراك الناس، ويُصلح الله ذات بينهم)) . وقد قاله قبل سماعه لقول النبيِّ ﷺ . فالزبير كان يهدف إلى أن تتقدم السيدة عائشة ليراها الناس مقدِّرين مكانتها، ليس من أجل جمع حطام الدنيا ، وقتلِ المسلمين على الحُكم، بل من أجل أن يصلح الله ذات بينهم حينما يرون أم المؤمنين الساعية إلى لَم الشمل .

رُكبته، وقِيل: في رقبته. والأول أشْهَر.وانتظم السَّهم مع ساقه خاصرة الفرس فجمح به حتى كاد يُلقيه، وجعل يقول: إِلَيَّ عِبادَ الله، فأدركه مَوْلى له فركبَ وراءه وأدخله البصرة ، فمات بدارٍ فيها ، ويقال : إنه مات بالمعركة، وإن علياً لَمَّا دارَ بين القتلى رآه، فجعلَ يَمسح عن وجهه التراب، وقال: رحمة الله عليك أبا محمد ، يَعُزُّ عليَّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء)) اهـ .

(٤٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٩) برقم (٤٦١٣) ، وسكت عنه الذهبي. ورواه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٢٦) برقم (٦٧٣٢) ، وأحمد في مسنده (٦/ ٥٢) برقم (٢٤٢٩٩) ، وأبو يعلى (٨/ ٢٨٢) برقم (٤٨٦٨) . قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٥) : ((وأخرج هذا أحمد وأبو يعلى والبزَّار وصححه ابن حبان والحاكم وسنده على شرط الصحيح)) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيَّتُكُنَّ صاحبةُ الجملِ الأدْبَبِ يُقتَل حَوْلَها قتلى كثيرة ، تنجو بعدما كادت))[44]. وأخرج البَزَّار من طريق زيد بن وَهْب قال : بَيْنَا نحن حَوْل حُذَيْفة إذ قال : كيف أنتم وقد خرج أهلُ بيت نبيكم فرقتين يَضرب بعضُكم وجوهَ بعض بالسيف ؟، قلنا : يا أبا عبد الله ، فكيف نصنع إذا أدركنا ذلك ؟، قال : انظروا إلى الفِرقة التي تدعو إلى أمر عليٍّ بن أبي طالب فإنها على الهدى [45].

قلتُ : والأدلة متضافرة على أن الحروب التي قادها عليٌّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ كان هو على الحق الساطع ، وخصومه على الباطل . وخصومه ينقسمون إلى متأوِّلين وطلاب خير من وجهة نظرهم مثل عائشة وطلحة والزبير ، وإلى أصحاب دنيا وخيانة مثل معاوية وعمرو .

وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ قال لعليٍّ بن أبي طالب إنَّه سيكون بَيْنَكَ وبين عائشة أمر ، قال : أنا يا رسول الله ؟ ، قال : نعم . قال : فأنا أشقاهم يا رسول الله ؟ ، قال : ((لا ، ولكن إذا كان ذلك فَارْدُدْها إلى مَأْمَنِها))[46].

وانظر إلى منهجية الزبير ــ رضي الله عنه ــ حينما ظهر له الحق فتراجع ، لأن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والحق أحق أن يُتَّبع . فالمعروف أنه تراجع عن قتال عليٍّ ، وهذا يعني أنه أدار المسألة في رأسه ، وتبيَّن له الحق فالتزمه، حتى لو لَم يذكره في ساعة المواجهة مع عليٍّ. فعن ابن أبي الأسود الدِّيلي قال : شَهِدْتُ الزُّبيرَ خرج يريد عَلِيّاً، فقال له عليٌّ: أَنْشُدُكَ اللهَ، هل سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: ((تقاتله وأنت له ظالم)) ؟، فقال : لم أَذْكر ، ثم مضى الزبير مُنصرِفاً [47].

---

(٤٤)رواه ابن أبي شَيبة في مصنفه(٧/ ٥٣٨) برقم (٣٧٧٨٥). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٧٤) : ((رواه البزَّار ، ورجاله ثقات)) اهـ ، ووافقه الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٥) . وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨) : ((قال ابن عبد البَر : هذا الحديث من أعلام النُّبوَّة)) اهـ .

(٤٥) قال الهيثمي في المجمع(٧/ ٢٣٦):((رجاله ثقات))،وسكت عنه الحافظ في الفتح(١٣/ ٥٥).

(٤٦) رواه أحمد في مسنده(٦/ ٣٩٣)برقم(٢٧٢٤٢)،والطبراني في الكبير(١/٣٣٢)برقم (٩٩٥). وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٥) : أخرجه أحمد والبزار بسند حسن .

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤١٣) برقم (٥٥٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي. وقال الحاكم في الموضع السابق : ((وقد رُوِيَ إقرار الزبير لعليٍّ ــ رضي الله عنهما ــ بذلك من غير هذه الوجوه والروايات)) اهـ .

نقض ما يُسمَّى بفضائل عمرو بن العاص :

عن عُقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ((أسلمَ الناسُ وآمنَ عمرو بن العاص))(48).

قلتُ : كل طرق الحديث تدور حول ابن لَهيعة . وإليك أقوال العلماء فيه من تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣١) :

[قال أحمد بن صالح : ((كان ابن لَهيعة من الثقات إلا أنه إذا لُقِّنَ شيئاً حدَّث به)) .

وقال النسائي عن أبيه : ((ليس بثقة)) .

وقال ابن معين : ((كان ضعيفاً لا يُحْتَج بحديثه)) .

وقال مسعود عن الحاكم:((لم يقصد الكذب وإنما حدَّث من حفظه بعد احتراق كتبه فأخطأ)).

وقال الجوزجاني : ((لا يوقف على حديثه ولا ينبغي أن يُحتَج به ، ولا يُغتَر بروايته)) .

وقال ابن أبي حاتم : ((سألتُ أبي وأبا زرعة عن الإفريقي وابن لَهيعة أيهما أحب إليك ؟ ، فقال : جميعاً ضعيفان ، وابن لَهيعة أمره مضطرب يكتب حديثه على الاعتبار)) .

وقال أبو زُرعة : ((كان لا يضبط)) .

وقال ابن عَدِيٍّ : ((حديثه كأنه نسيان وهو من يكتب حديثه)) .

وقال محمد بن سعد : ((كان ضعيفاً ومن سمع منه في أول أمره أحسن حالاً في روايته ممن سمع منه بأَخَرة)) .

وقال مسلم في الكنى : ((تركه ابن مهدي ويحيى بن سعيد ووكيع)) .

وقال الحاكم أبو أحمد : ((ذاهب الحديث)) .

وقال ابن حبان:((سبرتُ أخباره فرأيته يُدلِّس عن أقوام ضعفاء على أقوام ثقات قد رآهم)).

وقال أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار : ((اختلط عقله في آخر عمره))] اهـ .

قلتُ : وفي سنده كذلك مِشْرَح بن هَاعان .

---

(٤٨) رواه الترمذي في سُننه(٥/ ٦٨٧) برقم (٣٨٤٤) ، وقال: ((هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لَهيعة عن مِشْرَح بن هَاعان وليس إسناده بالقوي))اهـ،وأحمد في مسنده(٤/ ١٥٥) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٦) برقم (٨٤٥) .

وخلاصة الكلام فيه ما قاله أبو حاتم في المجروحين (٣/ ٢٨) : ((روى عن عُقبة بن عامر أحاديث مناكير لا يُتابَع عليها، روى عنه ابن لَهيعة والليث وأهل مصر، والصواب في أمره ترك ما انفرد من الروايات والاعتبار بما وافق الثقات)) اهـ .

قلتُ : وحديث " أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص" يرويه عن عُقبة بن عامر .

وعن ابن أبي مُلَيكة قال : قال طلحة بن عُبَيد الله : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إنَّ عمرو ابن العاص من صالحي قُرَيش))(49).

قلتُ : طرق الحديث عند الترمذي وأبي يعلى تدور حول ابن أبي مليكة عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وهنا انقطاعٌ في السند ، فالترمذي قال إن ابن أبي مليكة لم يدرك طلحة .

وبقي أن نبحث رجال الطبراني . ففي سنده يحيى بن عثمان بن صالح . وفي تهذيب التهذيب (١١/ ٢٢٥) : قال ابن أبي حاتم : وتكلموا فيه . وقال ابن يُونُس : وحدَّث بما لم يكن يوجد عند غيره.وقال مسلمة بن قاسم : يتشيع ، وكان صاحب وِراقة يُحدِّث كتبه فَطُعِنَ فيه لأجل ذلك .

وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٥٩٤) : ((صدوق رُمِيَ بالتشيع)) اهـ .

وقال الذهبي في الكاشف (٢/ ٣٧١) : ((حافظ أخباري له ما يُنكَر)) اهـ .

وفي سنده كذلك سليمان بن أيوب . وفي تهذيب التهذيب (٤/ ١٥٢): ((أورد له ابن عدي أحاديث مناكير ، وقال عامة أحاديث لا يتابع عليها ، ووثقه يعقوب بن شيبة، وذكره ابن حبان في الثقات)) . وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٢٥٠) : ((صدوق يخطئ)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ابنا العاص مؤمنان هشام وعمرو))(50).

---

(٤٩) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٦٨٨) برقم (٣٨٤٥) وقال: ((هذا حديث إنما نعرفه من حديث نافع بن عمر الْجُمَحِيِّ ، ونافع ثقة ، وليس إسناده بمتصل ، وابن أبي مُلَيكة لَمْ يُدرك طلحة)) ، والطبراني في الكبير(١/ ١١٥) برقم (٢٠٨).وعند أبي يعلى (٢/ ١٨) برقم (٦٤٥) : ((عمرو ابن العاص من صالحي قريش ، ونِعْمَ أهلُ البَيتِ عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله)) ، وقال الهيثمي في المجمع(٩/ ٥٨٩):((رواه الترمذي باختصار، رواه أبو يعلى وأحمد بنحوه ، ورجاله ثقات)) اهـ.

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦٨) برقم (٥٠٥٣) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي . وأحمد في مسنده (٢/ ٣٠٤) برقم (٨٠٢٩) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٧٧) برقم (٤٦١) .

في سنده حماد بن سَلَمة . قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ١٧٨) : ((ثقة عابد أثبت الناس في ثابت وتغيَّر حِفْظُه بأَخَرة)) اهـ .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٢) : ((فأمَّا حماد فإنه أحد أئمة المسلمين . قال أحمد بن حنبل : إذا رأيتَ مَن يَغْمِزُه فاتهمه ، فإنه كان شديداً على أهل البدع ، إلا أنه لَمَّا طعن في السن ساء حفظه ، فلذلك لم يحتج به البخاري ، وأمَّا مسلم فاجتهد فيه وأخرج من حديثه عن ثابت مما سمع منه قبل تغيُّره ... فأخرج نحو اثني عشر حديثاً في الشواهد دون الاحتجاج ، فالاحتياط أن لا يُحتَج به فيما يُخالف الثقات)) اهـ .

وفي سنده كذلك محمد بن عمرو بن علقمة . ومع أنه ثقة عند كثير من الأئمة إلا أننا نورد بعضاً مما في تهذيب التهذيب (٩/ ٣٣٣) :

[قال يحيى: ((ليس هو ممن تريد _ بالنسبة لمن أراد التشديد_)) ، وقال مالك نحو ذلك.

سئل ابن معين عن محمد بن عمرو فقال : ((ما زال الناس يتقون حديثه)) ، قيل له : وما علة ذلك ؟ ، قال : ((كان يُحدِّث مرة عن أبي سلمة بالشيء من روايته ، ثم يحدث به مرة أخرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة)) . وقال الجوزجاني : ((ليس بقوي الحديث)) .

وقال يعقوب بن شيبة : ((هو وسط وإلى الضعف)) .

وقال ابن سعد : ((كان كثير يُستضعَف))] اهـ .

قلتُ : وحديث " ابنا العاص مؤمنان هشام وعمرو" يحدِّث به عن أبي سلمة عن أبي هريرة .

وعن عَلقمة بن رِمْثَة البَلَويِّ قال : بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين ، ثم خرج رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ وخرجنا معه، فنعس رسول الله ﷺ ثم استيقظ، فقال : ((رحم الله عَمْراً))، فتذاكرنا من اسمه عمرو ، ثم نعس ثانية فاستيقظ ، فقال : ((يرحم الله عَمْراً)) ، ثم نعس ثالثة فاستيقظ فقال: ((يرحم الله عَمْراً))،قلنا: مَن عمرو يا رسول الله ؟، قال: ((عمرو بن العاص)) ، قالوا : وما باله ؟ ، قال : ((ذَكَرْتُه إني كنتُ إذا نَدَبْتُ الناسَ الصدقةَ جاء من الصدقة فأجزل فأقول : من أين لك هذا يا عمرو ؟، فيقول: من عند الله ، وصدق عمرو ، إنَّ لعمرو عند الله خَيراً كثيراً))، قال زهير: فلمَّا كانت الفِتنة قلت: أتَّبِعُ هذا قال فيه رسول الله ما قال، فلم أُفَارِقْهُ (51).

---

(٥١) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ٥) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٨٦) : ((رواه أحمد والطبراني ... ورجال أحمد وأحد إسنادَي الطبراني ثقات)) اهـ .

قلتُ : في السند مُطَّلِب بن شُعَيب وعبد الله بن صالح (كاتب الليث) . قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٧٤): ((مطلب بن شعيب عن عبد الله بن صالح، وكلاهما قد وُثِّق على ضعف فيه)) . وفي المجمع (٢/ ١١٩) : ((عبد الله بن صالح كاتب الليث ، ضعَّفه الجمهور)) اهـ .

وإليك أقوال بعض الأئمة في عبد الله بن صالح مع أن بعض الأئمة وثَّقوه . قال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٣٠٨): ((صدوق كثير الغلط ، ثَبْت في كتابه ، وكانت فيه غفلة)) اهـ.

وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٥٦٢): ((وكان صاحب حديث فيه لِين ... وقال ابن عَدِي: هو عندي مستقيم الحديث له أغاليط)) اهـ .

وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٥/ ٨٧) : قال أحمد بن حنبل : كان أول أمره متماسكاً ثم أفسد بأَخَرة .

وعن أبي نَوفل بن أبي عَقرب قال : جَزِعَ عمرو بن العاص عند الموت جَزَعاً شديداً ، فلمَّا رأى ذلك ابنُه عبد الله بن عمرو قال : يا أبا عبد الله ، ما هذا الجزعُ وقد كان رسول الله ﷺ يُدنيك ويَستعملك ؟ ، قال : أيْ بُنَيَّ ، قد كان ذلك ، وسأخبرك عن ذلك ، إني واللهِ ما أدري أحُبَّاً ذلك كان أَم تَأَلُّفاً [52].

وذَكَرَ الذهبي في دُوَل الإسلام (١/ ٢٩) سادات الصحابة الذين تَخَلَّفوا عن صِفِّين منهم : ((سعد بن أبي وقاص الذي افتتح العراق، وسعيد بن زيد ، وأبو اليُسْر السُّلَميُّ ، وزَيد بن ثابت، ومحمد بن مَسلمة ، وابن عمر ، وأسامة بن زيد ، وصهيب الروميُّ ، وأبو موسى الأشعريُّ ، وجماعة رَأَوا السلامة في العُزلة ، وقالوا : إذا كان غزو الكفار قاتَلْنا، فأمَّا قتال الفِتنة والبَغْي فلا نُقاتِل أهلَ القِبْلة)) اهـ .

وهؤلاء الصحابة _ رضي الله عنهم _ كانوا متأوِّلين اعتماداً على تعلقهم بشُبهة ، وهي أنهم لَم يريدوا أن تتلطخ أيديهم بدماء المسلمين ، ولم يتبيَّنوا الصواب في تلك اللحظة لذلك آثروا العزلة . لكننا نقول إن فعلهم ذلك مُخالفٌ لآية قتال الفئة الباغية . وكان يتوجب عليهم وجوباً شرعياً مقاتلة فرقة معاوية وعمرو .

(٥٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٩٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٨٩) : ((في الصحيح طرفٌ منه ، رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح)) اهـ .

فعن حمزة بن عبد الله بن عمر : أقبلَ إِلَينا عبد الله بن عمر فقال : ما وَجَدْتُ في نفْسي في شيء من أمر هذه الآية _ ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات: ٩] _ إلا ما وجدتُ في نفْسي أني لَم أُقاتِل هذه الفئةَ الباغية كما أمرني اللهُ تعالى (53).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء(٣/ ٥٩) عن عمرو بن العاص: ((والله يغفر له ويعفو عنه، ولولا حُبُّه للدنيا ودخوله في أمور لَصَلُحَ للخلافة ، فإن له سابقة ليست لمعاوية ، وقد تأمَّر على مثل أبي بكر وعمر لِبَصره بالأمور ودهائه)) اهـ .

وعمرو داهيةُ قُرَيش، وقد تَأمَّرَ على أبي بكر وعمر لِخِبْرته الواسعة، ولَيس لأنه أفضل منهما .

وعن عمرو بن العاص قال : بعثني النبيُّ ﷺ على جيش فيهم أبو بكر وعمر _ رضي الله عنهما_ (54).

---

(٥٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٢) برقم (٣٧٢٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٥٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣) برقم (٦٧٤٠) ، وسكت عنه الذهبي . والطبراني في الكبير (٥/ ٢٢) برقم (٤٤٦٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٨٧) : ((رواه الطبراني ورجاله ثقات)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٧٥) : [وذكر ابن إسحاق أن أُم عمرو بن العاص كانت مِن بَلِيّ ، فبعث النبيُّ ﷺ عَمْراً يستنفر الناس إلى الإسلام ويستألفهم بذلك . وروى إسحاق ابن راهويه والحاكم من حديث بُرَيدة أن عمرو بن العاص أمرهم في تلك الغزوة أن لا يُوقدوا ناراً فأنكرَ ذلك عُمر ، فقال له أبو بكر : ((دَعْهُ فإن رسول الله ﷺ لم يبعثه علينا إلا لِعِلْمه بالحرب ، فسكت عنه)) ، فهذا السبب أصح إسناداً من الذي ذكره ابن إسحاق... وفي الحديث جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية] اهـ. قلتُ: وهذا الفضل مرتبط بدهائه وعبقريته الحربية وحِنكته، وهي بالقطع ليست عاصمةً له ، أو شهادة له بأنه من أهل الجنة. فمثلاً الأدلة الصحيحة على أن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح كان كاتباً للوَحْي بين يَدَي النبيِّ ﷺ ثم ارتد عن الإسلام. وكما هو معلومٌ فإن كُتَّاب الوَحْي واقعون تحت إشراف النبيِّ ﷺ مباشرةً، وهم من اختياره، ومع هذا ارتدَّ عن الإسلام ، ولم تكن مسألة كتابة الوحي عاصمةً له. فإذا اختار النبيُّ ﷺ قائداً للجيش وولاه على كبار الصحابة مثلاً ، فهذه ليست شهادةً بأنه من أهل الجنة ، أو أنه من السابقين الأولين . وإنما هي منقبة شريفة إذا حافظ عليها

وقال رسول الله ﷺ : ((يا عَمْرو إني أريدُ أن أبْعَثَكَ على جيش فَيُغَنِّمَكَ اللهُ ويُسَلِّمَكَ ، وأرغبَ لك رَغبةً صالحةً من المال)) ، قال : فقلتُ يا رسول الله : إني لم أُسْلِمْ رَغبةً في المال ، ولكني أُسْلِم رغبةً في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال : ((يا عمرو ، نِعِمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح))[55].

قلتُ : ونحن نعتقد بأن بعض رواة أحاديث "فضائل عمرو " قد تم توثيقهم بقوة من قبل طائفة من العلماء ، رغم وجود فريق آخر يطعنون فيهم ، لكننا نقول إن الراوي إذا اخْتُلِفَ فيه على هذا النحو ، فالصواب في أمره ترك ما انفرد به من الروايات ، والاعتبار بما وافق الثقات . فنحن لا يمكننا أن نلغيَ راوياً قال عنه عدة أئمة " ثقة" ، وكذلك لا يمكننا اعتماد راوٍ اعتماداً كلياً طعن فيه عدة أئمة . وإذا كان سبب الطعن والْجَرْح مُفَسَّراً في الراوي فإن الجرح هو الذي يُعتمَد حتى لو كان غالبية العلماء على تعديله . ولكي نعتمد الراوي مرةً أخرى ينبغي أن نتفادى السببَ الذي طُعِنَ فيه من أجله . وأحاديث " فضائل عمرو بن العاص " على فرض ثبوتها فهي مرجوحة ، ومُعارَضة بما هو أقوى منها . ونحن لم ندحض أحاديث فضائل معاوية وعمرو من باب الهوى والتعصب ، بل اعتماداً على المنهجية المستمدة من الكتاب والسُّنة الصحيحة . وهناك أدلة كثيرة ذكرناها في هذا البحث تدعم ما ذهبنا إليه بالتفصيل .

عليُّ بن أبي طالب وقتالُ أهلِ البَغْي :

إن الحق كان يَدور مع عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أثناء الفِتَن التي سَلَّ سيفَه فيها لإخمادها . وكان الدور الذي أدَّاه علي بن أبي طالب بالغ الحساسية والخطورة في آن معاً ، فقد كان يقاتل على تأويل القرآن بعد أن وُجِدت فئاتٌ أخطأت طريقها اعتماداً على تأويل مغلوط .

فعن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال : كُنَّا معَ رسول الله ﷺ فانقطعتْ نَعْلُه ، فَتَخَلَّفَ عليٌّ يَخْصِفُها، فمشى قليلاً ثم قال: ((إنَّ مِنكُم مَن يُقاتِل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنْزيله))،

حتى وفاته ملتزماً بالكتاب والسُّنة. أمَّا إذا انحرفَ فهو يتحمل المسؤولية ، ولا يُعَدُّ هذا طعناً في اختيارات رسول الله ﷺ ، فالنبيُّ ﷺ ليس على الناس بمسيطر أو بوكيل ، فهو يَحكم بالظاهر إلا إذا أخبره الوَحْيُ بحقيقة ما في القلوب .

(٥٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣) برقم (٢١٣٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فاستشرفَ لها القَوْمُ ، وفِيهم أبو بكر وعمر _ رضي الله عنهما_ . قال أبو بكر : أنا هُوَ ؟ ، قال : ((لا))، قال عمر : أنا هُوَ ؟، قال : ((لا ، ولكنْ خَاصِفُ النَّعْلِ)) ، يعني عَلِيَّاً، فأتيناه فبشَّرناه ، فلم يرفع به رأسه ، كأنه قد كان سمعه من رسول الله ﷺ [56].

وهذا الدور المحوري لا يتعلق بالخوارج فحسْب، بل يتعلق أيضاً بالفئة الباغية (معاوية وعمرو) التي تحايلت على تحديد الفئة الباغية ، وهذا أدَّى إلى تأويل مغلوط لآية قتال الفئة الباغية : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [الحجُرات: ٩]. فالذين قاتلوا علياً سواءٌ كانوا من الخوارج أو فرقة معاوية وعمرو اعتمدوا على تأويل مغلوط للقرآن الكريم ، وهذا قاد إلى قتال عليِّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ على أساس ديني بحت مثل الخوارج ، وعلى أساس ديني ظاهري تختفي تحته منافع مادية وشهوة السلطان كما هي الحال عند معاوية وعمرو (الفئة الباغية) ، فاختلال معنى الفئة الباغية عند الكثيرين قاد إلى فهم الآية القرآنية بشكل معكوس ، أي وجوب قتال علي بن أبي طالب وفرقته بأمر الله تعالى ، لأنهم الفئة الباغية . وهذا الخطأ الكارثي يحمل في طياته تأويلاً غير منضبط بالكتاب والسُّنة سواءٌ كان بِحُسن نية عند طائفة ، أو بسوء نية مثل التي كانت عند معاوية وعمرو ومَن دار في فلكهم .

والكثيرون يعتقدون بوجوب الكف عمَّا حدث بين الصحابة . لكننا نرى وجوب الخوض فيما شجر بين الصحابة وفق منهجية التأصيل الشرعي ضمن الأدلة من الكتاب والسُّنة الصحيحة . وذلك في نطاق الكتب والعلماء ، بعيداً عن الجهال والعوام . وهذه الأدلة الشرعية ليست عبثية ، وإنما جاءت وفق حكمة معيَّنة .

وعندما يَذكر النبيُّ ﷺ كلاماً مُوجَّهاً ضد بعض أصحابه كما سبق بيان ذلك، فهو ﷺ يعرف ماذا يقول . ولو كان الأمر بوجوب الإمساك عن ذِكر الصحابة لأمسكَ النبيُّ ﷺ عن ذِكْرهم ، فلا يُتَصَوَّر أن ينهى النبيُّ ﷺ عن فعل ويأتيَه . لذا فالمنهجيةُ هي وجوب تطبيق الكتاب والسُّنة الصحيحة على الجميع لمعرفة الْمُخطئ مِن الْمُصيب ، ولا أحد يملك حصانة. لذا ينبغي الخوض في فِتنة الصحابة لمعرفة الصالح من الطالح وفق التأصيل الشرعي، وضمن نطاق العلماء وطلابِ

(٥٦) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٣٢) برقم (٤٦٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

العِلْم، دون إحداث بلبلة في المجتمع إذا ما خرج الموضوع إلى العامة المقلّدين الذين لا يملكون ذلك المستوى العِلمي الذي يُؤهِّلهم لبحث هذه المواضيع الحساسة. مع الأخذ بعين الاعتبار إيصال الفكرة بصورة علمية تراعي الحالة النفسية للناس والمجتمع لئلا يدخل الناس في فتن جديدة نحن في غِنى عنها .

وفي صحيح البخاري (١/ ٥٩) عن عليٍّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ قال : ((حَدِّثوا الناسَ بما يَعرفون ، أَتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه ؟!)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((والمراد بقوله بما يعرفون أي يفهمون . وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العِلم له عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره : ودَعُوا ما يُنكِرون ، أي يَشتبه عليهم فَهْمُه ، وكذا رواه أبو نُعَيم في المستخرَج . وفيه دليل على أن الْمُتشابِه لا ينبغي أن يُذكر عند العامة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١) : أن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((ما أنتَ بِمُحدِّثٍ قَوماً حديثاً لا تَبْلُغُهُ عُقولُهم ، إلا كان لِبَعضهم فِتنة)) .

لذلك ينبغي عدم إدخال العامة في المسائل الدقيقة . فمسألة الصحابة حساسة للغاية ، لأن الناس تَرَبَّوْا على أن الصحابة مجتمع ملائكي معصوم لا يجوز الاقتراب منه بتاتاً ، ومَن يَقُم بالاقتراب منه فإنه يُرمَى بالتشيع ، أو الفِسق ، وقد يصل الأمر إلى التكفير . فالناس أعداءُ ما يَجْهَلُون ، والحُكمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره .

والذين يَرَوْنَ وجوب الكف عمَّا شجر بين الصحابة يعتمدون في دعواهم على الحديث الذي يرويه ثَوبان وعبد الله بن مسعود _ رضي الله عنهما _ عن النبيِّ ﷺ : ((إذا ذُكِرَ أصحابي فأمْسِكُوا))[57].

---

(٥٧) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٦) برقم (١٤٢٧) من حديث ثَوبان ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤١١) : ((وفيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف)) اهـ ، ورواية عبد الله بن مسعود رواها الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٨) برقم (١٠٤٤٨) وتم تحسينها في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤١١) : ((وفيه مُسْهِر بن عبد الملك، وثَّقه ابنُ حِبَّان وغَيْرُه ، وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح))اهـ.وإليك ترجمة مسهر بن عبد الملك من تهذيب التهذيب(١٠/١٣٥): ((قال البخاري : فيه بعض النظر ، وقال الآجري عن أبي داود : أما الحسن بن علي الخلال فرأيته يحسن

ولو اعتمدنا هذا الحديث ، فمعناه الابتعاد عن الطعن في الصحابة بدون أدلة شرعية مُعتبَرة ، وأن لا نسعى بالفتنة بين المسلمين عن طريق نشر الشبهات الحائمة حول الصحابة ، ونشر الشائعات بلا دليل ، واتخاذهم غرضاً لِلَمْزِهم والطعنِ فيهم .

أمَّا تطبيق النصوص الشرعية المتعلقة بهم ، فهذا واجبٌ . إذ إن النصوص الشرعية ليس الهدف منها أن تظل على الرفوف ، وإنما إسقاطها على أرض الواقع . ولو كان ذِكرُ الصحابة مع الأدلة مقترناً بوجوب الإمساك عن ذلك لَمَا ذَكَره النبيُّ ﷺ الذي وجَّه كلاماً ضد بعض أصحابه ، أو عاتبهم ، أو حَمَّلهم مسؤولية أخطائهم ، في نصوص شرعية ثابتة ومشهورة. فهل يريد أصحاب الرأي القائل بوجوب الإمساك أن نلغيَ الأحاديث النبوية الصحيحة الموجَّهة ضد بعض الصحابة بحُجَّة الإمساك عن ذِكرهم ؟! . ولو كان الأمر متعلق بوجوب الإمساك فلماذا قال النبيُّ ﷺ كلاماً ضد بعضهم ؟! .

واللهُ تعالى عاتبَ النبيَّ ﷺ الذي هو أعظم مخلوقات الله تعالى في أكثر من موضع ، فقال تعالى: ﴿ يا أيها النبيُّ لِمَ تُحرِّم ما أَحَلَّ اللهُ لك ﴾ [التحريم : ١] ، وقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ [عَبس: ١] .فقد تكلم اللهُ تعالى في موضوع مُعاتَبة أعظم مخلوقاته.فمن أعظم النبيُّ ﷺ أم أصحابه؟!.

ولا يصح اعتمادهم على الحديث: ((لا يُبلِّغني أحدٌ عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أُحِبُّ أن أخرج إليهم وأنا سليمُ الصدر))(58). إذ إنه ضعيفٌ ، نصَّ على ذلك غير واحد من أهل العِلم.

الثناء عليه، وأمَّا أصحابنا فرأيتهم لا يحمدونه ، وقال النَّسائي : ليس بالقوي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو يعلى الموصلي : وكان ثقة... وذكره ابن عَدِيٍّ في الضعفاء من أجل قول البخاري، وقال: ليس حديثه بالكثير)) اهـ . وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٥٣٢) : ((لَيِّن الحديث)) اهـ .

(٥٨) رواه أحمد في مسنده(١/٣٩٥)برقم(٣٧٥٩)،والترمذي في سُننه(٥/٧١٠)برقم (٣٨٩٦)، وقال:((هذا حديث غريب من هذا الوجه))،وأبو داود في سُننه (٤/ ٢٦٥) برقم (٤٨٦٠).اهـ. قلتُ:[نصَّ ابن كثير على ثبوت هذا الحديث في الصحيح(البداية والنهاية ٦/ ٣٨)]. لكن الحديث معلول : ففي سنده الوليد بن أبي هاشم، وهو مجهول . وأيضاً زيد بن زائدة ، قال المزي عنه في تهذيب الكمال (١٠/ ٦٩) : ((ذكره ابن حبان في كتاب الثقات، روى له أبو داود والترمذي حديثاً واحداً وقد

ولو سلَّمْنا جدلاً بهذا الحديث فمعناه عدم الخوض في الصحابة بلا دليلٍ ، أو من باب الغَيرة والتنافس غير الشرعي بين الأقران . وإلا فإن هناك مسائل عن الصحابة يجب أن يعرفها النبيُّ ﷺ لكي يُصحِّحها من أجل ألا يكون هناك شرخ في المجتمع الإسلامي ، أو انحراف بأي شكل كان.

ومما لا شك فيه أن دور معاوية بن أبي سفيان في القضاء على الخلافة الإسلامية ، وإرجاع أمر الحُكم إلى العقلية الأموية في الجاهلية ، يُعتبَر من أخطر الأدوار التاريخية التي لعبها أشخاص في تاريخنا العربي الإسلاميِّ .

وقَبْلَ أن نلوم أتاتورك على إلغاء الخلافة الإسلامية ، علينا أن نلوم معاوية على إلغائها لأنه أول مَن سنَّ هذه البدعة الكارثية .

((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء)) [سبق تخريجه].

ومعاوية الذي صار يتقدم كل الصحابة الأثبات مع أنه ليس من السابقين الأولين ، إذ إنه من الطُّلقاء هو وأبوه ، كان عائشاً في حدود دنياه غافلاً عن آخرته ، يتركز تفكيره حول الكرسي ، وطرق الحفاظ عليه بأية وسيلة وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة .

وفي الدر المنثور (٧/ ٣٨٣) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قلتُ لعائشة : ألا تعجبين مِن رَجل مِن الطُّلقاء يُنازِع أصحاب محمد في الخلافة ؟!، قالت : وما تعجب من ذلك ، هو سُلطان الله يُؤتيه البَر والفاجر ، وقد مَلَكَ فِرْعَوْنُ أهلَ مصر أربعمائة سنة)) اهـ .

ومعاوية ـــ الذي هو رَجل من الطُّلقاء ـــ قد شوَّه الحُكمَ الإسلامي ، وقضى على الخلافة الراشدة ، بعد أن جعل الخلافة مُلْكاً وراثياً، فيكون بذلك قد حمل الوِزر مَرَّتين بعد أن أسند الأمرَ إلى ابنه يزيد،ويزيد هو يزيد.كما يَتحمَّلُ معاوية كل آثامِ الاستبداد السياسي في التاريخ الإسلاميِّ.

وفي تاريخ بغداد (٣٠/ ٢٨٧) أن الحسن البصري قال : ((وأمَّا اللذان أفسدا أمرَ الناس ، فعمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف ، فَحَكَّمت الخوارجُ فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة . والمغيرة بن شُعبة فإنه كان عامل معاوية على الكوفة ، فكتبَ إليه معاوية إذا

وقع لنا عالياً ـــ وهو هذا الحديث ـــ))،وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب(٣/ ٣٥٦): ((وقال الأزدي: لا يصح حديثه)) اهـ. وقال ابن حجر في تقريب التهذيب(١/ ٢٢٣) : ((مقبول)) اهـ. وقال الذهبي في الكاشف(١/ ٤١٦): ((وُثِّق)) اهـ] .

قَرأتَ كتابي هذا فأَقْبِلْ معزولاً ، فأبطأ في مسيره ، فلمَّا وَرد عليه قال له : يا مُغيرةُ ما الذي أبطأ بك ؟ ، قال : أمرٌ واللهِ كنتُ أُوَطِّئه وأُهَيِّئه ، قال : وما هُوَ ؟ ، قال : البَيعةُ ليزيد مِن بَعْدِك ، قال : أَوَ فعلتَ ؟ ، قال : نعم ، قال : ارجع إلى عملك فأنتَ عليه . فلمَّا خرج من عند معاوية قال له أصحابه : ما وراءك يا مغيرة ؟ ، قال : ورائي واللهِ أني قد وضعتُ رِجل معاوية في غَرْزِ بَغْيٍ لا يزال فيه إلى يوم القيامة . قال الحسن : فَمِن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم ، ولَولا ذلك لكانت شُورى إلى يوم القيامة)) اهـ .

والجدير بالذِّكر أن يَزيد بُويع بالخلافة أثناء حياة أبيه . وكما هو معلومٌ إذا بُويِع خليفتان يَجب قتل الآخر، وذلك للحفاظ على وَحدة المسلمين، والحيلولة دون تفرق كلمتهم ، وضياعِ دولتهم .

فعن أبي سعيد الْخُدْرِيِّ ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا بُويِعَ لِخَليفتَيْن فاقتلوا الآخرَ مِنهما)) [59].

ويكفي معاوية إثماً أنه لا يُعتبَر من الخلفاء الراشدين إجماعاً ، حتى أشرس أنواع النواصب لا يعتبرونه خليفةً راشداً. ففي الحديث المرفوع : ((خِلافةُ النُّبُوَّةِ ثلاثونَ عاماً ثُمَّ تَكونُ مُلْكاً))[60].

وقال الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٥٥) : ((والصحيح في مدة ولاية الأربعة أنها تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام خلافة أبي بكر، وعشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام خلافة عمر ، واثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً خلافة عثمان ،

---

(٥٩) رواه مسلم (٣/ ١٤٨٠) برقم (١٨٥٣) . وفي رواية الطبراني في الكبير (١٩/ ٣١٤) برقم (٧١٠) : عن سعيد بن جُبَير أن عبد الله بن الزبير قال لمعاوية في الكلام الذي جرى بينهما في بَيعة يزيد : وأنت يا معاوية أخبرتني أن رسول الله ﷺ قال : ((إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما))،وقال الهيثمي في المجمع(٥/ ١٩٨):((رواه الطبراني في الكبير والأوسط،ورجاله ثقات))اهـ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤٢) : ((هذا محمول على ما إذا لَم يندفع إلا بقتله ... ، وفيه أنه لا يجوز عَقدها لخليفتَيْن ، وقد سبق قريباً نقل الإجماع فيه)) اهـ .

(٦٠) رواه الحاكم في المستدرك(٣/ ٧٥)برقم(٤٤٣٨) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي . وصحَّح ابن كثير الجزء الأول من الحديث في البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٥و٢٠٦) . وأبو داود (٤/ ٢١١) برقم (٤٦٤٦)،والطبراني في الكبير (٧/ ٨٤)برقم (٦٤٤٤). وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٨) : (("الخلافة ثلاثون سنة ثم تصير مُلْكاً " . أخرجه أصحاب السُّنن وصحَّحه ابن حبان وغيره)).

وأربع سنين وثمانية أشهر خلافة عليٍّ ، فإمَّا أن يكون أطلق على ذلك ثلاثين لقُربه منها ، أو يكون مدة ولاية الحسن محسوبة منها وهي تكملتها)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٥و ٢٠٦) : ((والعجب أن خلافة النُّبوة التالية لزمان الرسول ــ ﷺ ــ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها الحديث الصحيح، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم ابنه الحسن بن علي ستة شهور حتى كَمُلت الثلاثون كما قَرَّرْنا ذلك في دلائل النُّبوة، ثم كانت مُلْكاً ، فكان أول ملوك الاسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان)).

قلتُ: ومما لا شك فيه أن الفترة القصيرة جداً التي حَكم فيها الحسن ــ رضي الله عنه ــ داخلة قطعاً في هذه الثلاثين سنة . ولكن البعض لا يَذكرها لقصرها الشديد بعد أن تنازل الحسن ــ رضي الله عنه ــ لمعاوية بن أبي سفيان حقناً لدماء المسلمين ، وظناً منه أن معاوية سيقود المسيرة وفق الكتاب والسُّنة الصحيحة ، ولكن للأسف فقد ضَلَّ معاوية وأَضل كثيراً من الخلق معه في سبيل الْمُلْك، وخيَّب رجاءَ الحسن ــ رضي الله عنه ــ الذي ظنَّ به خيراً لم يكن في مكانه . ولنتذكر كيف وَثَقَ النبيُّ ﷺ بعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وجعله كاتباً للوَحْي بين يديه ، ثم خانه بكل دناءة.

ومن البديهي أن يكون الحسن هو الخليفة الراشد الخامس، أمَّا عمر بن عبدالعزيز فهو الخليفة الراشد السادس . وهذا هو الصواب ، والله أعلم .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٦٢) من حديث أبي بَكْرة ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً : ((إن ابني هذا سَيِّد ، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)) .

وفي فتح الباري (١٢/ ٣٩٢) : ((وأمَّا معاوية ومن بعده فكان أكثرهم على طريقة الملوك ولو سُمُّوا خلفاء ، والله أعلم)) اهـ .

وكلُّ مَن جاء بعد معاوية من الحُكام سارَ على منهج معاوية الباطل في توريث الحُكم ، ورفضِ الشُّورى . وفي هذا السياق ينبغي الانتباه إلى ملاحظة مهمة ، وهي : أن الخلفاء الراشدين الذين بَنوا خِلافةَ النُّبوة ، لم يَنْسب أيٌّ منهم الدولة إليه . فمثلاً ، لا توجد الدولة البكرية (نِسبة إلى أبي بكر الصِّديق) ، ولا توجد الدولة العُمرية (نِسبة إلى عمر بن الخطاب) . في حين أننا نجد الدولة الأُموية (نسبة إلى الأمويين) ، والدولة العباسية (نسبة إلى العباسيين) ... إلخ . وهذا يدل على فَرق جوهري بين الخِلافةِ الراشدة (خلافة النُّبوة) ، وبين الحُكمِ الوراثي الاستبدادي

الذي يُكرِّس الدولةَ كمزرعة خاصة للحاكم وعائلته ، فَخَرجت الدولةُ الإسلاميةُ من فضاء الشُّورى إلى الاستبداد الذي يَعتبر الدولةَ والشعبَ مُلْكاً شخصياً للحاكم وقبيلته .

وفي سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٧) : ((قال الزبير بن بكار : كان معاوية أول من اتخذ الديوان للختم ، وأمر بالنيروز والمهرجان ، واتخذ المقاصير [جمع مقصورة] في الجامع ، وأوَّل مَن قَتل مُسلماً صَبْراً [يَحْبِسُه للقتلِ] ، وأوَّل مَن قام على رأسه حرس ، وأوَّل مَن قِيدت بين يديه الجنائب [الدَّواب] ، وأول مَن اتَّخذَ الْخُدَّام الخِصْيان في الإسلام [وهُم مَنْزُوعو الذكورة] ، وأول من بلغ درجات المِنبر خمس عشرة مِرقاة ، وكان يقول : أنا أول الملوك)).

وعن أبي أُمامة الباهليِّ_رضي الله عنه_أن رسول الله ﷺ قال: ((لَتُنْتَقَضْ عُرى الإسلامِ عُرْوةً عُروة ، فكلما انتقضتْ عُروةٌ تَشَبَّثَتْ بالتي تليها، وأوَّلُ نَقْضِها الْحُكْم ، وآخِرُها الصلاة))[61].

ومما لا شك فيه أن الذي يتحمل مسؤولية نقض الْحُكْم ، إنما هو معاوية بن أبي سفيان بلا خلاف .

وللأسف فإن معاوية الذي اتخذ من دم عثمان وسيلةً للقفز إلى السُّلطة عبر تأسيس شرعية وهمية لكي ينال القبول عند الناس قد نسي دم عثمان بعد أن صار خليفةً ، ولم يتخذ من عثمان قدوةً ، وإنما ركَّز كل جهوده على تثبيت حُكْمه بأية وسيلة كانت ، شريفةً أو غير شريفة .

لقد اعتبرَ نفْسَه الرَّجلَ الثاني في بني أُمَيَّة بعد عثمان ، وهذه القناعةُ جعلته ينتظر حتى تَؤول إليه الخلافة، وهو شخصياً لَم يُدافِع عن عُثمان معَ أن أهل الشام كُلَّهم تحت إمرته ، وكانَ بإمكانه أن يُحرِّك جيشاً لإنقاذ عُثمان _ رضي اللهُ عنه _ ، لكنَّه آثرَ مُراقَبة الأمور عن بُعْد ، والمتاجرة بدم عُثمان حتى يَستوليَ على السُّلطة السياسية .

وقال السُّيوطي في تاريخ الخلفاء (١/ ١٧٥) : ((وأخرجَ عن أبي الطُّفَيل عامر بن واثلة الصحابِيِّ أنه دخل على معاوية فقال له معاوية : ألستَ مِن قَتَلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكني مِمَّن حَضَرَه فلم يَنْصُرْه قال : وما منعك مِن نَصْرِه ؟ قال: لم تنصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية :

---

(٦١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٤) برقم (٧٠٢٢) وصحَّحه ، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ١١١) برقم (٦٧١٥). وأحمد في مسنده (٥/ ٢٥١) برقم (٢٢٢١٤) ، والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨) برقم (٧٤٨٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٥١) : ((رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح)) اهـ .

أمَا لقد كان حَقُّه واجباً عليهم أن يَنصروه ، قال : فما منعك يا أمير المؤمنين مِن نَصْره ومعك أهلُ الشام ؟ فقال معاوية : أمَا طَلَبي بدمه نُصرةٌ له ؟ ، فضحك أبو الطُّفَيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر : لا أُلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبُني ... وفي حياتي ما زَوَّدْتَني زاداً)) اهـ .

لقد ضَحَّى عُثمان_ رضي اللهُ عنه _ بنفْسه لحقن دماء المسلمين . كان يعرف أنه هو المطلوب، فآثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . وكان بإمكانه أن يُحرِّك بني أُمَيَّة (عشيرته) والْمُوالِين له من أجل الدفاع عنه ، وعددُهم كثير ، ويَملكون السلاحَ ، وهو يملك الأموال . لكنه لم يُرِدْ أن تسيل دماء المسلمين من أجله ، وآثرَ تقديمَ دمه للحفاظ على وَحدة المسلمين .

لقد شَيَّدَ معاويةُ فلسفةَ مُلْكِه على شَتْمِ عليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ . وهذا مرجعه إلى فكرة الصراع بين الهاشميين والأمويين التي تسيطر على عقل معاوية ، وأيضاً مرجعه إلى الحقد الدفين في نفسية معاوية على عليِّ بن أبي طالب _عليه السلام_ بسبب دوره في قتل أقارب معاوية يوم بَدْر ، إذ إن علياً كان له دور بارز في بَدْر، وهو قاتل خال معاوية (الوليد بن عُتبة)، كما قتل حمزةُ ابن عبد المطلب جدَّ معاوية لأُمِّه (عُتبة بن ربيعة)، كما قُتِلَ في بدر مشركاً أخو معاوية (حنظلة ابن أبي سفيان) . وهذا ما جعل شاعر الإباضية الرواحي (الْمُتوفى سنة ١٣٣٨هـ) يقول :

أبا حَسَن ذَرْها حُكومةَ فاسقٍ   جِراحاتُ بَدْرٍ في حَشاهُ تَفورُ

والعداوةُ بين الهاشميين والأمويين قديمةٌ ، والصراع بينهم لا يَهدأ .

قال الأبشيهي في الْمُستطرَف (٢/ ١٨١و١٨٢): ((...ومن ذلك ما حُكي أن أُمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى الْمُفاخَرة، فقال له هاشم: أُفاخرك على خمسين ناقة سُود الْحَدَق تُنحَر بمكة ، فرضي أُمية بذلك ، وجعل بينهم الخزاعي الكاهن حَكماً ، فَخَبَّأوا إليه شيئاً ، وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما ، فقالوا : قد خَبَّأنا لك خَبْئاً ، فإن عَلمتَه تحاكمنا إليك ، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك،فقال: لقد خَبَّأْتم لي كَيْتَ وكيت، قالوا: صَدقتَ، احْكُم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس ، أيهما أشرف بَيتاً ونَسَباً، فقال: والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو طائر ، وما اهتدى بعِلم مسافر ، لقد سَبق هاشم أُمية إلى المآثر ، ولأُمية أواخر ، فَأَخَذَ هاشم الإبل ، ونحرها وأطعمها مَن حَضر ، وخَرج أُمية إلى الشام ، وأقام بها عشر سنين ، ويقال إنها أَوَّل عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أُمية)) اهـ .

وبغض النظر عن صحة هذه القصة من عَدمها ، فهي تدل على الصراع التاريخي المتجذر بين الهاشميين والأمويين ، والتسابق بينهما على نَيْل الشرف ، والرِّفعة ، والمجد .

وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي (١/ ١٧٥): ((و أخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عَقيلاً دَخل على معاوية ، فقال معاوية : هذا عقيل ، وعمُّه أبو لهب ، فقال عقيل : هذا معاوية، وعَمَّته حَمَّالة الحطب)) اهـ .

وقال الأبشيهيُّ في الْمُستطرَف (١/ ١٣٣) : ((ودخل عقيل على معاوية وقد كُفَّ بَصَرُه ، فأجلسه معه على سريره، ثُمَّ قال له: أنتم معشر بني هاشم تُصابون في أبصاركم ، فقال له عَقيل : وأنتم معشر بني أُمَيَّة تُصابون في بصائركم. وقِيل : اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية ، فأقبلَ عليهم، وقال: يا بني هاشم إنَّ خَيري لكم لَمَمنوح،وإن بابي لكم لَمَفتوح، فلا يُقطَع خَيري عنكم، ولا يُرَدُّ بابي دونكم، ولَمَّا نظرتُ في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً . إنكم تَرَوْنَ أنكم أحق بما في يدي مِنِّي ، وإذا أعطيتكم عَطية فيها قضاء حقوقكم ، قلتم أعطانا دون حقنا وقَصَّر بنا عن قَدْرنا ، فصرتُ كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له ، هذا معَ إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم. فأقبلَ عليه ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال : واللهِ ما مَنَحْتَنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فَتحتَ لنا باباً حتى قرعناه ، ولَئِن قَطعتَ عنَّا خَيْرَك ، فخيرُ اللهِ أوسعُ مِنك ، ولئن أغلقتَ دوننا باباً لَنَكُفَّنَّ أنفسَنا عَنك ، وأمَّا هذا المال فليس لك منه إلا ما للرَّجل من المسلمين ، ولَولا حَقُّنا في هذا المال لَم يَأتكَ مِنَّا زائر يَحْمِلُه خُفٌّ ولا حافر ، أكفاكَ أم أزيدك ، قال : كفاني يا ابن عباس)) .

وقد ساهم معاوية في تجذير إشكالية التناقض من وجهة نظره (عثمان وعليّ) ، فصار الأمرُ كأنه عداوة بين رَجُلَيْن ، فقد تم اتهام علي بقتل عثمان أو التواطؤ مع قاتليه والتستر عليهم . فغدت القاعدة التي أرساها معاوية تنص على أن الشخص إذا كان في حزب عثمان فهو ضد علي، وإذا كان في حزب علي فهو ضد عثمان . وهذه القاعدة المردودة هي رواسب الجاهلية القَبَلية في عقلية معاوية، ومحاولة لاستعادة دور للأمويين عن طريق سلبه من الهاشميين. وهذا العقلية مخالفة للمبدأ القرآني ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الْحُجُرات : ١٣]، فالهاشميون والأمويون لا وزن لهما البتة بدون الإسلام، ومقياس الأفضلية هي بمقدار خدمة الإسلام ، وحملِ الرسالة بعيداً عن عقلية الحَسَب والنَّسَب الجاهلية .

وسيظل عليٌّ بن أبي طالب _ رضي اللهُ عنه _ هو قُدوة جميع الفقهاء الذين صَنَّفوا في مسألة " قتال أهل البَغْي " . وقد أَخذ الشافعيُّ _ رحمه الله _ أحكامَ البُغاة من معاملة عليٍّ بن أبي طالب للخارجين عليه .

وفي تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ أبي زهرة (ص ٤٥٩) : ((ويُروَى في ذلك أنه قيل لأحمد بن حنبل إن يحيى بن معين يَنسِب الشافعيَّ إلى الشيعة ، فقال أحمد ليحيى بن معين : كيف عرفتَ ذلك ؟ ، فقال يحيى : نظرتُ في تصنيفه في قتال أهل البَغْي ، فرأيتُه قد احتجَّ من أوله إلى آخره بعليٍّ بن أبي طالب ، فقال أحمد : يا عَجَباً لك ! ، فَبِمَن كان يحتجُّ الشافعيُّ في قتال أهل البَغْي ، فإن أوَّلَ مَن ابْتُلِيَ من هذه الأُمة بقتال أهل البَغْي هو عليُّ بن أبي طالب)) اهـ .

وفي هذا دلالةٌ باهرة على أن عَلِيّاً قد اضطلع بدور مركزي في تاريخ الأُمَّة الإسلامية ، فهو أوَّل مَن قام بقتال أهل البغي ، وقد شَهدت فترةُ حُكمه اضطرابات هائلة ، وقد أَثْبتَ جدارته في مواجهتها، وعدم الهرب منها . ولا يمكن بأية حال من الأحوال تحميله مسؤولية الفِتَن التي عَصفت بالمسلمين ، كما لا يَمكن تحميل الطبيب مسؤولية أمراض الناس .

*

سابعاً : الفلسفة العامة للفِتَن

إنَّ العقلية الجاهلية القَبَلية هي الوقود الحيوي للفِتَن، وهي التي تدفع باتجاه كسر الطبيعة الإنسانية من أجل متاع دنيوي زائل . والأداءُ البشريُّ الموغل في المصالح المادية له دور فعال في تثبيت الشكوك في محيط اليقين ، من أجل تحقيق منافع شخصية محاطة بشهوة السُّلطة والنفوذ .

وعمليةُ لَوْيِ أعناق النصوصِ بُغية تطويعها لتحويل مسار الأحداث السياسية على أرض الواقع إنما هي عمليةٌ نابعةٌ من جاهلية العقل القَبَليِّ الملتفة حول نفوذ شيخ القبيلة . والإغراق في عِشق سُلطة الهيمنة النَّفعية ، قادَ طبيعةَ امتداد الذاكرة الإنسانية إلى الانكسار أمام طوفان المصالح المادية والأهواء الشخصية . وفي هذا السياق ، تنقسم الأهواء إلى نَوْعَيْن : الأول_ أهواء روحية تقوم على استغلال النقاط المظلمة في النَّفْس البشرية لصناعة إنسان مُدَجَّن وخانع. والثاني_ أهواء مادية واقعية تُكرِّس تبعيةَ العقل للشَّهوةِ ، وتُخْضِع الروحَ للجسدِ .

إنَّ سوسيولوجيا الفِتَن لا يُمكن دراستها إلا من خلال تحليل الإرهاصات النَّفْسية التي تَدور في مَدار الكُرْسي . وهذا المدارُ يَتعلق بكيفية الوصول إلى الكرسي ، وكيفية الحفاظ عليه بأيِّ ثمن . ويتمُّ ذلك بالتخلص من كل العناصر التي تُشَكِّل خطراً على الكرسي ، واستئصالها في مَهْدها .

وانكسارُ الذاكرة الحالمة صنعَ نظاماً فلسفياً جديداً قائماً على اقتناص الغنائم ، وعدم انتظارها. وهكذا ينكسر الوعيُ الإنساني بين الرموز الفكرية والضغط التاريخي ، وتتكاثر رواسبُ الكيانات الجاهلية القائمة على الثالوث الْمُقدَّس : النَّسَب . القبيلة . السُّلطة .

وهذا الثالوثُ يُشكِّل المنهجيةَ الفكرية التاريخية التي تُفتِّت قيمَ الشعورِ الداخلي ، الذي يهدف إلى التصالح مع الأنا الكُلِّية والأنا الجزئية ، ومُقاوَمةِ عناصر المحيط الاجتماعي المنقوع في التَّسْييس النَّفعي . وهنا ، لا بُدَّ مِنَ القَول إن المحيطَ الاجتماعي الكامن داخل الفرد أكثرُ أهميةً من المحيط الاجتماعي الخارجي ، لأن الفردَ هو الذات القيادية الرمزية التي تصنع المجتمعَ بكل أبعاده . كما أن الفرد القائد هُوَ الذي يُحاط بالتعظيم والتقديس ، وتُعقَد عليه الآمال ، ويَلتفُّ حَوْلَه الناس ، ويَخضعون له ، سواءٌ كان ذلك نابعاً من الحب الحقيقي ، أو نابعاً من ثنائية المال / السَّيف .

والمشكلةُ الجذرية في أنساق السُّلطةِ الاجتماعية وتفاصيلِ السُّلطة السِّياسية ، هي أنَّ العقل السطحي المتداخل مع إشكاليات المعنى المكسور ، يصيرُ عَقلاً جمعياً ، وهذا العقلُ يصير كياناً

محسوساً يَقُودُ إلى تَسييس تلقائي للأحداث الاجتماعية ، من أجل تَطويعها وتَوظيفها أيديولوجياً ، وتقديمها على أنها الأملُ الحقيقي في الخلاص ، والمشروعُ الوطني الذي يَربط المعنى الفكري بالشعور الإنساني . وهنا ، تبرز إشكالية حقيقية تكمن في تَسييس الشُّعور ضمن مسارات تاريخية ، تَقتل الذاكرةَ الإنسانية عن طريق بناء ذاكرة اجتماعية جديدة ، تَكون فيها الكلمةُ الفَصْلُ لِمَن يَملك السَّيف . ومَن جاءَ بالسَّيف ، سيذهب بالسَّيف . ومَن أتى بالدَّمِ ، بالدَّمِ سيذهب .

وهكذا يقع المجتمعُ تحت احتلال فكري خاضع لفكر الخليفة غَير الشرعي ، إذ إن العَدْل هو الشرعية ، وإذا غاب تُنْزَع الشرعية الاعتبارية من الحاكم ، وتظل هناك مساحة للعَيش خَوفاً من تمزيقِ الكلمة ، وتفتيتِ المجتمع ، وسَفكِ دماء الأبرياء .

إن المجتمع الإنساني يقوم على فكرة التلفيق بين المتوازيات الاجتماعية ، وهي العناصر التي تتحرَّك معاً لكنها لا تصطدم ببعضها البعض . وهذا التلفيقُ يُؤدي بالضرورة إلى ازدواجية المعايير الخاضعة لثنائية الشريف _ الوضيع في النسق الإنساني . وأيضاً ، يقوم المجتمعُ الإنساني على بناء مُقارَبات فلسفية بين الفِعْل ورَدِّ الفِعل ، من أجل الالتفاف حول الشرعية الحقيقية للمعنى . وهذا أدَّى إلى انكسار الذات المعرفية ، وتَشَظِّي البُنية المشاعرية في المجتمع . وهذا الشَّرْخُ العميق في قلب المجتمع ، يُكرِّس إشكالياتِ المعنى في نسق الحياة المعاشة ، وبالتالي صارَ المعنى المنقوص هو المعنى الكامل والقائم بذاته ، وصارَ الوهمُ هو الحقيقةَ الخالصة ، وصارَ المالُ والنَّسَبُ والحسَبُ معاييرَ التفاضل بين الناس ، وأدواتَ تصنيفهم ضمن نظام طبقيٍّ يَتمحور حول ثنائية السَّادة والعبيد .

وهنا تَبرز خطورةُ إحلال المعاني في المكان غير المناسب ، وتتَّضح خطورة تكريس البُنى الاجتماعية في الوعي غَير المنطقي ، المسيطَرِ عليه مِن قِبَل الظواهر المجتمعية الهلامية التي تلتفُّ حول الخديعة البصرية والسَّمعية ، من أجل تعرية الإنسانية من ثقافة إعمال العقل .

وفي ظل هذه الفَوضى المقصودة، تصيرُ البناءاتُ الاجتماعية المتماهية مع صياغة أشكال جديدة للفِتنة مذهباً فلسفياً نفعياً ، يَقُودُ الناسَ إلى السَّيفِ ، ويُتاجِر بدمائهم لتحقيق مكاسب على أرض الواقع . والمصالِحُ النَّفعية الْمُسيَّسة قد تُفضي إلى بناء جُزئي للحُلْم الإنساني ، إلا أنها لا تَقْدر على مواصلة البناء بشكل انفرادي ، وذلك لأن عوامل انهيار المصالح النَّفعية كامنة فيها ، كما أن المصالح النَّفعية هي عَرَضٌ لا جَوهر ، والعَرَضُ يَكون مُؤقَّتاً لا دائماً . والعناصرُ الْمُؤقَّتة لا تستطيع بناء مجتمع متكامل يَتمتَّع بالحيوية والدَّيمومة ، لأن فاقد الشيء لا يُعطيه .

والبناءُ الاجتماعي هو صيغة التلازم المنطقي بين المركز والأطراف ، وإذا غابَ التَّوازنُ عن هذه المنظومة ، فعندئذٍ سيكون البناءُ هشَّاً . مِمَّا يُؤدِّي إلى انكسارِ حالة الوعي العمومي ، وظُهورِ المصالِح الفردية الضَّيقة كوعيٍ جماعيٍّ . وهذا الأمر شديد الخطورة ، لأنه ينشر في المجتمع ثقافة الخلاص الفردي ، ويَجعل الأنساقَ الاجتماعية الإنسانية كالْجُزُر المعزولة ، وهذا مرتبط بشكل وثيق مع انتشار ثقافة الخوف وعدم الثقة . فيصبحُ كلُّ فردٍ في المجتمع مشروعَ عَدُوٍّ ، فيخافُ الأفرادُ مِن بعضهم البعض، وكلُّ فردٍ يَنظر إلى شريكه في الوطن بِعَين الرِّيبة والشَّك ، وهذا يُؤدي حتماً إلى تدمير العلاقات الاجتماعية ، والقضاءِ على المعنى الإنساني .

وإذا انهارَ المعنى الاجتماعي الرمزي في النظام الفلسفي الرابط بين الفرد والجماعة ، فإنَّ المجتمع بأسْره سينهار ، ولَن يَقْدِر الناسُ على إنقاذه ، لأنهم غارقون في منظومة استهلاكية مادية مُغلَقة ، يَضربون على السَّطْح ، ولا يَضربون في العُمق . وهذا الحصارُ المفروض على الفرد والجماعة نتيجةٌ طبيعية لغياب المرجعية الفكرية التَّمحيصية .

إن العلاقات الاجتماعية ذات الصِّبغة القَبَلِيَّة ، قد تَمَّت أدلجتُها من أجل إقحام العوام في مُعترَك الصراعات الدموية ، فيصبح العوامُ _ الذين لا ناقة لهم ولا جمل _ هُم وقود الفِتَن التي يُخطِّط لها أُمراءُ الحروبِ وسماسرتُها . والحاصدُ في النهاية هو مَن رسم سيناريو الفِتنة ، وغَذَّاها بالمال ، وغذَّى جنوده بالسلاح . ومَن يملك السلاحَ هو الذي يفرض شروطه على أرض الواقع ، لأن الواقعَ خاضعٌ للصَّولجان المصبوغ بدماء الضحايا ، وجثثِ الشباب الذين يتمُّ إرسالُهم إلى المعارك ، ويظل السادةُ في غرفة العمليات ، من أجل اقتسام الغنائم . وكل الغنائم التي يحصلون عليها هي أرباح مادية ناتجة عن عملية الاستثمار في موت الناس، والقضاءِ على مستقبلهم ، وتدميرِ عائلاتهم ، وتفتيتِ روابطهم الاجتماعية والمعرفية .

وهنا تبرز أهميةُ المشاعر الإنسانية ، وضرورة إسقاطها على أرض الواقع ، وذلك من أجل حماية الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة، والحفاظِ على مُنجَزات الحضارة. وإذا سقطت الحياةُ الاجتماعية في قبضة اللاتجانس الْمُؤَدْلَج ، فإن قيم الأنسنة المؤْمنة بالقضايا المصيرية ستتلاشى شيئاً فشيئاً ، وهذا يَعني تكريس سيادة الطاغية على المجتمع ، وتكريس وصايته على الناس . وهكذا ، يتجذر النظامُ الأبويُّ الْمُتَّصف بالشراسة والقهر والاستبداد .

وفي كل مجتمع ظالم ، يَشعر جميعُ الناس بلا استثناء بأنهم مظلومون . حتى الظالم يَشعر بأنه مظلوم وضحية . وحتى الطاغية يَشعر بأنه ضحيةٌ لهذا الشعب المتخلف . وفي ظل هذه الفوضى

العارمة ، وانقلابِ المفاهيم بصورة مُفْتَعَلَة ، يُقَدِّمُ الطاغيةُ نَفْسَه كَوَصِيٍّ على الإنسانِ والمجتمع ، بِحُجَّة أن الناس غير قادرين على حُكْم أنفسهم بأنفسهم ، ولَم يَصلوا إلى مرحلة الرُّشدِ لكي يُمارِسوا الحريةَ ، وبالتالي لا بُدَّ مِنَ الْحَجْرِ عليهم ، لأنهم سُفهاء _ بشكل أو بآخَر _ . وفي هذه اللحظة الفارقة ، تبدأ مهنة الطاغية ، ويتجلى دَوْرُه في استعباد الناس ، واستغلالهم ، وتخديرهم مقابل منحهم رغيف الخبز . وبالتأكيد ، فالطاغيةُ يُفكِّر نِيابةً عن الشعب لأنهم _ في نظره وفي نظر أنفسهم _ غير مُؤهَّلين للتفكير ، ويتَّخذ القراراتِ المصيرية باسمهم ، وهُم آخر مَن يَعلم . وكما قِيل : مَن عَوَّدْتَهُ على أَكْلِكَ ، كلما نظرَ إليكَ جاعَ .

وكما استمرأَ الشعبُ المهانةَ،ولعبَ دَوْرَ القُربان بكل حرفية،عليه أن يَخلع جِلْدَ الذل، ويُصبح نِدَّاً ، وعندئذٍ سيخرج مِن صِيغة الوصاية المفروضة عليه ، ويتحرَّر من منظومة الاحتكار السُّلطوية المتمركزة في يد الطاغية ، الذي يَعتبر الإنسانَ سِلعةً ، ويَعتبر المجتمعَ مزرعةً شخصيةً له ولعائلته .

إن شهوة السُّلطة المتجذرة في الذات الإنسانية ، تَغدو منظومةً فكرية تُشَرْعِنُ منطقَ الانهيار الاجتماعي . وعندئذٍ ، يصبح الفردُ جزءاً مِن ثقافة صِناعة الفِتَن ، ويتمُّ تأسيس منظور اجتماعي جديد قائم على استغلال نقاط ضعف الآخرين ، وتوظيفها لخدمة مصالح عِلْية القَوم .

ولا يَنبغي التعويلُ دائماً على الذاكرة المجتمعية لصناعة الخير ، لأن الذاكرة المجتمعية تتعرَّض لضغط سُلطوي هائل ، وهذا الضغطُ يَقطع الطريق الواصل بين الذاكرة المجتمعية والمكتسبات الحضارية . الأمرُ الذي يُؤدي إلى انفصال الإنسان عن معنى الإنسانية ، وانفصالِ المجتمع عن البُنية الرمزية للحضارة . لذلك ، فإن الأخلاق الحميدة _ وَحْدَها _ لا تَقْدِر على صياغة الواقع . والحل يَكمن في تثبيتِ الجماعة البشرية في النظام الأخلاقي ، وزراعةِ الفرد في ثقافة المعنى الإنساني الذي يحلم بغدٍ أفضل ، وذلك من أجل منع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

والنظامُ السياسي الحاضن للفِتَن ، وَعياً ومُمارَسةً ، يقوم على فكرة الاستثمار في دِماء المخدوعين من أجل تقديس دماء الْمُخادِعين . وهذه الْهُلاميةُ التقديسية تُؤسِّس المجتمعَ الطبقي الإقطاعي ، وهذا الإقطاع شامل للبُنى التَّحتية والفَوقية . كما أن هذه الهلامية التقديسية تُحال إلى منظومات اجتماعية ، تُصْبَغ بالعِصْمة والشراسة في آنٍ معاً . وهذا الانكسارُ الأخلاقي الشامل ، يُدمِّر العُمقَ الروحي للبُنى الاجتماعية ، سواءٌ تلك التي تتكوَّن في داخل الفرد أو في داخل المجتمع.

وشيئاً فشيئاً ، سيتحول المجتمعُ الإنساني إلى إشارات سطحية هُلامية ، يتمُّ تحريكها بواسطة أجهزة التحكم عن بُعْد . وهذا الأمرُ يتكرَّس واقعاً ملموساً ، بسبب انتحار العقل الجمعي النَّقدي. وبالتالي ، لا يمكن فحص التقاطعات الاجتماعية سياسياً ومعرفياً ، ولا يمكن الربط بين سياسة الفرد وسياسة المجتمع . وهذا الانفصامُ الصادم يُدْخِل المجتمعَ في القفص ، وهكذا تُولَد نظرية الحصار .

إن المجتمع يُحاصر الفردَ باعتباره مُنْشَقَّاً وعِبئاً على النظام الحكام ، والفردُ يُحاصر نفْسَه ، لأنه يَعتبرها غَير جديرة بالحرية والانعتاق ، تماماً كالعبد الذي يَعتبر عبوديته قَدَرَاً إلهياً ، أي إن اللهَ تعالى جَعَلَه عبداً ومَنَعه من الحرية . وبالتالي يجب الرضا بالخنوع والعبودية باعتباره قضاءً وقَدَرَاً . وهذا الفهمُ المغلوط للقضاء والقَدَر ، يتمُّ تَوظيفه مِن قِبَل النظام الحاكم لاستعباد الناس ، وإقناعهم بالرضا بالذل والخزي والعار .

ولا يَكتفي النظام الحاكم بهذه اللعبة ، بل إنه يُوَظِّف عقيدةَ القضاء والقَدَر لصناعة شرعية دينية للنظام السياسي . وبعبارة أخرى ، يتمُّ تقديم الحاكم كخليفة اللهِ في الأرض ، وأن اللهَ تعالى هو الذي اختاره حاكماً على الناس ، ولا تجوز معارضته ، أو الاعتراض عليه ، لأنه يستند إلى شرعية دينية ، والاعتراض عليه إنما هو اعتراض على أوامرِ اللهِ تعالى . وهذه اللعبةُ التي يَلعبها النظامُ السياسي تنتشر في المجتمع عن طريق التلويح بالمال (الجزَرة) أو السَّيف (العصا) .

ومن أجل مواجهة النَّفعية المادية التي يُكرِّسها النظامُ السياسي الاستبدادي ، ينبغي منعُ الاستحواذ على ضمائر الناس، ومنعُ الطغاة من احتكارِ الإنسانِ والجماعةِ ، واختطافِ الوطن ، والاستيلاءِ على ثرواته . والفكرُ السياسي الاستبدادي يَقوم على قاعدَتَيْن : الأولى _ اختطاف الدَّولة مِن قِبَل مَن يَملكون من أجل ابتزاز مَن لا يَملكون . والثانية _ السيطرة على الأنساق العقلية ، ولا شَكَّ أن السيطرة على العقول أخطر بكثير من السيطرة على الواقع المادي الْمُعاش .

والفِتَنُ هي الغِربالُ المعرفي الذي يَفصل المكوِّنات الفكرية عن الغرائز الاستبدادية السُّلطوية . والفِتَنُ أيضاً هي حصاد المنافقين الذين يسيرون وفق مبدأ احتراف الانحراف . وعلى المرء أن يُحوِّل الفِتَن من نِقمة إلى نِعمة ، وذلك بالاستفادة منها في أخذ العِبَر وعدم تكرارها . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بنفْسه . وكلما تعزَّزَ الوعيُ النقدي في الأنساق الاجتماعية ، تفجَّرت الثورةُ المعرفية التي تسلب الشرعيةَ الوهمية عن أمراء الحروب ، وتجارِ الأجساد البشرية التي يتمُّ توجيهها إلى فوضى القتل مجاناً. وكلُّ فِتنةٍ إنما تَقوم على مبدأ الاستثمار في دماء الفقراء

، من أجل تقديس دماء الأثرياء. وكلُّ حَرْبٍ إنما تَقوم على فكرة التضحية بالشباب ، من أجل ضمان سيطرة عِلْية القَوم على السُّلطة . وهذا يعني أن الفِتَن والحروب هي شَركات تجارية تدرُّ أرباحاً وفيرة على أصحابها . وهذه الشركاتُ التجارية يتمُّ تغليفها بالشّعارات الدينية والأخلاقية ، بُغية الحصول على الشرعية والمشروعية. والفِتَنُ _ أولاً وأخيراً _ هي صورة الإشكاليات الأنانية المتجذرة في الإنسان الذي يُعطي لنفْسه الحقَّ أن يُضَحِّيَ بالآخرين ، ليظل هو نائماً في العسل ، لا يُعكِّر أحلامَه شيء .

إن تبنِّي أشكال معرفية منقوصة أدَّى إلى توليد معرفة وهمية تتَّقمص صِيغةَ الْحَسْمِ النهائي ، وهكذا يصيرُ الوهمُ مُسلَّمةً ، واعتناقُها ضرورةً اجتماعية وأخلاقية . وبالتالي ، يتحرَّك الواقعُ بعكس عقارب الساعة،وتتشظى صِيَغُ الوجود الإنساني في حالة الانكسار المعنوي ، ويدور الإنسانُ في حلقة مفرغة ، ويلهث وراء السيطرة على مُعطيات السراب . وفي أثناء هذا اللهاث المسعور ، يصبح الإنسانُ وحشاً يأخذ ولا يُعْطِي . وإن أعطى فسيكون هذا العطاء صِيغةَ الأخذ المختفية وراء الشعارات البراقة الجاذبة للبسطاء .

والإنسانيةُ حين تتحول إلى نظام آلي استهلاكي مُتوحِّش ، فإن الإنسان سيصبح _ تلقائياً _ آلةً مُوحِشة ومُتوحِّشة في آنٍ معاً . وفي ظل هذا الانهيار الشامل ، تُولَد مبادئُ الاستحواذ على الذاكرة الإنسانية ، وتنكسر تأويلاتُ الْحُلْمِ الإنساني ، وينهارُ الوعي الذاتي ، ويصبح القانونُ الاجتماعي الحاكم على الأنساق المعرفية خاضعاً للمال والسَّوط ، وتصبح ثنائية الأنا / الآخر تياراً استهلاكياً لا معنى له ، بسبب حالة الضياع الشاملة . وهذا الانكسارُ الأخلاقي يُؤدِّي بالضرورة إلى انكسار لغويات الْحُلْم ، سواءٌ كان حُلْماً فردياً يتجلى في صناعة حياة كريمة خالية من عسكرة المعنى ، أم حُلْماً جماعياً يَسعى إلى تجريد المجتمع من السالب ، ومنحه فرصة التحليق نحو الموجب .

ومن الأهمية بمكان إدراك تقاطعات الفِتن المجتمعية مع عُقدة الشعور بالنَّقص ، التي يُعاني منها الأفراد، في ظل ضغوطات الفكر القَبَليّ ، حيث يتمُّ تسجيل الفرد باسم القبيلة ، ويُصبح الفردُ بُوقاً لمدح القبيلة والإشادة بإنجازاتها ، والانتصار لها بالحق والباطل على السواء . وهذا يعني غياب التشخيص الدقيق لحالة الفرد المتبخّر في انكسار الروح الإنسانية . ولا شَكَّ أن عدم الاعتراف بالمرض يُضاعِف المرضَ ، وأن الاعتراف بالمرض هو الخطوة الأولى للعلاج .

لقد غَدَت الفِتَنُ صناعةً حقيقيةً لها سياستها الخاصة واقتصادُها الخاص . مِمَّا يدل على أن الفِتَن ليست إجراء عفوياً تلقائياً، وإنما هي أفعالٌ قَصْدية لا مكان فيها للصُّدفة . وهذه الصناعةُ الْمُخطَّط له مُسبقاً ، ترمي إلى تثبيت الأمر الواقع أيديولوجياً ، وتحقيق مكاسب معنوية اعتبارية ومادية مُسيَّسة متماهية مع سُلطةِ الهيمنة وشَهوةِ الْحُكْم . وهذه الغريزةُ السُّلطوية العنيفةُ تَختزل المجتمعَ في أُطُر نِسبية مصلحية ، يتمُّ تقديمها كقيمٍ مُطْلقة ونهائية وحاسمة .

إن انكسار الْمُخيِّلة الإيجابية يُؤدِّي إلى انكماش الرُّوح الإنسانية في بؤرة المنفعة المادية الضَّيقة . وبالتالي، سوف تتعزَّز قيمةُ الوهم العقلي لتصير معقوليةً جديدةً لأنساق واقعية تُولَد مِن رَحِم الاستغلال . وثقافةُ الاستغلال تقوم على فكرة أساسية ، وهي تعويض الهزائم الحقيقية على أرض الواقع عن طريق صناعة انتصارات افتراضية على الورق . وفي هذه الحالة ، يكون الوطنُ في حالة غرق تدريجي، وفي نفْس الوقت تكون الأغاني الوطنية والْخُطَب الرَّنانة هي المسيطرة على الأجواء.

إن تفتيت المعاني الإنسانية المركزية من أجل خَلخلة المجتمع ، وإعادة بنائه حَسَبَ رُؤية صاحب المال والسَّوط ، يُمثِّل ركيزةً أساسية في النظام القمعي ، تهدف إلى تجريد الإنسان من مبدأ السيادة، ليصبح الإنسانُ عبداً لا سَيِّداً، يَفقد السيادة على نفْسه ، ويَفقد السيادة على الأنساق الاجتماعية.

وهكذا تقوم الذاكرةُ الجمعية المخدوشة والمنتمية إلى النَّفعية الفَجَّة، بزراعة قيمة الوهم في أرض الواقع . ويصبح الوهمُ تياراً عقلانياً يُمَثِّل القاعدةَ لا الاستثناء ، وتُبْنَى على هذه القاعدة امتداداتُ المعرفة الإنسانية المسيَّسة ، ويتفاعلُ انتشارُ الوهم مع أنساق المجتمع ، لأن السواد الأعظم من الناس ، لا يَملكون أهليةَ الاجتهاد والموازَنة ، وليس لهم علاقة بالمنهج العِلمي ، لا مِن قريب ولا مِن بعيد. وهذا معناه أن الناس غير قادرين على فحص الأيديولوجيات، وتمحيص الأفكار ، وغَربلةِ السياسات. ومَن كانَ قادراً منهم على ذلك ، فسوفَ يتم إقصاؤه وتهميشه مِن قِبَل النظام القمعي . والمجتمعُ الإنساني هو منظومة مسحوقة وخاضعة للآلة الإعلامية الرَّسمية التي تَجعل النهارَ لَيلاً، والليلَ نهاراً.وهذه هي خطة النظام القمعي الشمولي لغسل أدمغة الناس،وتَوظيفها لخدمة عِلْية القوم ويتمُّ الهيمنةُ على عقول الناس عن طريق استخدام أساليب مغلوطة وإلباسها لباس المنهج العِلمي التأصيلي.ولأن الناس غارقون في مجتمع استهلاكي متوحش، فإنهم لا يَقْدِرون على غَربلة المعطيات.

ولا شك أن الفِتن تتمُّ أدلجتها بنشرِ الضباب السياسي في أذهان الناس، وتغليفِ الوَهْم المسيَّس بالدِّين لكسب تعاطف الآخرين،ونَيلِ الشرعية الاجتماعية.وهذه الحِيلة انطلت على الكثيرين،لذلك كان كثيرٌ مِن مُحرِّكي الفِتَن على مَرِّ العصور أشخاصاً بُسطاء، انطلت عليهم حِيَلُ القيادات التي لا تُؤمن إلا بمصالحها الشخصية.وهؤلاء البسطاء اكتشفوا أخطاءهم بعد فوات الأوان، ووصلوا متأخرين جداً إلى شاطئ الفكر الآمِن. وعلى أية حال ، أن تصل متأخراً خيرٌ مِن ألا تصل أبداً .

والإنسانُ البسيطُ هو الأكثر عُرضةً لِتَشرُّب الانحراف المعرفي ، والغرقِ في إشكاليات السياسة المصبوغة بالدِّين. ووفق هذه الرؤية، تبرز فلسفة" كلمة حق أُريد بها باطل " ، وتصبح هي الدُّستور السِّري لِصُنَّاع الفِتَن ، المتخصصين في تجارة الأشلاء من أجل تحقيق الثراء السريع ، والاستحواذِ على السُّلطة السياسية وسُلطةِ احتكار تأويل النص الديني . ولا شَكَّ أن كل نظام استبدادي يستخدم الدِّينَ لشرعنة سياسته ووجوده ، ويَستخدم السياسةَ لتخدير الناس بالدِّين عن طريق استخدام وُعَّاظ السلاطين. وهكذا يضمن النظامُ الاستبدادي البقاء في السُّلطة لأطول وقت ممكن.

لقد صارت الفِتَنُ تجارةً رائجةً يُديرها أُمراءُ الحروبِ وسماسرةُ الدِّينِ ورجالُ الأعمال . وهؤلاء المرتَزِقة مستعدون لِفِعْل أي شيء، من أجل زيادة أرصدتهم من الذهب والجماجم والقبور. وأضحى هؤلاء الذين يَرتدون قناعَ الشرف والطهارة والأخلاق ، ويَختبئون وراء ابتساماتهم العريضة ، هُم حُرَّاسَ الأنقاض ، وصُنَّاعَ حضارة الخراب ، والآباءَ المؤسِّسين للفِتَن . وهُم يَسْعَوْنَ بكل قُوَّتهم إلى تأصيل الفِتَن ، وانتزاعِ الشرعية الدينية لهم ولأفعالهم عَبر لَوْي أعناص النصوص ، والالتفافِ حول المقدَّسات ، مُطبِّقين نظرية الاقتران التي تقول إن الشيء إذا اقترنَ بأمر مُحبَّب للنفوس ، صار ذاك الشيء مُحبَّباً للنفوس هو الآخَر . ولأن الدِّين _ أي دِين _ هو الْمُكوِّن العَقَدي والثقافي للجماعة البشرية ، حاولَ الكثيرون الالتصاقَ به ظاهرياً لخداع الرأي العام، وانتزاع شرعية التقوى والنقاء الوهمية، وترسيخ صورة المجرمين كشرفاء في أذهان الناس الذين يتحركون وفق حركة المال والعصا أو الترغيب والترهيب . وهناك أنظمة حاكمة باسم الشيطان، ومع هذا فهي تتخذ من الدِّين وسيلةً للحصول على شرعية التقوى والانتماء والطهارة . كما أن أسماء الكثيرين من القادة تُحاط بإطار ديني ليتم تجذير الذئب كَحَمَل وديع في أذهان البشر المغلوب على أمرهم ، الذين اختاروا العيش في أحضان زوجاتهم في غرف النوم المعتمة ، والتي صارت

تماماً كجحور الفئران ، راضين بالذل والمهانة والصمت المخزي . وهذا أدَّى إلى غياب المنهجية الثورية الناقدة لأفعال وُلاة الأمر ، مما أدى إلى تماديهم في الظلم ، وسرقة البشر الصامتين ، وإطالة حياة الأنظمة الاستبدادية العائشة على التنفس الاصطناعي.

وفي أحيان كثيرة تتجذر صناعة الفِتن كمشروع تجاري استثماري لتمزيق المجتمع ، وتشتيتِ كلمته ، ومنعه من الاتحاد والتعاون. وهذا ما تُريده الأنظمة الاستبدادية التي تعتمد في أدبياتها مبدأ " فَرِّقْ تَسُدْ ". وكلما ازداد المجتمعُ تَشَتُّتاً، ازداد النظامُ الحاكم تماسكاً ، وصارت صورتُه براقةً .

فَمَثلاً سوف يقوم النظام الحاكم بتمثيل دور المصلح بين فئات الشعب لِمَا فيه خير الوطن والمواطن والمصالح العليا والوَحدة الوطنية، إلى آخر هذه المخدِّرات السياسية . وبالطبع فليست هذه المصالحة الرسمية الظاهرية غير خطة لعمل مُوازَنة بين الفريقين تضمن عدم اتفاقهما على رأي محدَّد ، من أجل كسب مزيد من الوقت، وتكريسِ الأمر الواقع . وأيضاً ، سوف تتكرس فلسفة صناعة الفِتن ، لضمان استمرارية اللصوص في الْحُكم على جماجم البشر الذين عشقوا انتحارَهم، فكرهوا الحياةَ أحراراً ، وصاروا يرفضون الحريةَ جُملةً وتفصيلاً، ويخافون مِن الانعتاق مِن فَرْط ما تعوَّدوا على القيود والسجون. ولا شَكَّ أن فئران التجارب العائشة تحت الأرض سوف تخاف من نور الشمس.

إن الفِتَنَ هي صورةُ العَرَض المادي الزائل،وهي فلسفةُ بعيدة عن الجوهر الإنساني النبيل . والفِتَنُ تُجسِّد المشاريعَ الاستثمارية لرجال الأعمال وأُمراء الحرب لأنها تدخل في الإطار التجاري، حيث يُباع الإنسانُ لتتكرس المادةُ، ويُسحَق المعنى بُغية تجذير مستويات جديدة من الوعي السالب، ويُفرَّغ الوجودُ الإنساني من قيمة الأنسنة . ويتمُّ الإبقاءُ على إطارات إنسانية فضفاضة بُغية حَقْنها بالمعنى المطلوب الذي يتلاءم مع اتجاهات السُّلطة القمعية . وهكذا ، تتجذر فلسفةُ المنظور النفعي المادي ، حيث يُرمَى البشر إلى الموت ، لكي تُصبح حياةُ عِلْية القَوم مُقدَّسةً ، وتستمر تجارة الفِتَن ، وتنتقل من حالة العَرَض إلى وصف الجواهر، ومن السلوك الشاذ إلى السلوك الطبيعي ، ومن الحالة النادرة إلى الحالة العامة ، ومن معنى الاستثناء إلى معنى القاعدة . وهذه الْمُلابَسات تُوضِّح كيفيةَ تحوُّل الفِتَن إلى فلسفة اجتماعية عامة ، ومبدأ أساسي من مبادئ الأنظمة القمعية الفاسدة ،كما تُوضِّح كيفيةَ انهيار المشروع الإنساني ، وعمليةَ بناء الأوهام على أنقاض ذاكرة أنسنة المعاني .

والفِتَنُ هي محاولة التفافية تهدف إلى قلب نظام الْحُكْم في الذِّهن الإنساني من أجل إلغاء الأخوة الإنسانية ، وتكريس قيم الاستغلال والابتزاز ، استغلال نقاط ضعف الآخرين ، وابتزاز مَن يَملك لِمَن لا يَملك . والفِتَنُ هي صورةُ انكسار الروح المجتمعية ، التي تُشتِّت قِيمَ السلامِ الداخلي ، فيدخل الإنسانُ في حرب مع نفْسه والآخرين ، وتختفي إمكانيةُ عَقْد مُصالَحة بين الإنسان ونفْسه ، وبين الإنسان والآخرين . وهذه الحرب الشاملة تُحوِّل كيانَ الفرد إلى ساحة حرب ، وتُحيل كيانَ المجتمع إلى رِيشة في مهب الريح . وصناعةُ الحرب ترمي إلى تفتيت الكيانات الإنسانية،ثُمَّ إعادة تركيبها لتتوافق قَسْراً مع الطبيعة الاستغلالية للنظام السياسي القمعي .

إنَّ صياغات الحلم الفكري لا يمكن أن تظل حبيسةً لأهواء الطبقة الحاكمة بالمال والسِّياط . لذلك لا بد أن تخرج الصياغاتُ الفكرية من انكسار المعنى ، كي تصبح الدلالةُ الرمزية للمعنى فكراً فاحصاً تمحيصياً ، يُجذِّر سلوكياتِ الهوية المعرفية السياسية للجماعة ، من أجل الحيلولة دون تحول الشعب إلى قطيع غنم يقول ما يُقال دون إعمال عقله الجمعي .

وإفرازاتُ النظام السياسي القمعي تُفَلْسِف قيمةَ الفتن بشكل ميكانيكي إقصائي . وهذا يعني أن هذه العملية ليست منطقية ولا تلقائية ، وإنما هي فوضى مدروسة ذات دلالة زمكانية (زمانية_ مكانية) ترمي إلى استغلال الشعب حتى الرمق الأخير.وهذا الشعبُ المكسور صار عاشقاً للعبودية، وخائفاً من الحرية ، والناسُ أعداء ما يَجهلون . وشَيئاً فشيئاً ، تُحال فلسفةُ الفتن إلى منهج عِلْمي تأصيلي ، يُزرَع في نفوس الشعب باعتباره مُسلَّمةً وجودية تتمتع بالقدرة على الخلاص والتخليص.

إن أُمراء الحرب الذين يُقامرون بالشباب الذين يذهبون إلى الحرب بلا رجعة ، لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام المواجهة الفكرية الهادفة إلى تعريتهم أمام الرأي العام الداخلي والخارجي ، ولكي يتفادوا هذا الأمر ينغمسون في الحملات الدعائية المغرضة التي من شأنها رسم هالة من الأحاسيس البريئة والعواطف الجياشة التي تُقَدَّم على أنها خلاص المجتمع من كافة أزماته .

وللأسف فإن غسيلَ الدماغ الذي يقوم به المنتفعون من النظام السُّلطوي ، والمرتزِقةُ الذين يُوجِّهون بوصلةَ أفكارهم نحو مَن يَدفع أكثر، هو فلسفةُ الجهاز الدعائي الإعلامي للنخبوية الحاكمة الفاسدة . لكنَّ صِيَغَ الطموح العقلاني مهما جُوبهت بحصار خانق ، لا بد أن تجد مخرجاً بسبب اشتمالها على مُقوِّمات الحلول الفعَّالة .

إن الأنظمة السُّلطوية الشمولية تُعيد تعريف العلاقات الاجتماعية بما يضمن سَلْخ الناس عن المستوى العقلي الثوري. والهدف من هذه العملية تكريس الجهل كنظام حياتي ، وإحاطته بشعارات المنهج العِلمي ، وهكذا يدخل المجتمعُ في حالة الغَيبوبة السياسية ، واللاوعي الاجتماعي الصادم ، ويصبح المجتمعُ الإنساني سبيكةً غير متجانسة ، مُصابة بالإرهاقِ الفكري ، والإعياءِ الوظيفي ، والغباءِ السياسي ، والشَّططِ الطبقي ، والفراغِ العاطفي . وبالتالي ، تَزول إمكانيات النقد والنقض، وتنهار الذاكرةُ الروحية لصالح واقعية التكريس المادي ، وتختفي القدرة على مُعارَضة النظام السياسي . وهذه هي الفلسفة الجوهرية للأنظمة الاستبدادية القائمة أصلاً على التلاعب بمصائر البشر لتحقيق مصالح شخصية . وفي ظل هذه الانتكاسة المقصودة ، يتجذر النظامُ الاستهلاكي في المجتمع، ويصبح الفردُ خادماً لشهواته الآنية ، وتصبح الجماعةُ الإنسانية مشاريع استثمارية ضمن منظومة الفِعْل ورد الفِعل .

والمشكلةُ الأساسية في طبيعة النظام السياسي الشمولي ، أن الحاكم يعتقد أن إطعام الشعب أو تجويعه حق مشروع من حقوقه ، بِوَصْفه السَّيد المطْلق ، والمالك لهؤلاء البشر الصامتين ، الذين لا يملكون حقَّ الاعتراض على قاتلهم ، لئلا يَفقدوا رغيفَ الخبز ، الذي يحصلون عليه بكل ذُلٍّ في آخر النهار ، ثُمَّ يَعودون إلى بيوتهم مُنكسرين ، ويَرتمون في أحضان نسائهم ، ويمارسون الجنسَ تعويضاً عَن خَيباتهم المجتمعية الكثيرة ، وتفريغاً للكبتِ الذي يعانون منه على جميع المستويات ، سواءٌ السياسية أو الاقتصادية ، أو الروحية أو المادية .

ومِنَ المؤكَّد أن فاعلية الفِتَن تعتمد على تأويل النصوص الدينية بشكل مصلحي مُغْرِض ، وتهييجِ عواطف الناس . ولا شَكَّ أن السَّواد الأعظم من البشر يعيشون ضمن ثقافة فَورة الغضب، والعصبِيَّات العشائرية. وهؤلاء البشرُ الضائعون يبنون تصوراتهم الشُّعورية على الكَبْت الاجتماعي المتماهي مع خزين العواطف المتشظية ، التي تنمو في الظل ، خَوفاً من الصدام مع واقعية المجتمع الخشنة ، وإفرازاتِ النظام السياسي القمعي . وكلُّ نظامٍ قمعي يعتبر مشاعرَ الناس تحصيلَ حاصل ، لا طائل منها ، وذلك بِفِعْل الحشد المادي الاستهلاكي القاسي .

وعلى أيَّة حال ، فإن قدرة التناقض على تفعيل الثنائية القاتلة : الكبتُ الوظيفي الذي يُحاصر أحلامَ الكيانات البشرية من كل الجهات ، واستغلالُ الكبت لتحقيق أهداف مصلحية شخصية مضادة لمصلحة الجماعة ، إنما هي قدرةٌ مُسيطَر عليها مِن قِبَل قوى ذهنية مجتمعية ، تَرسم المجتمعَ كدجاجة تَبيض ذَهباً ، يَصُبُّ في جُيوب أزلام النظام الشمولي .

والتركيبُ العاطفي مهما بَلَغَ مداه ، سيظل عَرَضَاً زائلاً ما لَم يصحبه تأسيس فكري فاعل على جميع الأصعدة . وهذا التأسيسُ لا يَقْدِر أن يَقوم بِه الناس ، لأنهم خارج سياق الفِعْل والتأثير . ولا يَقْدِر أن يَقوم بِه إلا صانع القرار ، لأنه يَملك سُلطة الكلام المسموع ، وسُلطة تنفيذه على أرض الواقع .

إنَّ العلاقات الاجتماعية الثورية ، ستتحول مع مرور الوقت إلى غِربال ، يَفصل العناصرَ الصالحة عن الفاسدة . وهذه العمليةُ هي تكريس للموجب وإقصاء للسالب . ووفق هذا الفِعل الخلاصي التَّمحيصي ، يتمُّ تَثبيت الفاعلية الإنسانية الوجودية المؤْمنة بالقضايا المصيرية ، فيصير النَّسقُ الإنساني هو الضمانة الحقيقية لمنع إغراق المجتمع في الفِتَن .

وفي هذه اللحظة الحاسمة، ينقسم المجتمع إلى قِسْمَيْن : التجمع البشري الشَّعبي الإيجابي ، والنُّخبة الحاكمة السالبية . ومهما حاولت هذه النخبةُ جَرَّ المجتمع إلى حالة نزاع مجاني من أجل مصالح فئوية ضيقة، فإنها سَتُواجِه معارضةً شعبيةً عارمةً ، مُنظَّمةً لا فَوضويةً ، وعقلانيةً لا عاطفيةً .

ولا يمكن بأيَّة حالٍ من الأحوال جرُّ التجمع الإنساني إلى الهاوية ، إلا إذا كان لديه الاستعداد الداخلي للانحراف، وهذا الاستعداد إنما هو نابعٌ من ثنائية الشَّهوة والشُّبهة. وكما قِيل : بإمكانك أن تُجبِر الحصانَ على الذهاب إلى النَّبع ، ولكنْ لا يُمكن أن تُجْبِره على الشُّرْب .

وهنا تبرز أهميةُ فصل العناصر الشاذة عن المسار الحضاري للمجتمع ، وذلك من أجل زراعة الفرد في قلب الضمير المجتمعي الحيّ.وعندئذٍ ، يَعرف الفردُ متى يَقول : نَعم ، ومتى يقول : لا .

والمعارَضةُ الشَّعبية لمشاريع الاستغلال السُّلطوية ، تَملك سُلْطَتها الخاصة . وهذه السُّلطة مستمدة من حقوق الناس وأحلامهم وطموحاتهم . وإذا تكرَّست سُلطةُ الوعي المعارِض للأنظمة الشمولية ، فإن المجتمع الإنساني سيزداد قوةً ، وتَضعف قبضة النظام القمعي الشمولي . ولا شَكَّ أن الأجهزة القمعية المحيطة بالنظام الحاكم هي طُفيليات باحثة عن مصالح مادية شخصية ، والنظامُ الحاكم هو بالون مُنتفخ ، مُحاط بالقَداسة والعِصْمة والهيمنة . وكلُّ بالون _ مهما كان عظيماً _ هو أضعف من أصغر دَبُّوس . وهذا المعنى الرمزي يجب تعميمه على كافة الأنساق الاجتماعية .

وبما أن الفِتَنَ هي صورة تثبيت النظام الحاكم عبر خداع الرأي العام ، فإن الضمانة الحتمية لكسر هذه الصورة ، هي بناء رأي عام قوي بعيد عن عقلية قطيع الغنم الذي يَقول ما يُقال ، ويسير وراء الراعي ، سواءٌ قاده إلى المرعى الخصب أم الهاوية السحيقة .

ولا شَكَّ أن مجتمع قطيع الأغنام الذي يتمُّ تكريسه كمجتمع إنساني ، هو مجتمع إقطاعي يَنقسم إلى بشر درجة أُولى وثانية وعاشرة ، على أساس عِرْقي وطائفي ، يَخلو من قيم الولاء والانتماء . وهذه هي فلسفة انكسار الحلم الإنساني في مجتمع خائف ، ومتخلف ، ومحكوم بنظام سياسي لصوصي.وهذه الفلسفةُ مرتبطة بشكل وثيق بفلسفة السَّيف الحاكم على الأنساق المعرفية.

وهكذا يَعجز الفردُ عن عَقْد مصالحة مع ذاته ، وتعجز الجماعةُ عَن عَقْد مصالحة مع الفرد ، وهذه المتاهة تنقل المجتمع من حالة السلام والوئام _ حتى لو كانت حالةً شكلية _ إلى وضعية الصدام باطناً وظاهراً ، فتنقسم الأنا وتتشظى . وهذا هو التمزق الإنساني في أكثر صُوَره النَّفسية تعقيداً وعُنفاً .

والانقسامُ المجتمعي وتجذيرُ صور الانقسام ، يتمُّ استغلالهما لإشعال الفِتَن في الوقت المطلوب، الذي يُناسب الاتجاهَ الفكري للنُّخبة السياسية الحاكمة . وهذا التَّوقيتُ القاتل يتم تفعيله كَي يظل الفردُ جزءاً من قطيع الغنم ، ولا يستطيع أن يرفع رأسَه ، لأنه لَم يَرَ في حياته أحداً يَرفع رأسه ضمن دائرة الانغلاق التي تَفرض على أنسنة المجتمعِ خصائصَ الاستسلام للذبح بكل سذاجة .

إن الفتن تُوظَّف ضمن السياق العشائري القَبَلي في مجتمع يتمزق روحياً ، ويرتدُّ إلى الفكر القَبَلي باعتبار أن القبيلة قد حَلَّت مكان الدولة ، وصارت هي الحامية للفرد والجماعة . وهذا يعني أن الفرد يثق بالقبيلة ولا يثق بالدَّولة ، لأنه مُؤمن أن القبيلة موجودة ، والدَّولة غير موجودة.

ومهما كانت طبيعة السُّلطة الحاكمة ، فإنها تعتبر التغيير والثورة خطاً أحمر ، وخطراً يجب اجتثاثه . وكلُّ أنظمة الْحُكْم التي تتشبَّث بعروش الجماجم بأظافرها وأسنانها ، تعتبر الثورة تهديداً مصيرياً لوجودها . وهذا مرجعه إلى اتخاذ صورة نمطية مسبقة عن تعريف الثورة بأنها قلب نظام الْحُكْم . والحقيقة أن الثورة ذات مفهوم أوسع بكثير من هذا الأفق الضيق ، فالنظام الحاكم لن يكون ناجحاً إلا إذا كان ثورياً انقلابياً . وأعظمُ ثوار وانقلابيين في تاريخ البشرية هم الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _، فقد ثاروا على الجاهلية متعددة الأشكال والأقطاب والتطبيقات، وقلبوا أنظمة الْحُكْم السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية ... إلخ ، وذلك عبر تحويلها إلى أنظمة إسلامية ثَورية مُتقدِّمة ، تحترم عقلَ الفرد ولا تُدَجِّنه، ولا تنظر إليه على أنه حَمَلٌ خانع ذليل إمَّا أن يَخضع أو يُذبَح . وهذه المنهجية الثورية تفضح زَيْفَ الأنظمة الحاكمة باسم الشيطان مهما ارتدت

لبوسَ الثورية والديمقراطية والتقدمية والحرية وحقوق الإنسان . فالطاغية لا يريد للشعب أن يرفع رأسَه مهما حصل ، ليظل هو في سُدَّة الْحُكْم حتى وفاته ، ومن ثم استلام أبنائه للحُكْم إلى ما لا نهاية . وهكذا فمن مصلحة الأنظمة الحاكمة المتطرفة أن تُدجِّن الشعبَ ، وتُبعده عن قيم الحق والعدالة الاجتماعية والمساواة ، وتُغمِض عينيه بإرادته أو رغم أنفه، لكي تستمر أطول وقت ممكن في سُدَّة الْحُكْم .

إن الأقطاب المعرفية لأيَّة فِتنة تكمن في صِيَغ الابتزاز باسم الشرعية الموهومة . وغالباً ما تتغطى هذه الشرعية بالدِّين لاعتبارات تمسُّ الطابعَ الإيماني للأفراد _ مهما كان دِينهم _ . والفِتنةُ هي قدرةُ الابتزاز على تثبيت الأنساق الطامحة إلى انتزاع شرعية التواجد السياسي على الأرض . وكلُّ فِتنة إنما ترمي إلى تجذير التداعيات غير المنطقية ، من أجل فرض سياسة الأمر الواقع . والأخطر من هذه العملية هو تغيير الثوابت السياسية الفكرية في أذهان الناس عبر تكثيف حملات الدعاية الْمُبَرْمَجَة. وهذا يَدفع باتجاه تفصيل المعطيات السياسية وفق شَهوةِ الْحُكْم والاستبداد والمنفعة والعصبية القَبَلِيَّة .

والجديرُ بالذِّكر أن أيَّة فِتنة سيكون وقودها الناس . وإذا رفضها الناسُ ستموت في مهدها . والانهيارُ الكامن في الذات الإنسانية أدَّى إلى إسقاط الوقائع الذهنية المشوَّشة على أرض الواقع ، وإحلالِ المنفعة المادية الشخصية في بؤرة الخلاص الأخلاقي الجماعي . وهذا أمر شديد الخطورة ، لأنه يُصَوِّر المصلحةَ الشخصية الضَّيقة كحاجة أخلاقية لازمة للجماعة، وهذا يعني تحوُّل المجتمع إلى شَقَّة مفروشة، يَقضي فيها الفردُ بعضَ الوقت ثم يُغادرها، بدون أيَّة مشاعر تتعلق بالولاء والانتماء. وهكذا يَعيش الفردُ في الْمُتخيَّل الوظيفي ظَنَّاً مِنهُ أنه يعيش على أرض الواقع ، ويتكرس مبدأ الخلاص الفردي لا الجماعي ، وتتجذر ثقافة : " أنا ، وليكن الطوفانُ مِن بَعْدي " . لذلك تكون الصدمة عنيفة حِينَ يَصحو الفردُ فيجد نفْسَه في محيط اجتماعي موغل في التوحش، بينما هو كان عائشاً في الأحلام الوردية الوهمية . وهذا التمزق في مستويات الروحِ والمادة ، والأنا والآخرِ ، والمجتمعِ الداخلي والمجتمع الخارجي، سوف يَقُود الإنسانَ إلى انفصام الشخصية ، وانكسارِ الْمُعطَى الاجتماعي . فالإنسانُ في حالة تَشَظِّي الروح وانكسارِ الْحُلْم ، يبني حياته في دائرة مُغْلَقة ، وفضاء محصور . وهذا الوعي المكسور (المأزق الوجودي الصادم) عاجزٌ عن توليد إثبات في موطن الإثبات، وعاجز كذلك عن توليد نَفْي في موطن النَّفْي . وبالتالي ، يكتشف الإنسانُ أنه قد حاصرَ نفْسَه حصاراً شديداً ، وهو أمام خيارَيْن لا ثالث لهما : الأول _ العودة

لتصحيح مفاهيمه حول ذاته المجتمعية الداخلية ، وطرقِ تحرُّكها في محيط اجتماعيات الخارج، وهذا سيستغرق منه جهداً شديداً، لأنه سيقضي جزءاً كبيراً من حياته لا يمشي إلى الأمام ، وإنما يعود للوراء لردم الثغرات في طريقه، وتصحيح مساره الماضَوِي، ولكن الرجوع إلى الحق خَير من التمادي في الباطل، وأن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً . والثاني _ مواصلة مشواره السلبي ، والاعتماد على مبدأ تبرير الأخطاء لا تصحيحها ، والاستمرار في ضلاله دون وازع ذاتي أو خارجي . والعجيبُ أن الوقت الذي يُقضَى لتبرير الأخطاء يَكفي لإصلاحها . لكنَّ ثنائية (الشهوات / الشُّبهات) تُعْمي القلبَ. وإذا كانَ قلبُ الإنسانِ مَيْتاً فلا فائدة من عملية إصلاحه ، وإذا لَم يكن هناك وازع ذاتي فلا أمل في الصلاح والإصلاح . وصدقَ الشاعرُ إذْ يَقول :

لا تَرجعُ الأنفسُ عَن غَيِّها ما لَم يَكُنْ لها مِنها رَادعُ

إن الأنظمة السُلطوية الشمولية تستثمر في الفِتَن ، وتُقدِّمها كضمانة أساسية لحماية وجود الفرد وتاريخه ومكتسباته . ولا يخفى أن إشعار الفرد بأنه في خطر دائم ، لا بد أن يشحذ كوامن قواه ظاهرياً وباطنياً ، ويقوده _رغم أنفه_ إلى حالة الاستنفار القصوى ليحميَ وجوده الذي رُسِمَت حَوْلَه هالة الخطورة والتهديد . وهذه هي فلسفة إشعال الفتن ، وجعل الناس وقودها . إنها فلسفة قائمة على اللعبِ بالعواطف الفردية وإقناعها بوجود الخطر ، وصناعةِ عدو افتراضي من أجل حشد الطاقات والاستثمار في الدماء ، وابتكارِ واقع هُلامي مُدجَّن ، والتَّلويحِ بالعصا ، وشراءِ الذمم بالمال . والطاغيةُ مثلاً قد يمنحك قصراً ، ليس لأنه يحبك ، بل لأنه يريدك أن تنشغل بهذا القصر الواحد عن حقوقك في عشرات القصور ، وبذلك يكون قد أشغلك بالأدنى لئلا ترى الأعلى. وبالتالي ، يشتري النظامُ الحاكم صمتَك بالمال ، ولا تجرؤ على المعارَضة ، لأن النظام أغرقك بالهبات والرشى . وكما يُقال : أطْعِم الفمَ تَستحِ العَيْن .

ومُخطئٌ مَن يَعتقد أن بإمكانه الضحك على الأنظمة الحاكمة، فهذه الأنظمة مُحترِفة ومُتمرِّسة في الغواية والإغواء ، وتَعرف مِن أين تُؤكَل الكتف ، وتَعرف جيداً كيفيةَ اقتحام الإنسان والمجتمع، وتختار الوسيلةَ المناسبة لأداء هدفها _ سواءٌ كانت وسيلة نظيفة أم قذرة _ . وهكذا ، تتجلى فلسفة الطغيان السياسي .

والنظامُ السياسي الشمولي يُمثِّل دَوْرَه بحرفية عالية في مَنع الفِتَن ، ليس من أجل حقن دماء الشعب، وإنما لتأخير موعد الفتنة كي يسيطر عليها تماماً، ويستغلها لتحقيق أكبر قَدْر من المكاسب، فيبدأ بها في الوقت الذي اختاره ، ويُنهيها في الوقت الذي اختاره . فالأنظمة السياسية الظالمة تؤمن أن الشعب هو الوقود الذي ينبغي أن يحترق كي يَتحرَّك قطار النظام الحاكم ، وتتجذر الدولة البوليسية ، وذلك من أجل استمرار مسيرة الْحُكْم على جماجم البشر الذين صاروا مجرد سكة حديد ، لا تاريخ لهم سوى الموت في سبيل ديمومة الفوضى الخلاقة الحاكمة . وهكذا يضمن النظام السياسي الشمولي ألا يُعكِّر صَفْوَه أيُّ شيء ، وذلك لأطول وقت ممكن .

وبشكل عام ، إن السياسة في فلسفة الأنظمة القمعية تعني إطالة مُدَّة الْحُكْم ، وإطالة فترة التنفس الاصطناعي الذي يعيش عليه النظام القمعي . وهذا الهدف يتمُّ بكسرِ أحلام الجماعة بُغية إذلالها ، والضغط على الفرد، ووضعه في حالة خوف دائمة ، لكي يَعجز عن التفكير في حالة البلاد والعباد . وبالتالي ، لا يَقْدِر على نقد الحالات السلبية ونقضها . والخوفُ إذا سيطرَ على العقل البشري أفقدَه القُدرة على التفكير ، وشَلَّ حَرَكَته . وإذا أردنا أن نكون أكثر وضوحاً ، فإننا نقول إن السياسة في فلسفة الأنظمة القمعية تعني قيادة الناس كأغنام ، وتقديم المرعى لها حَسَبَ درجة الولاء والانتماء إلى النظام الحاكم .

وكلُّ تقاطعات السياسة يتمُّ تجميعها في يد الحاكم الذي يَخدم مصالحه الشخصية ، ويُكرِّس نفوذَ عائلته ، ويُجذِّر الممارَساتِ الإرهابية لحاشيته وأتباعه ، ويُطْلِق أيديهم في الشعب المغلوب على أمره . لذلك _ في حقيقة الأمر _ لا معنى للسياسة الحقيقية في المجتمعات المحكومة بالحديد والنار.وهذه المجتمعات المتخلفة، هي بلا شعب ولا سياسة. فالحاكمُ هو الدولة،والدولة هي الحاكم.

وكلُّ ما يُقال حول قيم الازدهار والدِّيمقراطية والعدالة والحرية وحقوق الإنسان والتعددية السياسية ، إنما هي محاولة للهروب من الاستحقاقات المصيرية ، وخداعِ الرأي العام . وهذه القيمُ يتمُّ ترويجها كمخدرات سياسية ، تُعطَى بِقَدْرٍ مُعيَّن في حالات معينة ، والهدف هو تزوير إرادة الشعب ، وغسل دماغه بصورة ديناميكية تصنع مجالاً جديداً من انكسار الوعي الاجتماعي لصالح اللاوعي الشامل . وفي ظل هذه الرمزية الموغلة في التوحش نكتشف أن مفهوم الشعب في ذهنية النظام القمعي ، ليس بأكثر من بقرة حلوب ، تقضي حياتها جائعةً بائسة لِتُطْعِم عِلْيةَ القوم الذين لا يُقدِّمون لها سوى الإهانات والضَّرْب والإقصاء .

ولا يمكننا اعتبار التأسيس الفلسفي للفتن تأسيساً معزولاً عن إرهاصات انهيار المجتمع، وضعفِ النواة الإنسانية في ذات الفرد وكيانِ الجماعة . وهذا الانهيارُ الشامل يُجرِّد الفردَ مِن رُوح الولاء والانتماء . وبالتالي ، تصبح الأنساق السياسية لا تُعبِّر عن هوية الفرد وأحلامه ، ولا تُدافع عن مصير الجماعة . وهذا الانكسار العنيف في الروح والمادة ، يَسلب الطمأنينة من الأفراد ، ويَجعلهم أوعيةً فارغة ، لا تَحمل فِكراً ولا تُدافع عن قضية ، فينتقل المجتمع الإنساني من القيم الأخلاقية المطْلقة إلى القيم النَّفعية النِّسبية ، وتَنتج معرفة سلبية ، ويتم تعميمها كفلسفة للخلاص والتخليص، خلاصِ الفرد من مأزقه الوجودي الصادم ، وتخليصِ المجتمع من الأعباء الروحية والمادية . وفي ظل هذا التَّشظي الفوضوي ، ترتدُّ الأنساقُ الإنسانية إلى فكرة القبيلة بسبب موت فكرة الدولة . إذ إن الدولة صارت شركة تجارية للمُتنفِّذين والْمُطبِّلين والْمُزمِّرين فقط . وبالتالي ، سيعود الأفرادُ إلى قبائلهم لأنها الحاضنة لهم ، والْمُدافعة عن وجودهم وأحلامهم . فالدَّولةُ ترفضهم ، وتُصنِّفهم كمُنشقِّين وأشخاص غير مرغوب فيهم. وفي هذا السياق المعتم، من الطبيعي أن يَبحث الفردُ عن مصلحته الشخصية، ومصلحته موجودة في النَّسق العشائري القَبَلي (رابطة الدم) ، وغير موجودة في النسق السياسي الوطني (رابطة الْمُواطَنة) .

وإذا أردنا إيجادَ تفسير منطقي للفِتَن ، وتشخيصَ ثقافة أمراء الحرب ورجال الأعمال الذين يستثمرون في الدماء ، فلا بُدَّ من تفسير إشكاليات اختزال السُّلطة السياسية في ذات الحاكم ، الذي يتمُّ تقديمه باعتباره خليفة اللهِ في الأرض ، والحاكم بِاسْمِ اللهِ وأمْرِه . وهذه القداسةُ المزعومة يتمُّ توظيفها لاستدعاء الفِتَن في التوقيت الذي يُناسب الحاكم ، وذلك من أجل تحقيق منافع شخصية. ولا يخفَى أن الحاكم هو الدَّولة ، والدَّولة هي الحاكم ، والشعب مُجرَّد مُتفرِّج لا أكثر .

والحاكمُ يتحدَّث باسم الشعب ، ويتَّخذ القرارات المصيرية نيابةً عن الشعب ، ويُرسل الشعبَ إلى الحروب، والشعبُ لَيس له علاقة بالموضوع . وهذا التطرف الاختزالي لا يدل على انتكاسة نظام الْحُكْم فَحَسْب ، بل يدل أيضاً على انتكاسة الشعب، وأنه مجموعة من العبيد الذين يُفضِّلون رغيفَ الخبز على الحرية . ولسانُ حالهم يقول : ((العبدُ الشَّبعان خَير من الْحُرِّ الجائع)) أو ((الكلب الحي أفضل من الأسد الميت)).وهذه هي فلسفة الانهيار الاجتماعي في كل العصور .

إن السياسات القمعية للنظام الأبوي تَصير وصايةً على المجتمع ، لأن النظام الحاكم لا يثق بقدرة الشعب . وبالتالي ، يَحْجُرُ عليه ليمنعه من التصرف ، باعتباره أن الشعب سَفيه لا يَقْدِر على حُكم نفْسه بنفْسه . وبعبارة أخرى ، يُفكِّر النظامُ الحاكم نيابةً عن الشعب الذي لا يعرف مصلحته

. وهذه الفلسفة الضاغطة على أدوات الفعل الاجتماعي، هي الشرعية الوهمية التي يَتَبَنَّاها عقل الهلوسة السياسية في مجتمع أدارَ ظَهْرَه للحرية والكرامة ، وصار يلهث وراء كِسرة الخبز ، وقد لا يُحصِّلها . وسياسة التجويع قد تُثبِت نجاحاً وقتياً عابراً ، لكنها قنبلة موقوتة قد تنفجر في أية لحظة ، فالشعب إذا جاع سوف يثور ، والفرد حين يُحشَر في الزاوية ، ويصل إلى بؤرة التمركز حول غياب المعنى الحالم في حياته ، ويصبح وجوده كعدمه ، ويصير المستقبل جزءاً من الماضي ، عندها لا يوجد لديه أي شيء يَخسره ، والسجينُ لَن يَخسر سِوى قيوده . وهذه هي شرارة الثورة الشاملة التي ستقود المجتمع إلى فِتنة داخلية تأكل الأخضرَ واليابس ، والجميعُ خاسرون بلا استثناء . لكنَّ خسارة مَن يَملك أكبر بكثير مِن خَسارة مَن لا يَملك .

إن انكسار حُلْم الإنسان نتيجة حتمية لوصاية النظام الحاكم على المجتمع بكل تفاصيله . وهذا المجتمع المقهور يكسر الفردَ عمداً من أجل تطويعه لخدمة مصالح عِلْية القوم . وبالتالي ، فالمجتمعُ يُغامر بشرعية وجوده ، ويُقامر بأغلى ما يَملك .

والفِتَنُ قد تُبَرْمَج خارجياً، لكن حدوثها مستحيل بدون تنفيذ داخلي . والفِتنةُ تُولَد من الداخل وتتأجج في الداخل ، مهما كان الدور الخارجي كبيراً ، لأن الرَّحم الحاضنة لجنين المواجهة لا تكون خارجية بأية حال من الأحوال .

والفِتنةُ هي انهيارٌ لغوي في أبجدية المجتمع المتشظية إلى كيانات مُمزَّقة ، وشكلٌ لِبُؤر الصراع على النفوذ ومراكز القوى ، وصِدامٌ حاملٌ للانكسار الإنساني ، وحُلْمٌ مكسور في شخصية المجتمع البشري الذي يَؤول إلى الشَّخصنة المفرِطة ، والأنانية المتوحشة ، والتكريسات المصلحية في بؤرة الأنا الضَّيِّقة .

وهذا الانهيارُ الشاملُ سَيُصبحُ جنيناً مُتوحِّشاً ومُتطرِّفاً إلى أقصى حد . ولا شَكَّ أن المجتمع الإنساني المقموع هو الرَّحِم الحاضن لهذا الجنين ، في ظل فوضى استهلاكيةٍ قامعةٍ ومقموعةٍ في آنٍ معاً ، ومُضادةٍ للتيار الوجداني . وهذه هي البيئة الخصبة لولادة الإرهاب الفكري والمادي .

وتنتقل منظومةُ الفِتن من أرض الواقع إلى ذات الإنسان ، فيصل الإنسانُ إلى حالة الفِتنة الداخلية ، ويَفقد السلامَ معَ ذاته . وهذه الفتنة الداخلية مبنية على تضارب الأفكار والتوجهات دون الوصول إلى بَر الأمان ، فيصير الفردُ جزءاً من تيار ديناميكي عنيف يتقاذفه . والإنسانُ قد يَظهر في حالة تماسك وتوازن ، لكنَّ ناراً تتأجج في داخله المضطرب المستسلم لأمواج الفِتن، وتداعياتِ الشُّبهاتِ ، وشراسةِ إغراء الشهوات .

والجديرُ بالذِّكر أن الفِتنة الداخلية هي الفلسفة النظرية للفتنة الخارجية ، لأن التطبيقات على أرض الواقع إنما تَنبع من أفكار مسبقة في الذهن ، وهذا يعني أن الفكر سابق على المادة . وكلُّ إطار خارجي هو صورة للفكر الداخلي . وفي زحمة الصراع (الداخلي / الخارجي) ، يفقد الفردُ شرعيةَ أحلامه ، وذاكرةَ طموحاته ، لأن نفْسه التي بَيْن جَنْبَيْه تضغط عليه ، وواقعه الرَّقمي الاستهلاكي يَضغط عليه . وهذا الضغط الْمُزْدَوَج يُحوِّل الإنسانَ إلى رَجل آلي مُبَرْمَج مسبقاً . وهذا التَّدجينُ أحالَ القيمةَ السلوكية الاجتماعية للفرد ، والنموَّ العاطفي لمراحل حياته ، إلى إجراء آلي ميكانيكي وحشي يعتمد على الأخذ ثم الأخذ ، دون التفكير في العطاء ، ولو لمرة واحدة .

إن المنحى الإنساني يتمُّ تحويله إلى فاعلية ميكانيكية ، وهذه الفاعلية يتمُّ توظيفها لتفعيلِ قدرة الفتن على فرض شروطها ، وشروطِ صانعيها في أرض الواقع ، وتفصيلِ أزمنة المعنى على مقاس المكان الحاضن للخديعة ، ومُحاصرةِ المجتمع في دائرة التقليد الأعمى من أجل زرع الفِتن بكل سهولة، وتحويلِ الإنسان إلى رَجل آلي يتلقى الأوامرَ، ويُنفِّذها دون اعتراض . وهذه الآليةُ الميكانيكية الفردية ستنسحب بشكل تلقائي على المجتمع بأكمله ، وتسحب الصفاتِ الإنسانية من كَينونة الانتماء إلى التنوير والتثوير ، وتَسكبها في ثنائية الارتداد الآلي : الفِعل ورد الفِعل .

والسلوكُ الاجتماعي للفتن هو سلوك تمزيقي بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، ودائماً فإن الشعب هو الذي يدفع الثمن ، لأن النخبوية السياسية قادرة على الهروب في أية لحظة، والعيشِ في أكبر عواصم العالَم ، وترك الشعب يواجه مصيره المحتوم، حيث القتل والتجويع والحصار وضياع التاريخ الشخصي والعمومي، واختفاء أية خارطة للمستقبل، واضمحلال هوية الوطن والمواطن .

وفي ظل هذا الأفق المسدود ، تبرز نظرية التراكمية المخيالية ، وهي عبارة عن حراك اجتماعي داخلي يتَّخذ من نفْسه حكومةً في الوقت الذي اختفت فيه الحكومة ، فيصبح الشعب حاكماً ومحكوماً في آن معاً . وهذه الثنائية غير المتجانسة هي تركيز اختزالي لعمق المأساة التي تعيشها المجتمعات التي صار مستقبلها جزءاً من الماضي ، على الأقل في المدى المنظور . لكن قوة أي مجتمع تكمن في قدرته على توليد حراك اجتماعي حيوي وفعال ، من أجل تجذير مبدأ تداول الطبقية الاجتماعية بكل تفريعاتها ، وهذه هي الضمانة لبث الأمل في النفوس ، وتعميق فلسفة التغيير في ذهنية الفرد الروتينية القاتلة ، وعقليةِ المجتمع الاعتيادية الخانقة .

وإذا تحوَّلَ المجتمعُ الإنساني من عقلية القطيع إلى عقلية النقد والنقض ، فإن سياسات الابتزاز الحكومي سوف تتساقط ، وتنتهي الخديعةُ التي تَحكم عن طريق دغدغة عواطف الناس، وتسييسها لخدمة عِلْية القوم .

وفي هذا السياق ، يجب القَول إن النية الصالحة لا تُصلح العملَ الفاسد، والطريقُ إلى جهنم مُعبَّد بالنوايا الصالحة . وغيابُ المنهج المستقيم جعل من تلك النوايا الصالحة لا وزن لها . وكَم مِن مُريدٍ للخير لا يُصيبه . وهناك مقولة مفادها أن الشيطان يكمن في التفاصيل . وهذه المقولة يجب تفسيرها على مستوى الزخم السياسي ، لكي نفهم أبعادها التطبيقية على أرض الواقع ، ونتمكن من ربطها بكافة الاتجاهات المصلحية في الأنساق الاجتماعية .

كما تبرز مقولة " مَن يَخْسَرْ نَفْسَه يَجِدْها " ، مِمَّا يدل على أن إدراك الذات يتمُّ عن طريق إلغائها . وهذه العبارة المتفرِّدة في دهشتها تُفهَم على صعيدَيْن : إيجابي وسلبي. ونحن نريد أن ندرس الجانب السلبي لها ، لأنه هو المقصود نتيجة وجود الزَّخم السُّلطوي الحاكم الذي يقف وراءها ، ويُجذِّرها كفلسفة تتضمن التضحية بالشعب وهو صامت مستسلم للمهانة ، مقابل أن يَحصل على الطعام والشراب . أي إن الفرد يَخسر نفْسَه ويمتهنها لكي يَحميَ حياته ، ويتجنَّبَ مضايقات أزلام النظام البوليسي الحاكم .

وفي المجتمعات القامعة المقموعة ذات الصبغة البوليسية المسيطرة على العقل الجمعي والفردي ، تَؤول السُّلطوية النخبوية إلى إرهاصات فتن على كل الأصعدة ، لأن العيش في مجتمع متخلف هو شُبْهة الشَّهوة أو شهوة الشُّبهة . وغياب حقوق الإنسان يساهم في جعل الفرد مواطناً عاطلاً عن الوطن ، وجوده كعدمه. وهذا تجسيد حقيقي مؤلم للانكسار في روح الفرد، والتصدعِ في طبيعة العلاقات المجتمعية. فالإنسان مدني بطبعه، وقيمة المدنية هي قيمة الذات الفردية وتوظيفها في مجتمع يحترم الذاتية الخصوصيةَ في إطارها النَّفسي المحدود ، والكلي المجتمعي العمومي .

إن مجتمع الفتن يُنتِج خطأً بيانياً متصاعداً من الأوهام الجاهزة ، والخرافاتِ الموضوعة خصيصاً للقَوْلبة المسيَّسة . وبالتالي ، يُصبح الفردُ والوهمُ شيئاً واحداً خاضعاً لإفرازات النظام البوليسي الحاكم ، الأمر الذي يجعل الفردَ حجر شِطرنج يُلْعَب به .

والتعليلُ السياسي لحالة الانهيار الاجتماعي ، يظل جاهزاً على الدوام لتجذير الخديعة ، والتلبيسِ على العوام ، وإلقائهم في الشارع بعد أن يتم استنْزافهم روحياً ومادياً . وما يُسمَّى بالوطن

يصبح مشروعاً تجارياً يُسيطر عليه عِلْية القوم ، من أجل ضمان مصالحهم الجزئية ، على حساب المصلحة الكلية المجتمعية. وهكذا يتحول الفرد من جزء أساسي في العملية التنموية الشاملة إلى جزء أساسي من الانهيار المجتمعي ، وتتساقط المشاعرُ الإنسانية في المجتمع الذي لا يَرحم .

والإشكالياتُ القاتلة في المجتمع إنما تَظهر بسبب التكثيف الهستيري للفتن ، وتوظيفها في مساقات انهيار النواة الإنسانية ، وتحويلِ الكائن الحي إلى شيء استثماري متقوقع حول بؤرة التشيؤ (تحول الإنسان إلى شيء للبيع والشراء). وهذا يستلزم _بالضرورة_ انكسار العاطفة الإنسانية ، وتحوُّلها إلى إجراء ميكانيكي وتعليماتٍ عسكرية مادية مفرغة من قيمة الروحانية التي تمنح المجتمعَ مداه .

وفي المجتمعات المنهارة ، سيظل الثالوثُ المكسور : الْحُكْم والحاكم والمحكوم علاقةً شاذةً عن المسار الحضاري ، بسبب تضارب المصالح ، واختلاف زوايا الرؤية . وهكذا يَدخل المجتمعُ في الموت البطيء ، ويَدخل الفردُ في الانتكاسة المعنوية . ومعَ هذا ، سيظل هذا الثالوث الملتبِس هو الصيغة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وذلك من أجل إدارة عجلة المجتمع ، سواءٌ إلى الأمام أم الخلْف .

*

ثامناً : خطأ لفظة " اللواط"

من الأمور التي يتوجب أن ننتبه إليها هي المصطلحات المستخدمة في نصوصنا الدينية ، ومدى التزامها بالكتاب والسُّنة الصحيحة. ومن هذه المصطلحات الشائعة لفظة " اللواط "، وهذه اللفظة سيئة للغاية لأنها مشتقة من اسم النبيِّ لوط ﷺ ، وذات دلالة على فاحشة ، فاشتقاق اسم فاحشة من اسم نبيٍّ كريم كُفْرٌ بواح. لذا فنحن نجزم أن النبيَّ محمداً ﷺ لَم يقل لفظة " اللواط" أو" لوطي" أو "اللوطية".فَمِنَ الْمُحال أن يَشتق النبيُّ محمد ﷺ اسمَ فاحشة من اسم نبيٍّ، لأن هذا العمل كفرٌ ، والأنبياء معصومون . لذلك يجب عدم استعمال كلمة " اللواط " ومشتقاتها، لأنها كلمة كُفْرية ضد الإسلام تماماً، ويجب استعمال مكانها " عَمَلُ قوم لوط " للدلالة على إتيان الذَّكَر للذَّكَر .

والمعاجمُ الأجنبية لَم تَنْسُب هذا الفعل الشنيع إلى النبيِّ لوط ﷺ، وإنما نسبته إلى أكبر قرى قوم لوط ، وهي سَدُوم ، فأصبح هذا العمل الشاذ منسوباً اليها . وهنا يبرز مصطلح "Sodomite" أي السَّدُومِيَّة ، للدلالة على هذه الفاحشة . وينبغي اعتماد مصطلح " السَّدومية " .

والجديرُ بالذِّكر أن خبر الآحاد (خبر الواحد) إذا عارض ثوابتَ الدِّين (القرآن والسُّنة المتواترة) فإنه يُرفَض فوراً، كما أن العلماء وضَّحوا مسألة الحديث الصحيح سنداً، الشاذ مَتناً(1) .

---

(١) بالنسبة لخبر الآحاد (الواحد)، قال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١/ ١٣١): ((وأمَّا خبر الواحد فهو ما لَم يوجد فيه شروط المتواتر ، سواء كان الراوي له واحداً أو أكثر ، واخْتُلِف في حُكمه، فالذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدِّثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن خبر الواحد الثقة حُجَّة مِن حُجَج الشرع يلزم العمل به،ويُفيد الظن،ولا يُفيد العِلم))اهـ. وفي فتح الباري(٤/ ١٥٦) : ((خبر الواحد إذا جاء بِخِلاف القواعد لَم يُعمَل به)) اهـ .

قلتُ : أمَّا بالنسبة للحديث الصحيح سنداً الشاذ مَتناً ، فقد قال الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٧٤) : ((وإنما يُعَلَّل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل ، فإن حديث المجروح ساقط واهٍ ، وعِلَّة الحديث يكثر في أحاديث الثقات أن يُحدِّثوا بحديث له عِلَّة فيخفى عليهم عِلْمُه ، فيصير الحديث مَعلولاً ، والْحُجَّة فيه عِندَنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غَيْر)) اهـ .

ولنستعرض الأحاديث الواردة في الموضوع لكي نقف على حقيقة الأمر بشكل عِلمي منهجي تفصيلي .

أولاً : وردت العبارة النبوية الشريفة الثابتة " عمل قوم لوط " في أحاديث كثيرة صحيحة وحسنة منها :

[١] عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ : أن رسول الله ﷺ قال : ((مَن وَجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[2].

[٢] عن جابر ـــ رضي الله عنه ـــ عن النبيِّ ﷺ : ((إنَّ أَخْوَفَ ما أخاف على أُمتي عمل قوم لوط))[3].

ثانياً:بالنسبة لاشتقاق اسم عمل قوم لوط من اسم النبيِّ لوط ﷺ،فقد ورد في أحاديث منها[4].

[١] ما رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٥٦٤) : عن ابن خَيْثم قال : سمعتُ سعيد بن جُبَير ومجاهداً يُحدِّثان عن ابن عباس في البِكْر يُؤخذ على اللوطية ، قال : يُرجَم .

[٢] ما رواه أحمد في مسنده (١/ ٣١٧) : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((ملعون من عمل عمل قوم لوط)) ، قالها رسول الله ﷺ مراراً ثلاثاً في اللوطية .

قلتُ : لفظة " اللوطية" ليست من كلام ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ كما هو واضح من سياق الحديث الأول ، وفي الحديث الثاني ليست من كلام النبيِّ ﷺ ، وهذا واضحٌ . ويغلب على ظني أنها من كلام أحد الرواة الذي اختزل فعل قوم لوط بهذه اللفظة الشاذة المعارِضة للعبارة النبوية الثابتة " عمل قوم لوط " ، وأقحمَ فهمَه الخاص في الحديث مُعلِّقاً عليه بهذه اللفظة المرفوضة " اللوطية " .

[٣] ما رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٨٢) عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه أن النبيَّ ﷺ قال : ((هي اللوطية الصغرى)) ، يعني الرَّجل يأتي امرأته في دُبُرها .

---

(٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٩٥) برقم (٨٠٤٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣٩٧) برقم (٨٠٥٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

(٤) لَم تَرِدْ لفظة " اللواط " عن النبيِّ ﷺ في كتب الحديث المعتمَدة والمشهورة .

قلتُ : عبارة " اللوطية الصغرى " وردت ثلاث مرات في مسند الإمام أحمد في ثلاثة أحاديث مختلفة بأرقام (٦٧٠٦) و(٦٩٦٧) و (٦٩٦٨) مع الانتباه إلى أن هذه الأحاديث الثلاثة مُختلَف في رَفْعها ووَقْفها .

والواجب الالتزام بما صَحَّ عن النبيِّ ﷺ وهي عبارة " عمل قوم لوط " ورفض ألفاظ من قبيل " اللوطية " أو " اللواط " أو " اللوطي" لأنها ألفاظ كفرية تَشتق اسمَ فاحشة من اسم نبيٍّ عظيم هو لوط ﷺ . ولو وردت هذه الألفاظ في أحاديث في أعلى درجات صحة السند ، فيجب أن تُرفَض لأنها أخبار آحاد ضد قواعد الإسلام الأساسية القادمة من الكتاب والسُّنة المتواترة . فلا تُتعِب نفْسك في الْحُكم على السند ، لأن العلة الأساسية في المتن _ رغم أن علة السند الاختلاف في الوقف والرَّفع _، إذ إن تلك الألفاظ الشنيعة طعنٌ في نبيٍّ معصوم قاومَ الفاحشةَ في قَوْمه ، فهل جزاؤه أن يُشتَق من اسمه الشريف اسماً للفاحشة ؟.

إنها مسألة غاية في الخطورة ، لأنَّ مَن طعن في نبيٍّ فهو كافر ، ومن رماه بفاحشة أو نقيصة أو ذمَّه فهو كافر . فما بالك بهذه اللفظة الشنيعة ؟! . فإياك أن تعتقد أن المسألة تشديد أو غُلُو في الدِّين أو تعقيد ، فأسماء الأنبياء الشريفة تدل على شخوصهم الطاهرة ، ويجب أن تظل محفوظة من كل دَنَس أو شُبهة . ولا يَغُرَّنَّكَ تكرارها في كلام العلماء ، لأن الحق أحق أن يُتَّبع ، واعرف الحقَّ تَعْرِفْ رجالَه ، كما أن انتشار هذه الألفاظ من عُموم البلوى . وأنا واثق أن علماءنا لم تظهر لهم المسألة بهذا الارتباط أو الاقتران الكارثي بين اسم نبيٍّ واسم فاحشة، فظنوا المسألة مجرد لفظ يُطلَق علماً بأنه ورد في أحاديث ذات أسانيد مُعتمَدة ولا مُشَاحَّة في استخدام الألفاظ _ كما هو سائد_، والأمر أكبر من ذلك بكثير.فنحن نُحسن الظن بعلمائنا، ونعذرهم لأنهم لم ينتبهوا إلى هذه المسألة ، لكن المعصومَ هو النبيُّ ﷺ فقط لا غَيْر ، وجَلَّ مَن لا يَسهو .

ونختم بما قاله محمد أمين في حاشية ابن عابدين (٧/ ١٦٢) : ((اعلم أن من القواعد القطعية في العقائد الشرعية أن قتل الأنبياء ، أو طعنهم في الأشياء ، كفر بإجماع العلماء)) اهـ .

*

تاسعاً : شُبهات حول أبي هريرة

إن مسألة الشُّبهات المثارة حول الصحابة مسألة دقيقة وحساسة ، خصوصاً أن الشيعة الروافض يعتنقونها بلا أدلة مُعتبَرة ، ظناً منهم أنهم بذلك يهدمون السُّنة عبر التشكيك بها ، ويجذبون الناسَ إلى المنهجية الحديثية الشيعية القائمة على الكذب على أئمة آل البيت ، والمتاجرة بالانتماء إليهم ، وهذا الانتماء إنما هو ظاهري بلا باطن،وشكلي بلا جوهر. ولا يخفى أن إسناد الأساطير والخرافات إلى أئمة آل البيت ــ عليهم السلام ــ يهدف إلى استغلال أسماء علماء آل البيت لترويج الباطل ، واستثماره لأهداف شخصية نفعية فردية داخلية ، وجمعية فارسية صفوية خارجية . وهذا المبحث يأتي كرد واضح منهجي علمي تأصيلي على هذه الشبهات المنتشرة في أوساط بعض علماء الروافض حول الصحابي الجليل أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

مع ملاحظة أن الشبهات إنما أُثيرت حول أحاديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ سواءٌ ثبت أنه رواها أم لم يثبت. وقد تركوا سلسلةَ السند كاملةً ، ووضعوا حقدهم على أبي هريرة لكي يطعنوا فيه مباشرة، لأن الطعن في الصحابة دون دليل شرعي مُعتبَر هو دِين الشيعة الروافض. ولا يخفى أن منهجية بحثنا هي إيراد الحديث الذي طُعِن فيه، ودراسته من كل الجوانب بلا تحديد جانب معيَّن دون آخر . فهذا أكثر نفعاً من أجل قطع دابر الشبهات . وبالطبع لم أذكر كل الأحاديث ، إنما اكتفيتُ بذكر بعضها لأوضح المنهجية المتَّبعة في الرد على المبتدعة .

لكنني قبل أن أشرع في هذه الدراسة ينبغي أن ألفت الانتباه إلى بعض الملاحظات التي يتوجب معرفتها :

١) إن سلسلة السند في أي حديث تشمل تقريباً خمسة أشخاص حتى الوصول إلى النبيِّ ﷺ ، فإذا أراد أحد المغرِضين الطعن في الصحابي أو اتهامه بالكذب ، فيجب عليه أن يثبت بالدليل القاطع أن آفة الحديث قادمة من ذلك الصحابي تحديداً ، وأنه قد تعمَّد الكذب على النبيِّ ﷺ ، فالبيِّنة على مَن ادَّعى . وغير ذلك يكون الكلام في الهواء لا تقوم له قائمة لأنه مبني على الوساوس واتباعِ الهوى دون أي دليل ملموس .

والدعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعياءُ

٢) إن كثرة رواية الحديث بالنسبة لأبي هريرة لا تستلزم بالضرورة تفوقه العلمي على باقي الصحابة ، فقد روى أبو هريرة أكثر مما رواه أبو بكر الصديق ، وهذا لا يعني أن أبا هريرة أكثر علماً من أبي بكر الصِّديق،أو أنه يمتاز بالأفضلية عليه. وهذا هو المبدأ المعتمد في هذا السياق .

٣) لم ينفرد أبو هريرة بكثرة الأحاديث . فهناك صحابة مُكْثِرون في الرواية مِثْل : ابن عباس ، وابن عمر وابن عمرو وأبي سعيد الخدري وجابر وعائشة وأنس وغيرهم من الصحابة .

٤) كثرة رواية أبي هريرة لها أسباب علمية واضحة :

أ) كثرة ملازمته للنبيِّ ﷺ فقد صحب النبي أربع سنوات(1). وروى البخاري(١/٥٥): عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون : أكثرَ أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ما حَدَّثتُ حديثاً ثم يتلو ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات ﴾ إلى قوله : ﴿ الرحيم ﴾ [البقرة: ١٥٩و١٦٠]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بِشِبَعِ بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون . وفي مسند أحمد (٢/ ٤٢٤) : عن أبي رزين أنه رأى أبا هريرة يضرب جبهته بيده ويقول: ((يا أهل العراق ، تزعمون أني أكذب على رسول الله ﷺ ، ليكن لكم المهنأ ، وعليَّ الإثم)) . والمعنى : ليكن لكم الأجر والثواب ، وعليَّ الإثم والعقاب .

ب) دعا له النبيُّ ﷺ بالحفظ . فقد روى البخاري (٣/ ١٣٣٣) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قلتُ يا رسول الله : إني سمعتُ منك حديثاً كثيراً فأنساه ، قال : ((ابسط رداءك)) فبسطتُه، فغرف بيديه فيه ثم قال : ((ضُمَّه)) . فضممتُه فما نسيت حديثاً بعد .

ج) تفرغ أبي هريرة للتعليم .

د) كثرة تلامذته والناقلين عنه ، فكان عدد تلامذته قريباً من ثمانمائة .

هـ) تأخر وفاته ، فقد توفي سنة ٥٧ هـ ، وقيل ٥٨ هـ .

٥) إن الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يأتي :

أ) ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبي هريرة .

ب) ما كان مكرَّراً وهذا أكثره .

ج) ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم ، ولم يذكرهم لثقتهم عنده ،

---

(١) من الثابت في الحديث الصحيح أن أبا هريرة قَدِمَ المدينةَ والنبيُّ ﷺ بِخَيبر (سنة ٧هـ) .

وهو ما يُسمَّى بِمُرْسَل الصحابي .

د) ما كان موقوفاً عليه من كلامه .

٦) اتفق البخاري ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثاً فقط . وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين ، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين ، ثم إن جُل الأحاديث التي رواها أبو هريرة لم ينفرد بها عن رسول الله ﷺ ، بل شاركه في روايتها غيره من الصحابة .

٧) مما يدل على سَعَة حفظ أبي هريرة وأمانته في النقل ما رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي. عن أبي الزُّعَيْزِعة (كاتب مروان بن الْحَكم) أن مروان دعا أبا هريرة، فأقعدني خلف السرير وجعل يسأله، وجعلتُ أكتب ، حتى إذا كان عند رأس الْحَوْل دعا به فأقعده وراء الحِجاب ، فجعل يسأله عن ذلك ، فما زاد ولا نقص ، ولا قدَّم ولا أخَّر .

٨) في جوامع السيرة لابن حزم (ص ٢٧٥) أن مرويات أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ٥٣٧٤ ، فيها الثابت وغير الثابت ، والمكرَّر وغير المكرَّر ، وفيها المرفوع والموقوف ، وفيها ما شارك صحابة آخرين في روايته وما انفرد به [2].

٩) تم استغلال اسم أبي هريرة من قبل الوَضَّاعين ، وذلك لترويج الأحاديث المكذوبة عبر اجتذاب الناس عندما يسمعون اسم أبي هريرة اللامع في عالَم الرواية. وهذا منتشر في شتى الأزمنة والأمكنة، وفي كل الأمم بمختلف أديانها ومذاهبها . فمثلاً ساق الشيعة في كتبهم الكثير من الأكاذيب المنسوبة لأئمة آل البيت، فكتاب نهج البلاغة لا يثبت عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ، وكتاب الجفر _مثلاً_ والمذهب الجعفري كله لا يثبتان عن الإمام جعفر الصادق ، وكتاب المجموع لا يثبت عن الإمام زيد بن عليٍّ. وهذا مَرَدُّه إلى الظلمات والمناطق المعتمة التي تعتري السند والمتن. فالنَّقل ينبغي أن يكون وفق المنهجية الشرعية العلمية من حيث شروط السند وشروط المتن (الرواية والدراية) .

ولو قلنا إن مدة صحبة أبي هريرة _ رضي الله عنه_ للنبيِّ ﷺ هي أربع سنوات (حيث قَدِم على النبيِّ سنة ٧هـ عام خَيبر) ، يعني أكثر من ١٤٠٠ يوم . فلو قمنا بحذف الأحاديث غير الثابتة ، وقمنا بغض النظر عن المكرَّر ، وحسبنا فقط ما انفرد به أبو هريرة دون أن يشاركه أحد من الصحابة . فإن عدد المرويات سوف ينخفض بشكل كبير جداً ، فقد يصل إلى حديث أو حديثين

(٢) النقاط ٣، ٤، ٥، ٦ ،٧ ، ٨ مأخوذة من كتاب " كشف الجاني " ص ١٦٨، ١٦٩، ١٨٥ .

كل يوم بالنسبة لشخص ملازِم للنبيِّ ﷺ ، والنبيُّ ﷺ لم يكن يطرد من يأتيه . وهذه نسبة معقولة نقلاً وعقلاً . فمن الجائز أن ينفرد أبو هريرة _ رضي الله عنه_ بسماع حديث أو حديثين كل يوم لم يسمعهما غيره لأنه عندئذ يكون خالياً بالنبيِّ ﷺ . وهو أمر ممكن لا يلزم من جواز وقوعه مُحال ، وكل ما كان هذا شأنه فهو جائز الوقوع .

١٠) أمَّا المرويات المتعلقة بالإنكار على أبي هريرة _ رضي الله عنه _ بسبب كثرة حديثه عن النبيِّ ﷺ . فيمكن أن نفهم سببها من خلال سياق الحديث التالي : عن قَرَظَة بن كَعْب قال : خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر بن الخطاب إلى صِرار فتوضأ، ثم قال: ((أتدرون لِمَ مَشيتُ معكم؟))، قالوا : نعم ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيتَ معنا ، قال : ((إنكم تأتون أهلَ قرية لهم دَوِيٌّ بالقرآن كَدَوِيِّ النحل ، فلا تبدونهم بالأحاديث فيشغلونكم ، جَرِّدوا القُرآنَ ، وأَقِلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وامْضُوا وأنا شريككم)) ، فلمَّا قَدِمَ قَرَظَة ، قالوا : حَدِّثْنا ، قال : نهانا ابن الخطاب[3]. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٠٧) : ((فإن عمر كان يقول : اشتغلوا بالقرآن كلام الله. ولهذا لَمَّا بعث أبا موسى إلى العراق ، قال له : إنك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دَوِيٌّ بالقرآن كَدَوِيِّ النحل، فَدَعْهم على ما هُم عليه، ولا تشغلهم بالأحاديث ، وأنا شريكك في ذلك . هذا معروف عن عمر _ رضي اللهُ عنه _)) اهـ .

١١) ومما سبَّب المتاعب لأبي هريرة _ رضي الله عنه_ صداقته لكعب الأحبار الذي أورد أخباراً كثيرة من علوم أهل الكتاب حيث يختلط الحق بالباطل .

١٢) وأحياناً يطعن بعض الشيعة الروافض في أبي هريرة لأنه كان فقيراً ثم صار ذا مال ، فيثيرون الشكوك حول مصدر أمواله ، وهو الفقير البائس فيما مضى. قال الإمام الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٤٤٢) بسند صحَّحه عن أبي هريرة : ((كنتُ أجيراً لِبُسْرة بنت غَزوان لنفقة رَحْلي ، وطعام بطني ، فإذا ركبوا سَبقتُ بهم ، وإذا نزلوا خدمتُهم ، فزوَّجنيها الله ، فأنا أركب ، وإذا نزلتُ خُدِمْتُ)) اهـ . وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٣٣٥) عن محمد ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال لي عمر : يا عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّ كتابه ، أسرقتَ مالَ الله ؟ ، قال : فقلتُ : ما أنا بِعَدُوِّ اللهِ ولا عَدُوِّ كتابه ، ولكني عَدُوُّ مَن عاداهما ، ولا سرقتُ مالَ الله ، قال : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف ؟ ، قال : قلتُ : يا أمير المؤمنين ، خَيلي تناسلت ، وسهامي

(٣) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٨٣) وصحَّحه، وقال الذهبي : ((صحيح ، وله طرق)) .

تلاحقت ، وعطائي تلاحق ، قال : فأمرَ بها أمير المؤمنين ، فَقُبِضَت ، قال : فكان أبو هريرة يقول : اللهم اغفر لأمير المؤمنين .

١٣) بعض الشيعة الروافض يطعن في أبي هريرة _ رضي الله عنه_ ويتهمونه بأنه باع نفْسه لبني أُمَيَّة،وصار بُوقاً مادحاً لهم،وأفضل رد على هذا الأمر هو النظر في ما رواه أبو هريرة في فضائل عليٍّ بن أبي طالب . ولو باع نفْسَه لبني أُمَيَّة لكان على الأقل لَم يُحدِّث بفضائل عليٍّ ، أو أنكرها وطمسها موالاةً منه لبني أمية .

١٤) طعن بعضُ الروافض في بعض الأحاديث التي رواها أبو هريرة_ رضي الله عنه _ متَّهمين إياه بأنه كذب على النبيِّ ﷺ. والذي يرمي أبا هريرة بالكذب ، يجب أن يقدِّم دَليلَيْن : الأول_ أن آفة السند هي أبو هريرة حصرياً دون غيره ، والثاني_ أنه تعمَّد الكذب على النبيِّ ﷺ . وبدون هذين الدليلَيْن لا وزن لكلامه . ونحن سندرس بشكل موجز وسريع بعضَ الأحاديث التي رواها أبو هريرة وسبَّبت في نفوس البعض إشكالياتٍ ، لكي نُزيل الوهم والشُّبهات من الجذور بشكل نهائي حاسم . وكما يقولون الشُّبه خطَّافة ، والقلوب ضعيفة .

الحديث الأول : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود _عليه السلام_ فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان ابن داود _عليهما السلام _ فأخبرتاه، فقال : ائتوني بالسكين أَشُقُّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل _ يرحمك الله_ هو ابنها ، فقضى به للصغرى [4].

قال المعارِض : ((إن داود ﷺ نبيٌّ معصوم، فكيف يُنقَض حُكمه على يد ابنه سليمان ﷺ ؟ ، كما أن الحديث صريح بتناقض الحُكْمَيْن، مما يوجب القطع بخطأ أحدهما، والخطأ على الأنبياء ممتنع في مقام الحُكم بما أنزل الله تعالى. وأيضاً ظاهر الحديث أن داود ﷺ حَكم بالولد للكبرى بدون بيِّنة ولا مستند ، غير أنها كبرى ، وهذا لا يصدر إلا من جاهل بالموازين الشرعية بعيداً عن قوانين المحاكَمات. وهذا الحديث صريح في أن سليمان ﷺ إنما حَكم به للصغرى بمجرد إشفاقها عليه من الشق بالسكين، وهذا لا يكون ميزاناً لِحُكمه، لا سِيَّما بعد إقرارها به للكبرى،وبعد حُكم أبيه بذلك)) اهـ .

(٤) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٤٨٥) برقم (٦٣٨٧)،ومسلم (٣/ ١٣٤٤) برقم (١٧٢٠).

بدايةً ، يجب الاعتقادُ بأن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ هُم القُضاة العادلون ، لا يَحْكمون بالهوى والشُّبهات ، وإنما يَحْكمون بالأدلة الواضحة ، والبراهينِ الجلية . وهُم مُنَزَّهون عن الظلم أو الغفلة . ولا بد أن النبي داود ﷺ قد حَكم لصالح الكُبرى بسبب امتلاكه الحُجَّة على أحقِّيتها بالولد . وبالتأكيد ، لقد ظَهر له البرهان على هذا الأمر ، فَحَكَمَ به . فلا يمكن تصوُّر أن نبيًّاً معصوماً يَحكم بالشُّبهة أو بالهوى. والنبيُّ سليمان ﷺ لم يَهدف إلى نقض حُكم أبيه ، وإنما أرادَ معرفة الأمر بسبب بيِّنات ظَهرت له. ولا يخفَى أن الأحكام تتغير بتغيُّر الأسباب والأوضاع المعاشة. وبالتأكيد،إن النبي داود ﷺ قد حَكم اعتماداً على اجتهاده النبوي في ظل غياب الوحي السماوي، وعدم وجود نَص دِيني.ولو كان هناك نَص سماوي في القضية،لَمَا قام النبي سليمانﷺبنقض الحُكم.

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٤و٤٦٥): ((والذي ينبغي أن يقال إن داود _ عليه السلام_ قضى به للكبرى لسبب اقتضى به عنده ترجيح قولها، إذ لا بيِّنة لواحدة منهما، وكَوْنه لم يُعيَّن في الحديث اختصاراً لا يلزم منه عدم وقوعه ، فيحتمل أن يقال إن الولد الباقي كان في يد الكبرى ، وعجزت الأخرى عن إقامة البيِّنة ... وهذا تأويل حسن جار على القواعد الشرعية ، وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه، فإن قيل : فكيف ساغ لسليمان نقض حُكمه ، فالجواب : أنه لم يعمد إلى نقض الحُكم ، وإنما احتال بحيلة لطيفة ، أظهرت ما في نفْس الأمر . وذلك أنهما لَمَّا أخبرتا سليمان بالقصة فدعا بالسكين ليشقه بينهما ولم يعزم على ذلك في الباطن ، وإنما أراد استكشاف الأمر فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدال على عظيم الشفقة، ولم يلتفت إلى إقرارها بقولها : هو ابن الكبرى لأنه عَلِمَ أنها آثرت حياته ، فظهر له من قرينة شفقة الصغرى ، وعدمها في الكبرى مع ما انضاف إلى ذلك من القرينة الدالة على صدقها ما هجم به على الحُكم للصغرى . ويحتمل أن يكون سليمان _ عليه السلام _ مِمَّن يُسوَّغ له أن يَحكم بعِلمه ، أو تكون الكبرى في تلك الحالة اعترفت بالحق لَمَّا رأت من سليمان الجد والعزم في ذلك . ونظير هذه القصة ما لو حَكم حاكم على مُدَّعٍ مُنكِرٍ بيمين، فلمَّا مضى لِيُحَلِّفَه حضر مَن استخرج مِن الْمُنكِر ما اقتضى إقراره بما أراد أن يحلف على جحده ، فإنه والحالة هذه يحكم عليه بإقراره سواء كان ذلك قبل اليمين أو بعدها، ولا يكون ذلك من نقض الحُكم الأول، ولكن من باب تبدل الأحكام بتبدل الأسباب.وقال ابن الجوزي: استنبط سليمان لَمَّا رأى الأمر مُحتمَلاً فأجاد ، وكلاهما حَكم بالاجتهاد، لأنه لو كان داود حَكم بالنَّص لَمَا ساغ لسليمان أن يَحكم بخِلافه . ودلَّت هذه القصة

على أن الفِطنة والفهم موهبة من الله ، لا تتعلق بكبر سِن ولا صغره، وفيه أن الحق في جهة واحدة، وأن الأنبياء يُسوَّغ لهم الحُكم بالاجتهاد وإن كان وجود النَّص ممكناً لديهم بالوَحْي، لكن في ذلك زيادة في أجورهم ، ولعِصمتهم من الخطأ في ذلك ، إذ لا يُقِرُّون _لعِصمتهم_ على الباطل . وقال النووي: إن سليمان فعل ذلك تحيُّلاً على إظهار الحق، فكان كما لو اعترف المحكوم له بعد الحُكم أن الحق لخصمه ، وفيه استعمال الحِيَل في الأحكام لاستخراج الحقوق ، ولا يتأتى ذلك إلا بمزيد الفِطنة ، وممارسة الأحوال)) اهـ .

الحديث الثاني : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((قال سليمان بن داود _ عليهما السلام _ : لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين ، كُلُّهُنَّ يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يَحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشِق رَجل))[5] .

قال المعارِض : ((إن القوة البشرية تضعف عن الطواف بهنَّ في ليلة واحدة مهما كان الإنسان

قوياً ، وهذا مخالف لنواميس الطبيعة . كما أنه لا يجوز على النبيِّ سليمان ﷺ أن يترك التعليق على المشيئة ، لا سِيَّما بعد تنبيهه على ذلك . وهناك اضطراب في عدد النساء في الروايات المتعددة)) .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٠ و٤٦١): ((فمُحصِّل الروايات ستون، وسبعون ،وتسعون، وتسع وتسعون، ومائة . والجمع بينها أن الستين كُنَّ حرائر ، وما زاد عليهنَّ كُنَّ سراري ، أو بالعكس . وأمَّا السبعون فللمبالغة ، وأمَّا التسعون والمائة فَكُنَّ دون المائة وفوق التسعين ، فمن قال تسعون ألغى الكسر ، ومن قال مائة جَبره ... قال بعض السلف : نبَّه ﷺ في هذا الحديث على آفة التمني والإعراض عن التفويض ، قال : ولذلك نسي الاستثناء ليمضيَ فيه القَدَر . قوله : فقال له صاحبه : إن شاء الله ، ... قال عِياض : ونَسِيَ أن يقول إن شاء الله ، ومعنى قوله : فلم يقل ، أي بلسانه لا أنه أبى أن يُفوِّض إلى الله، بل كان ذلك ثابتاً في قلبه ، لكنه اكتفى بذلك أوَّلاً، ونسي أن يُجْرِيَه على لسانه لَمَّا قِيل له ، لشيء عُرض له)) اهـ .

---

(٥) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٣٨) برقم (٢٦٦٤)،ومسلم (٣/ ١٢٧٥) برقم (١٦٥٤).

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٢٠) : ((قَوْله ﷺ : كان لسليمان ستون امرأة، وفي رواية سبعون، وفي رواية تسعون،وفي غير صحيح مسلم تسع وتسعون، وفي رواية مائة، هذا كله ليس بمتعارض، لأنه ليس في ذِكر القليل نفي الكثير ، وقد سبق بيان هذا مرات وهو من مفهوم العدد ، ولا يُعمَل به عند جماهير الأصوليين. وفي هذا بيان ما خُصَّ به الأنبياء ــ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ــ من القوة على إطاقة هذا في ليلة واحدة ، وكان نَبِيُّنا ﷺ يطوف على إحدى عشرة امرأة له في الساعة الواحدة كما ثبت في الصحيح[6]. وهذا كله من زيادة القوة)) اهـ.

---

(٦) روى البخاري في صحيحه (١/ ١٠٩) عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ كان يَطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة. اهـ. وقال الحافظ في الفتح(٦/ ٤٦٢): ((ويقال إن كل من كان أتقى لله فشهوته أشد لأن الذي لا يَتَّقي يتفرج بالنظر ونحوه))اهـ. قلتُ : وبعض الذين في قلوبهم مرض مِمَّن يَعبدون الله على حرف ، أو من المستشرقين المغرِضين ، وصبيانهم من أبناء جِلْدتنا يضطرب وينهار أمام هذه الأحاديث، ويحملها في قلبه المريض على أنها هوس جنسي مرتبط بالأنبياء ــ وحاشاهم ــ . والذين يعتبرون هذا الكلام طعناً في النُّبوة ، إنما هم يَحملون فكرة مغلوطة عن خصائص النُّبوة ، إذ يعتقدون أنها تطليقٌ للدنيا ، وفقر مدقع ، وثياب رثة ، وانقطاع عن ملذات الحياة ، وعدم اقتراب من النساء ، وهذه خصائص صورة الأنبياء ــ من وجهة نظرهم ــ والتي أخذوها من الرهبانية المنحرِفة التي سحقت كرامةَ الإنسان، وأبادت قيمةَ الحياة باسم حُبِّها لله تعالى ــعلى حد زعمهم ــ. وهذا كله مرفوض في المنظور الإسلامي، لأن القاعدة القرآنية الموجِّهة للمجتمع الإنساني العالمي واضحة تماماً : ﴿ قُل مَن حَرَّم زينةَ الله التي أَخرج لعباده والطيباتِ من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ﴾ [الأعراف: ٣٢] . وينبغي أن ندرك أن الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ هم بشرٌ قبل أن يكونوا أنبياء، وبالتالي فإنهم يملكون شهواتٍ جنسية مثل كل البشر، ويُفرِّغونها ضمن إطار الحلال، وهذا ليس طعناً فيهم أو في الرسالة، لأنهم سائرون وفق شريعة الله تعالى لا يتنكَّبون، فالإنسان هو نتاج العملية الجنسية، وإذا كان الجنس ضمن إطار الزواج رذيلةً، فهذا يعني أن البشر كلهم غارقون في الخطيئة والدَّنس ، وهذا باطل بالضرورة . فهناك أنبياء تزوَّجوا ، وأنبياء لم يتزوَّجوا، واختلف عدد النساء من نبيٍّ إلى آخر، كل ذلك لحِكمة يَعلمها الله تعالى. وكما أنه لا يجوز أن نتَّهم الأنبياء الذين لهم أكثر من امرأة بالهوس الجنسي ، لا يجوز أن نتَّهم أي نبيٍّ لم يتزوج بأنه عاجز جنسياً ، أو ضعيف في

وفي فيض القدير للمناوي (٤/ ٥٠٣) : ((يُحتمَل أن الليل في ذلك الزمان كان طويلاً جداً بحيث يتأتى له فيه جماع مئة امرأة مع تهجده ونومه ، ويحتمل أنه تعالى خرق له العادة فَيُجامع ويتطهر وينام، ثم هكذا ثم هكذا والليل في الطول على ما هو عليه الآن، كما خرق الله العادة لأبيه داود _عليهما السلام_ في قراءة الزَّبور بحيث كان يقرأه بقَدْر ما تُسرَج له دابته، وهذا يوجد الآن في الأولياء كثيراً ، وفيه ما رزقه سليمان من القوة على الجِماع، وأنها في الرجال

الجِماع.فالشهوة الجنسية ليست عَيباً أو إثماً ليخجل الإنسان منه، بل هي طاقة عظيمة خلقها اللهُ تعالى لأداء وظيفة محدَّدة ، وهي بقاء النَّوع . فمن استعملها في المجال الصالح عادت عليه وعلى البشرية بالصلاح، ومَن أساءَ استخدامها فالمشكلة فيه وليست فيها. والمستشرقون يضعون في عقولهم ماءً عكراً ، ويحاولون الاصطياد فيه ، ويتخذون من مسألة تعدد زوجات النبيِّ ﷺ وسيلةً للطعن فيه ﷺ _ من وجهة نظرهم القاصرة _ ، وهم يَنْسَوْنَ أنهم أنفسهم = = نتاج العملية الجنسية. لذلك حُجَّتهم داحضة، ولا تقوم لها قائمة،فالمخلوقات الوحيدة التي لا تتكاثر، ولا تتزاوج هي الملائكة، وكان اللهُ قادراً أن يجعل الأنبياء مثل الملائكة خالين من الشهوات كُلِّها ، لكنه تعالى أراد أن يختار الأنبياء من جنس البشر المركَّبين من الشهوات ليظلوا أقرب إلى أقوامهم من ناحية التركيب الجسمي روحاً ومادةً، وهذا يخدم الدعوة الإسلامية_ رسالة كل الأنبياء_ بشكل أفضل . قال الله تعالى : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ [آل عمران : ١٦٤]. والأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام_ مُنَزَّهون عن النقائص والعجز والعيوب ، وهم مُنَزَّهون عن العجز الجنسي لأنه نقيصة وعيب.حتى الأنبياء الذين لم يتزوجوا كانوا يمتلكون الشهواتِ الجنسية ، ولكنهم اختاروا هذا الطريق لعِلمهم بأنه الأفضل بالنسبة لحالهم ووضعهم الخاص . قال الله _ تبارك وتعالى _ في مدح النبيِّ يحيى ﷺ : ﴿ وسَيِّداً وحصوراً ونبياً ﴾ [آل عمران : ٣٩]. ومعنى كلمة " حصور " هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك ، ولو لَم تكن فضيلة لَمَا مدحها اللهُ تعالى ، وهذا نفي واضح للعجز الجنسي عن الأنبياء لأنه نقيصة ومطعن ، فأراد الله تعالى أن يغلق طريق الوساوس أمام الناس الذين قد يحسبون عدم زواج بعض الأنبياء عجزاً جنسياً أو ضعفاً في الجماع . قال الحافظ في الفتح(٨/ ٢٠٩) : ((وأصل الحصر الحبس والمنع . يقال لِمَن لا يأتي النساء ، أعم من أن يكون ذلك بطبعه كالعِنِّين أو بمجاهدة نفْسه ، وهو الممدوح والمراد في وصف السيد يحيى _ عليه السلام_)) اهـ . وفي عمدة القاري (٢٠/ ٦٦) : ((وهو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهنَّ ، فمدحَ اللهُ به)) .

فضيلة ، وهي تدل على صحة الذكورية وكمال الإنسانية. قال القرطبي:...وأُعطي هذه القوة في الجِماع ليتم له المُلك على خرق العادة من كل الجهات ، لأن الملوك يَتَّخذون من الحرائر والسراري بقَدْر ما أُحل لهم ويستطيعونه ، فأُعطي سليمان تلك الخصوصية ليتميز بها عنهم ، فكان نساؤه من جنس مُلكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٢) : ((وقال ابن الجوزي : فإن قيل : من أين لسليمان أن يخلق من مائة هذا العدد في ليلة، لا جائز أن يكون بِوَحْيٍ لأنه ما وَقَعَ، ولا جائز أن يكون الأمر في ذلك إليه لأن الإرادة لله ، والجواب: أنه من جِنس التَّمني على الله، والسؤال له أن يَفعل ، والقَسَم عليه)) اهـ .

الحديث الثالث : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال : أُرسِلَ مَلَكُ الموت إلى موسى _ عليه السلام _ ، فلما جاءه صكَّه ففقأ عينه، فرجع إلى رَبِّه ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : فَرَدَّ اللهُ إليه عَيْنه ، وقال : ارجع إليه ، فقل له يضع يده على مَتْنِ ثَوْرٍ فله بما غطَّت يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رَبِّ ثُمَّ مَه _ ثم ماذا_ ؟ ، قال : ثم الموت ، قال : فالآن [7].

قال المعارِض: ((كيف يتسنى لنبيٍّ كريم أن يضرب مَلَكَ الموتِ ؟،فالأنبياء أعلم الناس بخالقهم، والملائكة مأمورون بتنفيذ الأوامر الرَّبانية ، ومُحال أن تصدر عن الأنبياء إساءة)) اهـ .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٢و٤٤٣): ((قال ابن خُزَيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث

وقالوا إن كان موسى عَرَفه فقد استخفَّ به ، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقء عينه . والجواب : أن الله لم يبعث مَلَكَ الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، وإنما بعثه إليه اختباراً ، وإنما لطم موسى مَلَكَ الموت لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير إذنه ، ولم يعلم أنه مَلَك الموت ، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن. وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداءً،ولو عرفهم إبراهيم لَمَا قدم لهم المأكول ، ولو عرفهم لوط لَمَا خاف عليهم من قومه. وعلى تقدير أن يكون عرفه، فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القِصاص بين الملائكة والبشر ؟، ثم من أين له أن مَلَكَ الموت طلب القِصاص من

(٧) متفق عليه. البخاري (١/ ٤٤٩) برقم (١٢٧٤)، ومسلم (٤/ ١٨٤٢) برقم (٢٣٧٢).

موسى فلم يُقتَص له ؟. ولخص الخطابي كلامَ ابن خزيمة ، وزاد فيه أن موسى دفعه عن نفْسه لِمَا رُكِّب فيه من الحِدَّة ، وأن اللهَ رَدَّ عَيْنَ مَلَكِ الموت ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله ، فلهذا استسلم حينئذ . وقال النووي : لا يُمتنَع أن يأذن الله لموسى في هذه اللطمة امتحاناً للملطوم ،...وقال ابن قُتَيبة : إنما فقأ موسى العَين التي هي تخييل وتمثيل وليست عَيْناً حقيقة ، ومعنى رَدَّ اللهُ عَيْنه ، أي أعاده إلى خِلقته الحقيقية ، وقيل على ظاهره، ورَدَّ اللهُ إلى مَلَكِ الموت عَيْنه البشرية ليرجع إلى موسى على كمال الصورة ، فيكون ذلك أقوى في اعتباره ، وهذا هو المعتمَد . وجوَّز ابن عقيل أن يكون موسى أُذن له أن يفعل ذلك بِمَلَكِ الموت ، وأُمر مَلَكُ الموت بالصبر على ذلك ، كما أُمر موسى بالصبر على ما يصنع الخضر ، وفيه أن الْمَلَكَ يتمثل بصورة الإنسان)) .

قال العيني في عمدة القاري (٨/ ١٤٨ و١٤٩): ((وقال ابن خزيمة: أنكر بعض أهل البدع والجهمية هذا الحديث، وقالوا لا يخلو أن يكون موسى_ عليه الصلاة والسلام_ عَرَفَ مَلَكَ الموت أو لم يعرفه ، فإن كان عَرَفه فقد استخفَّ به، وإن كان لم يعرفه فرواية من روى أنه كان يأتي موسى عَياناً لا معنى لها ، ثم إن الله تعالى لم يقتص لِمَلَكِ الموت من اللطمة وفقء العين ، والله تعالى لا يظلم أحداً . قال ابن خزيمة : وهذا اعتراض من أعمى اللهُ بصيرته ، ومعنى الحديث صحيح وذلك أن موسى لم يَبعث اللهُ إليه مَلَكَ الموت وهو يريد قبض روحه حينئذ ، وإنما بعثه اختباراً وبلاء كما أمر اللهُ تعالى خليله بذبح ولده ولم يُرد إمضاء ذلك ، ولو أراد أن يقبض روح موسى _ عليه الصلاة والسلام _ حين لَطم الْمَلَكَ لكان ما أراد. وكانت اللطمة مباحة عند موسى إذ رأى آدمياً دَخل عليه، ولا يعلم أنه مَلَكُ الموت ... وقد جاء الْمَلَكُ إلى مريم فلم تعرفه ، ولو عرفته لَمَا استعاذت منه، وقد دخل الْمَلَكَان على داود _ عليه الصلاة والسلام _ في شَبَه آدمِيَّيْن يختصمان عنده ، فلم يعرفهما... وقال الخطابي: فإن قيل: كيف يجوز أن يفعل موسى _ عليه الصلاة والسلام _ بالْمَلَكِ مثل هذا الصنيع ؟ ، أو كيف تصل يده إليه ؟ ، أو كيف لا يقبض الْمَلَكُ رُوحَه ولا يمضي أمر الله تعالى به ؟ . قلتُ : أكرم الله موسى _ عليه الصلاة والسلام _ في حياته بأمور أفرده بها فلما دنت وفاته لَطَفَ أيضاً به، بأن لم يأمر الْمَلَكَ به بأخذ رُوحه قهراً ، لكن أرسله على سبيل الامتحان في صورة البشر ، فاستنكر موسى _ عليه الصلاة والسلام _ شأنه ودفعه عن نفْسه ، فأتى ذلك على عَيْنه التي رُكِّبت في الصورة البشرية التي جاءه فيها دون الصُّورة الْمَلَكِيَّة، وقد كان في طبع موسى _عليه الصلاة والسلام_ حِدَّة)) اهـ .

الحديث الرابع : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراة ، يَنظر بعضُهم إلى بعض ، وكان موسى يغتسل وَحْدَه ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدَر _ منتفخ الْخُصْيَتَيْن _، فذهب مَرَّةً يَغتسل فوضع ثوبه على حجر ، فَفَرَّ الْحَجرُ بثوبه ، فخرج موسى في إثره يقول : ثَوْبي يا حَجر ، حتى نظرتْ بنو إسرائيل إلى موسى ، فقالوا : والله ما بموسى من بأس ، وأخذَ ثَوْبَه فَطَفِقَ بالْحَجرِ ضَرْباً))[8].

قال المعارِض:((كيف ينظر القوم إلى سَوْآت بعضهم البعض ؟، وكيف يَطَّلع الناس على عَوْرة نبيٍّ ، فهذا ينافي كمال النُّبوة وطهارتها)) اهـ .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٣٨٦) : ((ظاهره أن ذلك كان جائزاً في شَرْعهم ، وإلا لَمَا أقرَّهم موسى على ذلك ، وكان هو _عليه السلام _ يَغتسل وَحْدَه أخذاً بالأفضل ... قوله : ثَوبي يا حجر، أي أعطني، وإنما خاطبه لأنه أجراه مجرى مَن يعقل لكونه فَرَّ بثوبه ، فانتقل عنده من حُكم الجماد إلى حُكم الحيوان فناداه ، فلمَّا لم يعطه ضَربه . وقيل : يُحتمَل أن يكون موسى أراد بضربه إظهار المعجزة بتأثير ضَربه فيه ، ويُحتمل أن يكون عَن وَحْي . قوله : حتى نظرتْ ، ظاهره أنهم رأوا جسده، وبه يتم الاستدلال على جواز النظر عند الضرورة لمداواة وشَبَهها.وأبدى ابن الجوزي احتمال أن يكون كان عليه مِئْزَر لأنه يظهر ما تحته بعد البلل، واستحسن ذلك ناقلاً له عن بعض مشايخه ، وفيه نظر)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ٣٣) : ((ويجوز أن يكون أراد موسى ﷺ بضرب الحَجر إظهار معجزة لقومه بأثر الضرب في الحَجر ، ويُحتمل أنه أُوحِيَ إليه أن يَضربه لإظهار المعجزة ، والله أعلم)) اهـ . وفي تحفة الأحوذي (٩/ ٦٢): ((هذا يُشعِر بأن اغتسال بني إسرائيل عُراة بمحضر منهم كان جائزاً في شرعهم، وإنما اغتسل موسى وَحْدَه استحياءً، ... وإن اللهَ أراد أن يُبَرِّئه ، ...أي يُنَزِّهه عن نِسبة ذلك العَيب)) .

الحديث الخامس: عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ أن رسول الله ﷺ قال: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رَبِّ أرني كيف تحي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ، ويَرحم اللهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى رُكن شديد،ولو لَبثتُ في السجن طُول ما لَبِثَ يُوسُف لأجبتُ الداعي))[9].

---

(٨) متفق عليه . البخاري (١/ ١٠٧) برقم (٢٧٤) ، ومسلم (١/ ٢٦٧) برقم (٣٣٩) .

(٩) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٣٣) برقم (٣١٩٢) ، ومسلم(٤/ ١٨٣٩) برقم (١٥١) .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤١٢ و٤١٣) : ((اختلفوا في معنى قوله ﷺ : نحن أحق بالشك . فقال بعضُهم : معناه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم ، وقِيل : معناه إذا لم نَشُكَّ نحن فإبراهيم أَوْلى أن لا يَشُك ، أي لو كان الشَّك متطرقاً إلى الأنبياء لكنتُ أنا أحق به منهم ، وقد علمتم أني لم أَشُك ، فاعلموا أنه لم يَشُك، وإنما قال ذلك تواضعاً منه ، أو مِن قَبل أن يُعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم.وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم أن رَجلاً قال للنبيِّ ﷺ: ((يا خَيْرَ البَرِيَّة، قال : ذاك إبراهيم))[10]. وقيل : إن سبب هذا الحديث أن الآية لَمَّا نزلت قال بعض الناس : شَكَّ إبراهيم ولم يَشُكَّ نَبِيُّنا ، فبلغه ذلك ، فقال نحن أحق بالشَّك من إبراهيم ، وأراد ما جرت به العادة في المخاطبة لمن أراد أن يَدفع عن آخر شيئاً ...وقال آخرون: شَكَّ إبراهيم في القُدرة، وذُكر أثر ابن عباس وعطاء ، قال ابن عطية : ومحمل قول ابن عباس عندي أنها أرجى آية لِمَا فيها من الإدلال على الله ، وسؤال الإحياء في الدنيا ، أو لأن الإيمان يكفي فيه الإجمال ، ولا يحتاج إلى تنقير وبحث ، قال : ومحمل قول عطاء : دَخل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس ، أي مِن طَلَبِ الْمُعايَنة ، قال : وأمَّا الحديث فمبنيٌّ على نفْي الشَّك ، والمراد بالشَّك فيه الخواطر التي لا تَثْبت ، وأمَّا الشَّك المصطلَح وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ، فهو منفي عن الخليل قطعاً ، لأنه يبعد وقوعه مِمَّن رَسخ الإيمانُ في قلبه، فكيف بمن بَلغ رُتبةَ النُّبوة ؟!)) اهـ .

وقال السيوطي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٧٣) : ((نحن أحق بالشك من إبراهيم ، معناه أن الشك يستحيل في حق إبراهيم،فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنتُ أنا أحق به من إبراهيم ، وقد علمتم أني لم أشُكَّ ، فاعلموا أن إبراهيم لم يَشُكَّ)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤١٣) : ((ولو لَبثتُ في السجن طُول ما لَبِثَ يُوسُف لأجبتُ الداعي ، أي لأسرعتُ الإجابة في الخروج من السجن ، ولَمَا قَدَّمْتُ طَلَبَ البراءة ، فوصفه بشدة الصبر، حيث لم يبادر بالخروج، وإنما قاله ﷺ تواضعاً، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رِفعة وجلالاً)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٨٥) : ((فهو ثناء على يوسف ــ عليه السلام ــ وبيان لصبره وتأنِّيه ، والمراد بالداعي رسول الْمَلِكِ الذي أخبرَ اللهُ ــ سبحانه وتعالى ــ

(١٠) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٣٩) برقم (٢٣٦٩) .

أنه قال:﴿ ائتوني به فلمَّا جاءه الرَّسولُ قال ارْجِعْ إلى رَبِّك فاسأله ما بالُ النِّسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ﴾ [يُوسُف: ٥٠]، فلم يخرج يوسف ﷺ مبادراً إلى الراحة، ومفارقةِ السجن الطويل، بل تثبَّت وتوقَّر، وراسلَ الْمَلِكَ في كشف أمره الذي سُجن بسببه ، ولِتظهر براءته عند الْمَلِك وغيره، ويلقاه مع اعتقاده براءته مما نُسب إليه ، ولا خجل من يوسف ولا غيره ، فبيَّن نبيُّنا ﷺ فضيلةَ يوسف في هذا، وقوة نفْسه في الخير ، وكمال صبره ، وحُسن نظره ، وقال النبيُّ ﷺ عن نفْسه ما قاله تواضعاً وإيثاراً للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يُوسُف ﷺ ، والله أعلم)) .

فِهْرِس

مقدمة... 5
أولاً : التوسل والاستغاثة بالأنبياء والصالحين.. 7
الأدلة من القرآن على جواز التوسل.. 8
الأدلة من السُّنة... 14
أقوال العلماء في تجويز التوسل.. 22
أدلة الاستغاثة.. 23
إثبات حياة الأنبياء والأولياء... 32
تفنيد شُبهات المعارِضين للتوسل والاستغاثة.................................... 38
ملاحظات مُستفادة مِن بَحثنا... 41
ثانياً : نقد بِدعة السلفية.. 44
مسألة رؤية الله ليلة المعراج... 49
مسألة تأويل الصفات... 50
حُجِّية مذهب الصحابي.. 54
الجذرُ " سَلَفَ " ومُشتقاته في الكتاب والسُّنة.................................... 55
نقد كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوَهَّاب................................... 59
مسألة البِدعة... 74
الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.. 83
خرافة حصر فهم الإسلام بالسلف الصالح.. 88
ثالثاً : آيات القتل والقتال في القرآن... 96
رابعاً : أخطاء ابن تيمية.. 135
خامساً : نقد عقائد الشيعة فلسفياً.. 144
سادساً : الصُّحبة والصَّحابة.. 196
تعريف الصحابي... 197
عدالة الصحابة... 202

إمكانية تفوق بعض المتأخرين على بعض الصحابة..204
أدلة القائلين بعدالة الصحابة فرداً فرداً..207
نقد أفعال معاوية بن أبي سفيان وشيعته..220
العواقب الخطيرة لِسَبِّ الصحابة خاصةً عليّ بن أبي طالب..........................222
إشارات أخرى موجَّهة ضد معاوية...225
نقض ما يُسَمَّى بفضائل معاوية..235
نقض ما يُسَمَّى بفضائل عمرو بن العاص..253
عليٌّ بن أبي طالب وقتال أهل البَغْي..258
سابعاً : الفلسفة العامة للفِتَن...269
ثامناً : خطأ لفظة" اللواط"..290
تاسعاً : شُبهات حول أبي هريرة..293
فِهْرِس..307

تَمَّ الكِتابُ بِحَمْدِ اللهِ تعالى